تاريخ
آداب اللغة العربية



تأليف : محمد بك دياب

تقديم وتحرير

مصطفى بيومى عبدالسلام



المجلس الأعلى للثقافة

تاريخ آداب اللغة العربية

تألـــــيف : محمد بك دياب

تقديم وتحرير : د . مصطفى بيومى عبد السلام



٢٠٠٣

المجلس الأعلى للثقافة

اسم الكتاب : تاريخ آداب اللغة العربية

اسم المؤلف : محمد بك دياب

الطبعة : الأولى - القاهرة ٢٠٠٣ م .

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El- Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo

Tel. : 7352396 **Fax :** 7358084

« تاريخ آداب اللغة العربية »

تأليف

« محمد بك دياب »

« المفتش الثاني للغة العربية بنظارة المعارف »

العلم حسن * فكن له ذا طلب

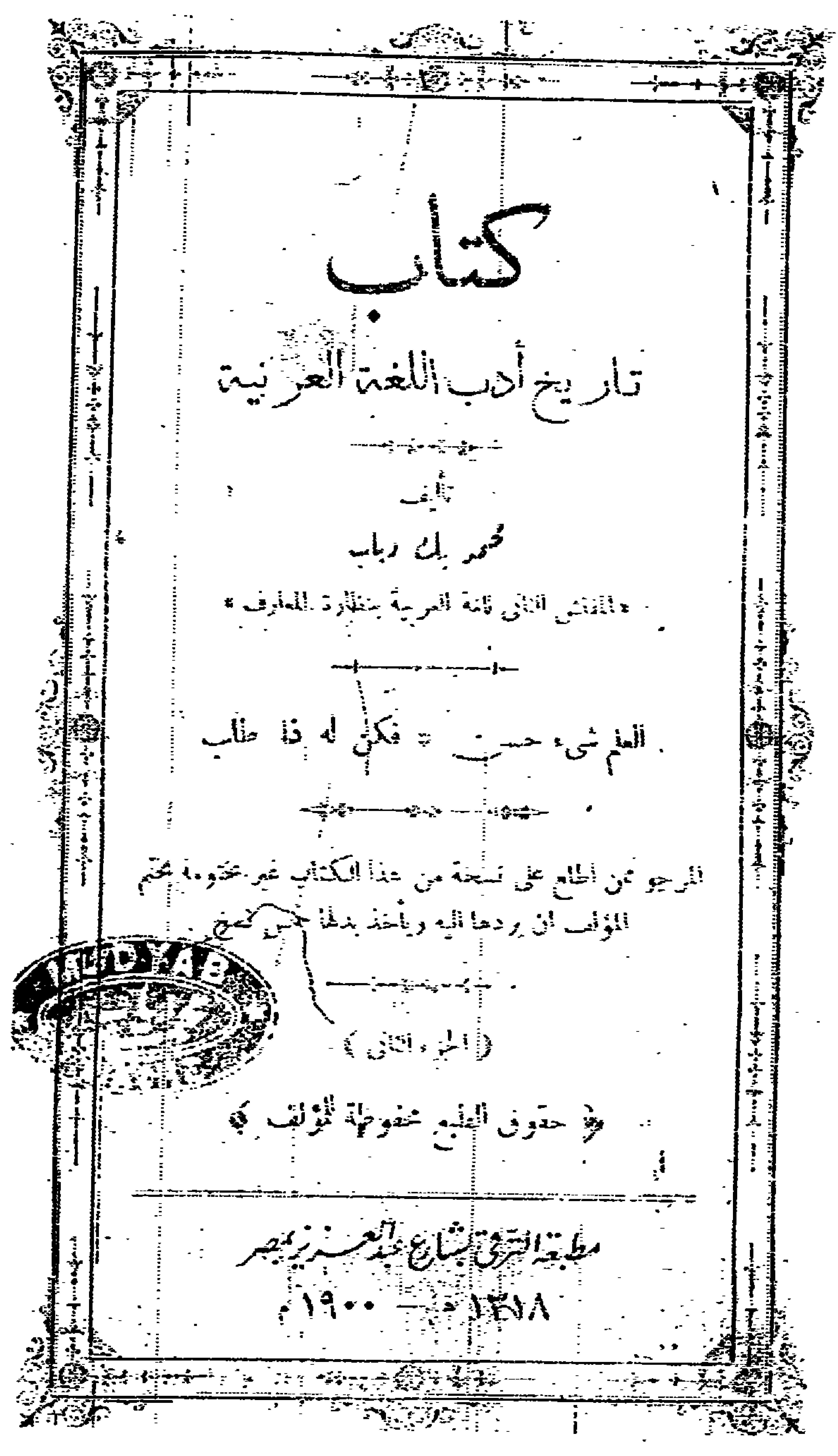
(المرجو ممن اطلع على نسخة من هذا الكتاب غير مختومة بختم المؤلف)

« أن يردها إليه ويأخذ بدلها خمس نسخ »

« الجزء الأول »

« طبع بمطبعة جريدة الإسلام بمصر بحارة السقايين »

" غلاف الجزء الأول "



كتاب

تاريخ أدب اللغة العربية

تأليف

محمد بك دياب

« المفتش الثاني للغة العربية بنظارة المعارف »

العلم شيء حسن * فكن له ذا طلب

المرجو ممن اطلع على نسخة من هذا الكتاب غير مختومة بختم المؤلف ان يردها اليه ويأخذ بدلها خمس نسخ

(الجزء الثاني)

مطبعة الترقي بشارع عبد العزيز بمصر

١٣١٨ هـ — ١٩٠٠ م

" غلاف الجزء الثانى "

كتاب

تاريخ آداب اللغة العربية

تأليف

محمد بك دياب

المفتش الثاني للغة العربية بنظارة المعارف

قد عرض هذا الكتاب على نظارة المعارف فأرسلته الى الاستاذ الفاضل الشيخ حمزة فتح الله المفتش الاول لهذه اللغة فكتب الى الامير الهمام صاحب السعادة يعقوب ارتين باشا وكيل المعارف ما نصه

قد قرأنا تاريخ آداب اللغة العربية المقدم لنا بشأنه من سعادتكم [illegible] فوجدناه مودعاً من الفوائد العلميه والمحاسن الادبية ما يشهد لمؤلفه الفاضل بطول الباع وسعة الاطلاع فلا اقل من ان تكرم النظارة بشراء [illegible] نسخ منه بعد طبعه على نفقة مؤلفه مساعدة للعلم ونشره والفضل [illegible] ما [illegible] مع هذا افندم ١٨ ذي الحجة سنة ١٣١٤ (٢٠ مايو سنة ١٨٩٧)

الفقير اليه تعالى شأنه
حمزة فتح الله

وقد نشر هذا في [illegible] الوقائع نمرة ٤٠٦ في ٢٠ مايو سنة ١٨٩٧

طبع بمطبعة جريدة الاسلام بمصر بحارة السقايين سنة ١٣١٧

تقرير الشيخ حمزة فتح الله المقدم إلى نظارة المعارف ، الذى ورد فى الجزء الأول بعد صفحة الغلاف وفهرس الموضوعات .

المحتوى

مقدمة

المحـاولات الأولى لكتـابة التـاريخ الأدبى : قـراءة فى كـتـاب "تاريـخ آداب اللغـة العربية" لـ "محمد دياب" .

(١)

لقد كان عصر الإحياء (١٧٩٨ - ١٩١٤) عصراً زاخراً بتيارات وأفكار كثيرة ومتنوعة . هذا ما يجعل محاولة الكتابة عنه يشوبها نوع ما من الحيرة ، وربما النقص فى بعض الأحيان ، لأننا نواجه فيه كماً هائلاً من الثراء والتعقيد وتصارع الاتجاهات وتضاربها . لقد بدأ هذا العصر بالحملة الفرنسية على مصر ، وكانت تلك الحملة العسكرية صدمة للمصريين على مستويات حضارية عديدة ، فلقد حملت معها المدفع الذى لطم أنف أبى الهول العظيم ، وحملت معها العلماء والكتاب ، وحملت ، إلى جوار المدفع والعلماء ، الثقافة المغايرة للثقافة العربية التى انعزلت وتقوقعت على نفسها ووصلت إلى حالة من الجمود فى زمن الاحتلال العثمانى بصورة لم تحدث لها فى أية فترة من فترات التاريخ .

لم تؤد هذه الصدمة إلى استسلام المصريين لهؤلاء الغزاة الجدد ، وإنما أدت ، أولاً ، إلى مقاومة عنيفة من قبل المصريين انتهت بخروج الفرنسيين من مصر . وأدت ، ثانياً ، إلى الوعى بتلك الهوة الحضارية التى باتت تفصل عالم العرب والشرق والإسلام عن عالم الغرب الذى يتوجه إليهم بـ "الدعائم الثلاثة التى قامت عليها الحداثة الأوربية : القوة ، والمنافسة ، والمعرفة ، وإذا شئنا التعبير عن هذه العناصر بما يعكس علاقتها مع المشروع النهضوى العربى قلنا إنها : التوسع الاستعمارى ، والتنافس

الأوربى : الإنجليزى – الفرنسي ، والفكر التحديثى (١)" . ولذلك توجه المشروع النهضوى العربى فى ذلك العصر إلى صياغة الأسئلة التالية : كيف استطاع هؤلاء الغزاة أن يحققوا ما لم يحققه العرب والمسلمون على الرغم من أن لديهم ذلك التاريخ المجيد ؟ كيف يمكن التجاوز عن الوضعية القائمة التى تنطوى على التمزق والتخلف والجمود لكى يواجه العرب هؤلاء الغزاة بمنطق الند فى مقابل الند؟ كيف يمكن استعادة عناصر الماضى المجيد ومحاولة توظيفها فى تلك المواجهة ؟ وهل ثمة تعارض بين منظومة القيم الموروثة عن ذلك الماضى وبين القيم الجديدة التى جلبها المستعمر ؟

لقد كانت محاولات هذا العصر برمتها على تباينها واختلاف توجهاتها ، من غير شك ، تحاول الإجابة عن سؤال النهضة ، فكانت تعيد التفكير فى كل شىء من جديد ، وكانت مهمومة بأمل الخروج من واقع يحيط به التخلف والخرافة والاستعمار إلى واقع تسود فيه قيم التقدم والعلم والتحرر . لقد شهد عصر الإحياء المحاولات الفكرية المختلفة لـ "جمال الدين الأفغانى " (١٨٢٩ – ١٨٩٧) ، و"محمد عبده" (١٨٤٩ – ١٩٠٥) و "رفاعة الطهطاوى" (١٨٠١ – ١٨٧٣) ، و"قاسم أمين" (١٨٦٣ – ١٩٠٨) ، و "فرح أنطون" (١٨٧٤ – ١٩٢٢) وغيرهم (٢) وكذلك شهد ، أيضاً ، محاولات الإحياء النقدى والأدبى ، واتخذت أشكالاً متعددة وكثيرة . وشجع على هذا الإحياء ما حظى به هذا العصر من المجلات الأدبية المعنية بشئون الأدب والنقد ، فكانت هناك "روضة المدارس" ، و"الجوانب" ، و"البيان" ، و"مصباح الشرق" ، و"الضياء" ، و"المقتطف" و"الهلال" ، و"اللواء" ، و"المؤيد" ، و"الثريا" . ويوازى هذه الظاهرة إنشاء مؤسسات علمية معنية بشئون الأدب والنقد ، نذكر منها : مدرسة الألسن (١٨٣٥) ، ومدرسة دار العلوم (١٨٧٠) ، ومدرسة المعلمين الخديوية العليا (١٨٨٩)(٣) .

إن فكرة الإحياء الأدبى والنقدى ليست مقطوعة الصلة بسؤال النهضة ، فهى جزء أساسى من هذا السؤال ، وهى فكرة ، من غير شك ، تتعانق وتتجاوب مع أفكار أخرى مثل فكرة الإصلاح الدينى والسياسى ، أو فكرة تحرير المرأة ، أو فكرة إصلاح

التعليم والقضاء على الأمية ، أو فكرة القضاء على الفقر ومحاربة الاستعمار والبحث عن الاستقلال . إن ما يجمع هذه الأفكار هو البحث عن عملية النهوض بالأمة على كافة المستويات فى تلك الفترة ولذلك فإن النهضة الأدبية والنقدية قامت ، فيما أظن ، على أمرين ، أولهما : استعادة ثقافة الأنا ، وثانيهما : نقل ثقافة الآخر . فلقد كان "العقاد" محقاً عندما طرح أن النهضة الأدبية والنقدية بدأت "فى وقت واحد بالترجمة والنقل ، وبإعادة البلاغة العربية إلى الحياة فى تراثها المأثور من المنظوم والمنثور(٤)" . ولذلك وجد فى ذلك العصر الناقد الذى يحاول أن يستعيد المعايير النقدية والبلاغية التراثية مثل : "حسين المرصفى" (١٨١٥ - ١٨٩٠) الذى حاول أن يقدم الوسيلة أو الأداة لتعلم اللغة العربية وآدابها فى كتابه : "الوسيلة الأدبية إلى العلوم العربية" (١٨٧٢ - ١٨٧٩) ، و "حمزة فتح الله" (١٨٤٩ - ١٩١٨) الذى سار على خطى "المرصفى" فى كتابه : "المواهب الفتحية فى علوم اللغة العربية" (١٨٨٨) ، و "لويس شيخو" (١٨٥٩ - ١٩٢٧) الذى قدم مقالات فى علم الأدب لمشاهير العرب فى كتابه : "علم الأدب : مقالات لبعض مشاهير العرب" (١٨٨٧) . كما وجد ، أيضا ، الناقد الذى يتطلع إلى المعايير النقدية الوافدة عن طريق البحر الأبيض المتوسط ، مثل : "جبر ضومط" (١٨٥٩ - ١٩٣٠) فى كتابه : "فلسفة البلاغة" (١٨٩٨) و"محمد روحى الخالدى" (١٨٦٤ - ١٩١٣) فى كتابه : "تاريخ علم الأدب عند الإفرنج والعرب" (١٩٠٤) ، و "قسطاكى الحمصى" (١٨٥٨ - ١٩٤١) فى كتابه : "منهل الوراد فى علم الانتقاد" (١٩٠٧) .

لقد حاولنا أن نصف ، سريعاً ، فيما كتب أعلاه ، السياق العام التاريخى الذى أُنتج فيه كتاب "محمد دياب" : "تاريخ آداب اللغة العربية" ، والذى سوف يشغل انتباهنا فى الصفحات المقبلة بوصفه محاولة أولى لكتابة التاريخ الأدبى .

(٢)

"محمد دياب" من تلاميذ "حسين المرصفى" صاحب كتاب "الوسيلة الأدبية" ، ولكنه اختلف كثيراً عن أستاذه فى كتابه "تاريخ آداب اللغة العربية" (٥) ، فبدلاً من

الوسيلة أو الأداة إلى فهم علوم اللغة العربية أصبحت تاريخاً لآداب اللغة العربية ، وقد نُشر الجزء الأول من كتابه سنة ١٣١٧ هـ ، والجزء الثانى سنة ١٣١٨ هـ - ١٩٠٠ م ، ويبدو أن الكتاب قد انتهى منه مؤلفه قبل ذلك بحوالى ثلاث سنوات على الأقل ، ويبدو ذلك واضحاً من تقرير الشيخ " حمزة فتح الله " المقدم إلى نظارة المعارف والمؤرخ بتاريخ ١٨٩٧ م ، والذى أثبته مؤلف الكتاب بعد صفحة الغلاف وفهرس الموضوعات . كما أن المؤلف نص فى نهاية الجزء الثانى من كتابه على أنه انتهى من هذا الكتاب فى ١٩ شوال سنة ١٣١٤ للهجرة (٢ - ٢٣٨) ، أى فى عام ١٨٩٧ م .

يقول "محمد دياب" فى مفتتح كتابه :

"أخبرنى فيما سلف صديق يعرف الألمانية أن مستشرقى الألمان عنوا بتاريخ آداب لغتنا العربية ، فوضعوا فيه كتاباً ذا أسفار مطبوعاً بلغتهم ، وود الصديق لو يؤلف بالعربية مثل هذا الكتاب ، فلاح بخاطرى أن أشق عباب هذا الموضوع الجليل ، فسرت فى سبيله متجشماً الصعاب بضعة أعوام ، إلى أن اهتديت إلى وضع مؤلف جامع لأشتاته المتفرقة فى بطون مئين من أمهات الكتب ذات الاعتبار ، وأبدعت فيه ما أبدعت مما لم تلده القرائح فيما غبر أوحضر . وقد شرحت فيه نشأة العلوم الأدبية وسيرها فى مختلف العصور والكتب التى ألفت فيها وأزمانها وحياة مؤلفيها ، وذكرت فصولاً من كل فن اقتضاها سير التأليف وغير ذلك مما يطول بيانه فى هذا المقام ، ولا أطرى على هذا المؤلف بأنه جليل أو مفيد أو لم يسبق النسج على منواله أو أول كتاب فى بابه أو ديوان أدب عزيز يضن به المالك ، إلى غير ذلك من الدعوى الواسعة، بل الحكم فى هذا موكول إلى المطالعين" (١ - ب) .

نلاحظ فى النص السابق الذى أثبته على الرغم من طوله عدة أمور لافتة للانتباه :

أولاً : تسلل المستشرقين ومناهج دراستهم للأدب العربى إلى عقل نقاد الأدب ومؤرخيه . لقد كان "المرصفى" يتحدث فى "الوسيلة" عن الطريقة المثلى لتعلم فنون اللغة العربية ، وكان يشير إلى الشيوخ فى صدر الإسلام حين ينتخبون إلى تلاميذهم بعض القصائد والخطب فيحفظونها (٦) ؛ أما "محمد دياب" فهو يشير إلى صديق له يعرف الألمانية (٧) يخبره عما استحدثه المستشرقون الألمان فى كتابة تاريخ آداب اللغة

العربية ، وتمنى الصديق أن يجد كتاباً يسير على هذا المنوال وهذه الطريقة ، وكان كتاب "محمد دياب" .

ثانياً : يشير النص السابق إلى منهج مختلف فى البحث والدراسة ، فالكتاب لا يسير سيرة "الوسيلة الأدبية" لـ "حسين المرصفى" الذى اضطلع بهدف تعليمى (٨) ، أو "المواهب الفتحية فى علوم اللغة العربية" لـ "حمزة فتح الله" ، الذى وقف عند حدود الانقياد والتسليم لما اشتمل عليه علم القدماء (٩) ، أو "ارتياد السعر فى انتقاد الشعر" (١٨٧٦) لـ "محمد سعيد" الذى وقف عند حدود السرد والحكاية للتراث الأدبى والبلاغى (١٠) ، وإنما يؤكد على نوع من الدراسة يعنى فيه بدراسة نشأة العلوم وسيرها فى مختلف العصور ، والكتب التى ألفت فيها وأزمانها وحياة مؤلفيها .

ثالثاً : ظهور مصطلح "تاريخ آداب اللغة العربية" فى الثقافة العربية الحديثة . ويبدو أن "محمد دياب" هو أول من اضطلع بتدشين هذا المصطلح فى الثقافة العربية ، وربما أشار عليه صديقه "حسن توفيق العدل" (١٨٦٢ - ١٩٠٤) بذلك ، أو ربما نقله له عن مستشرقى الألمان . وقد زعم "جرجى زيدان" (١٨٦١ - ١٩١٤) أنه أول من استخدم المصطلح ، ولم يشر إلى "محمد دياب" قط ، وقد نوه بأنه استخدمه فى مقالات نشرت فى مجلة "الهلال" عام ١٨٩٤ ، أى قبل صدور كتابه "تاريخ آداب اللغة العربية" (١٩١١) (١١) . ويبدو أن كلاً من "دياب" و"زيدان" نقلا المصطلح عن مستشرقى الألمان ، وهذا ما يهمنا فى هذا السياق .

وكتاب "محمد دياب" يقع فى جزئين كما أشرت إلى ذلك سلفاً ، ويبدؤه بمقدمة فى الأدب يشرح فيها أن هناك نوعين من الأدب ، أدب النفس ، وهو "تحلى النفس بالفضيلة ومظهر ذلك جميل الفعل وحسن القول" ، وأدب الدرس : " ولما كانت علوم اللسان فى صدر الإسلام لها العناية القصوى فى أخذ الناس بها ، وكانت أعظم وسيلة أدبية إلى تزكية نفوسهم أطلقوا عليها اسم الأدب ، وأضافوها إليه فقالوا علوم الأدب أو علم الأدب " ، وينتهى به الأمر إلى تعريف الأدب تعريفاً مختلفاً عن أقرانه فى تلك الفترة بقوله :

"وقد يطلق الأدب على الملكة التى يكتسبها ممارس هذه العلوم ، فيقتدر بها على رواية أشعار العرب وأمثالهم ونوادرهم ، وعلى إجادة قرض الشعر ، وكتابة الإنشاء فيكون بذلك أديبًا ، وكانوا يصنفون لذلك مصنفات جامعة لما عساه تحصل به هذه الملكة من أشعار وأخبار وأمثال ومسائل لغوية ونحوية مبثوثة فى أثناء شرح ذلك" (١ ـ ٢ ، ٣) .ويلاحظ من تعريفه السابق دخول أشياء كثيرة فى الأدب ، ولذلك فإنه يقرر أن العلماء انتهوا إلى جعل علوم الأدب ثلاثة عشر ، وهى متن اللغة ، وكتابة الحروف أو الخط ، وقرض الشعر ، والعروض ، والقافية ، والنحو ، والصرف أو علم الأبنية ، والاشتقاق ، والمعانى ، والبيان والبديع ، والتاريخ أو المحاضرات ، وإنشاء النثر . وينتهى "دياب" من هذه المقدمة بتقرير أنه سوف يبسط القول على تاريخ هذه الفنون ، ونشأة كل فن ، وأدوار سيره ، وترقيه مع العصور والأجيال (١ ـ ٣) .

(٣)

يقسم "محمد دياب" كتابه إلى ثمانية أبواب ، يقع منهم أربعة أبواب فى الجزء الأول من الكتاب ، ويقع الباقى فى الجزء الثانى من الكتاب ، أما الباب الأول فيخصصه لتاريخ اللغة ، ويقع فى ستة فصول ، يطرح فيها قضايا كثيرة ومتنوعة ، فيتعرض "دياب" لتعريف اللغة ونشأتها ، ولا يزيد فى تعريفها عن تعريف "ابن جنى" القديم من حيث إنها "أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم" ، وينتقل بعد ذلك إلى مسألة نشأة اللغة والاختلافات حول تلك النشأة ، حتى يصل إلى المناسبة بين الألفاظ ومعانيها ، فينقل عن الخليل والأصمعى وفخر الدين الرازى . ثم ينتقل إلى تاريخ اللغة العربية ، فيتحدث عن أولية اللغة العربية ، واختلاف لهجات القبائل ، والدخيل فى لغة العرب ، ثم اللهجات العامية . ووقف عند قضية تدوين القرآن الكريم والحديث النبوى ، وناقش قضية الاستشهاد بالقرآن والحديث فى علوم الأدب ، حتى إذا انتهى من هذا كله ختم الباب ببعض ما اشتهر من كتب اللغة ، فتعرض ـ سريعاً ـ إلى منهجها فى التأليف وتاريخ صدورها ، وذكر ـ أيضاً ـ شيئاً يسيراً عن حياة مؤلفيها . وقد بدأ هذا العرض بكتاب "العين" "للخليل بن أحمد" ، ومختصره لـ "الزبيدى الإشبيلى" ، وكتاب

"الجمهرة" لـ "ابن دريد" و"التهذيب" لـ "الأزهرى" ، وكتاب "الصحاح" لـ "الجوهرى" ثم كتابىْ "المحكم والمخصص" لـ "ابن سيده" ، و "فقه اللغة" لـ "الثعالبى" ، وكتاب "أساس البلاغة" للزمخشرى ، وغيرها (١ ـ ٤ : ٥٦) .

وخصص الباب الثانى من كتابه لتاريخ الكتابة أو الخط ، فبدأه بتعريف الكتابة وهى "نقوش القلم المخصوصة الدالة على المعانى المقصود دلالة الألفاظ عليها فهى واللغة سيان ولا اختلاف بينهما إلا فى طريقة التبليغ إلى الذهن" . وأشار أيضا إلى أن الكتابة تطلق على صناعة الإنشاء وبهذا ترادف النثر وتقابل القريض . ثم يعرض بعد ذلك تاريخ الخط العربى ، والحروف ونقطها ، وينهى هذا الباب بفصل صغير يتحدث فيه عن علوم الخط (١ – ٥٧ – ٧١) .

أما الباب الثالث فيعقده حول تاريخ الشعر ، ويبدؤه بتعريف الشعر وفنونه ووجه تعلمه ، أما المسألة الأولى ، فيتجاوز فيها عن التعريف العروضى للشعر ، لأنه يرى أن العروضيين لا يبحثون الشعر إلا من جهتى الوزن والقافية ، مؤكداً أن الشعر فى اعتبار الأديب يجمع بين شرط الوزن والخيال :

"المناطقة يشترطون فى الشعر الخيال لا الوزن فإنهم أطلقوه على القياس المركب من قضايا خيالية تؤثر فى النفس فتصير مبدأ فعل أو ترك أو رضا أو سخط أو بسط أو قبض أو لذة أو ألم ، وجاءهم هذا من الشعر اليونانى ، فإن المنطق مأخوذ عن اليونان ، والشعر بهذا المعنى يفيد عند الاستعطاف ، والاستقضاء ، وفى الإقدام على الهيجاء ، ونحو ذلك ما لا يفيده البرهان ، فإن النفس أطوع إلى التخييل منها إلى التصديق لأنه إليها ألذ وأغرب ثم قالوا ويزيد فى تأثيره الوزن والصوت" (١ – ٧٢ – ٧٣) .

ويعلق "عبد العزيز الدسوقى" على هذا النص بقوله : "على الرغم من أنه يستعرض أقوال النقاد العرب فى تعريف الشعر ، فإننا نحس أنه ملم بتاريخ الشعر عند غير العرب [١٢] " . وربما تصور ذلك عن طريق ما ذكره "محمد دياب" فى نصه السابق عن الشعر اليونانى ، أو ما ذكره عن أن المنطق مأخوذ عن اليونان ، ويبدو لى

أن هذا لا يقوم دليلاً على إلمامه بتاريخ الشعر عند غير العرب ، وإنما يبدو الأمر على خلاف ذلك ، فقد انحصرت معرفته كما يرى "جابر عصفور" :

"فى شروح المنطق المتأخرة ، وهى شروح تقلص فيها ثراء نظرية الخيال الشعرى عند الفلاسفة ، فأصبحت حديثاً مقتضباً عن أحد أنواع المنطق ... ومن الطبيعى ، والأمر كذلك ، أن ينسب محمد دياب مفهوم الخيال الشعرى إلى المناطقة لا الفلاسفة فهو قد عرف ملخصات المنطق لا كتب الفلاسفة فى شمولها وتنوعها . ومن الطبيعى ، أيضا ، أن يذهب إلى أن التعريف جاء المناطقة به من الشعر اليونانى ، فلا يعرف أن التعريف تبلور فى ظل محاولة الفلاسفة شرح كتاب الشعر لأرسطو . والفرق هائل بين شرح عربى لكتاب عن الشعر اليونانى ، والشعر اليونانى نفسه (١٣)" .

وعلى الرغم مما يطرحه "دياب" عن شرط الخيال فى الشعر فإنه يشير إلى أن "كثير من منظوم الكلام مع جودته يخلو من القضايا الخيالية" ، ويمثل لذلك النوع من الشعر بقول زهير :

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله

على قومه يستغن عنه ويذمم

وقول لبيد :

ألا كل شىء ما خلا الله باطل

وكل نعيم لا محالة زائل

ويرى أن مثل هذا الشعر خال من الخيال مركب من قضايا أولية ولا يسعنا أن ننكر أنه شعر جيد من باب الحكم ، وعلى الرغم من ذلك فإنه ينتهى متذبذباً مؤكداً أن :

"الشعر الخيالى أجذب للنفس وأشد تأثيراً فيها من غيره فهو الأحق بأن يسمى شعراً" (١ - ٧٤ - ٧٥) .

هذا التنبذب الذى يصل إلى حد التناقض فى كتاب "دياب" ، كان موجوداً فى عقل الناقد الإحيائى على العموم ، فى محاولة للخروج من الموقف النقدى المتناقض : خيال الشعر أو كذبه / صدقه وحكمته . وهى محاولة تنطوى على "جذر التوتر الكامن فى الموقف نفسه بين القضبين المتناقضين على المستويين الأخلاقى والمعرفى ، ومن هذا يلج محمد دياب ـ مرغماً ـ منطقة الموازنة الحادة بين التخييل والتصديق ، فيتقبل مبدأ التعارض الحاد بينهما (١٤)" .

أما المسألة الثانية والتى يتحدث فيها عن فنون الشعر ، فقد نقل عن "أبى تمام" تقسيمه لهذه الفنون إلى عشرة فنون :

"جعل أبو تمام فنون الشعر عشرة : الحماسة ، والمراثى ، والأدب ، والنسيب ، والهجاء ، والإضافات ، والصفات ، والسير ، والملح ، ومذمة النساء ، وبنى عليها كتاب الحماسة"(١ – ٧٥) .

ثم راح ينقل عن أبى تمام ما أورده فى " الحماسة " من أشعار ممثلاً لكل فن من الفنون العشرة السابق ذكرها .

وفى المسألة الثالثة ، وهى مسألة وجه تعلم الشعر ، فإنه يرى أن على الراغب فى قول الشعر أن يتخير له من أشعار الشعراء النوابغ الشعر الرصين ذا الخيالات والأساليب ، وأن يحفظ كثيراً من هذه الأشعار ، وأن يتفهم ما تحتويه من معانى "فبهذا تتكيف نفسك وتشحذ قريحتك ، وتتهيأ للنظم ، فأقبل عليه وأكثر منه تزكو فيك ملكته" . ثم يورد أقوالاً للخوارزمى فى هذا الشأن ، ولابن رشيق فى بواعث العشق والانتشاء ، ولابن خلدون حول القريحة ، ويختتم ذلك بذكر شيء من وصية أبى تمام للبحترى (٧٩١ : ٨١) .

ثم ينتقل بعد ذلك للحديث عن تاريخ الشعر ، فيؤكد أن الشعر قالته العرب من قديم ، من عهد عاد وثمود ، ولم يصل إلينا أشعار شعرائهم ولا أخبارهم مفصلة حتى نعرف منها سيرة الشعر وترقيه ، وإنما ظل الأمر مستوراً إلى أن جاء عصر آل المنذر ملوك الحيرة قبل الإسلام بنحو مائة سنة فأكثر ، فبرح وأخذ الشعر فى الظهور .

وولعت العرب به حتى صار ديدنًا لهم وسجيتهم ومبلغ علمهم وحكمتهم وأدبهم (١ – ٨١) . وتحدث عن أسواق العرب ، وروى قصة الخنساء مع النابغة وحسان ، وتحدث ، أيضا ، عن المعلقات السبع ، وسبب تسميتها بذلك لأنها علقت على الكعبة احتراماً لها . وقد أشار أثناء عرضه إلى تأثير البيئة على الشعر :

"وكان للبداوة والحضارة تأثير على الشعر ، فكان شعر البدوى يدور بين جبل وجمل وحط وترحال ورداء وخباء وصيال ونزال وقتام وغمام وأشبه ذلك من مشاهده التى هو فيها ، وشعر الحضرى بين قصور وحور وترف وطرف ولهو وطرب وخلاعة وما شاكل ذلك" (١– ٨٤) .

ولا أظن أنه استقى ذلك من المنتج النقدى الغربى ، وبنوع خاص ذلك المنتج الذى نبه على أثر البيئة فى الشعر والأدب ، وإنما نظن أنه استقاه من النقد العربى القديم .

ويعرض "محمد دياب" قضايا متنوعة مثل تأثير الإسلام على الشعر ، وعلاقة الشعراء بالخلفاء ، ويحشد فيها الكثير من الروايات القديمة ، وإذا انتهى من ذلك وضع تقسيماً للعصور الأدبية مطابقاً للعصور السياسية ، وربما لا يختلف كثيراً عن التقسيم السائد حتى الآن فى دراسة الأدب العربى ، فيقرر :

"وقد قسم الشعر إلى أربع طبقات ، شعر جاهلى وهو شعر جاء قبل الإسلام كشعر امرئ القيس وزهير بن أبى سلمى المتوفى قبل الإسلام بنحو سنة ، وشعر مخضرم وهو شعر من أدرك عصر الجاهلية والإسلام كشعر الأعشى والحطيئة ، وشعر إسلامى كشعر شعراء الدولة الأموية مثل الفرزدق وجرير . وشعر مولد كشعر شعراء الدولة العباسية مثل أبى نواس وأبى فراس الحمدانى المتوفى سنة ٣٥٧ هـ . قالوا إن الشعر ختم بأبى فراس كما بدئ بإمرئ القيس ... وقد زيدت طبقة خامسة وهى شعر المتأخرين كابن مطروح ، وصفى الدين الحلى المتوفى سنة ٧٥٠ هـ ، ويلحق بهذه الطبقة شعر شعراء هذا العصر أى القرن الرابع عشر الهجرى وما قبله مثل الشيخ على الليثى ، والشيخ على أبى النصر من شعراء العائلة الخديوية" (١ – ٨٩ – ٩٠) .

ثم يمثل لكل طبقة من هذه الطبقات ببعض النماذج الشعرية ، ولكنه يورد النماذج على باب واحد كالمدح والنسيب والهجاء (١- ٩٠ - ١٢٩) .

وينتقل "دياب" إلى ما يطلق عليه "فيما يتبع الشعر" وهى فنون ستة ألحقها الأدباء بالشعر ، فيعرض للموشح ، والدوبيت ، والزجل ، وكان كان : هو نوع من الزجل إلا أنه أصبح فنًا مستقلاً ، والقومة : وهو نوع من الزجل أيضا ، والموال . ويطرح أمثلة لكل نوع من هذه الأنواع ، ويتحدث بعد ذلك عن دواوين الشعر (١- ١٣٠ : ١٥٦) .

أما الباب الرابع والأخير من الجزء الأول ، فقد خصصه لتاريخ العروض والقافية . ويبدؤه بتعريف العروض ، ثم يشرح تاريخه وبدايته مع الخليل بن أحمد ، وتحديده لأوزان الشعر العربى وبحوره ويمثل لكل بحر بشواهد من الشعر . وينتقل بعد ذلك إلى تعريف القافية ، ويشير إلى أن "المهلهل" هو أول من قفى القصائد ، والخليل هو أول من وضع علم القافية مثلما وضع علم العروض ، ويمثل لأنواع القافية ويعطى شواهد عليها (١ - ١٥٦ - ١٩٠) .

أما الجزء الثانى فيسير على نفس النهج الذى اتبعه فى الجزء الأول ، ويقع فيه أربعة أبواب . وقد خصص "دياب" الباب الخامس لتاريخ النحو والصرف والاشتقاق ، ويقع فيه فصلان ، الأول : فى تعريف النحو والصرف والاشتقاق وما يتبع ذلك ، والثانى : فى تاريخ النحو بالمعنى العام (٢- ٢ : ٤٣) .

أما الباب السادس فقد عقده "دياب" لتاريخ علوم البلاغة مشيراً فى بدايته إلى مقولة يرى فيها :

"بعدما نظر علماء السلف فى كلام العرب من جهة صحته ودونوا لذلك النحو تتبعوا كلام البلغاء منهم فرأوا أن تراكيبه تتفاوت بهيآت وخواص تدل على معانى ثانوية زائدة عن أصل المعنى ، فاستنبطوا من ذلك أصولاً دونوها ونوعوها إلى ثلاثة علوم ، الأول : يبحث فيه عن الخواص والهيآت التى تقتضيها المقامات والأحوال وسموه علم البلاغة أو المعانى ، والثانى : يعرف به إيراد المعنى الواحد بعبارات

مختلفة فى وضوح الدلالة عليه وسموه علم البيان ، وإن شئت قلت هو علم يبحث فيه عن التشبيه والمجاز والكناية ، والثالث : يبحث فيه عن وجوه تكسو الكلام حسناً وسموه البديع" (٢ - ٤٤) .

ويشير بعد ذلك إلى أن "أبا عبيده" هو أول من صنف فى المجاز بوضعه كتاب "مجاز القرآن" ، و"ابن المعتز" أول من كتب فى البديع ، والشيخ "عبد القاهر" ألف كتاب دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة ، و"أبو يعقوب السكاكى" ألف كتاب "مفتاح العلوم" ، ثم يقف عند شراح "السكاكى" أمثال "محمود بن مسعود الشيرازى" ، و"السيد الشريف الجرجانى" ، وأيضا عند ملخصه "محمد بن عبد الرحمن القزوينى" وكتابه "تلخيص المفتاح" ، ويشير إلى آخرين حتى يصل إلى المحدثين ممن ألفوا فى هذا العلم ، فيعدد منهم الشيخ "حسين المرصفى" وكتابه "الوسيلة" ، والشيخ "محمد البسيونى" ، والشيخ "هارون عبد الرازق" (٢ - ٤٤ - ٥٢) .

أما الباب السابع والمعنون "بتاريخ المحاضرات" فقد خصصه "دياب" لتلك المصنفات التى تجمع النوادر والأخبار والملح والأشعار وغير ذلك ، وسموا ذلك بعلم المحاضرات ، وهو لا ريب نوع خاص من علم التاريخ . ويسير "محمد دياب" سيرته المعهودة فى التعريف بأهم الكتب فى هذا المجال ، ويرى أن كتاب "كليلة ودمنة" هو أساس هذا العلم ، ثم يعرض بعد ذلك كتبا كثيرة منها "العقد الفريد" لابن عبد ربه ، و"الأغانى" لأبى الفرج الأصفهانى ، وكتاب "نثر الدر" لأبى سعيد منصور بن الحسين ، وكتاب "محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء" للراغب الأصبهانى ، وغيرها (٢ - ٥٨ : ٦١) .

ويخصص "دياب" الباب الثامن والأخير فى تاريخ الإنشاء ، ويبدؤه بتعريف الإنشاء ووجه تعلمه وأنواعه . ويعرفه بأنه "صناعة النثر ويعرف بفن الكتابة فهو يقابل قرض الشعر ويكون سجعاً وموازن الفواصل ومرسلاً" . أما وجه تعلمه فإنه يقرر ما قرره سلفاً فى وجه تعلم الشعر ، فيرى أن :

"على من يريد أن يبرع فى صناعة الإنشاء أن يتزود من فنون الأدب لا سيما اللغة والمحاضرات ، ثم يطالع بإمعان نظر منشآت من اشتهروا بالبراعة فى هذه

الصناعة ، ثم ينثر أبياتًا شعرية أو يدرس فصولًا من كتاب ممتاز كمقدمة ابن خلدون ، ويلخص هذه الفصول أو يطوى الكتاب ويكتب من تلقاء نفسه ما علق بذهنه منها ، أو يأخذ مثالاً سائدًا ويبنى عليه موضوعًا واسعًا ، أو يكتب قصة سمعها أو يصف منظرًا رآه ؛ وفي كل هذا يعرض ما كتبه على منشئ ماهر كي يرشده إلى الصواب . وبالجملة هذه الصناعة لا تصير ملكة إلا بالمرانة والدربة" (٢ – ٥٨ : ٢٣٨) .

ويعدد بعد ذلك أنواع الإنشاء ، ومنها إنشاء الرسائل ، وتسمى الكتب أيضا . ومنها كتابة التحرير أى كتابة دواوين الحكومة وصحف الأخبار المعروفة بالجرائد ، ومنها التأليف أى تصنيف كتب العلوم ، ومنها القصص أى وضع القصص والحكايات ومنها الخطابة . ويعقد "دياب" فصلًا في تاريخ الإنشاء ، ويعقبه بثالث يتخير فيه مجموعة من النماذج الكثيرة ، وينتهى الباب الثامن ، والذى يحتل قرابة ثلاثة أرباع الجزء الثانى ، بفصل أخير يعرض فيه ما اشتهر من كتب الإنشاء ، فيعرض لكتاب "الصناعتين" لأبى هلال العسكرى ، وكتاب "المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر" لضياء الدين أبو الفتح نصر الله الموصلى ، وكتاب "حسن التوسل إلى صناعة الترسل" لمحمود بن سليمان الحلبى ، وكتاب "صبح الأعشى فى كتابة الإنشاء" للقلقشندى (٢– ٥٨ : ٢٣٨) .

(٤)

هذه هى القراءة التى قدمها "محمد دياب" لتاريخ آداب اللغة العربية ؛ وهى قراءة إن اختلفت عن كتابات "المرصفى" و"فتح الله" و"محمد سعيد" فى شكلها وترتيبها وتخففت إلى حد ما من حشد الروايات والاقتباسات الكثيرة ، والتزمت هدفًا غير ما التزمت به هذه الكتابات التى أشرنا إليها سلفًا ، فإنها عملت على تفتيت أجزائه الملتحمة ، فبدا علم النحو بتاريخه منفصلاً عن تاريخ اللغة ، وتاريخ الشعر منفصلًا عن تاريخ الإنشاء ، وبدت علوم البلاغة بمعزل عن كل شىء ، اللهم إلا إشارته إلى أن علماء السلف تتبعوا كلام البلغاء بعدما دونوا علم النحو . إنه لم يشر قط مثلما أشار

سلفه "المرصفى" إلى علاقة علوم البلاغة بالعلوم الدينية ، والتيارات الفكرية المختلفة [١٥] ، ولكنه يكتفى فقط بأن يقول إنه من العلوم التى ألف فيها بعد علم النحو .

كان اضطلاع هذه القراءة بمهمة كتابة تاريخ لآداب اللغة العربية على غرار ما فعل المستشرقون يقف مانعاً دون عملية الفهم العميق للتراث العربى وتاريخه ، إذ تحولت المهمة على يد "محمد دياب" إلى مهمة الرصد السريع لتاريخ آداب اللغة العربية ، مما أفقدها النظرة الشمولية الفاحصة لهذا التاريخ ، وما انطوى عليه من صراعات سياسية ومذهبية ودينية وثقافية حكمت إنتاجه المعرفى . كان همها أن تزج بتعميمات تاريخية مفرطة ، ولا تقف حتى لتقدم الدليل على مصداقيتها ، فعلى سبيل المثال نقرأ فى كتابه :

- "وقد قالوا إن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين ، وهى أدب الكاتب لابن قتيبة المتوفى ٢٧٠ للهجرة ، والكامل للمبرد سنه ٥٨٢ هـ ، والبيان والتبيين للجاحظ المتوفى بالبصرة ٢٥٥ هـ ، والنوادر لأبى على القالى البغدادى ، وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها" (١- ٣) .
- "قالوا إن الشعر ختم بأبى فراس مثلما بُدئ بامرئ القيس الكندى" (١- ٩٠) .
- "أبو عبيدة أول من ألف فى المجاز" (٢-٤٤) .
- "عبد الله بن المعتز أول من كتب فى البديع" (٢- ٤٥) .
- "وأساس هذا العلم على ما يقال كتاب كليلة ودمنة" (٢- ٥٢) .

وفى تقديرى أن هذه القراءة ، التى قدمها "محمد دياب" لتاريخ آداب اللغة العربية ، تعكس ذلك الصراع المختفى بين الذات العربية القارئة لتراثها وعلاقتها بالمشروع الأوربى على وجه العموم ، والمشروع الاستشراقى على وجه الخصوص . فهى محاولة لتأكيد الذات أمام المشروع الأوربى برمته ، وما ينطوى عليه هذا المشروع من تحديات لهذه الذات . ولا أظن أن "نهج محمد بك دياب فى مؤلفه كان أقرب إلى نهج الفهرست لابن النديم مع التوسع [١٦]" كما يظن أحمد الشايب ، ولكن أظن أن نهجه كان أقرب إلى النهج الذى عرف عند مستشرقى الألمان ، وبنوع خاص ،

على ما يبدو ، "كارل بروكلمان" في مشروعه عن "تاريخ الأدب العربى" ، الذى أطلعه عليه صديقه "حسن توفيق العدل" ، فبدت المحاولة صورة من محاولة الاستشراق لكتابة التاريخ الأدبى . ولكن يبقى لمحمد دياب شرف محاولته فى الوقت الذى لم يضطلع فيه نقاد الإحياء بكتابة هذا النوع من التاريخ . وربما ـ فيما أتصور ـ أن هذه القراءة التاريخية لآداب اللغة العربية كانت تحريضاً على قراءات أخرى مماثلة ، مثل قراءة "حسن توفيق العدل" "تاريخ آداب اللغة العربية" (١٩٠٢) ، وقراءة "جرجى زيدان" : "تاريخ آداب اللغة العربية" (١٩١١) ، وقراءة "مصطفى صادق الرافعى" (١٨٨٠ - ١٩٣٧) : "تاريخ آداب اللغة العربية" (١٩١١) .

(٥)

حاولنا فى هذه المقدمة أن نصف ، سريعًا ، السياق التاريخى العام الذى أُنتج فيه كتاب "محمد دياب" : "تاريخ آداب اللغة العربية" ، ثم قمنا بعرض الكتاب كاملاً ، وانتهينا إلى محاولة تقييم هذا الكتاب . وربما يتوقع القارئ لهذه المقدمة أن يجد فيها حاشية ببليوغرافية عن "محمد دياب" ، ولكن لم نفعل ذلك ، واكتفينا بإيراد سيرة المؤلف التى كتبها ابنه "محمد رياض دياب" فى نهاية الجزء الثانى بعد هذه المقدمة ، لكى يتمكن القارئ من التعرف على حياة المؤلف ومؤلفاته التى قدمها . وما كان يشغلنا فى هذه المقدمة ، فعلياً ، أن نقدم للمحاولات الأولى للتاريخ الأدبى .

والله من وراء القصد ،،

د. مصطفي بيومى عبد السلام

١ أغسطس ٢٠٠٢

الهوامش

(١) محمد عابد الجابرى · المشروع النهضوى العربى · مراجعة نقدية ، مركز دراسات الوحدة العربية الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٩٦ ، ص ٢٠ .

(٢) حول هذه المحاولات الفكرية راجع القراءة القيمة التى قدمها جابر عصفور لهذه المحاولات فى : أنوار العقل ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٩٦ ، ص ٢٠ : ص ٧٢ .

(٣) حول المؤسسات التعليمية والصحافة راجع : أنور عبد الملك · نهضة مصر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٣ ، ص ١٥٥ · ص ١٩٧ .

(٤) عباس محمود العقاد : دراسات فى المذاهب الأدبية والاجتماعية ، مكتبة غريب ، القاهرة بدون تاريخ ، ص ٨ .

(٥) محمد دياب · تاريخ آداب اللغة العربية ، الجزء الأول ، طبع بمطبعة جريدة الإسلام بمصر بحارة السقايين ١٣١٧ هـ ، الجزء الثانى مطبعة الترقى بشارع عبد العزيز بمصر ١٣١٨ هـ - ١٩٠٠م . وسوف يشير المحرر إلى رقم الجزء ورقم الصفحة فى متن الدراسة حين الاقتباس أو الاستشهاد .

(٦) راجع : حسين المرصفى : الوسيلة الأدبية إلى العلوم العربية ، الجزء الأول ، حققه وقدم له : عبد العزيز الدسوقى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٢ ، ص ٢٧٤ ، ٢٧٥ .

(٧) يرى "أحمد الشايب" أن صديق "محمد دياب" هو "حسن توفيق العدل" الذى عاد من ألمانيا بعدما أتقن لغتها واطلع على مناهج البحث الأدبى هناك ، وعلى جهود مستشرقى الألمان فى تاريخ الأدب العربى نفسه وأخصصهم - فيما يظهر - بروكلمان . راجع تفصيل ذلك فى . أحمد الشايب . دراسة آداب اللغة العربية بمصر فى النصف الأول من القرن العشرين ، مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ٦ ، ٧ .

(٨) حول كتاب الوسيلة الأدبية راجع ما كتبه المحرر فى : اتجاهات قراءة التراث النقدى فى الكتابات العربية الحديثة ، رسالة دكتوراه مخطوطة ، جامعة المنيا ٢٠٠٠ ، ص ٦٦ : ٧٧ .

(٩) راجع العرض القيم الذى قدمه عبد الحكيم راضى عن كتاب "المواهب الفتحية" فى كتابه . النقد الإحيائى وتجديد الشعر فى ضوء التراث ، دار الشايب للنشر ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٩٣ ، ص ٤٨ . ٥٣ .

(١٠) راجع ما كتبه المحرر عن كتاب "محمد سعيد" : ارتياد السحر فى انتقاد الشعر" فى اتجاهات قراءة التراث النقدى فى الكتابات العربية الحديثة ، ص ٦٢ · ٦٥ .

(١١) جرجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، طبعة جديدة راجعها وعلق عليها : شوقى ضيف ، دار الهلال ، القاهرة ١٩٥٧ ، ١/ ص ١٠

(١٢) عبد العزيز الدسوقى : تطور النقد العربى الحديث فى مصر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٧ ، ص ١٧٩ .

(١٣) جابر عصفور : قراءة التراث النقدى ، دار سعاد الصباح ، الطبعة الأولى ، الكويت ١٢٩٢ ، ص ٣٢٢ .

(١٤) السابق ، ص ٣٢٤ .

(١٥) راجع : حسين المرصفى · الوسيلة الأدبية إلى العلوم العربية ، الجزء الثانى ، مطبعة المدارس الملكية بدرب الجماميز من القاهرة المحروسة ١٢٩٢ هـ - ١٨٧٥ م ، ص ٢ .

(١٦) أحمد الشايب : دراسة آداب اللغة العربية بمصر ، ص ٧ .

حياة المؤلف من إنشاء ابنه : "محمد رياض دياب"

لأيام خلت من شهر رجب سنة ١٢٦٩ للهجرة ، من أسرة شريفة ، فى منوف العلا ، ولد والدى العزيز مؤلف هذا الكتاب ، ولما بلغ أشده وقرأ وكتب وحسب بعث به والده إلى الأزهر ، فأخذ فقه الشافعى عن الشيخ إبراهيم السقا ، والنحو والصرف عن الشيخ عفيفى الباجورى ، وعلوم البلاغة والأصول عن الشيخ أحمد شرف الدين المرصفى ، والمنطق عن الشيخ الأجهورى الضرير .

وفى أوائل يناير سنة ١٨٧٤ للميلاد دخل مدرسة دار العلوم ، فتلقى فيها التفسير عن الشيخ أحمد شرف الدين المذكور آنفًا ، وفقه أبى حنيفة عن الشيخ سليم عمر والشيخ حسونة النواوى ، وعلوم الأدب عن الشيخ حسين المرصفى ، والدرس التام فى التاريخ العام عن مؤلفه أبى السعود أفندى ، والحساب والهندسة والهيئة وتقويم البلدان عن يعقوب بك صبرى ، والطبيعة والكيمياء عن منصور أفندى أحمد ، والخط عن محمد بك جعفر . ومدة التعلم هذه كانت نشاطًا واجتهاداً ومجاراة فى ميادين التحصيل ، فضرب بسهم فى كل علم من هذه العلوم ، وسار فى طليعة نوابغ المدرسة المعدودين . وكتب موضوعات إنشائية وعلمية تناسب ذلك العصر ، أدرجت فى المجلة العلمية التى كانت تسمى روضة المدارس .

وفى ١٦ يوليو سنة ١٨٧٦ اختير معلما للنحو فى مدرسة أطفال الجند بالقلعة ، وكانت تعرف بالخيرية ، وكان بها ما ينيف عن ألف تلميذ ، فألف لتلاميذه كتاب الدروس النحوية ، وطبعه سنة ١٢٩٤ للهجرة .

(*) وردت فى نهاية الجزء الثانى من الكتاب ، وتم نقلها بعد مقدمة المحرر ، لكى يتمكن القارىء من التعرف على حياة المؤلف (المحرر) .

وفى ٢١ أبريل سنة ١٨٧٩ اختير مدرسًا للحساب والهندسة فى مدرسة "المبتديان" بالناصرية ، فألف كتابه المشهور بالنخبة السنية فى الأصول الحسابية ، وطبعته نظارة المعارف مرتين سنة ١٢٩٨ وسنة ١٣٠٠ ، بعد أن اعتمده مجلس معارفها الأعلى ، وعم نفعه جميع المدارس ، وعرب من الفرنسوية مسائل تطبيقية على مقالات الهندسة ، وطبع منها مسائل المقالة الأولى بمطبعة الهلال سنة ١٣٠٢ ، وكذا عرب ألف مسألة رياضية طبعت سنة ١٣١٣ ، وكتابًا فى الجبر لم يطبع . ومع وظيفته هذه عهد إليه فى يناير سنة ١٨٨٢ تعليم الحساب والهندسة وتقويم البلدان فى مدرسة الآثار القديمة . وفى سنة ١٨٨٦ اختير مدرسًا لدروس الإنشاء فى مدرسة "المبتديان" السالفة الذكر ، فألف فيها كتابا ذا ثلاثة أجزاء ، طبع مرات بمطبعة بولاق الأميرية ، وكانت دراسة هذه الدروس فى مدارس الحكومة وغيرها على طبق ما جاء فى كتابه هذا .

وفى نوفمبر سنة ١٨٨٧ اختير أستاذًا لتعليم الإنشاء فى القسم العالى من مدرسة المعلمين المسماة الآن بالمدرسة التوفيقية (والتعليم فى هذه المدرسة على ثلاث درجات : تعليم ابتدائى ومدته أربع سنين ، وتعليم ثانوى يرقى عن الأول ومدته كانت أربعًا ثم صارت خمسًا والآن هى ثلاث فقط ، وتعليم عال أرقى منهما ومدته ثلاث سنين ، والغرض من هذا القسم تخريج معلمين أكفاء ليعملوا فى المدارس) . والمترجم له كان أستاذ هؤلاء المعلمين فى الإنشاء ، فصنف من أجلهم كتاب الإنشاء النظرى وقرظه كثير من أدباء العصر ، وقرره ديوان المعارف لتلامذة المدارس ، وطبع فى مطبعة بولاق الأميرية سنة ١٣٠٦ . وألف أيضًا معجمًا فى اللغة العربية سماه "قلائد الذهب فى فصيح لغة العرب" ، ولدرك منزلة هذا المعجم فى دائرة المعجمات اللغوية يراجع ما كتب بشأنه فى باب اللغة من الجزء الأول من تاريخ آدب اللغة ، هذا وما قرظه به كبار العلماء ، وطبع منه الجزء الأول بمطبعة بولاق الأميرية سنة ١٣١١ . وكان من اللجنة التى عهدت إليها نظارة المعارف تأليف أربعة كتب فى النحو ، وكتاب خامس فى البلاغة ، سهلة المأخذ مدرجة على حسب أعمار تلامذة المدارس الابتدائية والثانوية . فألفت هذه الكتب فحازت رضا الكافة وفتحت الطريق لعلوم الأدب .

وفى سنه ١٨٩٢ عهد إليه تعليم التاريخ فى مدرسة دار العلوم ، فألف منه خلاصة تاريخ مصر القديم والحديث ، وقد أقرته نظارة المعارف واستعملته فى بعض مدارسها وطبع طبعًا حسنا فى مطبعة بولاق . وعرب من الفرنسوية "تخطيط أوروبا" ولكنه لم يطبع .

وفى فبراير سنة ١٨٩٣ عين مفتشًا ثانيًا للغة العربية فى جميع المدارس وفى خلال مدى وظيفته بالتفتيش ألف كتابه هذا .

ومكافأة على قيامه بوظائفه خير قيام وجه إليه المغفور له خديو مصر توفيق باشا الرتبة الرابعة سنة ١٣٠٣ ، وأنعم عليه سمو المولى الخديوى عباس باشا الأفخم بالرتبة الثالثة سنة ١٣١٤ .

وقد ساح فى أوروبا أثناء عطلة المدارس ثلاث مرات سنة ١٨٨٨ وسنة ١٨٩٢ وسنة ١٨٩٦ ابتغاء التزود من اللغة الفرنسوية فاستفاد وأفاد بما عربه منها .

فلنا من هذى الحياة نابغة ، صرف عصر الشبيبة مجداً فى طلب العلوم ، سباقًا إلى نيل المعارف ، فبلغ فى الكبر مبلغ علاَّمة متفنن ، له فى كل جو متنفس ، ومن كل نار مقتبس ، فياض بعلمه ، على قومه ، أمتعنى الله بحياته مدى الزمان . آمين .

كتب لخمسة عشر يومًا خلت من شعبان سنة ١٣١٨ .

محمد رياض دياب

توطئة[*] :

أحمده علم الإنسان ما لم يعلم . وأصلى على نبيه صاحب الفرقان المحكم ، وعلى الآل والصحابة والتابعين سنته وآدابه .

وبعد . فقد أخبرنى فيما سلف صديق يعرف الألمانية أن مستشرقى الألمان عنوا بتاريخ آداب لغتنا العربية ، فوضعوا فيه كتابًا ذا أسفار مطبوعًا بلغتهم . وودّ الصديق لو يؤلف بالعربية مثل هذا الكتاب . فلاح بخاطرى أن أشق عباب هذا الموضوع الجليل ، فسرت فى سبيله متجشمًا الصعاب بضعة أعوام إلى أن اهتديت إلى وضع مؤلف جامع لأشتاته المتفرقة فى بطون مئين من أمهات الكتب ذات الاعتبار . وأبدعت فيه ما أبدعت مما لم تلده القرائح فيما غبر أو حضر . وقد شرحت فيه نشأة العلوم الأدبية وسيرها فى مختلف العصور ، والكتب التى ألفت فيها وأزمانها وحياة مؤلفيها ، وذكرت فصولاً من كل فن اقتضاها سير التأليف وغير ذلك مما يطول بيانه فى هذا المقام . ولا أطرى على هذا المؤلف بأنه جليل أو مفيد أو لم يسبق النسج على منواله أو أول كتاب فى بابه أو ديوان أدب عزيز يضن به المالك إلى غير ذلك من الدعاوى الواسعة ، بل الحكم فى هذا موكول إلى المطالعين . والله الهادى إلى الصواب .

محمد دياب

المفتش بالمعارف

(*) لم يرد العنوان فى الأصل ، ووضعه المحرر لتمييزه عن المقدمة التى كتبها المؤلف فى الأدب (المحرر) .

الجزء الأول

مقدمة فى الأدب(*)

أدب النفس : الأدب تحلى النفس بالفضيلة ومظهر ذلك جميل الفعل وحسن القول ، قال الشاعر الفزارى :

أكنيه حين أناديه لأكرمه ... ولا ألقبه والسوأة اللقبا
كذلك أدبت حتى صار من خلقى ... أنى وجدت ملاك الشمية الأدبا

ولذا أطلقوه على آثاره فقالوا : إنه استعمال ما يحمد قولاً وفعلاً أو هو الوقوف مع المستحسنات أو هو أن تعظم من فوقك وترفق بمن هو دونك . وأصل الأدب الدعاء ، ومنه قيل للوليمة يدعى إليها مأدبة .

أدب الدرس : ولما كانت علوم اللسان فى صدر الإسلام لها العناية القصوى فى أخذ الناس بها وكانت أعظم وسيلة آدبة إلى تزكية نفوسهم ، أطلقوا عليها اسم الأدب وأضافوها إليه ، فقالوا علوم الأدب أو علم الأدب . قال "ابن عباس" : كفاك من علم الدين أن تعرف ما لا يسع جهله ، ومن علم الأدب أن تروى الشاهد والمثل . وقال والد لابنه حبب إلى نفسك العلم حتى ترأمه ، ويكون لهوك وسكوتك . والعلم علمان علم يدعوك إلى آخرتك فأثره على ما سواه ، وعلم لتزكية القلوب وهو جلاؤها وهو علم الأدب فخذ بحظك منه . وقال الإمام المطرزى : الأدب الذى كانت تعرفه العرب هو ما يحسن من الأخلاق وفعل المكارم قال الغنوى :

لا يمنع الناس منى ما أردت ولا　　أعطيهم ما أرادوا حسن ذا أدبا

واصطلح الناس بعد الإسلام بمدة طويلة على تسمية العالم بالشعر أديبا وعلوم العربية أدبًا .

وقد يطلق الأدب على الملكة التى يكتسبها ممارس هذه العلوم ، فيقتدر بها على رواية أشعار العرب وأمثالهم وأخبارهم ونوادرهم ، وعلى إجادة قرض الشعر وكتابة الإنشاء ، فيكون بذلك أديبًا . وكانوا يصنفون لهذا الغرض مصنفات جامعة لما عساه تحصل به هذه الملكة من أشعار وأخبار وأمثال ومسائل لغوية ونحوية مبثوثة فى أثناء شرح ذلك . وقد قالوا إن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين وهى أدب الكاتب لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٠ للهجرة ، والكامل للمبرد المتوفى سنة ٢٨٥ ، والبيان والتبيين للجاحظ المتوفى بالبصرة سنة ٢٥٥ ، والنوادر لأبى على القالى البغدادى ، وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها . وكتب المحدثين فى ذلك كثيرة .

وقد أنهى العلماء علوم الأدب إلى ثلاثة عشر وهى : متن اللغة ، وكتابة الحروف أو الخط وقرض الشعر ، والعروض ، والقافية ، والنحو والصرف أو علم الأبنية ، والاشتقاق ، والمعانى ، والبيان ، والبديع ، والتاريخ أو المحاضرات ، وإنشاء النثر . والبعض يسقط البديع ويجعله نيلا لعلمى المعانى والبيان . وقد نظمت أسماءها غير مراع هذا الترتيب فقلت :

لغة وشعر ثم قافية	نحو عروض ثم إنشاء
وكذا اشتقاق ثم أبنية	خط بديع فيه آراء
وبيان معنى مع محاضرة	أدب له شرح وأنباء

وسأبسط القول على تاريخ هذه الفنون ، باذلا جهد المستطيع فى بيان نشأة كل فن وأدوار سيره وترقيه مع العصور والأجيال ، وهذا فى ثمانية أبواب .

الباب الأول : فى تاريخ اللغة

(وفيه فصول)

الفصل الأول

فى تعريف اللغة ونشأتها

اللغة من حيث هى أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم ، فاللغة العربية ألفاظ يعبر بها العرب عن المعانى المرادة لهم ، وما يبين الألفاظ ومعانيها يسمى متن اللغة ومن ذلك القاموس . وقال "ابن الحاجب" : حد اللغة كل لفظ وضع لمعنى . وفى "كشف الظنون" علم اللغة علم باحث عن مدلولات جواهر المفردات وهيئاتها الجزئية ، التى وضعت تلك الجواهر معها لتلك المدلولات بالوضع الشخصى ، وعما حصل من تركيب كل جوهر وهيئاتها من حيث الوضع والدلالة على المعانى الجزئية ، وغايته الاحتراز عن الخطأ فى فهم المعانى الوضعية والوقوف على ما يفهم من كلمات العرب ، ومنفعته الإحاطة بهذه المعلومات وطلاقة العبارة وجزالتها والتمكن من التفنن فى الكلام وإيضاح المعانى بالبيانات الفصيحة والأقوال البليغة . فإن قيل علم اللغة عبارة عن تعريفات لفظية ، والتعريف اللفظى من المطالب التصورية وحقيقة كل علم مسائله وهى قضايا كلية والتصديقات بها . وأيا ما كان فهى من المطالب التصديقية فلا تكون اللغة علماً ، أجيب بأن التعريف اللفظى لا يقصد به تحصيل صورة غير حاصلة كما فى سائر التعاريف من الحدود والرسوم الحقيقية أو الاسمية بل المقصود من التعريف اللفظى تعيين صورة من بين الصور الحاصلة ليلتفت إليه ويعلم أنه موضوع له اللفظ فمآله إلى التصديق بأن هذا اللفظ موضوع بإزاء ذلك المعنى فهو من المطالب التصديقية ، لكن يبقى أنه حينئذ يكون علم اللغة عبارة عن قضايا شخصية حكم فيها على الألفاظ المعينة المشخصة بأنها وضعت بإزاء المعنى الفلانى والمسألة (*) لابد وأن تتكون قضية .

(*) وردت فى فى الأصل « المسئلة » ، والصواب « المسألة » (المحرر) .

واختلف فى نشأة اللغة : أهى من الأوضاع الإلهية أم من الموضوعات البشرية ؟ فذهب ذاهب إلى أنها توقيف وإيحاء من الله . وذهب آخر إلى أنها مواضعة وتواطؤ من الناس . وقال ثالث إنها مأخوذة من الأصوات المسموعات كزفيف الريح ، وحفيف الطائر ، وخرير الماء ، وجعجعة الرحى ، وأزّ القدر ، وصهيل الفرس ، ونعيق الغراب ، وبغام الظبية ، ومواء الهرّ ، وخشخشة السلاح ، وصلصلة الحديد ، وغير ذلك مما يطول تعداده . ولما اختلف اعتبار الصوت عند السامعين تولدت ألفاظ متقاربة النطق لمدلول واحد كغطيط النائم وخطيطه وقهقهة الضاحك وقرقرته وكركرته وكالشخشخة والخشخشة وكالطنطنة والدندنة . ويمكن الجمع والتوفيق بين هذه الأقوال المتضاربة الظاهر وذلك بأن يلقى الله فى صدور بعض خلقه علوماً بديهية بأخذ أسامى الأشياء من أصواتها السانجة ، ثم يحرك نفوسهم إلى الاصطلاح والتواطؤ على التسمية ليسهل التفاهم فيما بينهم ، وألفاظهم الموضوعة يتناقلها قوم ويزيد فيها آخرون . وهكذا حسب ما تقتضيه ضرورات التخاطب ، وصاحب القول الثالث يقول إن بين اللفظ ومدلوله مناسبة طبيعية حاملة للواضع على أن يضع .

المناسبة بين الألفاظ ومعانيها : فى المزهر : "وقد كاد أهل اللغة يطبقون على ثبوت المناسبة بين الألفاظ والمعانى . قال الخليل كأنهم توهموا فى صوت الجندب استطالة فقالوا صرّ وفى صوت البازى تقطعيًا فقالوا صرْصرْ . وقال سيبويه فى المصادر التى جاءت على الفعلان إنها تأتى للاضطراب والحركة نحو الغليان والغثيان ، فقابلوا بتوالى حركات الأمثال حركات الأفعال . وقال ابن جنى وقد وجدت أشياء كثيرة من هذا النمط من ذلك المصادر الرباعية المضعفة تأتى للتكرير نحو الزعزعة (*) والقلقلة والصلصلة والقعقعة والقرقرة ، والفعلى (**) تأتى للسرعة نحو الجمزى والولقى (***) ، ومن ذلك الخضم لأكل الرطب والقضم لأكل اليابس ،

(*) وردت الجملة فى الأصل : « للتكرير والزعزعة نحو » والصواب طبقا لكتاب المزهر : « للتكرير نحو الزعزعة » . (المحرر) .

(**) أى الفعلى فى المصادر والصفات (المحرر) .

(***) وردت فى الأصل « الزلقى » . والصواب طبقا لكتاب المزهر : « الولقى » .

فاختاروا الخاء لرخاوتها للرطب والقاف لصلابتها لليابس وغير هذا . وفى الجمهرة الخنن فى الكلام أشد من الغنن ، والخنة أشد من الغنة ، والأنيت أشد من الأنين ، والرنين أشد من الحنين ، والعطعطة تتابع الأصوات فى الحرب وغيرها ، والغطغطة صوت غليان القدر وما يشبهها ، والجمجمة أن يخفى الرجل فى صدره شيئًا ولا يبديه ، والحمحمة أن يردد الفرس صوته ولا يصهل ، والقبص الأخذ بأطراف الأصابع والقبض الأخذ بالكف كلها . وقال الأصمعى من أصوات الخيل الشخير والنخير والكرير ، فالأول من الفم والثانى من المنخرين والثالث من الصدر ، والهتل من المطر أصغر من الهطل ، ومن ذلك المد والمط فإن فعل المط أقوى لأنه مد وزيادة جذب فناسب الطاء التى هى أعلى من الدال . وفى فقه اللغة للثعالبى النقش فى الحائط والرقش فى القرطاس والوشم فى اليد والوسم فى الجلد والوشى فى الثوب . وقد قالوا زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى من ذلك ما حكاه الزمخشرى عن نفسه قال : اجتزت يومًا بساحل البحر فرأيت رجلا أعربيًا فسألته عن مركبين صغير وكبير فسألته عن اسم الكبير ، فأشار إلى الصغير وقال أليس هذا الشقدف فقلت له بلى ، فقال فهذا الشقداف . فانظر إلى بديع مناسبة الألفاظ لمعانيها ، وكيف فاوتت العرب فى هذه الألفاظ المقترنة المتقاربة فى المعانى ، فجعلت الحرف الأضعف فيها والألين والأخفى والأسهل والأهمس لما هو أدنى وأقل وأخف عملًا أو صوتًا وجعلت الحرف الأقوى والأشد والأظهر والأجهر لما هو أقوى عملًا وأعظم حسنًا " (*) .

السبب فى وضع الألفاظ : وفى المزهر أيضًا وقال الإمام فخر الدين وأتباعه : السبب فى وضع الألفاظ أن الإنسان الواحد وحده لا يستقل بجميع حاجاته بل لابد له من التعاون ولا تعاون إلا بالتعارف ولا تعارف إلا بأسباب كحركات أو إشارات أو نقوش أو ألفاظ توضع بإزاء المقاصد وأيسرها وأفيدها وأعمها . والألفاظ (**) إما أنها أيسر فلأن الحروف كيفيات تعرض لأصوات عارضة للهواء الخارج بالتنفس

(*) علامات التنصيص من عندى ولم ترد فى الأصل ، والاقتباس من كتاب « المزهر » بتصرف . (المحرر) .

(**) وردت فى الأصل « الألفاظ » والصواب ، فيما أظن ، و « الألفاظ » .(المحرر) .

الضرورى الممدود من قبل الطبيعة دون تكلف اختيارى ، وإما أنها أفيد فلأنها موجودة عند الحاجة معدومة عند عدمها ، وإما أنها أعمها فليس يمكن أن يكون لكل شيء نقش كذات الله تعالى والعلوم ، أو إليه إشارة كالغائبات ، ويمكن أن يكون لكل شيء لفظ فلما كانت الألفاظ أيسر وأفيد وأعم صارت موضوعة بإزاء المعانى .

لا يجب أن يكون لكل معنى لفظ : قال الإمام فخر الدين الرازى وأتباعه : "لا يجب أن يكون لكل معنى لفظ لأن المعانى التى يمكن أن تعقل لا تتناهى ، والألفاظ متناهية لأنها مركبة من الحروف ، والحروف متناهية ، والمركب من المتناهى متناه ، والمتناهى لا يضبط مالا يتناهى وإلا لزم تناهى المدلولات . قالوا فالمعانى منها ما تكثر الحاجة إليه فلا يخلو عن الألفاظ لأن الداعى لوضع الألفاظ لها حاصل والمانع زائل ، فيجب الوضع والتى تندر الحاجة إليها يجوز أن يكون لها ألفاظ وألا يكون" (*) .

ولم تجئ اللغة مرة واحدة ، بل جاءت تباعًا سائرة مع الاجتماع الإنسانى ، وكانت مركبة فى الأصل من مقاطع ساذجة أى كلمات غير متصرفة ولا متغيرة الأواخر ينطق بها دفعة واحدة مشابهة لأصوات الأشياء المنقولة عنها ، وكانت تستعمل أسماء وأفعالًا فى أن واحد ، ويعين المراد منها سياقها فى الكلام وقرينة الحال ، ثم دخل فى أبنية هذه الكلمات حروف زوائد للدلالة على اختلاف المراد وترقت شيئًا فشيئًا (**) فى التصرف وتغير الأواخر إلى أن بلغت ما بلغت من الكمال . وكانت اللغة كما قيل واحدة قبل تفرق بنى آدم فى أرجاء البسيطة وأقاصيها ، فلما تفرقوا اختلفت لهجاتهم لاختلاف طبائع الأقاليم التى سكنوها ، فإن كل إقليم كل له مشاهدات ومسموعات ومؤثرات خاصة به ومن هذا نشأ اختلاف اللغات .

(*) التنصيص من عندى (المحرر) .

(**) وردت فى الأصل « شيا فشيا » ، والصواب « شيئا فشيئا » (المحرر) .

الفصل الثانى

فى تاريخ اللغة العربية

بعد هذا الانتشار تناسل ممن استوطن جنوب آسية الغربى قبائل العرب العاربة : عاد وثمود وطسم وجديس وعمليق وأميم وجاسم ، فكان لسانهم العربية القديمة إلى أن جاء يعرب بن قحطان من ولد أرفخشذ بن سام وغلب عاداً على اليمن ، فاعتدل لسانه من السريانية إلى العربية ، ولذا يقال إنه أول من تكلم بالعربية ، أى من ولد أرفخشذ نوى اللسان السريانى ، وسمى بنو قحطان بالعرب المتعربة ، ونشأ عن ذلك عربية حمير ، ولما انتقل منهم إلى الحجاز جرهم الثانية تعلم منهم إسماعيل (عليه السلام) العربية وكان لسان أبيه إبراهيم عبرانياً أو عبرياً ، ولهذا سمى بنو إسماعيل بالعرب المستعربة ، وروى أول من فتق لسانه بالعربية المتينة إسماعيل .

مقارنة ألفاظ عربية بأخرى عبرية : والعبرية قريبة من العربية بقدر قرب اللفظين فيقولون فى رأس (روش) ، وفى عين (عاينْ) ، وفى أذن (أوذِنْ) ، وفى يد (يادْ) ، وفى رجل (رغِلْ) ، وفى أسبوع (شابوع) ، وفى ساعة (شاعا) ، وفى أرض (أرِصْ) وسماء (شايم) ، وفى كوكب (كوخاب) ، وفى كرْم (كيريم) ، وفى زيتون (زايت) ، وفى أكل (أخال) ، وفى ذبح (ذاباح) ، وغير ذلك كثير يكاد ألا يحصى وربما اتحد اللفظ فى اللغتين كالحانوت واليوم .

ورأيت فى الوسيلة الأدبية (*) ما نصه بالحرف : "وحكى صاحب المثل السائر أنه ورد فى بعض سياحته مصر ، فلقى رجلًا من بنى إسرائيل عالمًا فجرى بينهما ذكر

(*) أى كتاب الوسيلة الأدبية إلى العلوم العربية لـ « حسين المرصفى » (المحرر) .

اللغة بالفصاحة والملاحة ، فقال اليهودى كيف لا تكون فصيحة مليحة ، وهى منتخبة من اللغات ، ومثل لذلك بلفظ الجمل ، فقال إنه كان بالعبرانية (كوميلا) فغير إلى ما سمعت فصار عذبًا فصيحًا" . وأقول إنى سمعت من بعض اليهود العارفين بالعبرية أن الجمل يسمى (جمال) فيكون الفرق بينهما الألف بعد الميم وأنكر تسميته (كوميلا) إلا أن هذا يقرب من اسمه بالرومية . وفى قرب اللغتين وسبق العبرية على العربية دليل على أن الثانية تهذيب للأولى . وتناسل من إسماعيل جيل عظيم كانوا شعوبًا وقبائل اختلفت لهجاتهم مع رجوع الكل إلى العربية ، ونشأ عن ذلك أن يقال لغة تميم ، لغة هذيل ، لغة قيس ، لغة طىّ ، لغة قريش ، وغير ذلك .

اختلاف لهجات القبائل : وهذه العربية المختلفة اللهجات مخالفة أيضًا للهجات وقبائل اليمن . وهذا الاختلاف قد يكون بإبدال حركة بأخرى :

١- كسر أحرف المضارعة فى لغة بهراء فيقولون فى نسمع ما تقول (نِسمع ما تِقول) ، ويسمى هذا "تلتلة" ، وهى شائعة فى لسان أهل مصر ما عدا الهمزة فإنهم ينطقون بها مفتوحة .

٢ - وككسر الكاف فى نحو عليكم وبكم فى لغة ربيعة ، وهم قوم من كلب ، ويسمى هذا "وكمًا" .

٣ - وككسر الهاء فى نحو منهم وعنهم وبينهم فى لغة كلب مع أنه لم يكن قبله كسرة ولا ياء ، ويسمى هذا "وهمًا" .

وقد يكون بإبدال حرف بآخر :

١ - كإبدال الهمزة التى فى أول الكلمة عينًا فى لغة تميم وقيس ، فيقولون فى أراق الدم (عراق الدم) ، ويسمى هذا "عنعنة" ، ويظهر أن هذا ليس خاصًا بالهمزة الأولى فإنه جاء كثأ وكشع اللبن ، والكثأة والكثعة ، وموت نؤاف وذعاف وغير ذلك . والفرنج يبدلون العين بالهمزة فيقولون فى على (ألى) .

٢ - وكإبدال الحاء عينًا فى لغة هذيل ، فيقولون فى حتى حين (عتى عين) ، ويسمى هذا "فحفحة" ، والفرنج يبدلون الحاء (*) بالهاء فيقولون فى أحمد (أهمد) .

(*) وردت فى الأصل « الخاء » والصواب « الحاء » (المحرر) .

٣ - وكإبدال العين الساكنة المتلوة بالطاء نونًا فى لغة سعد وهذيل والأزد وقيس والأنصار ، فيقولون فى أعطاه (أنطاه) ، ويسمى هذا "استنطاء" ، وهو شائع الآن فى لغة أعراب مصر.

٤ - وكإبدال (*) الباء والميم فى لغة مازن ، فيقولون فى ابنى فى مكة (امنى فى بكة) ، وفى يرمى من كثب (يرمى من كثم) ، أى من قرب . وفى كتاب "مميزات لغات العرب" لصديقنا الفاضل "حفنى بك ناصف" ما نصه : "وأهل مديرية الدقهلية وبعض الغربية يبدلون هذا الإبدال ، ولكن لا فى كل المواضع بل يبدلون الباء الساكنة إذا تلاها نون ، فيقولون (ياامنى الجمنة وقعت على التمن) ، أى يا ابنى الجبنة وقعت على التبن . وقسم ديروط من أسيوط يبدلون الميم باء فى بعض الكلمات فيقولون (اقعد بكانك) أى مكانك".

٥ - وكإبدال كاف المخاطب سينًا مهملة وكاف المخاطبة شينًا معجمة فى لغة ربيعة ومضر ، فيقولون فى منكَ (منسَ) ومنكِ (منشِ) ، وتظهر فائدة هذا عند الوقف ، ويسمى الأول "كسكسة" ، والثانى "كشكشة" .

٦ - وكإبدال الكاف شينًا مطلقًا فى لغة اليمن ، فيقولون فى كلمنى كلامًا فأورثنى كلامًا (شلمنى شلامًا فأورثنى شلامًا) ، ويسمى هذا "شنشنة" .

٧ - وكإبدال لام التعريف ميما فى لغة حمير ، فيقولون فى القمر والشمس (امقمر وامشمس) ، ويسمى هذا "طمطمانية" .

٨ - وكإبدال السين تاء فى لغة اليمن أيضا ، فيقولون فى الناس (النات) ، ويسمى هذا "وتمًا" .

٩ - وكإبدال الجيم من الياء المشددة أو المخففة أو المفتوحة فى لغة قضاعة :

فالأول نحو :

خـــالى عـــويف (وأبو عـلج) المطعــمان اللحم فى (العــشج)

أى أبو على والعشى .

(*) وردت فى الأصل « وكتبدال » ، والصواب « وكابدال » (المحرر) .

والثانى نحو :

لاهم إن كنت قبلت (حجتج) فلا يزال ساجج يأتيك (بج)

أى حجتى وبى ، والساجج السريع من الدواب .

والثالث نحو : حتى اذا ما أمسجت وأمسجا ؛ أى أمسيت وأمسيا .

ويسمى هذا "عجعجة" ، وفى "العجعجة" كلام غير هذا ، والترك يجعلون (جى) بدلًا من ياء النسب فى نحو (مخزنجى) .

وقد يكون بالحذف نحو : حب واستحى فى احب واستحيا .

وقد يكون بإمالة الألف نحو الياء فى لغة عامة نجد ، فيقولون فى هوَى وغوَى (هوِى وغوِى) .

وقد يكون بتغيير نحو رضِىَ وبَقِىَ إلى (رَضىَ وبقى) فى لغة طئٍ .

وقد يكون بتخفيف الهمزة نحو : كأس وبئر وشؤم فى لغة تميم ، فيقولون (كاس وبير وشوم) .

التضاد : وقد يكون بإطلاق اللفظ على ما يباين معناه ، كإطلاق الجون وهو الأسود على الأبيض وكإطلاق الوثب على القعود فى لغة حمير . روى فى أصل المثل "من دخل ظفار حمرَ" أن أعرابيًا دخل على ملك من ملوك حمير فقال له الملك (ثبْ) يريد أقعد ، فوثب الأعرابى فسأل الملك عن ذلك ، فقيل له إن الوثب بلغة العرب هكذا ، فقال إما أنه ليست عندنا عربيت (من دخل ظفار حمر) أى تكلم بلغة حمير ، يضرب لمن يدخل فى القوم فيأخذ بزيهم ، ومن هذا نشأ التضاد فى اللغة .

الترادف : وقد يكون بإطلاق لفظ آخر على معنى واحد كإطلاق الحوجم على الورد . روى أن النبى صلى الله عليه وسلم وقعت من يده سكين فقال لأبى هريرة ناولنى السكين ، فالتفت أبو هريرة يمنة ويسرة ، ولم يفهم ما المراد بهذا اللفظ ، فكرر له القول فقال آلمديه تريد وأشار إليها ، فقيل له نعم ، فقال أو تسمى عندكم سكينًا ، ثم قال والله لم أكن سمعتها إلا يومئذ ، وكان أبو هريرة من قبيلة دَوْس ، ومن هذا نشأ ترادف الألفاظ فى اللغة .

اشتراك المعانى فى لفظ واحد : وأما اشتراك المعانى فى لفظ واحد ، فيظهر أن ليس منشؤه اختلاف القبائل . فإننا لو قلنا بلغة واحدة عامة لزم فيها وجود الاشتراك لأن الأشياء التى تستحق التسمية غير متناهية ، والأسماء متناهية لتركبها من الحروف المتناهية . ومن الاشتراك النوى فى الدار والنية والبعد والغروب فى قوله :

يا ويح قلبى من دواعى الهوى   إذ رحل الجيران عند الغروب[1]

أتبعتهم طرفى وقد أزمعوا   ودمع عينى كفيض الغروب[2]

بانوا وفيهم طفلة حرَّةٌ   تغتر عن مل أقاحى الغروب[3]

توجه العرب الى توحيد لغات القبائل : ولاختلاف لهجات القبائل أرادت العرب أن توحد اللغة وتهذبها ، ليسهل التفاهم فيما بينهم بلسان عام . فكانوا يقيمون لذلك حول مكة أسواقهم الشهيرة كسوق عكاظ وذى المجاز ومجنة ، ويتناشدون الأشعار ويلقون الخطب ، ويتبارون فى ميادين الفصاحة ، ويستقضون قضاة يرضون عنهم ليفصلوا بينهم فيما يختلفون فيه ، فكان القضاة يفضلون من رقت عبارته أوج الفصاحة والبلاغة على غيره ، ويتخيرون من الألفاظ المترادفة على معنى واحد ما قبله السمع ويهجرون منها مامجه الطبع . فلهذا كان الشاعر أو الخطيب يبذل مجهوده فى أن تكون ألفاظ قصيدته أو خطبته فصيحة مألوفة لكل القبائل . فبهذا فصحت اللغة وخلصت من شوائب الغرابة والوحشة . ولنذكر مثالين لما وصلت إليه اللغة من درجة الفصاحة والبلاغة :

الأول : خطابة أكثم بن صيفى أمام كسرى : قام أكثم بن صيفى بين يدى كسرى فقال : "إن أفضل الأشياء أعاليها ، وأعلى الرجال ملوكها ، وأفضل الملوك أعمها نفعا ، وخير الأزمنة أخصبها ، وأفضل الخطباء أصدقها ، والصدق منجاة ، والكذب مهواة ، والشر لجاجة ، والحزم مركب صعب ، والعجز مركب وطئ ، وآفة الرأى

(*) يريد بالغروب (١) غروب الشمس   (٢) والدلاء العظيمة   (٣) والوهاد المنخفضة .

(*) لم ترد فى الأصل كلمة « بالغروب » ، ولكن أضيفت لايضاح مايقصده المؤلف (المحرر) .

الهوى ، والعجز مفتاح الفقر ، وخير الأمور منقبة الصبر ، وحسن الظن ورطة ، وسوء الظن عصمة ، وإصلاح فساد الرعية خير من إصلاح فساد الراعى ، ومن فسدت بطانته كان كالغاص بالماء ، وشر البلاد بلاد لا أمير لها ، وشر الملوك من خافه البرىء ، وخير الأعوان من لم يراع الصحبة ، وأحق الجنود من حسنت سيرته ، ويكفيك من الزاد ما بلغك المحل ، وحسبك من شر سماعه ، والصمت حلم وقليل فاعله ، والبلاغة فى الإيجاز ، من شدد نفر ومن تراخى ألف" . فتعجب كسرى من حكم أكثم وأمثاله .

والثانى : خطابة قس بن ساعدة(*) فى سوق عكاظ : خطب قس بن ساعدة فى سوق عكاظ فقال : "أيها الناس اجتمعوا واسمعوا وعوا ، من عاش مات ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ليل موضوع وسقف مرفوع ونجوم تغور وبحر يمور ، أما بعد ، فإن فى السماء لخبرا ، وإن فى الأرض لعبرا ، مالى أرى الناس يموتون ولا يرجعون ، أرضوا بالإقامة فأقاموا أم تركوا كما هم فناموا :

فى الذاهبين الأولين	من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردا	للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومى نحوها	تمضى الأصاغر والأكابر
لا يرجع الماضى ولا	يبقى من الباقين غابر
أيقنت أنى لا محا	لة حيث صار القوم صائر

فصاحة لغة قريش : وكانت لغة قريش ، وهم سكان مكة وضواحيها ، منتهى هذا الترقى ففاقت غيرها فصاحة وصراحة . يشهد لذلك ما رواه الأصمعى وهو : قال معاوية أى الناس أفصح ؟ فقال رجل من السماط : ياأمير المؤمنين قوم ارتفعوا عن فراتية العراق ، وتياسروا عن كسكسة بكر ، وتيامنوا عن كشكشة تغلب ،

(*) وردت فى الأصل « ساعة » ، والصواب « ساعدة » (المحرر) .

ليست فيهم غمغمة قضاعة ، ولا طمطمانية حمير ، قال من هم ؟ قال قومك يا أمير المؤمنين ، قال . صدقت ، قال : فممن أنت ، قال : من جرم ، قال الأصمعي : وجرم فصحاء العرب .

الدخيل في لغة العرب من الألفاظ : اعلم أن من العرب قبل الإسلام من كان تابعاً للفرس كآل المنذر ملوك الحيرة ، ومن كان تابعًا للروم كآل غسان ملوك الشام . وكان الفرس والروم في ذلك العصر السالف ذوى السلطان وعلو الشان ، فقضى حكم التبع والاختلاط على العرب أن يستعملوا في كلامهم ألفاظًا فارسية ورومية مع تغيير فيها إذا اقتضاه منهاج لغتهم ، كما دخل في لغتهم من قبل ألفاظ سريانية وحبشية وهندية . فمن الفارسية الإبريق والاستبرق والاسفيداج [٣] والبنفسج والبلور والتنور والجرة والجلنار والخوان والخز والديباج والديوان والرسن والزنديق والسُكُرَّجة [٤] والسندس والسَوسَن والشطرنج والشهر والصندل والطبق والطشت والعنبر والفالوذج والفيروزج والقرفة والقرنفل والكافور والكرويا والمسك والنرجس والنسرين [٥] والياسمين والياقوت . ومن الرومية الاسطرلاب والاسفنط [٦] والبستان والبطاقة والبطريق والترياق والخندريس والخوخ والسجنجل والصراط والفردوس والقسطاس والقسطل والقنطار والقنطرة . ومن السريانية البرنسا والتامور والترعة والرباني والطور واليم . ومن الهندية أوج معرب أود ومعناه العلو . ومن الحبشية المشكاة وحار يحور بمعنى رجع يرجع .

تقسيم الأسماء الأعجمية إلى ثلاثة أقسام : قال أبو حيان : الأسماء الأعجمية على ثلاثة أقسام ، قسم غيرته العرب وألحقته بكلامها فحكم أبنيته في اعتبار الأصلي والزائد ، والوزن حكم أبنية الأسماء العربية الوضع نحو : درهم وبهرج . وقسم غيرته ولم تلحقه بأبنية كلامها فلا يعتبر فيه ما يعتبر في القسم الذى قبله نحو . آجرّ . وقسم تركوه غير مغير فما لم يلحقوه بأبنية كلامهم لم يعد منها وما ألحقوه بها عد منها ، مثال الأول . خراسان لا يثبت به فعالان ، ومثال الثاني : خرَّم الحق بسلم وكركم الحق بقمقم .

الاشتقاق من اللفظ الأعجمي : العرب تأخذ اللفظ العجمي وتتصرف فيه كما تتصرف في اللفظ العربي ، كقول على – رضى الله عنه – مهرجوا لنا كل يوم من

(المهرجان) ، وقولهم تطلس من (الطيلسان) ، وتقرطق من (القرطق) ، ودبج من (الديباج) ، ودون من (الديوان) ، وعلى هذا إذا وجد من اللفظ فعل فلا يكون الفعل شاهداً على أن اللفظ عربى كما زعم ذلك بعض .

ألفاظ إسلامية وألفاظ اصطلاحية : ما نطقت به العرب من الألفاظ زمن الجاهلية هو المعتبر عربية صحيحة سواء كان أصيلًا أو دخيلًا . وأما ما حرفوه وأدخلوه فى لغتهم بعد الإسلام لضرورة اختلاطهم بمغلوبيهم من الأمم فليس من العربية الصحيحة . لكن لما جاءت الشريعة الإسلامية ونسخت ديانات العرب وكثيراً من آدابهم وعاداتهم ، وجاءت بآداب وأحكام إلهية (*) جديدة تركت ألفاظ وخصصت ألفاظ بعد أن كانت عامة ، ونقلت ألفاظ من معانيها الأصلية إلى معان أخرى مناسبة لها . فمن المتروك : قولهم للملك (الرب) وفى تحيته (أبيت اللعن) ، وقولهم (أنعم صباحًا وأنعم ظلامًا) ، وقولهم (حجرًا محجورًا) عند الاستعاذة ممن يخشى منه أو عند إرادة حرمان السائل وقولهم (المرباع(٧) والنشيطة والفضول) .

ألفاظ إسلامية : ومما جاء به الإسلام (الوضوء والتيمم والصلاة والصيام والحج والزكاة والإيمان والكفر والنفاق) ، فإن العرب تعرف :

١- الوضوء من الوضاءة وهى الحسن والنظافة ، فخصص بالعمل المعهود ذى المضمضة والاستنشاق وغسل الوجه واليدين والمسح من الرأس .

٢ - والتيمم بمعنى القصد والتوخى ، قال الأعشى :

تيممت قيسا وكم دونه　　من الأرض من مَهْمِه ذى شَزَن

فصار علمًا على مسح الوجه واليدين بالتراب بدل الوضوء غير المتيسر .

٣ - والصلاة بمعنى الدعاء ، قال الأعشى :

وصهباء طاف يهوديها　　وأبرزها وعليها ختم

وقابلها الريح فى دنّها　　وصلى على دنها وارتسم

(*) وردت فى الأصل « ألهية » والصواب « إلهية » (المحرر) .

أى دعا لها أن لا تحمض ولا تفسد ، فخصت (أى الصلاة)[*] بما فرضه الله من الأقوال والأفعال المعهودة المفتتحة بالتكبير المختتمة بالتسليم .

٤ – والصوم بمعنى الإمساك ، قال النابغة :

خيل صيام وخيل غير صائمة   تحت العجاج وأخرى تعلك اللُّجما

فخصته الشريعة بإمساك الرجل عن المطعم والمشرب والمباشرة من الفجر إلى الغروب بشرط النية .

٥ – والحج بمعنى القصد ، قال المخبل السعدى :

وأشهد من عوف حلولا كثيرة   يحجون بيت الزبرقان المزعفرا

فخص بقصد مكة للنسك .

٦ – والزكاة من زكا إذا نما أو طهر ، وفى حديث على المال تنقصه النفقة والعلم يزكو بالإنفاق . فخصت بما يخرج من المال للمساكين .

٧ – والإيمان من آمن إذا صدق ، قال تعالى ﴿ وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين" ﴾ فخص بالتصديق بالله ورسوله وما جاء به ، قال تعالى ﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون ﴾ .

٨ – والكفر من كفر إذا ستره ، لهذا كانوا يسمون الزارع بالكافر لستره البذر بالتراب ، قال تعالى ﴿كمثل غيث أعجب الكفار نباته ﴾ ، ويسمون الليل كافراً لأنه يستر بظلمته كل شىء ، قال لبيد :

حتى إذا ألقت يدا فى كافر   وأجن عورات الثغور ظلامها

فأطلق على مقابل الإيمان بالله ورسوله .

(*) لم ترد فى الأصل ، وأضيفت لإيضاح المعنى (المحرر) .

٩ – والنفاق من نافق اليربوع إذا دخل نافقاءه ، فأطلق على إخفاء الكفر وإظهار الإيمان أو الرياء .

ألفاظ اصطلاحية : وبعد أن توطدت دعائم الإسلام فى أخذ أهلوه فى الحضارة والتقدم واتسعت دائرة المعارف بالتصنيف فى علوم شتى ، جاءت ألفاظ اصطلاحية فى كل علم . **فمن ألفاظ النحو** : الإعراب والبناء والرفع والنصب والخفض والضم والفتح والكسر . **ومن ألفاظ العروض** : الوتد والسبب والخبن والطى والطويل والمديد . ومن ألفاظ القافية : الروى والردف والمجرى والرس والمتكاوس والإيطاء . **من ألفاظ البيان** : المجاز والاستعارة والكناية والعلاقة والقرينة والترشيح والتجريد . **ومن ألفاظ المعانى** : الفصاحة والبلاغة والخبر والإنشاء والقصر والفصل والوصل . **ومن ألفاظ البديع** : الجناس والاستخدام والافتتان والطباق والتورية والمشاكلة . **ومن ألفاظ المنطق** : التصور والتصديق والجنس والنوع والقضية والشكل والدليل والبرهان . **ومن ألفاظ الهندسة** : الوتر والقوس والدائرة والمحيط والكرة والقطر والمركز . وغير ذلك كثير من العلوم والألفاظ .

اللغات العامية : مع كون لغة قريش صارت السائدة على لغات القبائل الأخرى بفصحاتها ، وكادت أن تكون لسان التخاطب العام فى صدر الإسلام ، وبقيت فى لسان العلماء والأدباء وبقايا العرب الخلص ومن خالطهم ، ولم تزل اللسان العام فى الكتابة والتدوين والتصنيف أخذت لهجات سكان الأقاليم المتباعدة مع تقادم العهد ودخول الدخيل فيهم صوراً من الكلام فاسدة مبدلة عن أصولها بتغيير حركات أو زيادة حروف أو نقص وغير هذا . وصارت هذه الصور المحرفة ملكات راسخة فى ألسنتهم يتكلمون بها فى سرهم وجهرهم ، ويتقاضون بها أغراضهم ، وهذه اللهجات هى اللغات العامية كلغة أهل مصر ولغة الشام ولغة الغرب .

اللغة الجامعة : ومع اختلاف هذه اللغات اختلافا ظاهراً حتى يكاد أن لا يفهم أهل لغةٍ لغةَ الآخرين لم يزالوا جميعًا يفهمون العربية الصحيحة الصريحة إذا سمعوها أو قرؤها ، فهى اللغة الجامعة بينهم ، والسبب فى ذلك أنهم وإن لم يتحاوروا

بها تمامًا فقد تربت آذانهم على سماعها من الصغر إلى الكبر ، فإن أولاد المسلمين فى الشرق وهم بسواد عظيم إن لم تقل السواد الأعظم أول ما يتعلمونه القرآن ويحفظونه أو بعضه ، ثم يتعلمون علوم لسانهم ودينهم وأحاديث نبيهم ويحفظون متون ذلك ، وكل هذا بصحيح اللغة مكتوب ومقروء ، وغير المتعلمين منهم يسمعون القرآن فى مآتمهم وأفراحهم وفى منازلهم وحوانيتهم قصد التبرك ، ويحفظون من سوره وآياته ما تتم به صلواتهم ، وكثيرًا من الأدعية والأوراد ، ويصغون إلى مواعظ الوعظاء وخطب الخطباء ، ويتأثرون بما يسمعون ويحضرون دروس العلماء ، ليتلقوا عنهم ما ينفعهم فى دينهم ، وهذا كله بالعربية الصحيحة أيضًا ، فضلًا عن كونها لسان الكتابة العام فيما بينهم ، بها يكتبون رسائلهم الأهلية ويقرؤنها ويسمعونها . وعربية الرسائل وإن لم تكن صحيحة من كل وجه ، فليست بالعامية المحضة . ومن شواهد ما تقدم أننا نرى عامة مصر فى سمرهم يصغون وكلهم آذان كأنما فوق رؤسهم الطير إلى راوى قصة عنترة وعربيتها فى الجملة صحيحة ولا تخلو من أشعار رقيقة ، ويتأثرون عند كل توقيع بما يناسبه فيحزنون عند أسر القائد ، ويفرحون بانتصاره كأنهم فى ساحة الحرب ، ويطربون من سماع أخبار ابنة مالك ، وما قيل فيها من النسيب وغير هذا .

فكون كتب العلوم والفنون والآداب بالعربية الصحيحة دون لغة العامة ليس حائلًا دون تربيتهم وتقدمهم فى المعارف ، كما ذهب إلى ذلك بعض المستشرقين من أهل أوروبا ومال إلى أن الكتابة إذا كانت باللغة العامية فى الشرق كانت أقرب إلى الوصول إلى الغاية من التعلم والتربية . وهذه الفكرة كثيرًا ما تخطر بأذهان الفرنج المختلطين بالشرقيين فيتكلمون بعربيتهم العامة ، ثم يتعلمون الهجاء العربى ويأخذون فى المطالعة ، فيحسون أن الكلام المقروء ذو تجويد وإعراب وهيئة لفظية تغاير ما اعتادته ألسنتهم من لهجة العامة ، فيستصعبون الأمر جدًا ويودون لو يكون المكتوب نفس ما اعتادوا نطقه أولًا . وفاتهم أن لغة التخاطب فى كل أمة لا تطابق تمامًا لسان الكتابة فيها ، خصوصًا فى القري البعيدة عن دوائر التعليم ، كما هو مشاهد ومسموع ، فليس هذا خاصًا بالشرق . نعم درجة التفاوت بين الكلام والمكتوب فى ممالك أوروبا تقل عن درجته فى ممالك الشرق بسبب أن دائرة التعلم والتعليم فى الأولى أوسع منها فى الثانية ، فإنه كلما سادت المعارف فى أمة تقومت ألسنة أفرادها

وقربت من الصواب ، وكلما تقلص اعوجت الألسنة وفسدت ، ولهذا نرى لهجات المتعلمين أقرب إلى الصحة من لهجات الأميين . فإذا كانت حكومات الشرق تسعى فى نشر التعليم بين أرجائه القاصية والدانية كما فى الممالك الغربية اعتدال المقول وبعد عن الفضول .

ألفاظ أجنبية دخيلة فى لغة العامة : دخل فى لغة العامة ألفاظ أجنبية كثيرة صقلتها الألسنة وقبلتها الآذان واستعملوها كأنها عربية . منها "وابور "VAPEUR" وعربوه بالقطار ، كأنهم أخذوه من جاءت الإبل قطاراً أى بعضها وراء بعض على نسق وسماه بعض « بالرَتَل » وهو حسن تناسق الشيء ، وعربية اللفظ الإفرنجى بخار . ومنها "بوسته "POSTE" والجرائد تعربها بالبريد ، وهو حسن ، والبريد فى الأصل البغل والرسول الحامل للرسائل ، والمسافة ذات الأربعة الفراسخ . ومنها "تلغراف "TELEGRAPHE" وعربوه بالسلك والبرق والسلوك البرقية والإشارة . ومنها "بروّة أو بروفة "EPREUVE" لأول ما يطبع ليقرأ ويصحح أو لصورة الكسوة قبل الخياطة لتختبر ، وعربيتها التجربة والاختبار . ومنها "تياترو "THEATRE"، وعربيتها ملعب أو ملهى . ومثل هذه الألفاظ كثير متداول على الألسنة ، والذى قضى بذلك ضرورة الاختلاط بالأجانب ، ويمكن جمع ما جاء من هذا القبيل فى معجم خاص به .

الهوامش

(١) غروب الشمس .

(٢) والدلاء العظيمة .

(٣) والوهاد المنخفضة .

(٤) الاسفيداج رماد الرصاص كما فى القاموس .

(٥) السكرجة آنية صغيرة كانت تستعملها العرب فى الكوامخ وأشباهها من الجوارش على الموائد حول الأطعمة للتشهى والهضم ، وفى الحديث « ما أكل نبى على خوان ولا فى سكرجة » .

(٦) النسرين بالكسر ورد كذا فى القاموس . وفى شفاء الغليل أن المعروف فيه الفتح .

(٧) بالكسر وتفتح الفاء ، المطيب من عصير العنب أو ضرب من الأشربة أو أعلى الخمر ، كذا فى القاموس .

(٨) المرباع ربع الغنيمة ، كان رئيس القوم يأخذه لنفسه فى الجاهلية ثم صار خمسا فى الأسلام ، والنشيطة فى الغنيمة ما أصاب الرئيس قبل أن يصير إلى ساحة القوم ، وحلف الفضول هو أن بعض قبائل العرب تحالفوا بينهم على دفع الظلم وأخذ الحق من الظالم ، سمى بذلك لأنهم تحالفوا أن لا يتركوا عند أحد فضلاً يظلمه أحدا إلا أخذوه له منه . من القاموس .

الفصل الثالث

فى أول كتاب بلغة العرب

إن أول كتاب عربى ملأ الأرض نوراً والخافقين علمًا وهدى العالمين إلى الصراط السوى بعد الاعتساف فى شعاب الغى فأخرجهم من ظلام الجهالة إلى نور المعرفة ، ومن أودية الاختلاف إلى أندية الائتلاف ، ومن بحر الغواية إلى بر الهداية ، ومن مهوى الشقاوة إلى مرقى السعادة وكان إمامًا لحضارة العرب ومدنيتهم ، وأمًا لرأس بدواتهم وخشونتهم ، ونبراس لغتهم ، ومشكاة أدبهم ، هو القرآن المبين الذى أنزله الله على نبيه الأمين ، فكان الآية الكبرى على نبوته والحجة البالغة على رسالته ، إذ تحدى ذوى اللَّسَن أن يأتوا بمثال أو صورة لآية منه أو بسورة ، فوقفت قرائحهم وعجزت ألسنتهم واعترفوا بأن الأمر لا تبلغه مكنتهم . وقد نزل القرآن منجما فى عشرين سنة على حسب الوقائع مشرعًا للأحكام بين الناس . وقد كتب كله فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مرتب الآيات والسور ، لكن غير مجموع فى مصحف واحد بل مفرقًا فى الرقاع والألواح والعسب واللخاف والأكتاف[1] . وكان يحفظه كله أو بعضه كثير من الصحابة . وقد نظم بعضهم أسماء عشرة من القراء فى عهده عليه الصلاة والسلام فقال :

لقد حفظ القرآن فى عهد أحمد ... على وعثمان وزيد بن ثابت
أبىٌّ أبو زيد معاذ وخالد ... تميم أبو الدرداء وابن الصامت

وكانوا يقرؤنه (كما تلقوه عنه عليه الصلاة والسلام) على سبعة أحرف ، أى لغات أو قراءات[2] .

ولما استحرّ القتل بقراء القرآن يوم اليمامة ، وقتل منهم سبعون رجلًا ، أمر أبو بكر زيد بن ثابت بجمع القرآن من الرقاع المفرقة وصدور الرجال ، ونسخه فى صحف مجموعة من الورق حتى لا يضيع منه شىء ، ففعل زيد ما أمر به ، وبقيت الصحف عند أبى بكر حتى توفى وعند عمر حياته ثم عند حفصة بنت عمر . ولما خيفت الفتنة عند اختلاف أهل العراق والشام فى القراءات الواردة حتى كان بعضهم يقول قراءتى خير من قراءتك أرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلى إلىّ الصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردها إليك ، فأرسلت بها إليه ، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث أن ينسخوها على لغة قريش ففعلوا ، وأرسل المصاحف المنسوخة إلى الآفاق ليزول الاختلاف فأرسل إلى مكة وإلى الشام وإلى اليمن وإلى البحرين وإلى البصرة وإلى الكوفة وحبس بالمدينة واحداً . والمصاحف التى بأيدينا الآن وهى على حسب ما فى مصاحف عثمان بن عفان بالضبط والصحة لم يشبها أدنى تبديل ولا تحريف .

إفادة القرآن للناشئين والمنشئين : وفضلًا عن كون القرآن الكريم قوام الشريعة هو مقوِّم الألسنة والأفئدة ، فإن الناشئين من المسلمين فى العصر الأول وبعده عماد ما يتعلمونه فى المبدأ القرآن يحفظونه ويجودون قراءته بضبط الحروف والحركات ، فكانت تقوم ألسنتهم وتعتدل لهجاتهم ، فإذا شبوا درسوه وتعرفوا معانيه واتخذوه مادتهم اللغوية ونموذج كتاباتهم الإنشائية ، فينبغون فى الأدب .

علوم القراءات والتفسير : ولهذا كان يرجع كثير من علوم السلف إلى القرآن ، فمنهم أئمة تصدوا لبيان كيفيات قراءته وكتابته ، ودونوا من أجل ذلك علوم القراءات والتجويد ورسم المصحف ، ومنهم آخرون نصبوا أنفسهم لتفسير مفرداته وشرح مركباته وأسباب نزول آيه وكشف النقاب عن وجوه بلاغته وإعجازه ونحو ذلك . ولهذا دونوا علم التفسير ، ودون غيرهم علوماً أخرى مما يطول شرحه .

بعض كتب القراءات المشهورة : ومن أشهر كتب القراءات التيسير فى القراءات السبع لأبى عمرو الدانى ، ولد سنة ٣٧١ هـ وتوفى سنة ٤٤٤ هـ بدانية الأندلس . ومنظومة حرز الأمانى المعروفة بالشاطبية من نظم أبى القاسم بن فيره الأندلسى

ولد بشاطبة سنة ٥٣٨ وتوفى ٥٩٠ بالقاهرة ، وقد عُنى الناس بحفظها وتلقينها للولدان المتعلمين .

بعض كتب التجويد : ومن كتب التجويد الجزرية من نظم أبى الخير محمد المعروف بابن الجزرى توفى سنة ٨٣٣ هـ . وتحفة الأطفال والغلمان فى تجويد القرآن من نظم الشيخ سليمان الجمزورى من علماء القرن الثانى عشر .

بعض كتب الرسم : ومن كتب رسم المصحف منظومة رائية من نظم أبى القاسم السالف الذكر تسمى عقيلة أتراب القصائد فى أسنى المقاصد . ورسالة تأليف أبى طاهر إسماعيل بن خلف المقرى ولد سنة ٥٤٤ وتوفى سنة ٦٢٣ . وعمدة العرفان فى مرسوم القرآن تأليف السيد محمد النابلى المتوفى فى أواخر القرن الثالث عشر الهجرى .

بعض كتب التفسير المشهورة : ومن أشهر كتب التفسير تفسير بن عباس المتوفى سنة ٦٨ فى الطائف ، ويظهر أنه أول تفسير دوّن وقد طبع فى المطبعة الأميرية فى سفر واحد سنة ١٢٩٠ ، وجاء مع البيان فى تأويل القرآن تأليف الإمام أبى جعفر محمد الطبرى ولد سنة ٢٢٤ بآمل طبرستان وتوفى سنة ٣١٠ ببغداد ، ويوجد منه ثلاثة وعشرون جزءًا بالمكتبة الخديوية . وتفسير الإمام الحافظ أبى الليث نصر السمرقندى المتوفى سنة ٣٧٥ . وغريب القرآن لأبى بكر محمد السجستانى توفى سنة ٣٣٠ . وغريب القرآن مرتب على حروف المعجم تأليف الإمام أبى عبيد أحمد الهروى المتوفى سنة ٤٠١ . ومفردات ألفاظ القرآن تأليف الشيخ أبى القاسم حسين المعروف بالراغب الأصبهانى كان فى أوائل المائة الخامسة . والكشاف للإمام أبى القاسم جار الله الزمخشرى الخوارزمى ولد سنة ٤٦٧ وتوفى سنة ٥٣٨ بجرجانية خوارزم ، وقد طبع فى المطبعة الأميرية سنة ١٢٨١ وفى غيرها . ومفاتيح الغيب المشهور بالتفسير الكبير تأليف الإمام أبى عبد الله محمد الطبرستانى فخر الدين الرازى المعروف بابن الخطيب ولد سنة ٥٤٤ وتوفى بمدينة هراة سنة ٦٠٦ ، وقد طبع فى بولاق بسنة ١٢٧٨ ، وهو ذو ستة أجزاء . وتفسير القاضى ناصر الدين البيضاوى المتوفى بتبريز سنة ٦٨٥ ، وقد طبع فى الأستانة . وألباب التأويل فى معانى التنزيل

تأليف علاء الدين البغدادى المعروف بالخازن ، ولد سنة ٦٧٠ وتوفى سنة ١٤٧ بحلب ، وقد طبع سنة ١٢٨٧ بمطبعة المويلحى ، وألفية فى غريب ألفاظ القرآن تأليف الشيخ زين الدين الكردى نزيل القاهرة ، ولد سنة ٧٢٥ وتوفى سنة ٨٠٦ . وتفسير الفنارى شمس الدين محمد الرومى ، ولد سنة ٧٥١ وتوفى سنة ٨٣٤ . وتفسير الجلالين جلال الدين المحلى المولود سنة ٧٩١ بمصر والمتوفى سنة ٨٦٤ ، وجلال الدين السيوطى المولود سنة ٨٤٩ والمتوفى سنة ٩١١ ، وقد طبع بالمطبعة الأميرية وغيرها . ومفحمات الأقران فى مبهمات القرآن تأليف جلال الدين السيوطى وقد طبعت فى بولاق سنة ١٣٨٤ . والسراج المنير تأليف الخطيب الشربينى المتوفى سنة ٩٧٧ ، وقد طبع فى بولاق فى أربعة أجزاء . وإرشاد العقل السليم المعروف بتفسير أبى السعود وقد طبع فى بولاق سنة ١٢٨٩ . وروح البيان فى تفسير القرآن تأليف الشيخ إسماعيل حقى من علماء القرن الثانى عشر ، تم تأليفه سنة ١١١٧ ، وقد طبع فى المطبعة الأميرية سنة ١٢٥٥ . وروح المعانى تأليف أبى الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسى ، مفتى بغداد من علماء القرن الثالث عشر الهجرى ، وقد طبع فى بولاق سنة ١٣٠١ فى تسعة أجزاء . وهذه الكتب توجد هى وغيرها بالمكتبة الخديوية وما ذكرناه غرفة من بحر .

حكم وآداب من القرآن : فضلًا عن فصاحة القرآن وبلاغته وتشخيصه صورة لغة العرب وإفادته مريدى هذه اللغة والمنشئين ، فإن فيه من الحكم والآداب ما فيه كمال النفوس وتحليها بالفضائل ولنغترف غرفة من بحر هذه الحكم والآداب فنقول :

قال تعالى فى سورة البقرة : ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون ـ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون ﴿ كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ﴾ ﴿ وبالوالدين إحسانا وذى القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسنا ﴾ ﴿ولكم فى القصاص حياة ﴾ ـ ﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقًا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون﴾ ﴿ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام ﴾ ﴿وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد ﴾ ﴿وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم

فحسبه جهنم ولبئس المهاد﴾ ﴿ يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾ ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئًا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ ﴿ ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم ﴾ ﴿ لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى ﴾ ﴿ قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى﴾ ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى﴾ ﴿ يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه ﴾ ﴿ إن تبدوا الصدقات فنعما هى وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم﴾ ﴿ ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا ﴾ ﴿ولا يضار كاتب ولا شهيد ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه ﴾ .

وفى سورة آل عمران ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾ .

وفى سورة النساء ﴿ وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوبًا كبيرا ﴾ ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا إنما يأكلون فى بطونهم نارًا وسيصلون سعيرًا ﴾ ﴿ ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض ﴾ ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ﴾ ﴿ إذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها ﴾ ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين﴾ ﴿ لا يحب الله الجهر بالسوء من القول ﴾ .

وفى سورة المائدة ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ﴾ ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن ﴿ لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ ﴿ من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعًا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعًا ﴾ ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم ﴾ ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ .

وفى سورة الأعراف ﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ﴾ ﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾ ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ .

وفى سورة الأنفال ﴿ فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ﴾ ﴿واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ ﴿ ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ـ ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ ﴿ وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين ﴾ .

وفى سورة هود ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ﴾ .

وفى سورة الحجر ﴿ فاصفح الصفح الجميل ﴾ ﴿ فاصدع بما تؤمر ﴾ .

وفى سورة النحل ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظم لعلكم تذكرون ﴾ ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الإيمان بعد توكيدها ﴾ ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ﴾ ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ﴾ .

وفى سورة الإسراء ﴿ إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها ﴾ ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ ﴿ وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لها أفٍ ولا تنهرهما وقل لهما قولًا كريمًا واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا ﴾ ﴿ وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ﴾ ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملومًا محسوراً ﴾ ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطأ كبيراً ﴾ ﴿ ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا ﴾ ﴿ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده ﴾ ﴿وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا ﴾ ﴿ وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ﴾ ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم﴾ ﴿ ولا تمش فى الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا ﴾ .

وفى سورة النور ﴿ لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم ﴾ .

وفى سورة لقمان ﴿ يا بنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحا إن الله لا يحب كل مختالٍ فخور واقصد فيمشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ﴾ .

وفى سورة الحجرات ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم ، يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم ، إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ، ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم والله غفور رحيم ، يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ، واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون ، فضلًا من الله ونعمة والله عليم حكيم ، وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفئ إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين ، إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون ، يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسي أن يكن خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون ، يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم ، يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ، قالت الأعراب

آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولمَّا يدخل الإيمان فى قلوبكم وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئًا إن الله غفور رحيم ، إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون ، قل أتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض والله بكل شئ عليم ، يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا علىَّ إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين ، إن الله يعلم غيب السموات والأرض والله بصير بما تعملون ﴾ .

الهوامش

(١) العسب بضمتين جمع عسيب وهو جريد النخل ، كانوا يكشطون خوصه ويكتبون فى طرفه العريض . اللخاف بكسر اللام جمع لخفة بفتحها وهى الحجارة الرقاق . والأكتاف جمع كتف وهو عظم البعير أو الشاة ، كانوا إذا جف كتبوا عليه .

(٢) هذا أحد الأقوال فى تفسير الأحرف ، فإن أردت زيادة بيان فعليك بالإتقان .

الفصل الرابع

فى السنة أو الأحاديث النبوية

ويلى القرآن الكريم فى المنزلة السنة أو الأحاديث النبوية من حيث اللغة والإنشاء والحكم والآداب . وكانت الصحابة تحفظها ، وإنما كانوا لا يكتبونها خشية اختلاطها بالقرآن ، وكان أحفظ الصحابة وأكثرهم حديثًا أبو هريرة ثم ابن عباس وأنس بن مالك وعائشة وأبو سعيد الخدرى وأبو الدرداء وابن مسعود وغيرهم . وروى الأحاديث عن الصحابة التابعون وأحفظهم سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وابن شهاب الزهرى وخارجة بن زيد وأبو سلمة وسعيد بن جبير وقتادة الأعمش وغيرهم . وروى عن التابعين تابعوهم .

ابتداء تدوين الأحاديث : وكان ابتداء تدوين الحديث على رأس المائة فى خلافة عمر بن عبد العزيز ، فإنه كتب إلى الآفاق "انظروا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجمعوه" ، ودونه بأمره ابن شهاب الزهرى وغيره .

موطأ مالك بن أنس : وفى عصر أبى جعفر المنصور المتولى الخلافة العباسية سنة ١٣٧ هـ ، صنف الإمام مالك بن أنس الموطأ بإشارته ، وقد قال له الخليفة إنه لم يبق على وجه الأرض أعلم منى ومنك ، وإنى قد شغلتنى الخلافة فضع للناس كتاباً ينتفعون به تجنب فيه رخص ابن عباس وشدائد ابن عمرو ووطئه للناس توطئة ، قال مالك : والله لقد علمنى التصنيف ، وكان تصنيف الموطأ بالمدينة . وفى هذا العصر وبعده صنف فى السنة كثير من الأئمة كل على حسب ما سنح له وانتهى إليه علمه .

وكانت الأحاديث تدون ممزوجة بأقوال الصحابة وفتاوى التابعين وغيرهم ممزوجاً فيها الصحيح بغيره إلى أن جاء :

١ - الإمام محمد بن إسماعيل البخارى ، المولود فى بخارى سنة ١٩٤ هـ وصنف كتابه فى الأحاديث الصحيحة خاصة . والسبب فى ذلك على ماروى عنه أنه قال كنا عند إسحاق بن راهويه فقال لو جمعتم كتاباً مختصراً لصحيح سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال فوقع ذلك فى قلبى فأخذت فى جمع الجامع الصحيح ، وقد ألفته فى بضع عشرة سنة وفيه من الأحاديث (كما فى تقريب النواوى) سبعة آلاف ومائتان وخمسة وسبعون بالمكررة وبحذف المكرر أربعة آلاف (وفى غيره ما يخالف ذلك) . وقد طبع صحيح البخارى عدة مرات فى مصر وغيرها . وفى عصرنا الحاضر سنة ١٣١٣ أمر أمير المؤمنين السلطان عبد الحميد بطبع خمسة آلاف نسخة منه بمطبعة بولاق الأميرية وأمر أن تراجعه وتصححه طائفة من علماء الأزهر ، وأن توزع النسخ المطبوعة على العلماء ومواضع العلم ، وقد منحت نظارة معارفنا منه خمسمائة نسخة فوزعتها على أهليها . وقد اعتنى الأئمة بصحيح البخارى فمنهم من شرحه ومنهم من اختصره ؛ فمن الشارحين له الحافظ بن حجر المولود سنة ٧٧٣ ، وسمى شرحه فتح البارى وهو أحد عشر جزءاً . والقسطلانى المولود بمصر سنة ٨٥١ ، وسمى شرحه إرشاد السارى ، وهو عشرة أجزاء ، وكلا الشرحين مطبوع بمطبعة بولاق الأميرية . ومن المختصرين له الإمام ابن أبى جمرة المتوفى سنة ٦٧٥ ومختصره مشهور ومطبوع ، ومنهم الإمام الحسين الزبيدى فرغ من مختصره المسمى بالتجريد سنة ٨٨٩ . ثم تلا البخارى :

٢ - تلميذه مسلم ، فصنف جامعاً آخر فى الأحاديث الصحيحة ، وفيه أربعة آلاف حديث بإسقاط المكرر (كما فى تقريب النواوى) (وفى التقريب وشرحه) ، واختص مسلم بجمع طرق الحديث فى مكان واحد بأسانيده المختلفة فسهل تناوله بخلاف البخارى فإنه قطعها فى الأبواب بسبب استنباطه الأحكام منها . وقد شرح صحيح مسلم النووى وطبع الصحيح وحده ومع الشرح ، وطبع أيضا شرح النووى على هامش شرح القسطلانى بالمطبعة المذكورة . وصحيح البخارى وصحيح مسلم هما أصح الكتب بعد القرآن العزيز . وصنف بعدهما فى الصحيح أبو داود

السجستانى المتوفى بالبصرة سنة ٢٧٥ ، وأبو عيسى الترمذى المتوفى بترمذ سنة ٢٧٩ ، وأبو عبد الرحمن النسائى المتوفى بفلسطين بسنة ٣٠٣ ، وابن ماجه القزوينى المتوفى سنة ٢٧٣

كتب الأحاديث الستة : قال فى مشكاة المصابيح للخطيب التبريزى "إن الكتب الستة المشهورة المقررة فى الإسلام ، التى يقال لها الصحاح الست ، هى صحيح البخارى وصحيح مسلم والجامع للترمذى والسنن لأبى داود والنسائي وسنن ابن ماجه ، وعند البعض الموطأ بدل ابن ماجه ، وصاحب جامع الأصول اختار الموطأ ، وفى هذه الكتب الأربعة أقسام من الأحاديث من الصحاح والحسان والضعاف وسمى صاحب المصابيح أحاديث غير الشيخين بالحسان" (*) .

أحكام وآداب من السنة : جاء فى الحديث الشريف : إن من أخيركم أحسنكم خلقًا . وفيه إن خياركم أحاسنكم أخلاقًا . وفيه إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء شره . وفيه المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا . وفيه تجد من شر الناس يوم القيامة عند الله ذا الوجهين الذى يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه . وفيه الكلمة الطيبة صدقة . وفيه من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه . وفيه من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو يصمت . وفيه مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه . وفيه من لا يرحم لا يرحم . وفيه من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه قيل يا رسول الله وكيف يلعن الرجل والديه قال يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه وأمه . وفيه إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات ومنع وهات ووأد البنات وكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال . وفيه من سره أن يبسط له فى رزقه وأن ينسأ له فى أثره فليصل رحمه . وفيه إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا . وفيه لا يحل للرجل أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذى يبدأ بالسلام . وفيه آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان . وفيه ليس الشديد

(*) لم يرد التنصيص فى الأصل .

بالصرعة إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب . وفيه إذا لم تستحى فاصنع ما شئت . وفيه يسروا ولا تعسروا وسكنوا ولا تنفروا . وفيه خالط الناس ودينك لا تكلمنه . وفيه قال الله تعالى يسب ابن آدم الدهر وأنا الدهر بيدى الليل والنهار . وفيه ترى المؤمنين فى تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى . وفيه لعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال . وفيه لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين . وفيه إياكم والجلوس بالطرقات ، فقالوا يا رسول الله مالنا من مجالسنا بد نتحدث فيها ، فقال إذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه ، قالوا وما حق الطريق يا رسول الله ، قال غض البصر وكف الأذى ورد السلام والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وفيه إذا استأذن أحدكم ثلاثًا فلم يؤذن له فليرجع . وفيه من رأى من أميره شيئًا يكرهه فليصبر عليه . وفيه المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده . وفيه اتق المحارم تكن أعبد الناس ، وارض بما قسم لك تكن أغنى الناس ، وأحسن إلى جارك تكن مؤمنًا وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلمًا . وفيه من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان . وفيه اطلبوا العلم ولو بالصين . وفيه من تعلم وهو شاب كان كرسم فى حجر ومن تعلم وهو فى الكبر كان كالكاتب على ظهر الماء . وفيه من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة . وفيه من ظلم معاهداً أو انتقصه حقه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس فأنا خصمه يوم القيامة . وفيه دع ما يريبك إلى مالا يريبك . وفيه إياكم والبطنة فى الطعام والشراب فإنها مفسدة للجسد تورث السقم ومكسلة عن الصلاة وعليكم بالقصد فيهما فإنه أصلح للجسد وأبعد من السرف . وفيه إياك وكل أمر يعتذر منه . وفيه الخلق كلهم عيال الله وأحبهم إليه أنفعهم لعياله . وفيه من دل على خير فله أجر فاعله . وفيه رضا الله فى رضا الوالدين وسخطه فى سخط الوالدين . وفيه طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة .

الفصل الخامس

فى جواز الاستشهاد بالقرآن والحديث فى علوم الأدب

يجوز الاستشهاد فى علوم الأدب بالقرآن الكريم وهذا بالإجماع من العلماء ، لأنه أبلغ كلام عربى بقى لفظه محفوظًا إلى الآن كما سمع من النبى صلى الله عليه وسلم فإن الدين يقضى بعدم جواز تحريف فى نصه الشريف ، واختلف فى جواز الاستشهاد بأحاديث السنة فجوزه ابن مالك ومنعه ابن الضائع وأبوحيان محتجين بأمرين : الأول أن الأحاديث لم تنقل كما سمعت عنه عليه الصلاة والسلام وإنما رويت بالمعنى ، والثانى أن أئمة النحو المتقدمين من البصرة والكوفة لم يحتجوا بشىء منها . ورُد الأول على تقدير تسليمه بأن النقل بالمعنى إنما كان فى الصدر الأول قبل تدوين الأحاديث فى الكتب وقبل فساد اللغة وغايته تبديل لفظ بلفظ يصح الاحتجاج به فلا فرق . ورُد الثانى بأنه لا يلزم من عدم استدلالهم بالحديث عدم صحة الاستدلال به . قال أبو الحسن بن الضائع فى شرح الجمل : تجويز الراوية بالمعنى هو السبب عندى فى ترك الأئمة كسيبويه وغيره الاستشهاد على إثبات اللغة بالحديث ، واعتمدوا فى ذلك على القرآن وصريح النقل عن العرب ، ولولا تصريح العلماء بجواز النقل بالمعنى فى الحديث لكان الأولى فى إثبات فصيح اللغة كلام النبي صلى الله عليم وسلم ، لأنه أفصح العرب . وقال أبوحيان فى شرح التسهيل : قد أكثر المصنف من الاستدلال بما وقع فى الأحاديث على إثبات القواعد الكلية فى لسان العرب وما رأيت أحداً من المتقدمين والمتأخرين سلك هذه الطريقة غيره ، على أن الواضعين الأولين لعلم النحو المستقرئين الأحكام من لسان العرب كأبى عمرو بن العلاء وعيسي بن عمر والخليل وسيبويه من أئمة البصريين ، والكسائى والفراء وعلى بن المبارك الأحمر وهشام

الضرير من أئمة الكوفيين ، لم يفعلوا ذلك وتبعهم على ذلك المسلك المتأخرون من الفريقين وغيرهم من نحاة الأقاليم كنحاة بغداد وأهل الأندلس . وقد جرى الكلام فى ذلك مع بعض المتأخرين الأذكياء فقال إنما ذكر العلماء ذلك لعدم وثوقهم أن ذلك لفظ الرسول صلى الله عليه وسلم ، إذ لو وثقوا بذلك لجرى مجرى القرآن الكريم فى إثبات القواعد الكلية ، وإنما كان كذلك لأمرين أحدهما أن الرواة جوزوا النقل بالمعنى ، فنجد قصة واحدة قد جرت فى زمنه صلى الله عليه وسلم لم يقل بتلك الألفاظ جميعها نحو ما روى من قوله زوجتكها بما معك من القرآن ، ملكتكها بما معك من القرآن ، خذها بما معك من القرآن ، وغير ذلك من الألفاظ الواردة فنعلم يقيناً أنه صلى الله عليه وسلم لم يلفظ بجميع هذه الألفاظ بل لا يجزم بأنه قال بعضها إذ يحتمل بأنه قال لفظاً مرادفاً لهذه الألفاظ ، فأتت الرواة بالمرادف ولم تأت بلفظه ، إذ المعنى هو المطلوب ولاسيما تقادم السماع وعدم ضبطها بالكتابة والاتكال على الحفظ . والضابط منهم من ضبط المعنى وأما من ضبط اللفظ فبعيد جداً لاسيما فى الأحاديث الطوال . وقد قال سفيان الثورى إن قلت لكم إنى أحدثكم كما سمعت فلا تصدقونى ، إنما هو المعنى . ومن نظر فى الحديث أدنى نظر علم العلم اليقين أنهم يروون بالمعنى . الأمر الثانى أنه وقع اللحن كثيراً فيما روى من الحديث لأن كثيراً من الرواة كانوا غير عرب بالطبع ، ويتعلمون لسان العرب بصناعة النحو فوقع اللحن فى كلامهم وهم لا يعلمون ، ودخل فى كلامهم وروايتهم غير الفصيح من لسان العرب ، ونعلم قطعاً من غير شك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أفصح العرب ، فلم يكن يتكلم إلا بأفصح اللغات وأحسن التراكيب وأشهرها وأجزلها ، وإذا تكلم بلغة غير لغته فإنما يتكلم بذلك مع أهل تلك اللغة على طريق الإعجاز وتعليم ذلك له من غير معلم . والمصنف قد أكثر من الاستدلال بما ورد فى الأثر متعقباً بزعمه على النحويين وما أمعن النظر فى ذلك ولا صحب من له التمييز . وقد قال لنا بدر الدين بن جماعة وكان ممن أخذ عن ابن مالك : قلت له ياسيدى هذا الحديث رواية الأعاجم ووقع فيه من روايتهم ما نعلم أنه ليس من لفظ الرسول فلم يجب بشىء . قال أبو حيان وإنما أمعنت الكلام فى هذه المسألة (*) لئلا يقول مبتدئ ما بال النحويين يستدلون بقول العرب وفيهم المسلم

(*) وردت فى الأصل « المسئلة والصواب « المسألة » (المحرر) .

والكافر ولا يستدلون بما روى فى الحديث بنقل العدول كالبخارى ومسلم وأضرابهما ، فمن طالع ما ذكرناه أدرك السبب الذى لأجله لم يستدل النحاة بالحديث (**) . قال الشاطبى الحديث على قسمين : قسم اعتنى ناقله بمعناه دون لفظه فهذا لم يقع به استشهاد أهل اللسان ، وقسم عرف اعتناء ناقله بلفظه لمقصود خاص كالأحاديث التى قصد بها بيان فصاحته صلى الله عليه وسلم ، ككتابته لهمذان وكتابته لوائل بن حجر ، والأمثال النبوية ، فهذا يصح الاستشهاد به فى العربية ، وتبعه السيوطى فى الاقتراح فقال : وأما الحديث فيستدل منه بما ثبت أنه قاله عليه الصلاة والسلام على اللفظ المروى وذلك نادر جداً إنما يوجد فى الأحاديث القصار على قلة أيضا فإن غالب الأحاديث مروى بالمعنى ، وقد أولتها الأعاجم والمولدون قبل تدوينها فرووها كما أدت إليه عباراتهم فزادوا ونقصوا وقدموا وأخروا وأبدلوا ألفاظاً بألفاظ ، ولهذا نرى الحديث الواحد مروياً على أوجه شتى بعبارات مختلفة . قال الدمامينى فى شرح التسهيل : قد أكثر المصنف من الاستدلال بالأحاديث النبوية وشنع أبو حيان عليه وقال : إن ما استند إليه من ذلك لا يتم له التطرق احتمال الرواية بالمعنى ، فلا يوثق بأن ذلك المحتج به لفظه عليه الصلاة والسلام حتى تقوم به الحجة ، وقد أجريت ذلك لبعض مشايخنا فصوب رأى ابن مالك فيما فعله بناء على أن اليقين ليس بمطلوب فى هذا الباب وإنما المطلوب غلبة الظن الذى هو مناط الأحكام الشرعية ، وكذا ما توقف عليه من نقل مفردات الألفاظ وقوانين الإعراب ، فالظن فى ذلك كله كاف ولا يخفى أنه يغلب على الظن أن ذلك الموكول المحتج به لم يبدل لأن الأصل عدم التبديل ، لاسيما والتشديد فى الضبط والتحرى فى نقل الأحاديث شائع بين النقلة والمحدثين ، ومن يقل منهم بجواز النقل بالمعنى فإنما هو عنده بمعنى التجويز العقلى الذى لا ينافى وقوع نقيضه ، فلذلك تراهم يتحرون فى الضبط ويتشددون مع قولهم بجواز النقل بالمعنى فيغلب على الظن من هذا كله أنها لم تبدل ، ويكون احتمال التبديل فيها مرجوحاً فيلغى ولا يقدح فى صحة الاستدلال بها ، ثم إن الخلاف فى جواز النقل بالمعنى إنما هو فيما لم يدون ولا كتب ، وأما ما دون وحصل فى بطون الكتب فلا يجوز تبديل

(**) يشير المؤلف أن ماورد ذكره من خزانة الأدب للبغدادى (المحرر) .

ألفاظه من غير خلاف بينهم . قال ابن الصلاح : بعد أن ذكر اختلافهم فى نقل الحديث بالمعنى أن هذا الخلاف لا نراه جاريا ولا أجراه الناس فيما نعلم فيما تضمنته بطون الكتب ، فليس لأحد أن يغير لفظ شىء من كتاب مصنف ويثبت فيه لفظاً آخر. وتدوين الأحاديث والأخبار بل وكثير من المرويات وقع فى الصدر الأول قبل فساد اللغة العربية حين كان كلام أولئك المبدلين على تقدير تبديلهم يسوغ الاحتجاج به وغايته يومئذ تبديل لفظ بلفظ يصح الاحتجاج به ، فلا فرق بين الجميع فى صحة الاستدلال ، ثم دون ذلك المبدل على تقدير التبديل ومنع من تغييره ونقله بالمعنى ، كما قال ابن الصلاح ، فبقى حجة فى بابه ولا يضر توهم ذلك السابق فى شىء من استدلالهم المتأخر والله أعلم بالصواب (*) .

(*) أشار المؤلف إلى أن ما أورده من كلام الدمامينى من خزانة الأدب (المحرر) .

الفصل السادس

فى بعض ما اشتهر من كتب اللغة

مرجع التأليف فى اللغة : قبل الخوض فى بيان بعض الكتب المصنفة فى اللغة نذكر ما جاء فى كشف الظنون وهو بنصه : "إن مقصد علم اللغة مبنى على أسلوبين لأن منهم من يذهب من جانب اللفظ إلى المعنى بأن يسمع لفظًا ويطلب معناه ، ومنهم من يذهب من جانب المعنى إلى اللفظ ، فلكل من الطريقين قد وضعوا كتبًا ليصل كل إلى مبتغاه إذ لا ينفعه ما وضع فى الباب الآخر ، فمن وضع بالاعتبار الأول فطريقته ترتيب حروف التهجى أما باعتبار أواخرها أبوابًا وأوئلها فصولًا تسهيلًا للظفر بالمقصود ، كما اختاره الجوهرى فى الصحاح ومجد الدين فى القاموس ، وإما بالعكس أى باعتبار أوائلها أبوابًا وأواخرها فصولًا ، كما اختاره ابن فارس فى المجمل والمطرزى فى المغرب ، ومن وضع بالاعتبار الثانى فالطريق إليه أن يجمع الأجناس بحسب المعانى ويجعل لكل جنس بابًا ، كما اختاره الزمخشرى فى قسم الأسماء من مقدمة الأدب ، ثم إن اختلاف الهمم قد أوجب إحداث طرق شتى ، فمن واحد أدى رأيه إلى أن يفرد لغات القرآن ومن آخر إلى أن يفرد غريب الحديث وآخر إلى أن يفرد لغات الفقة كالمطرزى فى المغرب ، وأن يفرد اللغات الواقعة فى أشعار العرب وقصائدهم وما يجرى مجراها كنظام الغريب ، والمقصود هو الإرشاد عند مساس أنواع الحاجات" .

كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدى ومختصره للزبيدى الإشبيلى : ممن نبغ فى الأدب فى المائة الثانية الخليل بن أحمد البصرى الفراهيدى أو الفرهودى ، وهو

أول من ضبط لغة العرب وألف فيها كتاب العين ، وسماه بالعين لأنه بدأه بالكلم التى أولها العين وابتدأ بها لأنها من الحروف القاصية وأكثر فى الكلام دورانًا ولا يلحقها تغيير ولا حذف مثل الهمزة والألف ولا همس مثل الهاء وهى أنصع من الحاء . وترتيب مواد الكتاب اللغوية مبنى على مخارج الحروف من الحلق إلى الشفتين هكذا : ع ح هـ خ غ ق ك ج ش ض ص س ز ط د ت ظ ذ ث ر ل ن ف ب م ا و ى . قال ابن خلدون : "إن الخليل حصر فى كتاب العين مركبات حروف المعجم كلها من الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسى ، وهو غاية ما ينتهى إليه التركيب فى اللسان العربى ، وتأتى له حصر ذلك بوجوه عديدة حاصرة ، وذلك أن جملة الكلمات الثنائية تخرج من الأعداد على التوالى من واحد إلى سبعة وعشرين وهو دون نهاية حروف المعجم بواحد ، لأن الحرف الواحد منها يؤخذ مع كل واحد من السبعة والعشرين فتكون سبعة وعشرين كلمة ثنائية ، ثم يؤخذ الثانى مع الستة والعشرين كذلك ثم الثالث والرابع ثم يؤخذ السابع والعشرون مع الثامن والعشرين فيكون واحداً ، فتكون كلها أعداداً على توالى العدد من واحد إلى سبعة وعشرين فتجمع كما هى بالعمل المعروف عند أهل الحساب ، ثم تضاعف لأجل قلب الثنائى لأن التقديم والتأخير بين الحروف معتبر فى التركيب فيكون الخارج جملة الثنائيات وتخرج الثلاثيات من ضرب عدد الثنائيات فيما يجمع من واحد إلى ستة وعشرين ، لأن كل ثنائية يزيد عليها حرف فتكون ثلاثية ، فتكون الثنائية بمنزلة الحرف الواحد مع كل واحد من الحروف الباقية وهى ستة وعشرون حرفًا بعد الثنائية ، فتجمع من واحد إلى ستة وعشرين على توالى العدد ويضرب فيه جملة الثنائيات ثم تضرب الخارج فى ستة جملة مقلوبات الكلمة الثلاثية ، فيخرج مجموع تراكيبها من حروف المعجم ، وكذلك فى الرباعي والخماسي فانحصرت له التراكيب بهذا الوجه ورتب أبوابه على حروف المعجم بالترتيب المتعارف ، واعتمد فيه ترتيب المخارج ، فبدأ بحروف الحلق ثم ما بعده من حروف الحنك ثم الأضراس ثم الشفة ، وجعل حروف العلة آخراً وهى الحروف الهوائية ، وبدأ من حروف الحلق بالعين لأنه الأقصى منها ، فلذلك سمى كتابة بالعين لأن المتقدمين كانوا يذهبون فى تسمية دواوينهم إلى مثل هذا ، وهو تسميته بأول ما يقع فيه من الكلمات والألفاظ ثم بين

المهمل منها من المستعمل ، وكان المهمل فى الرباعى والخماسى أكثر لقلة استعمال العرب له لثقله ولحق به الثنائي لقلة دورانه ، وكان الاستعمال فى الثلاثي أغلب فكانت أوضاعه أكثر لدورانه ، وضمن الخليل ذلك كله فى كتاب العين واستوعبه أحسن استيعاب وأوعاه" .

وقد وقع فى كتاب العين خلط وغلط ، ولهذا أنكروا نسبته إلى الخليل ، وقالوا إنه من جمع الليث بن نصر عن الخليل ، وقيل إنه كان قد شرع فيه ورتب أوائله وسماه العين ثم توفى سنة ١٧٠ بعد الهجرة فأكمله تلامذته النضر بن شميل ومؤرج السدوسى ونصر بن على الجضمى ومن فى طبقتهم ، فما جاء عملهم مناسبًا لما وضعه الخليل فى الأول فأخرجوا الذى وضعه أولا وصنفوا بدله ، فلهذا وقع فيه خلل كثير يبعد وقوع الخليل فى مثله . قال السيوطى : "وقد طالعته فرأيت وجه التخطئة غالبة من جهة التصريف والاشتقاق كذكر حرف مزيد فى مادة أصلية أو مادة ثلاثية فى مادة رباعية ونحو ذلك . وأما كون الخطأ فى لفظة من حيث اللغة بأن يقال هذه اللفظة كذب أولا تعرف فمعاذ الله لم يقع ذلك ، وحينئذ لا قدح فيه ، فالإنكار راجع إلى الترتيب والوضع الأولى ، وهذا أمر هين لا يمنع الوثوق بالخليل والاعتماد عليه فى نقل اللغة" . وفى المائة الرابعة : اختصر كتاب العين أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدى الإشبيلى من علماء الأندلس مستدركًا ما وقع فيه من الغلط حاذفًا المهمل وكثيرًا من شواهد المستعمل ، فجاء كتابًا مختصرًا لطيفًا فاق أصله وفضل عليه وأعجب الناس به كثيرًا ولهجوا به ، وتوفى مؤلفه بإشبيلية سنة ٣٧٩ بعد الهجرة .

كتاب الجمهرة لابن دريد والتهذيب للأزهرى : وفى المائة الثالثة ، ألف أبو بكر محمد بن دريد المولود بالبصرة سنة ٢٢٣ كتاب الجمهرة ، وهو مبدوء بأبّ ثم أتّ ثم أجّ إلى آخر الحروف ، ثم بت وبث وبج وهكذا ، وبعد المضاعف يذكر الألفاظ الثلاثية ثم الرباعية وهكذا ، فهو مرتب على حروف المعجم . قال الأزهرى : ممن ألف الكتب فى زماننا ورمى بافتعال العربية وتوليد الألفاظ أبو بكر بن دريد ، وقال سألت عنه إبراهيم بن عرفة يعنى نفطويه فلم يعبأ به ولم يوثقه فى روايته وهجاه بقوله .

ابن دريد بقرة وفيه عيّ وشره
ويدعى من حمقه وضع كتاب الجمهره
وهو كتاب العين إلا أنه قد غيره

قال السيوطي في المزهر : معاذ الله هو برىء ومن طالع كتاب الجمهرة رأى تحريه في روايته ، ولا يقبل فيه طعن نفطويه لأنه كان بينهما منافرة عظيمة ، بحيث إن ابن دريد هجاه بقوله :

لو أنزل الوحي على نفطويه لكان ذلك الوحي سخطا عليه
وشاعر يدعى بنصف اسمه مستاهل الصفع على أخدعيه
أحرقه الله بنصف اسمه وصير الباقي صراخا عليه

قال بعضهم وكان لأبي على القالي نسخة من الجمهرة بخط مؤلفها ، وكان قد أعطى فيها ٣٠٠ مثقال فأبى ، فاشتدت الحاجة به فباعها بأربعين مثقالا ، وكتب عليها (*) هذه الأبيات :

أنست بها عشرين عاما وبعتها وقد طال وجدى بها وحنينى
وما كان ظنى أننى سأبيعها ولو خلدتنى فى السجون ديونى
ولكن لعجز واتفاقر وصبية صغار عليهم تستهل شؤونى
فقلت ولم ملك سوابق عبرتى مقالة مكوى الفؤاد حزين
وقد تخرج الحاجات يا أم مالك كرائم من رب بهن ضنين

(*) وردت فى الأصل « عليه » ، والصواب « عليها » (المحرر) .

قال فأرسلها الذى اشتراها وأرسل معها أربعين ديناراً أخرى . ومات ابن دريد ببغداد سنة ٣٢١ .

وألف أبو منصور محمد بن أحمد الأزهرى المولود سنة ٢٨٢ كتاب تهذيب اللغة ، وهو كتاب كبير معتبر فى اللغة ، مرتب على الحروف باعتبار مخارجها كترتيب كتاب العين (وسيأتى مزيد وصف لهذا الكتاب فى الكلام على كتاب المحكم لابن سيده) ، وتوفى الأزهرى بمدينة هراة سنة ٣٧٠ .

كتاب الصحاح للجوهرى والمجمل لابن فارس : وفى المائة الرابعة ، صنف الشيخ أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهرى كتاب تاج اللغة وصحاح العربية على ترتيب لم يسبق إليه فجعله ثمانية وعشرين باباً مرتبة على حروف المعجم ، الباب الأول باب الألف المهموزة وفيه الكلمات المنتهية بالهمزة ، والباب الثانى باب الباء وفيه الكلمات المنتهية بالباء ، والباب الثالث باب التاء والرابع الثاء وهكذا إلى آخر الحروف إلا أنه جعل الواو والياء فى باب واحد ذكره بعد باب الهاء وذكر باب الألف اللينة أخيراً . وفى كل باب من هذه الأبواب يذكر عدة فصول فصل الألف وفيه الكلمات المبدوءة بالهمزة ثم فصل الباء وفيه الكلمات التى أوائلها باء ، ثم فصل التاء ثم فصل الثاء وهكذا إلى الآخر ، إلا أنه قدم فصل الواو من كل باب على فصل الهاء ، وكان يجب أن يكون عدد الفصول فى كل باب ٢٨ إلا أن هذا العدد لم يكمل إلا فى خمسة أبواب : الألف المهموزة واللام والميم والنون وباب المعتل ، والأبواب الباقية منها ما نقص فصلا ومنها ما نقص فصلين وهكذا ، والباب الأخير لم يفصل فيه . وإسقاط الفصول ناشئ عن كون كلماتها مهملة أو معرَّبة أو غير لازمة فى الاستعمال والمعتبر فى الأبواب والفصول أصل المادة وحروف أوساط الكلم مراعى فيها ترتيب حروف المعجم أيضاً . فإذا أردت أن تكشف فى هذا الكتاب عن الكلم (بهظ) و (جوانح) و (توقان) و (استئثار) فابحث عن الأولى فى باب الظاء فصل الباء ، وعن الثانية فى جنح من باب الحاء فصل الجيم ، وعن الثالثة فى توق من باب القاف فصل التاء ، وعن الرابعة فى أثر من باب الراء فصل الهمزة . ومن اصطلاح الصحاح وتبعه غيره فيه أنه إذا ذكر لفظاً وقال عقبه بالكسر أو الفتح أو الضم ، فالضبط لأول حرف إن كان اسما ولعينه إن كان

فعلًا ، وإذا قال بالتسكين كان الثانى ، وإذا قال محركًا أو بالتحريك يكون اللفظ بفتحتين ومحل كون الضبط للأول فى غير المفعلة فالضبط فيها للعين .

وسمى الجوهرى كتابه بالصحاح بالكسر جمع صحيح أو الفتح مفردًا كصحيح ، لأنه التزم فيه ذكر الصحيح من اللغة ، بخلاف غيره من الكتب قبله فإنها لم تلتزمه بل جمعت ما صح وغيره ، ونبهت على ما لم يثبت غالبًا ، ولذا قالوا إن صحاح الجوهرى فى اللغة نظير صحيح البخارى فى الحديث ، قال الجوهرى فى خطبة كتابه : "قد أودعت هذا الكتاب ما صح عندى من هذه اللغة التى شرف الله تعالى منزلتها وجعل علم الدين والدنيا منوطًا بمعرفتها على ترتيب لم أسبق إليه ، وتهذيب لم أغلب عليه فى ثمانية وعشرين بابًا ، وكل باب منها ثمانية وعشرون فصلًا على عدد حروف المعجم وترتيبها ، إلا أن يهمل من الأبواب جنس من الفصول بعد تحصيلها بالعراق رواية وإتقانها دراية ومشافهتى بها العرب العاربة فى ديارهم بالبادية ، ولم آل فى ذلك نصحًا ولا ادخرت وسعا" . وجمع الجوهرى فى صحاحه أربعين ألف مادة . وقد كثر تداول هذا الكتاب واشتهر شهرة عظيمة لحسنه وسهولته وما فيه من الفوائد والقواعد والشواهد ، لكن قل تداول الناس له فى هذه الأيام لأنه طبع خلوًا من ضبط الكلمات اللغوية ، ومالوا إلى القاموس لطبعه مضبوطًا ولزيادة مواده . وكثير من الفضلاء يفضلون الصحاح على القاموس لسهولة عباراته وكثرة شواهده الرصينة ولعدم تكلفة الإجمال فى الكلام والاختصار البالغ حده . وتوفى الجوهرى فى حدود الأربعمائة وقيل سنة ٣٩٣ .

قال السيوطى : "وكان فى عصر صاحب الصحاح ابن فارس فالتزم أن يذكر فى مجمله الصحيح . قال فى أوله : قد ذكرنا الواضح من كلام العرب والصحيح منه دون الوحشي المستنكر ، ولم نأل فى اجتباء المشهور الدال على تفسير حديث أو شعر ، والمقصود فى كتابنا هذا من أوله إلى آخره التقريب والإبانة عما ائتلف من حروف العربية فكان كلامًا ، وذكر ما صح من ذلك سماعًا أو من كتاب لايشك فى صحة نسبه ، لأن من علم أن الله تعالى عند مقال كل قائل فهو حرى بالتحرج من تطويل المؤلفات وتكثيرها بمستنكر الأقاويل وشنيع الحكايات ، فقد كان يقال من تتبع غرائب الأحاديث كذب ، ونحن نعوذ بالله من ذلك . وقال فى آخره قد توخيت فيه الاختصار

وآثرت فيه الإيجاز واختصرت على ما صح عندى سماعًا أو من كتاب صحيح النسب مشهور ، ولولا توخى ما لم أشك فيه من كلام العرب لوجدت مقالًا"(*) .

قال أحمد فارس إنه رأى خطبة المجمل على غير النسق الذى نسقه الإمام السيوطى ، ثم ذكر نصها وجاء فى آخر النص "وسميته مجمل اللغة لأنى أجملت فيه الكلام ولم أكثره بالشواهد والتصاريف إرادة الإيجاز ، وذلك أنى خرجته على حروف المعجم ، فجعلت كل كلمة أولها ألف فى كتاب الألف وكل كلمة أولها باء فى كتاب الباء ، حتى أتيت على آخر الحروف كلها" . وتوفى ابن فارس القزوينى سنة ٣٩٨ .

كتابا المحكم والمخصص لابن سيده : ألف أبو الحسن على المعروف بابن سيده الأندلسى المولود فى دولة على بن مجاهد سنة ٧٩٣ كتاب المحكم على نحو ترتيب كتاب العين . قال ابن خلدون : "وزاد فيه التعرض لاشتقاقات الكلم وتصاريفها ، فجاء من أحسن الدواوين ، ولخصه محمد بن أبى الحسين صاحب المستنصر من ملوك الدولة الحفصية بتونس ، وقلب ترتيبه إلى ترتيب كتاب الصحاح فى اعتبار أواخر الكلم وبناء التراجم عليها فكانا توأمى رحم وسليلى أبوّة" .

قال أبو الفضل بن منظور فى خطبة كتابه لسان العرب : "ولا أقول شافهت أو سمعت أو شددت أو رحلت أو نقلت عن العرب العرباء أو حملت ، فهذه دعاوى لم يترك فيها الأزهرى وابن سيده مقالًا لقائل فإنهما عينا فى كتابيهما عمن رويا وبرهنا عما حويا ، ولعمرى لقد جمعا فأوعيا وأتيا بالمقاصد فوفيا ، وهما من أمهات كتب اللغة على التحقيق وما عداهما ثنيات للطريق ، غير أن كُلا منهما مطلب عسر المهلك ومنهل وعر المسلك ، وكأن واضعه شرع للناس موردًا عذبًا وحلاهم عنه وارتاد لهم مرعى سريعًا ومنعهم منه ، قد أخر وقدم وقصد أن يعرب فأعجم ، فرق الذهن بين الثنائي والمضاعف والمقلوب ، وبعد الفكر باللفيف والمعتل والرباعى والخماسى فضاع المطلوب ، فأهمل الناس أمرهما وانصرفوا عنهما ، وكادت البلاد لعدم الإقبال عليهما تخلو منهما وليس لذلك سبب إلا سوء الترتيب وتخليط التفصيل والتبويب" .

(*) لم يرد التنصيص فى الأصل (المحرر) .

وألف ابن سيده كتاباً آخر فى اللغة سماه المخصص جمع فيه الأجناس بحسب معانيها وجعل لكل باب جنساً وما تعلق به ، وهو نافع لمن يذهب من جانب المعنى إلى جانب اللفظ عكس المشهور . قال فى خطبته : "فلما رأيت اللغة على ما أريتك من الحاجة إليها لمكان التعبير عما نتصوره وتشتمل عليه نفوسنا وخواطرنا ، أحببت أن أجرد فيها كتاباً يجمع ما تنشر من أجزائها شعاعاً وتنتثر من أشلائها ، حتى قارب العدم ضياعاً ... ثم إنى لما وضعت كتابى المرسوم بالمحكم مجنساً لأدل الباحث على مظنة الكلمة المطلوبة ، أردت أن أعدل به كتاباً أضعه مبوباً حين رأيت ذلك أجدى على الفصيح المدره والبليغ المفوه والخطيب المصقع والشاعر المجيد المدقع ، فإنه إذا كان للمسمى أسماء كثيرة وللموصوف أوصاف عديدة تنقى الخطيب والشاعر منها ما شاء واتسعا فيما يحتاجان إليه من سجع أو قافية على مثال ما نجده نحن فى الجواهر المحسوسة ، كالبساتين تجمع أنواع الرياحين فإذا داخلها الإنسان أهوت يده إلى ما استحسنته حاستا نظره وشمه" . وفى المكتبة الخديوية نسخة من المخصص ذات ١٧ سفراً مكتوبة بقلم مغربى ، فيها خروم وتقديم وتأخير والآن يطبع بمطبعة بولاق الأميرية ، وتوفى ابن سيده بدانية سنة ٤٥٨ .

فقه اللغة للثعالبى : ألف أبو منصور الثعالبى النيسابورى المولود سنة ٣٥٠ كتاب فقه اللغة وسر العربية فى ثلاثين باباً تتضمن من الفصول ما يناهز ستمائة فصل ، جمع فى كل منها من الألفاظ ما هو من واد واحد ، فهو مفيد لمن يذهب من جانب المعنى إلى جانب اللفظ كالمخصص لابن سيده . وتوفى الثعالبى سنة ٤٢٥ .

كتاب أساس البلاغة للزمخشرى : ألف أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى المولود سنة ٤٦٧ كتاب أساس البلاغة على الترتيب المعهود فى حروف المعجم ، فجعل الكلم المبدوءة بالهمزة فى باب والمبدوءة بالباء فى آخر والمبدوءة بالتاء فى ثالث وهكذا ، وراعى فى ترتيب أوساط الكلم من كل باب ما راعاه فى ترتيب أوائلها . والكتاب ليس قاصراً على إفادة اللغة بل يرشد أيضاً إلى مناهج الإنشاء لكثرة ما فيه من السجع والشواهد والأمثال وبيان المجاز . قال ابن خلدون : "ومن الكتب الموضوعة أيضاً فى اللغة كتاب الزمخشرى فى المجاز بين فيه كلّ ما تجوزت به العرب من الألفاظ وفيما

تجوزت به من المدلولات ، وهو كتاب شريف الإفادة" . ولحسن ترتيبه يسهل على الطالب الكشف منه على معانى الكلم ، لكن ربما أبطأ به عن نوال المطلوب اقتصار المؤلف فى الغالب على وضع الكلمات فى التراكيب دون ذكر معانيها صراحًا اعتماداً واستنباطه معنى الكلمة من الجملة ، فلهذا ربما يصح أن يقال إنه كتاب مطالعة لا مراجعة ، وفضلًا عن هذا قد طبع غير مضبوط بالمطبعة الوهبية سنة ١٢٩٩ . وتوفى الزمخشرى سنة ٥٣٨ .

نهاية ابن الأثير : ألف الإمام مجد الدين أبو السعادات الجزرى المعروف بابن الأثير المولود فى جزيرة ابن عمرو سنة ٥٤٤ كتابه الموسوم بالنهاية فى غريب الحديث والأثر ، جمع فيه من غريب الحديث ما فى كتابى الهروى وأبى موسى الأصفهانى فى غريبى القرآن والحديث وزاد عليهما . قال : "وقد سلكت طريق الكتابين فى الترتيب والوضع على حروف المعجم بالتزام الحرف إلا أنى وجدت فى الحديث كلمات كثيرة فى أوائلها حروف زائدة قد بنيت الكلمة عليها حتى صارت كأنها من نفسها ، وكان يلتبس موضعها الأصلى على طالبها فرأيت أن أثبتها فى باب الحرف الذى هو أولها وإن لم يكن أصليًا ونبهت عند ذكره على زيادته ... وجعلت على ما فيه من كتاب الهروى (هاء) بالحمرة وعلى ما فيه من كتاب أبى موسى (سينا) ، وما أضفته من غيرهما مهملًا من غير علامة" . وتوفى ابن الأثير بالموصل سنة ٦٠٦ .

العباب والتكملة ومجمع البحرين للصغانى : من أئمة اللغة العظام حسن الصغانى المولود سنة ٧٧٥ فى لاهور إحدى مدن الهند ، وإنما قيل له الصغانى لأن أحد أسلافه جاء من صغان إحدى قرى ما وراء النهر ، وتوفى سنة ٦٥٠ فى بغداد ونقل إلى مكة ودفن فيها . ألف كتابه العباب الزاخر واللباب الفاخر فى عشرين مجلداً مع أنه لم يكمله بل انتهى فيه إلى ماده (بكم) ولهذا قيل :

إن الصغانى الذى ... حاز العلوم والحكم
كانت قصارى أمره ... أن انتهى إلى الحكم

وألف تكملة الصحاح وهى أكبر منه حجمًا ، ثم جمع بينهما فى كتاب واحد سماه مجمع البحرين وترتيبه فى ذلك كترتيب الصحاح .

كتاب لسان العرب لابن منظور : أعظم كتاب ألف فى اللغة هو كتاب لسان العرب للإمام جمال الدين ابن منظور الأنصارى الخزرجى الإفريقي نزيل مصر المولود فى سنة ٦٩٠ ، وهو كتاب شهرته تغنى عن البيان ، جمع فيه مؤلفه كثيراً من كتب اللغة كالصحاح والتهذيب والمحكم والجمهرة والنهاية ، فهو يغنى عن جلها إن لم نقل عن كلها ، فيه ثمانون ألف مادة مرتبة ترتيب مواد الصحاح لا يقتصر فيه على إفادة اللغة بل يبين من فنون الأدب وتفسير الآى وشرح الأحاديث والأمثال والأشعار ما يأتى فى عرض الكلام ، ويمس إليه البيان وهذا كثير يفوق الحصر . وقد طبع هذا الكتاب فى عشرين جزءًا فى مطبعة بولاق الأميرية سنة ١٣٠٠ بعد الهجرة ، ولولا طبعه ما كثر تداوله بل كان كنزًا مدفونًا ودرًا مكنونًا . وتوفى ابن منظور سنة ٧٧١ ، وقيل إنه ولد سنة ٦٣٠ وتوفى سنة ٧١١ ، وعلى القول الأول يكون ابن منظور معاصراً للفيروزابادى صاحب القاموس المولود سنة ٧٢٩ ، وعلى الثانى تكون وفاة ذاك قبل ولادة هذا .

المصباح للفيومى : على نسق كتاب النهاية فى ترتيب الكلم اللغوية ، جرى الإمام أحمد بن محمد بن على المقرى الفيومى المتوفى سنة ٧٧٠ فى ترتيب كتابه المسمى بالمصباح المنير فى غريب الشرح الكبير ، وهو ملخص كتاب له مطول كان جمعه فى غريب شرح الوجيز للإمام الرافعى ، وقال فى آخر المصباح : إنه جمع أصله من نحو سبعين مصنفًا وعد منها كثيراً ، وإنه فرغ من تأليفه سنة ٧٣٤ . وقد طبع المصباح فى مطبعة بولاق الأميرية سنة ١٢٨١ ، وطبع فى غيرها .

القاموس للفيروزابادى : ومن كتب اللغة المشهور كتاب القاموس المحيط للإمام مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادى [1] المولود بكارزين سنة ٧٢٩ . وقد اشتهر هذا الكتاب وتداولته الأيدى أكثر من غيره حتى الآن ، وترتيبه على نسق ترتيب الصحاح من اعتبار أواخر الكلمات مجردة للأبواب وأوائلها للفصول كما قيل :

إذا رمت فى القاموس كشفا للفظة ... فآخرها للباب والبدء للفصل

ولا تعتبر فى بدئها وأخيرها ... مزيدا ولكن اعتبارك بالأصل

إلا أن عبارة الصحاح أوسع وأصرح لا يظهر عليها أثر التكلف مشفوعة بالشواهد ، وعبارة القاموس ضيقة موجزة محذوفة الشواهد مطروحة الزوائد وكثيراً ما يعمى المراد منها على غير الممارس لمطالعته ولا العارف باصطلاحاته . قال فى خطبته ومن بديع اختصاره وحسن ترصيع تقصاره :

(أ) أنى إذا ذكرت صيغة المذكر أتبعتها المؤنث بقولى وهى بهاء ولا أعيد الصيغة .

(ب) وإذا ذكرت المصدر مطلقًا أو الماضى بدون الآتى ولا مانع [٢] فالفعل على مثال كتب .

(ج) وإذا ذكرت آتيه بلا تقييد فهو على مثال ضرب على أنى أذهب إلى ما قال أبو زيد (٣) إذا جاوزت المشاهير من الأفعال التى لا يأتى ماضيها على فعل فأنت فى المستقبل بالخيار ، إن شئت قلت يفعل بضم العين ، وإن شئت قلت يفعل بكسرها .

(د) وكل كلمة عريتها عن الضبط فإنها بالفتح إلا ما اشتهر بخلافه اشتهاراً رافعًا للنزاع من البيْن وما سوى ذلك فأقيده بصريح الكلام غير مقتنع بتوشيح القلام .

(هـ) مكتفيًا بكتابة ع د ة ج م عن قولى موضع وبلد وقرية والجمع ومعروف فتلخص وكل غث إن شاء الله عنه مصروف .

وفى القاموس ٦٠ ألف مادة فهو يزيد عن الصحاح بعشرين ألف وينقص عن اللسان بمثلها ، والمواد المزيدة عن الصحاح كانت تكتب حمراء فى نسخ القاموس المكتوبة بالأيدى فلما طبع ميزوها بوضع خطوط فوقها . ومن الناس من يفضل القاموس على الصحاح لزيادة المواد وكثرة اللغات وتكثير المعانى للألفاظ مع الإيجاز ، ولما فى الصحاح من الأوهام . وقد مدح القاموس غير واحد قال ابن العليف المتوفى بمكة سنة ٨١٥ :

مذ مد مجد الدين في أيامه ... من بعض أبحر عمله القاموسا
ذهبت صحاح الجوهري كأنها ... سحر المدائن حين ألقى موسى

وقال آخر :

لمجد الدين في القاموس مجد ... وفخر لا يوازيه موازي
أصح من الصحاح بغير شك ... وإن خلط الحقيقة بالمجاز

ومنهم من يفضل الصحاح على القاموس كالشيخ عبد القادر اليمنى ، قال : "في زماننا قد نقصت رتبة الصحاح وشهرته واكتفى الناس بالقاموس لثلاثة أمور، الأول : جهلهم أن الصحاح أصح الكتب في اللغة حتى توهموا أنه كثير الغلط لما سمعوا أن فيه تصحيفاً يسيراً ، ولم يعلموا أن ذلك لا يخلو منه إلا كتاب الله تعالى ، وأنه يمكن أن يعرفه كل مشتغل باللغة . الثاني : لجهلهم بعيوب القاموس حتى صار عندهم جميع ما فيه قطعياً . الثالث : جهلهم بمحاسن الصحاح وما ادعى المجد أن الجوهري وهم فيه فهو دعوى مجردة ، وأوهام الصحاح يسيرة كما نص عليه الأئمة ولذلك اعتمد عليه أئمة اللغة بخلاف القاموس وإن أكب عليه أهل عصرنا على أننا تتبعنا كثيراً مما ادعى المجد وغيره أن الجوهري وهم فيه ، فوجدناه صحيحاً ، وقد أبان ذلك شيخنا ابن الطيب في شرح القاموس"(*) . وقد رد على أصحاب القول الأول الشيخ عبد الغنى النابلسي بقوله :

من قال بطلت صحاح الجوهري ... لما أتى القاموس فهو المفترى
قلت اسمه القاموس وهو البحر إن ... يفخرْ فمعظم فخره بالجوهري

(*) التنصيص لم يرد في الأصل (المحرر) .

وتوفى الفيروزابادى فى اليمن بزبيد سنة ٨١٧ . وقد كُتب كثير من الحواشي والشروح على القاموس ، فمن ذلك حاشية ابن الطيب المولود بفاس سنة ١١١٠ ، وشرح السيد محمد مرتضي نزيل مصر المتوفى بها سنة ١٢٠٥ عن ستين سنة ، وكان تلميذ ابن الطيب وقد طبع هذا الشرح حديثًا فى المطبعة الخيرية سنة ١٣٠٦ فى عشرة أجزاء ضخام . وقد طبع القاموس ثلاث مرات فى مطبعة بولاق الأميرية وأخر طبعة كانت سنة ١٣٠١ بعد الهجرة .

مختار الصحاح : اختصر الصحاح الإمام محمد بن أبى بكر الرازى ، وسمى مختصره مختار الصحاح ، وهو مشهور متداول فرغ من تأليفه سنة ٧٦٠ .

المزهر فى علوم اللغة : كتاب جليل الفائدة ألفه جلال الدين السيوطى المولود سنة ٨٤٩ والمتوفى سنة ٩١١ . قال فى خطبته : "هذا علم شريف ابتكرت ترتيبه واخترعت تنويعه وتبويبه ، وذلك فى علوم اللغة وأنواعها وشروط أدائها وسماعها حاكيت به علوم الحديث فى التقاسيم والأنواع ، وأتيت فيه بعجائب وغرائب حسنة الإبداع . وقد كان كثير ممن تقدم يلم بأشياء من ذلك ويعتنى فى تمهيدها ببيان المسالك ، غير أن هذا المجموع لم يسبق إليه سابق ، ولا طرق سبيله قبلى طارق ، وقد سميته بالمزهر فى علوم اللغة" . وقد جاء فيه بخمسين نوعًا ، ثمانية منها راجعة إلى اللغة من حيث الإسناد ، وثلاثة عشر منها من حيث الألفاظ ، وثلاثة عشر أيضًا من حيث المعنى ، وخمسة منها من حيث لطائفها ، والباقية منها راجعة إلى رجال اللغة ورواتها . وقد طبع هذا الكتاب بمطبعة بولاق سنة ١٢٨٢ .

محيط المحيط وقطر المحيط : كتابان ألفهما المعلم بطرس البستانى اللبنانى المولود سنة ١٨١٩ بعد الميلاد ، والمتوفى سنة ١٨٨٣ . قال فى أول محيط المحيط إنه يحتوى على محيط الفيروزابادى وعلى زيادات كثيرة عثر عليها . وقال فى أول قطر المحيط إنه سماه بذلك لأن نسبته إلى محيط المحيط تقرب من أن تكون كنسبة قطر دائرة إلى محيطها . وفرغ من تأليف الأول سنة ١٢٦١ بعد الهجرة ، ومن الثانى سنة ١٢٨٦ . وهما فى ترتيب المواد اللغوية كالمصباح وقد طبعا فى بيروت ومنهما نسختان فى المكتبة الخديوية .

الجاسوس وسر الليال : كتابان ألفهما أحمد أفندى فارس صاحب الجوائب ، الأول فى تخطئة القاموس ، وقد طبع فى القسطنطينية سنة ١٢٩٩ ، والثانى فى القلب والإبدال وقد تم طبعه سنة ١٢٨٤ بالأستانة العلية . وتوفى أحمد فارس سنة ١٣٠٥ .

أقرب الموارد فى فُصَح العربية والشوارد : كتاب نفيس ألفه الفاضل سعيد أفندى الشرتونى اللبنانى من نبهاء هذا العصر ، وقد طبع فى بيروت سنة ١٨٨٩ بعد الميلاد فى سفرين ضخمين ، وطريقته فى الترتيب كالمصباح .

قلائد الذهب فى فصيح لغة العرب : كتاب جمعت فيه من الألفاظ ما هو كثير الدوران على ألسنة الفصحاء ، ومشخص للمعانى المتواردة على أفئدة البلغاء ، يتبع اللفظ معناه ويشفع هذا بشاهد أو مثال يهدى إلى مرماه فتستبين بذلك مرامى الكلام ، وينال الطالب ما يعز من فوق الثمام :

يقـــرب الأقـــصى مع الإيجـــاز   ويـردف الأصـلى بـالمجـــــــــاز

شواهده وأمثلته توقف على مناهج الإنشاء والتأليف ، وتوفق إلى مدارج الإبداع فى التصنيف . يرتب كلمات المادة اللغوية حسب معانيها الأصلية والفرعية ، والمواد مرتبة ترتيب الحروف على وجه جميل مألوف ، يستسهل معه الكشف ويستعذب منه الرشف . وقد طبع منه السفر الأول فى مطبعة بولاق سنة ١٣١١ ، وهذا السفر يشمل نحو خمسة آلاف كلمة لغوية ولها من الشواهد نحو ٥٠٠ بيت شعر و ١٥٠٠ آية و ١٥٠ حديثًا و ١٠٠ مثل سائر وغير ذلك من نوابغ الكلم وجوامع الحكم ، وفى مادة (جلل) مقامة أدبية بديعة .

الهوامش

(١) نسبة إلى فيروز اباد وهى قرية بفارس منها والده وجده .

(٢) بأن كانت فاء الفعل واوا كوعد أو عينه ياء كباع أو لامه ياء كرمى أو كان لازما مضاعفا كحن يحن ، فيكون المضارع مكسورا غالبًا .

(٣) هو أحمد بن سهل البلخى ولد بقرية من قرى بلخ ونشأ بها معلم صبيان كأبيه ثم دعته نفسه إلى دخول العراق فاقتبس العلوم والحكمة من علمائها وحكمائها وتعمق فى الفلسفة حتى رمى بالإلحاد واختطفته يد المنون سنة ٣٢٢ .

الباب الثانى : فى تاريخ الكتابة أو الخط

(وفيه فصول)

الفصل الأول

فى تعريف الكتابة

الكتابة أو الخط تصوير اللفظ بحروف هجائه ، ومثلها الكتاب ، قال تعالى لعيسى عليه السلام : "وإذ علمتك الكتاب والحكمة" ، وقد يطلق كل منهما على المكتوب من إطلاق المصدر على اسم المفعول كالحياكة فى المحيك والبساط فى المبسوط ، وعلى هذا تعرّف الكتابة بأنها نقوش القلم المخصوصة الدالة على المعانى المقصود دلالة الألفاظ عليها ، فهى واللغة سيان ولا اختلاف بينهما إلا فى طريقة التبليغ إلى الذهن ، ففى اللغة ينقل الهواء الصوت إلى السمع فيصل إلى الذهن ، وفى الكتابة ينظر البصر المكتوب وينقله إليه . وقد تطلق الكتابة على صناعة الإنشاء وبهذا ترادف النثر وتقابل القريض قال الشاعر :

وما كل من لاق اليراع بكاتب ولا كل من راش السهام بصائب

الفصل الثانى

فى تعريف تاريخ الخط العربى

كثرت الأقوال فى أولية الخط العربى والذى يؤخذ من مجموعها أن أهل اليمن الحميريين كانوا يكتبون ، وخطهم المسمى بالمسند كان ذا حروف منفصلة ، وكانوا يمنعون العامة من تعلمه ، ومن خطهم استنبط عرب طيئ خطًا ذا اتصال وانفصال بدون نقط ولا إعجام سموه بالجزم ، فأخذه عنهم أهل العراق ومن هؤلاء تعلمه عرب قريش . وفى المزهر (قال ابن دريد فى أماليه) أخبرنى السكن بن سعيد عن محمد بن عباد عن ابن الكلبى عن عوانه قال : أول من كتب بخطنا هذا وهو الجزم مرمر بن مرة وأسلم بن سدرة الطائيان ، ثم علموه أهل الأنبار فتعلمه بشر بن عبد الملك أخو أكيدر ابن عبد الملك الكندى صاحب دومة الجندل ، وخرج إلى مكة فتزوج الصهباء بنت حرب ابن أمية أخت أبى سفيان ، فعلم جماعة من أهل مكة ، فلذلك كثر من يكتب بمكة من قريش ، فقال رجل من أهل دومة الجندل من كندة يمن على قريش بذلك :

لا تجحدوا نعماء بشر عليكمو ... فقد كان ميمون النقيبة أزهرا

أتاكم بخط الجزم حتى حفظتمو ... من المال ما قد كان شتى مبعثرا

وأتقنتمو ما كان بالمال مهملا ... وطامنتمو ما كان منه منفرا

فأجريتم الأقلام عودا وبدأة ... وضاهيتمو كتاب كسرى وقيصرا

وأغنيتمو عن مسند الحى حميرا ... وما زبرت فى الصحف أقيال حميرا

وممن اشتهر فى الإسلام بالكتابة من علية الصحابة عمر وعثمان وعلى وطلحة وأبو عبيدة وأبى بن كعب وزيد بن ثابت ويزيد بن أبى سفيان .

وفى المطالع ومعرفة شرذمة من قريش للكتابة لا تنفي عن العرب الأمية التى وصفهم الله بها فى قوله تعالى "هو الذى بعث فى الأميين رسولًا منهم" . وانتشرت الكتابة فى المدينة بعد الهجرة بنحو سنة وذلك أنه لما أسرت الأنصار سبعين رجلًا من صناديد قريش وغيرهم فى غزوة بدر جعلوا على كل واحد منهم من الأسرى فداء من المال ، وعلى كل من عجز عن الافتداء بالمال أن يعلم الكتابة لعشرة من صبيان المدينة فلا يطلقونه إلا بعد تعليمهم ، فبذلك كثرت فيها الكتابة وصارت تنتشر فى كل ناحية فتحها الإسلام فى حياته عليه السلام وبعده . وقد بلغ عدد كتّابه عليه السلام ثلاثة وأربعين كاتبًا منهم زيد بن ثابت ومعاوية بن أبى سفيان . واختلف فى كونه صلى الله عليه وسلم يقرأ ويكتب ، فمن قال بذلك استدل بقوله تعالى : "رسول من الله يتلو صحفًا مطهرة" ، وبحديث البخارى أنه عليه الصلاة والسلام فى غزوة الحديبية أخذ الكتاب ليكتب فكتب ، ومن قال بأنه أمى استدل بقوله تعالى : "وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك " ، وبحديث البخارى نحن أمة أمية لا نكتب ولا نحسب ، وقد أخذ أبو الوليد الأندلسى بظاهر الحديث ، فقام عليه علماء عصره وطلبوه عند أميرهم فجمعهم وإياه واحتجوا عليه بأنه قد خالف نص الآية الكريمة وهى : "وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك" ، فاستظهر عليهم بأن هذا النفي مقيد بما قبل ورود القرآن وأما بعد أن تحققت أميته وتقررت بذلك معجزته فلا مانع أن يعرف الكتابة من غير معلم ، ويكون ذلك معجزة أخرى له ، ووافق على ذلك شيخه أبو ذر الهروى والنيسابورى وجماعة من علماء إفريقية محتجين بما ورد أنه ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى كتب وقرأ ، وقد روى عن جعفر الصادق رضى الله عنه أنه قال : كان يقرأ من الكتب وإن كان لا يكتب .

وقد كتبت المصاحف العثمانية بخط الجزم ، وسمى بالخط الكوفى بعد إنشاء الكوفة ، واستعمل فى عهد بنى أمية مع ترقيه فى درجات الحسن تبعًا لحضارة الأمة الإسلامية . وتمييز الحروف المتشابهة بالنقط حدث فى صدر الإسلام ، ذكر ابن خلكان فى ترجمة الحجاج أن أبا أحمد العسكرى قال : "إن الناس عبروا يقرأون

فى مصحف عثمان بن عفان رضى الله عنه نيفًا وأربعين سنة إلى أيام عبد الملك بن مروان ثم كثر التصحيف ، وانتشر بالعراق ففزع الحجاج بن يوسف إلى كتّابه فسألهم أن يضعوا علامات لهذه الحروف المشتبهة ، فيقال إن نصر بن عاصم قام بذلك فوضع النقط أفرادًا ، وخالف بين أماكنها ، فعبر الناس بذلك لا يكتبون إلا منقوطًا ، فكان مع استعمال النقط يقع التصحيف ، فأحدثوا الإعجام فكانوا يتبعون النقط بالإعجام" .
ويظهر من هذا الآن الإعجام هو الشكل وأنه غير النقط وأنه وضع فى زمن الحجاج ، وهذا لا ينافى ما روى من أن أول من نقط المصحف أبو الأسود الدؤلى ، فإن النقط الذى وضعه كان عبارة عن علامات الإعراب ليس إلا كما يؤخذ من الروايات المعزوة إليه . قال أبو على المقرى فى كتاب المقنع : اختلف الرواة فيمن نقط المصاحف من التابعين فروينا أن المبتدى بذلك كان أبا الأسود وأنه أراد أن يعمل كتابًا فى النحو يقوّم الناس به ما فسد من كلامهم ، فقال أرى أن ابتدئ بإعراب القرآن أولاً فأحضر من يمسك المصحف وأحضر صبغًا يخالف لون المداد ، وقال للذى يمسك المصحف : إذا فتحت شفتىَّ فاجعل نقطة فوق الحرف وإذا كسرتهما فاجعل النقطة تحت الحرف وإذا ضممتهما فاجعل النقطة إلى جانب الحرف ، فإذا اتبعت شيئًا من هذه الحركات غنة فاجعل نقطتين ففعل ذلك حتى أتى على آخر المصحف . وذكر فى المحكم بسبب ذلك أن معاوية كتب إلى زياد يطلب عبد الله ابنه فلما قدم عليه وجده يلحن فرده إلى زياد وكتب إليه كتابًا يلومه فيه على ذلك ، فبعث زياد إلى أبى الأسود وطلب منه أن يضع شيئًا يصلح الناس به كلامهم ويعرفون به كلام الله تعالى ، فأبى ذلك أبو الأسود فوجه زياد رجًلا وقال له اقعد فى طريق أبى الأسود فإذا مر بك فاقرأ شيئًا من القرآن وتعمد اللحن ، فلما مر أبو الأسود رفع الرجل صوته وقال : إن الله برىء من المشركين ورسوله بالجر ، فاستعظم ذلك أبو الأسود وقال عز وجه الله أن يتبرأ من رسوله ثم رجع من فوره إلى زياد وقال له قد أجبتك إلى ما سألت ورأيت أن أبدأ بإعراب القرآن فابعث إلى ثلاثين رجًلا ، فأحضرهم زياد فاختار منهم عشرة ثم لم يزل يختار حتى اختار رجًلا من عبد القيس فقال : خذ المصحف وصبغًا يخالف لون المداد وساق الحديث المتقدم .

وأما ما وضع فى زمن الحجاج فكان نقطًا لتمييز الحروف المتشابهة وشكًلا للأوائل والأواسط ، وخولفت طريقة نقط أبى الأسود إلى طريقة الشكل الحديث . ويقال إن الخليل بن أحمد هو الذى تمم بقية علامات الإعجام كالشدة والمدة والقطعة والصلة ، وهذب فى جميع العلامات فجعل الضمة واوًا صغيرة فوق الحرف والكسرة ياء تحته والفتحة ألفًا مسطوحة فوقه والشدة رأس شين والصلة رأس صاد ، وسمى كل هذه العلامات بالشكل أخذًا من شكال الدابة الذى تقيد به ، فكأن شكل الكلمة يقيدها عن الاختلاف فيها ويزيل عنها الإبهام . قال ابن خلكان : إن الخليل هو أول من صنف كتابًا فى الشكل . ومع ما تقدم فالنقط والشكل يسميان بالإعجام من أعجمته إذا أزلت عجمته وبينته ولهذا تسمى حروف الهجاء العربية بحروف المعجم وقد يخصص الإعجام بالحرف المنقوط إذا شاركه فى صورته الخطية حرف آخر مهمل ، فيقال خاء معجمة وحاء مهملة ومثلهما الذال والدال والزاى والراء والشين والسين والغين والعين ، لكن الباء وأمثالها لا توصف بالإعجام بل بالموحدة والمثناة الفوقية والتحتية والمثلثة ، وكذا الظاء يقال فيها المشالة والضاد الساقطة .

وانتقل الخط الكوفى إلى الأمصار التى افتتحها الإسلام وتنوعت أشكاله ورسومه واختلفت أسماؤه ، فانتقل من الأمويين إلى بلاد إفريقية الشمالية ، وتولد منه الخط المغربي المستعمل للآن فى الجزائر وتونس وطرابلس ومراكش . وأول من وصف بحسن الخط فى صدر الإسلام خالد بن الهياج ، وكان يكتب المصاحف والأشعار والأخبار للوليد بن عبد الملك سادس خلفاء بنى أمية المتولى الخلافة سنة ٨٦ من الهجرة . وفى أول خلافة بنى العباس ظهر الضحاك الكاتب وجاء بعده إسحاق بن حماد فى خلافة المنصور والمهدى وقد كتب عليه عدة تلامذة أنواعًا مختلفة من الخطوط الموزونة ، منها ما يعرف بقلم الطومار الكبير وقلم الجليل وقلم السجلات وقلم الديباج وقلم العهود وقلم القصص . ويقال إن جودة الخط انتهت إلى رجلين من أهل الشام الضحاك وإسحاق بن حماد وكانا يخطان الجليل قيل وكأنه الطومار أو قريب منه وأقول لعله ما يعرف بالجلى الآن .

ومن كتّاب المصاحف فى عهد الرشيد خشنام البصري والمهدى الكوفى . وفى عهد المأمون أخذ الكتّاب بتجويد خطوطهم وظهر إبراهيم السجزى وأخوه يوسف

والأحول الذى تكلم على رسوم الخط وقوانينه وجعله أنواعًا . وظهر قلم الثلثين وقلم الثلث وقلم النصف وقلم النسخ والقلم الرياسى نسبة إلى ذى الرياستين الفضل بن سهل ، وكانت تحرر به الكتب السلطانية ، وقلم غبار الحلية ، ويقال إن قلم غبار الحلية حروفه كلها مستديرة بخلاف قلم الطومار فإن حروفه كلها مستقيمة فهما حاشيتان وبينهما خطوط الثلثين والنصف والثلث على حسب استقامة ثلثى الحروف أو نصفها أو ثلثها . ثم كان أبو الحسين إبراهيم التميمى المقتدر وأولاده وكان أكتب أهل زمانه ، وله رسالة فى الخط سماها تحفة الوامق . قيل واستمر الخط الكوفى نحو ثلاثة قرون هجرية إلى أن ظهر فى بغداد الوزير ابن مقلة وأخوه عبد الله فحولا الكتابة الكوفية فى أواخر القرن الثالث إلى طريقة النسخ المستعملة إلى الآن فى كتابة الكتب والمصاحف ، لكن الظاهر أن التحويل ابتدأ قبل ابن مقلة كما يؤخذ مما سبق وإنما نسب إليه ذلك لكونه هو الذى أتم إزالة غبار الكوفية عن وجه الخط فظهر بديعًا ، وتوفى ابن مقلة سنة ٣٢٨ . ومن الثلث والنسخ تولد خط التوقيع . وفى بلاد العجم تولد خط التعليق ويعرف بالفارسى وهو مستعمل بها للآن . وجاء بعد ابن مقلة ابن البواب المتوفى سنة ٤١٣ . قيل ولا يوجد فى المتقدمين من كتب مثله ولا قاربه وإن كان ابن مقلة أول من نقل هذه الطريقة من خط الكوفيين وأبرزها فى هذه الصورة وله بذلك فضيلة السبق وخطه أيضًا فى نهاية الحسن ، ولكن ابن البواب هذب طريقته ونقحها وكساها حلاوة وبهجة . ثم ظهر أبو الدر ياقوت الموصلى الملقب بالملكى نسبة إلى السلطان ملكشاه أبى الفتح بن سلجوق ، قيل كان مولعًا بنسخ الصحاح للجوهرى وكان يبيع النسخة منه بمائة دينار ، توفى سنة ٦١٨ . ثم أبو المجد ياقوت الرومى المستعصى المتوفى سنة ٦٩٨ ، وهو الذى سار ذكره فى الآفاق واعترفوا بالعجز عن مداناة رتبته .

وبعد سقوط بغداد انتقل تقدم العلوم والكتابة إلى مصر إلى أن ظهرت الدولة العثمانية بالقسطنطينية فارتقت فيها الخطوط إلى أقصى درجات الحسن والكمال ، واشتهر عندهم من الخطوط الثلث والنسخ والتعليق والريحان والمحقق والرقاع والديوانى ، ومن أشهر كتابهم المتأخرين حمد الله المعروف بابن الشيخ والحافظ عثمان ومحمود المعروف بجلال الدين والسيد الحاج محمد المعروف بشكرزاده . ومن أشهر

كتاب مصر المعاصرين محمد أفندى مؤنس ومحمد أفندى جعفر ، واشتهر قبلهما عبد الله بك زهدى ، والآن نرى حسن الخط وتقدمه فى حواضر الدولة العلية والعجم . وفى المكتبة الخديوية كثير من المصاحف القرآنية قديمة وحديثة يؤخذ من الاطلاع عليها سير الخط وترقيه ، منها مصحف مكتوب بالخط الكوفى على رق غزال إلا أن يد الزمان أضاعت بعض صفحاته وأبلت البعض الآخر ، واستحضر هذا المصحف من جامع عمرو بن العاص ، ويقال إنه مصحف سيدنا عثمان بن عفان وإنه الذى كان بين يديه يوم الدار وإنه استخرج من خزائن المقتدر ، فأخذه أبو بكر الخازن وجعله فى جامع عمرو ، ويحتمل أن يكون المصحف الذى أرسل إلى مصر فى عهد الخليفة ، ومنها نصف مصحف مكتوب بالخط الكوفي على رق غزال يقال إنه بخط الإمام جعفر الصادق المولود سنة ٨٠ والمتوفى سنة ١٤٨ من الهجرة ، وهذا وما قبله ليس بها نقط ولا إعجام . ومنها مصحف مكتوب بخط مغربى من وقف الأمير محمد بك أبى الذهب . ومنها جزء أول سورة الحجر بقلم نسخ يقال إنه بخط ابن مقلة فى شهور سنة ٣٠٨ ، وهو ذو جداول ومحلى بالذهب . ومنها مصحف بقلم ياقوت المستعصمى فرغ من كتابته سنة ٦٩٠ . ومنها مصحف بالقلم الريحانى فرغ من كتابته عبد الرحمن بن الصائغ سنة ٨١٤ ، وهذا المصحف وقف السلطان فرج ابن السلطان برقوق المتوفي سنة ٨١٥ . ومنها مصحف بقلم حمد الله المتوفى فى القرن الحادى عشر الهجرى . ومنها مصحف بقلم الحافظ عثمان فرغ من كتابته سنة ١٠٨٣ ، وآخر مطبوع مأخوذ بالمصورة الشمسية (الفتوغرافية) من مصحف فرغ من كتابته سنة ١٠٩٤ ، وقد أخذت مصاحف الحافظ عثمان شهرة فائقة وللناس فيها رغبات زائدة . وفى المكتبة الخديوية أيضًا مجموعات خطوط بأقلام كثيرين من مشاهير الكتاب منها مجموعات خطوط مطبوعة ومأخوذة بالمصورة من خط محمود جلال الدين كتب بعضها سنة ١١٠٩ ، ومجموعاته المطبوعة تتخذ الآن أساليب لتعليم الخطوط فى المدارس المصرية .

ولا ريب أن النساخين فى العصر السالف كانوا يفنون أعمارهم النفيسة فى نسخ القليل من الكتب فضلًا عن المشاق التى كانوا يكابدونها فى النسخ ، ولذا كانت كتبهم

غالية القيمة جداً ، وأما الآن فالمطابع نسخت كل هذه الصعوبات ، وقربت البعيد وجعلت الكتب سهلة الحصول للغنى والفقير ، والذى اخترع فن الطباعة رجل جرمانى يسمى يوحنا غوتمبرج فى القرن الخامس عشر الميلادى (راجع الجزء الثانى من كتابنا دروس الأشياء) .

الفصل الثالث

فى الحروف ونقطها

حروف الخط العربى أُثرت عن السلف مرتبة ترتيبين : ترتيب أبجد هوز حطى كلمن سعفص قرشت ثخذ ضظغ ، وترتيب أ ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ع غ ف ق ك ل م ن هـ و لا ى ، وعلى الترتيب الأول نرى عددها ٢٨ حرفًا ، وعلى الثانى ٢٩ حرفًا فإن فيه أول حرف عبارة عن الألف اليابسة وهى الهمزة التى تقبل الحركات وأما الألف اللينة التى لا يمكن النطق بها على حدتها فجاء بها معتمدة على اللام فى (لا) ويحقق ذلك أنه وسطها بين حرفى العلة الواو والياء بخلاف الترتيب الأول فإنه أدرج قسمى الألف فى أول الحروف ، وإذا تأملت فى الترتيب الثانى تراه الأغلب ، جمع الحروف المقاربة فى الصورة الخطية أو النطق بعضها بجانب بعض بخلاف الترتيب الأول ، لكنهم يبنون عليه ما يسمونه بحساب الجمل فيجعلون من الألف إلى الطاء للآحاد ومن الياء إلى الصاد للعشرات ومن القاف إلى الظاء للمئات ويحسبون الغين بألف ، وكلا الترتيبين مبدوء بالألف قيل لأنها من أقصى الحلق وهو مبدأ المخارج وقيل لاستقامته كما أشار إلى ذلك يحيى بن زياد فى قوله :

ألف الكتابة وهو بعض حروفها   لما استقام على الجميع تقدما

ويظهر أن تعليم الهجاء على ترتيب أبجد سابق على الترتيب الآخر ، حكى عن عمر بن الخطاب أنه لقى أعرابيًا فقال له : هل تحسن أن تقرأ شيئًا من القرآن ، فقال نعم ، قال : فاقرأ أم القرآن ، فقال : والله ما أحسن البنات فكيف الأم ، قال : فضربه ثم أسلمه إلى الكتاب فمكث فيه حينًا فهرب، ثم أنشأ يقول :

أتيت مـهـاجـرين فـعـلمـونى	ثلاثة أسطر مـتـتـابعـات
كـتـاب الله فى رق صـحـيح	وآيات القـرآن مـفـصـلات
وخطـوا إلى أبـا جـاد وقـالوا	تعلم سـعـفـصا وقـريشـيـات
ومـا أنـا والكتـابـة والتـهـجى	ومـا خـط البـنين من البنات

وقال أحمد فارس : "أما ترتيب الحروف على أبجد فالظاهر أنه جرى على ترتيب اللغة السريانية إلى حرف التاء وهى فيها تاو ثم زادوا عليها ثخذ ضظغ لأن الثاء والخاء والذال ليس لها فيها شكل مخصوص ، وإنما تتميز عن الثاء والكاف والدال بالنقط ، وحرفا الضاد والظاء لا وجود لهما فيها لا رسمًا ولا نطقًا ، والغين تتميز عن الجيم التى تقدم ذكرها بنقطة فى جوفها"(*) . والمغاربة يخالفوننا فى ترتيب الأبجدية فهى عندهم أبجد هوز حطى كلمن صفعن قرست ثخذ ظغش ، ولهذا يخالف حساب جملهم ما عندنا فى ستة أحرف تعلم من مقارنة الترتيبين ، ويخالفوننا أيضًا فى الترتيب الثانى فهو عندهم أ ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز ط ظ ك ل م ن ص ض ع غ ف ق س ش هـ و لا ى ، وينقطون الفاء أسفل والقاف واحدة من فوق ويميلون كالترك بالضاد فى النطق نحو الظاء ، والفرس يكتبون لغتهم بالحروف العربية إلا أنهم يزيدونها أربعة أحرف :

١ - باء بثلاث نقط ينطق بها بين الباء العربية والفاء كما فى (بك) بمعنى جداً .

٢ - وجيمًا بثلاث نقط ينطق بها بين الشين والتاء كما فى (جوق) بمعنى كثير .

٣ - وزايًا بثلاث نقط ينطق بها بين الزاى والجيم العربيتين كما فى (مزدة) بمعنى بشرى .

٤ - وكاف ينطق بها كالجيم المصرية كما فى (كرد) بمعنى شجاع . وكذا الترك يكتبون لغتهم بالحروف العربية لكنهم زادوها هذه الأربعة السالفة وحرفًا خامسًا وهو كاف ينطق بها كالنون كما فى (بيكباشى) بمعنى رئيس ألف .

(*) لم يرد التنصيص فى الأصل (المحرر) .

كتابة الألفاظ غير العربية بالخط العربي : وكتّاب العربية إذا عرض لهم حرف من هذه الأحرف ردوه إلى أقرب الحروف إليه فأبدلوا الكاف الفارسية في (نركس) و (كلنار) عند التعريب بالجيم وكتبوا نرجس وجلنار ، وأبدلوا باء (بالوزة) الفارسية بالفاء وكتبوا (فالوذ) وعامة مصر يقولون (بالوظة) . قال ابن فارس في فقه اللغة : حدثني على بن أحمد الصباحي قال سمعت ابن دريد يقول : حروف لا تتكلم العرب بها إلا ضرورة فإذا اضطروا إليها حولوها عند التكلم إلى أقرب الحروف من مخارجها كالحرف الذى بين الباء والفاء مثل (بور) إذا اضطروا قالوا (فور) ، قال ابن فارس وهذا صحيح لأن بور ليس من كلام العرب ، فلذا يحتاج العربي عند تعريبه إياه أن يصيره فاء .

واستحسن بعض المتأخرين أن يتبع في كتابة هذه الأحرف ما يكتب عند أهلها بتعداد نقطها تنبيهًا على أنها دخيلة وأن يلفظ بها كنطقها الأصلي ، وهذا الاستحسان أتى له مما رآه ابن خلدون في مقدمته وهو (أعلم) أن الحروف في النطق في كيفيات الأصوات الخارجة من الحنجرة تعرض من تقطيع الصوت بقرع اللهاة وأطراف اللسان مع الحنك والحلق والأضراس أو بقرع الشفتين أيضا فتتغاير كيفيات الأصوات بتغاير ذلك القرع ، وتجيء الحروف متمايزة في السمع وتتركب منها الكلمات الدالة على ما في الضمائر ، وليست الأمم كلها متساوية في النطق بتلك الحروف ، فقد يكون لأمة من الحروف ما ليس لأمة أخرى ، والحروف التى نطقت بها العرب هي ثمانية وعشرون حرفًا ، ونجد للعبرانيين حروفًا ليست في لغتنا ، وفي لغتنا أيضا حروف ليست في لغتهم ، وكذا الإفرنج والترك والبربر وغير هؤلاء من العجم ، ثم إن أهل الكتاب من العرب اصطلحوا في الدلالة على حروفهم المسموعة بأوضاع حروف مكتوبة متميزة بأشخاصها كوضع ألف وباء وجيم وراء وطاء إلى آخر الثمانية والعشرين ، وإذا عرض لهم الحرف الذى ليس من حروف لغتهم بقي مهملًا عن الدلالة الكتابية مغفلًا عن البيان ، وربما يرسمه بعض الكتاب بشكل الحرف الذى يليه من لغتنا قبله أو بعده ، وليس ذلك بكافٍ في الدلالة بل هو تغيير للحرف من أصله ، ولما كان كتابنا مشتملًا على أخبار البربر وبعض العجم وكانت تعرض لنا في أسمائهم أو بعض كلماتهم حروف ليست من لغة كتابتنا ولا اصطلاح أوضاعنا اضطررنا إلى بيانه ولم نكتف برسم الحرف

الذى يليه كما قلنا ، لأنه عندنا غير واف بالدلالة عليه فاصطلحت فى كتابى هذا على أن أضع ذلك الحرف العجمى بما يدل على الحرفين اللذين يكتنفانه ليتوسط القارئ بالنطق به بين مخرجي ذينك الحرفين فتحصل تأديته ، وإنما اقتبست ذلك من رسم أهل المصحف حروف الإشمام كالصراط فى قراءة خلف فإن النطق بصاده فيها معجم متوسط بين الصاد والزاى فوضعوا الصاد ورسموا فى داخلها شكل الزاى ودل ذلك عندهم على التوسط بين الحرفين ، فكذلك رسمت أنا كل حرف يتوسط بين حرفين من حروفنا كالكاف المتوسطة عند البربر بين الكاف الصريحة عندنا والجيم أو القاف ، مثل اسم بلكين فأضعها كافا وأنقطها بنقطة الجيم واحدة من أسفل أو بنقطة القاف واحدة من فوق أو اثنين فيدل ذلك على أنه متوسط بين الكاف والجيم أو القاف ، وهذا الحرف أكثر ما يجيء فى لغة البربر ، وما جاء من غيره فعلى هذا القياس أضع الحرف المتوسط بين الحرفين من لغتنا بالحرفين معًا ليعلم القارئ أنه متوسط فينطق به كذلك فيكون قد دللنا عليه ولو وضعناه برسم الحرف الواحد عن جانبيه لكنا قد صرفناه من مخرجه إلى مخرج الحرف الذى من لغتنا وغيرنا لغة القوم .

وأقول ما استحسنه البعض وما رآه ابن خلدون أولًا لا يسرى حكمه على الألفاظ المعربة المدونة فى كتب اللغة ، وثانيًا إذا اتبعناه فى غير هذه الألفاظ وبالقياس عليه وضعنا أوضاعًا جديدة كتابية لتشخيص نطق الألفاظ الإفرنجية الدخيلة فى لسان تخاطبنا الآن وهى كثيرة جدًا ربما لا يسعها سفر ضخم تكلمنا بلسان غيرنا ونحونا بلهجتنا إلى منحى صعب غير مألوف لألسنتنا وربما تعذر أداؤه مع حركات النطق الأجنبية الغريبة عن حركاتنا ، فالأحسن طريقة السلف وهى إذا مست الحاجة إلى دخول لفظ أجنبى فى لغتنا يجب وضعه فى القالب العربى والنطق به على حسبه ، وبهذا يكون من عداد الألفاظ العربية . قال صاحب الصحاح تعريب الاسم الأعجمى أن تتفوه به العرب على منهاجها . وبالمثل نرى الإفرنج إذا أخذوا لفظًا من لغتنا فيه حاء أو خاء أو صاد أو ضاد أو طاء أو ظاء أو عين أو غين أو قاف حروف ليست فى لغاتهم حولوا هذه الحروف إلى ما يقرب منها وياليتهم اقتصروا على ذلك بل حرفوا الكلمات العربية جوهرها وعرضها ، فالفرنسيس قالوا فى صلاح الدين (سَلَدَنْ SALADIN) وفى ابن سينا (أَفِسين AVICENNE) . وفى ابن رشد (أفروويس

(AVFRROES) وفى رشـيـد (روزيت (ROSETTE)، كلمـات صـارت فى عـداد كلمـاتـهم مـدونة فى مـعـجمـاتـهم ، ومع هذا إذا كان الغرض مـجرد بيان النطـق الأجنبى والمقام مقام توقيف فـلا بأس بما اسـتـحسنه البـعض ، ويوضـع نقطة تحت الكاف لينطق بها جيمـا وفوقـها لينطق بهـا نونًا ، ووضـع ثلاث نقط فـوق الفاء لينطق بـهـا كـحـرف مـتـوسط بين الباء الفارسية والفاء العربيـة ، ووضـع ألف صغيرة فوق الحرف وياء بعده إذا أريد إمـالتـه ، ووضـع ضـمة وفـتـحة فوق الحـرف إذا أريد نطقه بـحركة مـتوسطـة بين الضـمـة والفتـحة ونحو ذلك ، كما ترى بعض هذا فـى أمثلة صلاح الدين وابن سينا وابن رشـد ورشيد السابقة فتدبر .

الفصل الرابع

فى علوم الخط

قد صنفوا علوماً مختلفة فى الخط منها ما يتعلق بأدواته من القلم والدواة والمداد والكاغد ، ونظم ابن البواب فى أدوات الكتابة قصيدة رائية ، ولياقوت رسالة فيها أيضا . قال عبد الحميد الكاتب المشهور لمسلم ابن قتيبة وقد رآه يكتب خطاً رديئاً إن كنت تحب أن تجود خطك فأطل جلفتك وأسمنها وجوف قطتك وأيمنها قال مسلم فعلت ذلك فجاد خطى . ومنها ما يتعلق بقوانين الكتابة أى فى كيفية نقش صور الحروف ، ولمحمد أفندى مؤنس المصرى رسالة فى ذلك سماها الميزان المألوف . ومنها ما يتعلق بتحسين الكتابة ويرجع ذلك إلى حسن تشكيل الحروف والى حسن وضع الكلمات . ومنها ما يتعلق بالإملاء وللشيخ نصر الهورينى كتاب جليل فى هذا الموضوع سماه المطالع النصرية ، وقد تمت تأليفاً وطبعاً سنة ١٢٧٥ للهجرة ، وأعيد طبعها بالمطبعة الأميرية سنة ١٣٠٢ ، وللشيخ مصطفى السفطى المؤدب بالمدارس المصرية رسالة مفيدة فى هذا الموضوع اسمها عنوان النجابة فى قواعد الكتابة ، وللفاضل السيد محمد الببلاوى وكيل المكتبة الخديوية منظومة لطيفة فى قواعد الرسم فرغ من تأليفها سنة ١٣٠٦ ، وهى مطبوعة فى مجموع المتون . ومنها ما يتعلق بخط المصحف فإن فيه أشياء جاءت مخالفة للقياس فتحفظ عن السلف لا يقاس عليها . ومثل خط المصحف فى عدم القياس عليه خط العروضيين فإنهم يكتبون فى تقطيع الشعر ما يلفظونه تماماً ، فيكتبون التنوين نوناً والحرف المشدد بحرفين ويحذفون الـ الشمسية ونحو ذلك . قال ابن درستويه خطان لا يقاس عليهما خط المصحف لأنه سنة وخط العروض لأنه يكتب فيه ما أثبته اللفظ ويسقط عنه ما أسقطه .

الباب الثالث : فى تاريخ الشعر

(وفيه فصول)

الفصل الأول

فى تعريف الشعر وفنونه ووجه تعلمه

١ - تعريف الشعر : الشعر لغة العلم والفطنة ومنه ليت شعرى ، ثم غلب على منظوم الكلام لشرفه بالوزن والقافية ، كما غلب الفقه على علم الشرع والنجم على الثريا ومنه حديث : "إن من الشعر لحكمة فإذا ألبس عليكم شىء من القرآن فالتمسوه فى الشعر" . قال فى المزهر : "وكان الكلام كله منثوراً فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها وطيب أعراقها وذكر أيامها الصالحة وأوطانها النازحة وفرسانها الأنجاد وسمائحها الأجواد ، لتهز نفوسها إلى الكرم وتدل أبناءها على حسن الشيم ، فتوهموا أعاريض فعملوها موازين للكلام ، فلما تم لهم وزنه سموه شعراً لأنهم شعروا به" (*) . والمناطقة يشترطون فى الشعر الخيال لا الوزن ، فإنهم أطلقوه على القياس المركب من قضايا خيالية تؤثر فى النفس ، فتصير مبدأ فعل أو ترك أو رضا أو سخط أو بسط أو قبض أو لذة أو ألم ، وجاءهم هذا من الشعر اليونانى فإن المنطق مأخوذ عن اليونان ، والشعر بهذا المعنى يفيد عند الاستعطاف والاستقضاء وفى الإقدام إلى الهيجاء ونحو ذلك ما لا يفيده البرهان ، فإن النفس أطوع إلى التخييل منها إلى التصديق لأنه إليها ألذ وأغرب ، ثم قالوا ويزيد فى تأثيره الوزن والصوت . قال عبد الغنى النابلسى :

لا تلمنى إن السماع يقيت   و هو يحيى بطيبه ويميت

(*) لم يرد التنصيص فى الأصل (المحرر) .

وقال طرفة :

تغنّ فى كل شــعــر أنت قــائله   إن الغناء لهــذا الشـعـر مـضـمـار

وقال العطار من لم يتأثر برقيق الأشعار تتلى بلسان الأوتار على شطوط الأنهار في ظلال الأشجار فذلك جلف الطبع حمار :

من كل معنى لطيف أحتسى قدحا   وكل سـاجـعـة فى الكـون تطربنى

ونحن نشاهد أهل الصناعة الشاقة يستعينون عليها بالتغنى . والإبل عند كلالها ينشطها صوت الحادى والمغنى . وشجعان العرب تتمثل بالأشعار وتلقى نفسها عند ذلك في مهالك الأخطار فلا تبالى بمواقع السيوف ولا بوارق الحتوف . وقال شارح سلم العلوم : "ولابد فى الشعر من أن يكون جارياً على قانون اللغة ، وأن يكون ذا استعارات لطيفة أو تشبيهات بديعة ، وأن تكون قضاياه بحيث تؤثر فى النفس سواء كانت صادقة أو كاذبة فلا يجوز فيه استعمال الأوليات الغير المؤثرة ويجوز استعمال المخيلات ولو كاذبة مستحيلة ، وقد يستنتج منه اجتماع الضدين نحو أنا مضمر الشكوى باللسان مظهرها بالدموع وكل مضمر صامت وكل مظهر متكلم فأنا صامت متكلم ويقرب من هذا :

أشـكـو وأشـكـر فـــــعـلـه   فـأعـجب لشـاك منه شـاكـر»(*)

ويظهر أن الاقتصار فى تعريف الشعر على الوزن والتقفية آت من اصطلاح العروضيين فإنهم لا يبحثون عنه إلا من هذه الجهة ، وإن الشعر فى اعتبار الأديب يجمع بين شرطى الوزن والخيال كقوله :

والشـمس لاتشـرب خـمـر الندى   فى الروض إلا من كؤوس الشـقيق

لكن ذلك يخرج من الشعر ما هو منه ، فإن كثيراً من منظوم الكلام مع جودته يخلو من القضايا الخيالية ، كقول زهير :

(*) لم يرد التنصيص فى الأصل (المحرر) .

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله   على قومه يستغن عنه ويذمم

وقول لبيد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل   وكل نعيم لا محالة زائل

وقول عنترة :

لا يحمل الحقد من تعلو به الرتب   ولا ينال العلى من طبعه الغضب

فمثل هذا خال من الخيال مركب من قضايا أولية . ولا يسعنا أن ننكر أنه شعر جيد فى باب الحكم ، على أن شرط الخيال مع الوزن لا يستقيم معه تقسيمهم الشعر إلى خمسة أقسام مرقص كقوله :

ومهفهف يحمية عن نظر الورى   غيران سكنى الملك تحت قبابه

أومأ إلىّ ائتنى فأتيته   والفجر ينظر من خلال سحابه

فضممته للصدر حتى استوهبت   منى ثيابى بعض طيب ثيابه

وكأن قلبى من وراء ضلوعه   طربًا يخبر قلبه عما به

ومطرب كقوله :

لك قد لولا جوارح عينيـ   ـك لغنت عليه وُرْقُ الحمام

ومقبول كقول زهير :

ومن يجعل المعروف فى غير أهله   يعد حمده ذما عليه ويندم

ومسموع مما يستقيم به الوزن كقول ابن الرومى :

بجهل كجهل السيف والسيف منتضى   وحلم كحلم السيف والسيف مغمد

ومتروك يمجه الطبع كقوله :

تقلقلت بالهم الذى قلقل الحشا   قلاقل هم كلهن قلاقل

ومع هذا فالشعر الخيالى أجذب للنفس وأشد تأثيراً فيها من غيره ، فهو الأحق بأن يسمى شعرا . وعرف الشعر ابن خلدون بعد أن أطال فيه القول بأنه "الكلام البليغ المبنى على الاستعارة والأوصاف ، المفصل بأجزاء متفقة فى الوزن مستقل كل جزء منها فى غرضه ومقصده عما قبله وبعده ، الجارى على أساليب العرب المخصوصة" . ثم قال : "فقولنا الكلام البليغ جنس ، وقولنا المبنى على الاستعارة والأوصاف فصل له عما يخلو من هذه ، فإنه فى الغالب ليس بشعر ، وقولنا المفصل بأجزاء متفقة فى الوزن والروى فصل له عن الكلام المنثور الذى ليس شعراً عند الكل ، وقولنا مستقل كل جزء منها فى غرضه ومقصده عما قبله وبعده بيان للحقيقة ، لأن الشعر لا تكون أبياته إلا كذلك ولم يفصل به شىء ، وقولنا الجارى على الأساليب المخصوصة به فصل له عما لم يجر منه على أساليب العرب المعروفة فإنه حينئذ لا يكون شعراً إنما هو كلام منظوم لأن الشعر له أساليب تخصه لا تكون للمنثور وكذا أساليب المنثور لا تكون للشعر فما كان من الكلام منظوماً وليس على تلك الأساليب فلا يكون شعراً ، وبهذا الاعتبار كان الكثير ممن لقيناه من شيوخنا فى هذه الصناعة الأدبية يرون أن نظم المتنبى والمعرى ليس هو من الشعر فى شىء لأنهما لم يجريا على أساليب العرب"(*) .

٢ – **فنون الشعر** : جعل أبوتمام فنون الشعر عشرة : الحماسة والمراثى والأدب والنسيب والهجاء والإضافات والصفات والسير والملح ومذمة النساء ، وبنى عليها كتاب الحماسة ومما جاء به :

(*) لم يرد التنصيص فى الأصل (المحرر) .

- في باب الحماسة قول الفِنْد الزِّمّاني في حرب البسوس :

صفحنا عن بني ذهل وقلنا القوم إخوان
عسى الأيام أن يرجعـ ـن قوما كالذي كانوا
فلما صرّح الشر فأمسى وهو عُرْيان
ولم يبق سوى العدوا ن دناهم كما دانوا
مشينا مشية الليث غدا والليث غضبان
بضرب فيه توهين وتخضيع وإقران
وطعن كفم الزقّ غذا والزق ملآن
وبعض الحلم عند الجهـ ـل للذلة إذعان
وفي الشر نجاة حيـ ـن لا ينجيك إحسان

- وفي باب المراثي قول مهلهل :

نبئت أن النار بعدك أوقدت واستب بعدك يا كليب المجلس
وتكلموا في أمر كل عظيمة لو كنت شاهدهم بها لم ينبسوا
وإذا تشاء رأيت وجها واضحًا وذراع باكية عليها برنس
تبكي عليك ولست لائم حرة تأسى عليك بعبرة وتنقسُ

- وفي باب الأدب قول مسكين الدارمي :

وفتيان صدق لست مطلع بعضهم على سر بعض غير أني جماعها
لكل امرئ شعب من القلب فارغ وموضع نجوى لا يرام اطلاعها
يظلون شتى في البلاد وسرهم إلى صخرة أعيا الرجال انصداعها

- **وفى باب النسيب قول نصيب :**

كـأن القلب ليلة قيل يغدى	بليلى العامرية أو يراح
قطاة عزها[1] شرك فباتت	تجاذبه وقد علق الجناح
لها فرخان قد تركا بوكر	فعشهما تصفقه الرياح
إذا سمعا هبوب الريح نصا[2]	وقد أودى بها القدر المتاح
فلا فى الليل نالت ما ترجى	ولا فى الصبح كان لها براح

- **وفى باب الهجاء قول آخر :**

إذا بكرية ولدت غلاما	فيالؤما لذلك من غلام
يزاحم فى المآدب كل عبد	وليس لدى الحفاظ بذى زحام

- **وفى باب الإضافة والمدح قول عتيبة المازنى :**

ومستنبح بات الصدى يستيهه[3]	إلى كل صوت فهو فى الرحل جانح
فقلت لأهلى ما بغام مطية	وسار إضافته الكلابُ النوابحُ
فقالوا غريب طارق طوحت به	متون الفيافى والخطوب الطوارح
فقمت ولم أجثم مكانى ولم تقم	مع النفس علات البخيل الفواضح
وناديت شبلا فاستجاب وربما	ضمنا قرى عشر لمن لا نصافح
فقام أبو ضيف كريم كأنه	وقد جد من فرط الفكاهة مازح
إلى جذم مال قد نهكنا سوامه[4]	أعارضنا فيه بواق صحائح
جعلناه دون الذم حتى كأنه	إذا عد مال المكثرين المنائح[5]
لنا حمد أرباب المئين ولا	يرى إلى بيتنا مال مع الليل رائح

- وفى باب الصفات قول البعيث الحنفى :

وهاجرة يشوى مهاها سمومها   طبخت بها عيرانة واشتويتها
مفرجة منفوجة حضرمية   مساندة سر المهارى انتقيتها
فطرت بها شجعاء قرواء جرشعا   إذا عد مجد العيس قدم بيتها
وجدت أباها رائضيها وأمها   فأعطيت فيها الحكم حتى حويتها

- وفى باب السير والنعاس قول الخطيم :

وقال وقد مالت به نشوة ا لكرى   نعاسا ومن يعلق سرى الليل يكسل
انخ نعط أنضاء النعاس دواءها   قليلا ورفه عن قلائص ذبل
فقلت له كيف الإناخة بعد ما   حدا الليل عريان الطريقة منجلى

- وفى باب المنح قول بعض الحجازيين :

خبروها بأننى قد تزوجـ   ـت فظلت تكاتم الغيظ سرا
ثم قالت لأختها ولأخرى   جزعا ليته تزوج عشرا
وأشارت إلى نساء لديها   لا ترى دونهن للسر سترا
ما لقلبى كأنه ليس منى   وعظامى كأن فيهن فترا
من حديث نما إلى فظيع   خلت فى القلب من تلظيه جمرا

- وفى باب مذمة النساء قول آخر فى امرأة طلقها :

رحلت أنيسة بالطلاق   وعتقت من رق الوثائق
بانت فلم يألم لها   قلبى ولم تبك المآقى

ودواء مـــالا تـشـــتـــهـــيـ ـــه النفس تـعـــجـــيل الفـــراق
لـو لم أرح بـفـــراقـــهـــا لأرحـت نـفـــســـى بـالإبـاق
وخـــصـــيـت نفـــسى لا أريـــد ـــد حليلـة حـــتـى التـــلاقى

وقال عبد العزيز ابن أبى الإصبع الذى وقع لى أن فنون الشعر ثمانية عشر فنًا : غزل ووصف وفخر ومدح وهجاء وعتاب واعتذار وأدب وزهد وخمريات ومراث وبشارة وتهان ووعيد وتحذير وتحريض وملح وباب مفرد للسؤال والجواب .

٣ – **وجه تعلم الشعر** : إذا أردت أن تقول الشعر فتخير أولاً من أشعار الشعراء النوابغ الشعر الرصين ذا الخيالات والأساليب ، واحفظ كثيراً منه وتفهم معانيه ، فبهذا تتكيف نفسك وتشحذ قريحتك وتتهيأ للنظم ، فأقبل عليه وأكثر منه تزكو فيك ملكته . قال الخوارزمى : من روى حوليات زهير واعتذارات النابغة وحماسيات عنترة وأهاجى الحطيئة وهاشميات الكميت ونقائض جرير وخمريات أبى نواس ومراثى أبى تمام ومدائح البحترى وروضيات الصنوبرى ولطائف كشاجم ولم يخرج إلى الشعر فلا أشب الله قرنه . وإذا خلوت فى مكان يروق فيه نظر المياه وتزكو نفحة الأزهار ويطيب استنشاق الهواء ويستلذ المسموع أجممت فؤادك ونشطت القريحة إلى الشعر . قالت الحكماء لم يستدع شارد الشعر بأحسن من الماء الجارى والمكان الخالى والشرف العالى . ولقى أبو العتاهية الحسن بن هانئ فقال له أنت الذى لا تقول الشعر حتى تؤتى بالرياحين والزهور فتوضع بين يديك ، قال وكيف ينبغى للشعر أن يقال إلا على هكذا ، قال أما أنى أقوله على الكنيف قال ولذلك توجد فيه الرائحة . ولابد أن يكون فيك ما يبعث عليه ، قال ابن رشيق : ومن بواعثه العشق والانتشاء ، قيل لكثير عزة ولم تركت الشعر ، قال ذهب الشباب فما أعجب وماتت عزة فما أطرب ومات عبد العزيز فما أرغب ، يريد عبد العزيز بن مروان . وتخير لعمل شعرك باكورة نهارك عندما تهب من النوم ، قال الفرزدق من أسلس ما يكون الشعر فى أول الليل قبل الكرى وأول النهار قبل الغداء وعند مناجاة النفس واجتماع الفكر . فإذا استعصى عليك بعد هذا كله فراوضه فى وقت آخر . قال ابن خلدون فإن القريحة مثل الضرع يدر بالإمتراء ويجف بالترك والإهمال ، قيل لكثير عزة يا أبا صخر كيف تصنع إذا

عسر عليك الشعر قال أطوف فى الرباع المحيلة والرياض المعشبة فإن نفرت عنك القوافى وأعيت عليك المعانى فروح قلبك واجم ذهنك وارتصد لقولك فراغ بالك فإنك تجد فى تلك الساعة ما يمتنع عليك يومك الأطول وليلك الأجمع . وضع قوافى قصيدتك أوّلا وابن عليها الأبيات لئلا تجيء القوافى نافرة عن محالها ، وإذا جادت قريحتك ببيت لا يناسب سابقه فاتركه إلى موضعه الأليق به ، وليكن شعرك فصيحاً بليغًا يمضى مع النفس تسابق معاينه ألفاظه إلى الفهم ، ذا تأثير فى الطباع ففى الحماس يكون مهجيًا للقوة مثيراً للخواطر باعثًا على الحمية ، وفى العتاب يكون هادياً للموافقة مولداً للرضا إلى غير ذلك ، وراجع شعرك بعد الفراغ منه ونقحه . فقد روى أن زهير بن أبى سلمى كان ينظم القصيدة فى شهر وينقحها فى سنة ولذا كانت قصائده تسمى بالحوليات .

روى عن البحترى أنه قال : "كنت فى حداثتى أروم الشعر وكنت أرجع فيه إلى طبعى ولم أكن أقف على تسهيل مأخذه ووجوه اقتضابه ، حتى قصدت أبا تمام وانقطعت فيه إليه واتكلت فى تعريفه عليه فكان أول ما قال يا أبا عبادة تخير الأوقات وأنت قليل الهموم صفر من الغموم ، واعلم أن العادة جرت فى الأوقات إن يقصد الإنسان لتأليف شيء أو حفظه فى وقت السحر وذلك أن النفس تكون قد أخذت حظها من الراحة وقسطها من النوم ، وإن أردت التشبيب فاجعل اللفظ رقيقًا والمعنى رشيقًا وأكثر فيه من بيان الصبابة وتوجع الكآبة وقلق الأشواق ولوعة الفراق ، فإذا أخذت فى مديح سيد ذى أياد فأشهر مناقبه وأظهر مناسبه وابن معالمه وشرف مقامه ، ونضد المعانى واحذر المجهول منها ، وإياك أن تشين شعرك بالألفاظ الرديئة وكن كأنك خياط يقطع للثياب على مقادير الأجساد ، وإذا عارضك الضجر فأرح نفسك ولا تعمل شعرك إلا وأنت فارغ القلب ، واجعل شهوتك لقول الشعر الذريعة إلى حسن نظمه ، فإن الشهوة نعم المعين ، وجملة الحال أن تعتبر شعرك بما سلف من شعر الماضين فما استحسن العلماء فاقصده وما تركوه فاجتنبه ترشد إن شاء الله ، قال فأعملت نفسى فيما قال فوقفت على السياسة" .

الفصل الثانى

فى تاريخ الشعر

الشعر قالته العرب من قديم من عهد عاد وثمود والعمالقة كما يدل على ذلك رواية بعض أخبارهم ، إلا أنه لما كانت أحوال الأمم فى هذه الأعصر الغابرة مدرجة تحت طى الخفاء لم تصل إلينا أشعار شعرائهم ولا أخبارهم مفصلة حتى نتعرف منها سير الشعر وترقيه ، ولم يزل الأمر مستوراً إلى أن جاء عصر آل المنذر ملوك الحيرة قبل الإسلام بنحو مائة سنة فأكثر ، فبرح الخفاء وأخذ الشعر فى الظهور والنماء ، وأولع العرب به حتى صار ديدنًا لهم وسجية فيهم ومبلغ علمهم وحكمتهم وأدبهم ، يقولونه رجالًا ونساء فى فنون مختلفة كالحماسة والفخر والنسيب والحكم والآداب والأخلاق والمدح والهجاء والرثاء والاعتذار والوعيد والعقاب والشكوى وذكر المنازل والطلول ووصف الظباء والغزلان وتاريخ الوقائع وأيام الحروب وغير ذلك ، ولذا قيل الشعر ديوان العرب . قال الخطيب التبريزى : "به يحفظون المكارم والمناسب ويقيدون به الأيام والمناقب ويخلدون به معالم الثناء ويبقون به مواسم الهجاء ويضمنونه ذكر وقائعهم فى أعدائهم ويستودعونه حفظ صنائعهم إلى أوليائهم" (*) .

وكان للعرب أسواق يقيمونها ، يعرضون فيها أشعارهم إما ارتجالًا وإما استحضاراً . روى أن النابغة الذبيانى كانت تضرب له قبة حمراء فى سوق عكاظ ، فيجلس الشعراء العرب على كرسى وتأتيه الشعراء فتنشده أشعارها ، فيفضل من يرى تفضيله ، فأنشده فى بعض المواسم الأعشى ثم حسان بن ثابت ثم الخنساء

(*) لم يرد التنصيص فى الأصل (المحرر) .

فأعجبه شعرها ، فقال لها اذهبي فأنت أشعر من كل ذات ثديين ولولا أن أبا بصير (يريد الأعشى) أنشدني قبلك لفضلتك على شعراء هذا الموسم فإنك أشعر الإنس والجن ، فلما أن سمع حسان ذلك غضب وقال أنا أشعر منك ومنها ، فقال له يا ابن أخي ليس الأمر كما ظننت ، ثم التفت إلى الخنساء وقال خاطبيه يا خناس ، فالتفتت إليه الخنساء وقالت ما أجود بيت في قصيدتك هذه التي عرضتها آنفا قال قولي فيها :

لنا الجفنات الغر يلمعن في الضحى وأسيافنا يقطرن من نجده دما

قالت ضعفت افتخارك وأنزرته في ثمانية مواضع في بيتك هذا ، قال وكيف ، قالت قلت (لنا الجفنات) والجفنات ما دون العشر ولو قلت الجفان لكان أكثر ، وقلت (الغر) بياض في الجبهة ولو قلت البيض لكان أكثر اتساعاً ، وقلت (يلمعن) واللمعان شيء يأتي بعد شيء ولو قلت يشرقن لكان أكثر لأن الإشراق أدوم من اللمعان ، وقلت (بالضحى) ولو قلت بالدجى لكان أكثر طراقًا ، وقلت (أسياف) والأسياف ما دون العشرة ولو قلت سيوف لكان أكثر ، وقلت (يقطرن) ولو قلت يسلن لكان أكثر ، وقلت (دما) والدماء أكثر من الدم ، فسكت حسان ولم يحز جواباً .

المعلقات السبع : ومن أشهر شعر العرب القصائد السبع المشهورة بالمعلقات لأنها علقت على الكعبة احتراما لها ، وأصحابها امرؤ القيس الكندى وطرفة بن العبد وزهير بن أبي سلمى المزني ولبيد بن ربيعة العامري وعمرو بن كلثوم وعنترة بن شداد العبسي والحارث بن حلزة اليشكري . ورأيت على هامش شرح الزوزني لهذه المعلقات مانصه : "إنما سميت المعلقات لأن العرب في الجاهلية كان الرجل منهم يقول الشعر في أقصى الأرض فلا يعبأ به ولا ينشده أحداً حتى يأتي مكة فيعرضه على أندية قريش فإن استحسنوه روى ، وكان فخراً لقائله وإن لم يستحسنوه طرح ولم يعبأ به . قال أبو عمرو بن العلاء : وكانت العرب تجتمع في كل عام بمكة وكانت تعرض أشعارها على هذا الحي من قريش . قال ابن الكلبي : فأول شعر علق في الجاهلية شعر امرئ القيس علق على ركن من أركان الكعبه أيام الموسم حتى نظر إليه ، فعلقت الشعراء بعده . وكان ذلك فخر للعرب في الجاهلية وعدد من علق شعره سبعة إلا أن عبد الملك طرح شعر أربعة منهم وأثبت مكانهم أربعة : وروى آخرون أن بعض أمراء

بنى أمية أمر من اختار له سبعة أشعار فسماها المعلقات الثواني" . قال حماد الراوية كانت العرب تعرض أشعارها على قريش فما قبلوا منه كان مقبولًا ، وما ردوا منه كان مردودًا ، فقدم عليهم علقمة الفحل فأنشدهم قصيدته التى أولها :

هل ما علمت وما استودعت مكتوم   أم حبلها إذ نأتك اليوم مصروم

فقالوا : هذه سمط الدهر ، ثم عاد إليهم العام المقبل فأنشدهم قصيدته التى أولها :

طحا بك قلب فى احسان طروب   بعيد الشباب عصر حان مشيب

فقالوا : هاتان سمطا الدهر .

وكان للبداوة والحضارة تأثير على الشعر ، فكان شعر البدوى يدور بين جبل وجمل وحط وترحال ورداء وخباء وصيال ونزال وقتام وغمام وما أشبه ذلك من مشاهده التى هو فيها ، وشعر الحضري بين قصور وحور وترف ولهو وطرب وخلاعة وما شاكل ذلك .

وكان الشعر ذا تأثير واعتبار فى النفوس ، فكان الشاعر يرفع قومًا ويخفض آخرين بشعره ، مما يرشد إلى ذلك ما جاء فى ترجمة الأعشى فى الأغانى من أنه كان لأبى المحلق شرف فمات وقد أتلف ماله ، وبقى المحلق وثلاث إخوات له ، ولم يترك لهم إلا ناقة واحدة وحلتى برود جيدة كان يسد بها الحقوق ، فأقبل الأعشى من بعض أسفاره يريد منزله باليمامة ، فنزل الماء الذى به المحلق فقراه أهل الماء فأحسنوا قراه ، فأقبلت عمة المحلق فقالت يا ابن أخى هذا الأعشى قد نزل بمائنا ، وقد قراه أهل الماء ، والعرب تزعم أنه لم يمدح قومًا إلا رفعهم ولم يهج قومًا إلا وضعهم ، فانظر ما أقول لك واحتل فى زق من خمر من عند بعض التجار فأرسل إليه بهذه الناقة والزق وبردتى أبيك فو الله لئن اعتلج الكبد والسنام والخمر فى جوفه ونظر إلى عطفيه فى البردتين ليقولن فيك شعرًا يرفعك به ، قال ما أملك غير هذه الناقة وأنا أتوقع رسلها فأقبل يدخل ويخرج ويهم ولا يفعل فكلما دخل على عمته حضته حتى دخل عليها ، فقال قد ارتحل الرجل ومضى ، قالت الآن والله أحسن ما كان القرى تتبعه ذلك مع غلام أبيك ، مولى له أسود شيخ ، فحيثما لحقه أخبره عنك أنك كنت غائبًا عن الماء عند نزوله إياه

وأنت لما وردت الماء فعلمت أنه كان به كرهت أن يفوتك قراه ، فإن هذا أحسن لموقعه عنده ، فلم تزل تحضه حتى أتى بعض التجار فكلمه أن يقرضه ثمن زق خمر وأتاه بمن يضمن ذلك عنه فأعطاه ، فوجه بالناقة والخمر والبردين مع مولى أبيه فخرج يتبعه فكلما مر بماء قيل ارتحل أمس عنه حتى صار إلى منزل الأعشى بمفتوحة اليمامة ، فوجد عنده عدة من الفتيان قد غداهم بغير لحم وصب لهم فضيخا فهم يشربون منه إذ قرع الباب فقال انظروا من هذا فخرجوا فاذا رسول المحلق يقول كذا وكذا ، فدخلوا عليه وقالوا هذا رسول المحلق الكلابى أتاك بكيت وكيت ، فقال ويحكم أعرابى والذى أرسل إلىّ لاقدر له ، والله لئن اعتلج الكبد والسنام والخمر فى جوفى لأقولن فيه شعراً لم أقل قط مثله ، فواثبه الفتيان وقالوا غبت عنا فأطلت الغيبة ثم أتيناك فلم تطعمنا لحمًا وسقيتنا الفضيخ واللحم والخمر ببابك لا نرضى بذا منك ، فقال ائذنوا له فدخل فأدى الرسالة وقد أناخ الجزور بالباب ووضع الزق والبردين بين يديه قال أقره السلام وقل له وصلتك رحم سيأتيك ثناؤنا ، وقام الفتيان إلى الجزور فنحروها وشقوا خاصرتها عن كبدها وجلدها عن سنامها ، ثم جاؤا بها فأقبلوا يشوون وصبوا الخمر فشربوا وأكل معهم وشرب ولبس البردين ونظر إلى عطفيه فيها فأنشأ يقول :

أرقت وما هذا السهاد المؤرق ... رما بى من سقم وما بى معشق

ولكنى أرانى لا أزال بحادث ... أغادى بما لم يمس عندى وأطرق

حتى انتهى إلى قوله :

أبا مسمع سار الذى قد فعلتم ... فانجد أقوام به ثم أعرقوا

به تعقد الإجمال فى كل منزل ... وتعقد أطراف الحبال وتطلق

قال فسار الشعر وشاع فى العرب فما أتت على المحلق سنة حتى زوج إخواته الثلاث كل واحدة على مائة ناقة فأيسر وشرف . وقال ابن رشيق : وكانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها بذلك وصنعت الأطعمة ، واجتمعت

النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعن فى الأعراس وتتباشر الرجال والولدان ، لأنه حماية لأعراضهم وذب عن أحسابهم وتخليد لمآثرهم وإشاره لذكرهم ، وكانوا يهنأون إما بغلام يولد أو شاعر ينبغ فيهم أو فرس تنتج .

تأثير الإسلام على الشعر : وفى أول الإسلام انصرف العرب عن الشعر بما شغلهم من أمر الدين والنبوة والوحى وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه ، ولكنهم رجعوا إليه لما علموا أن لا حظر عليه فيما أتاهم به النبى بل رأوه عليه الصلاة والسلام يسمعه ويثيب عليه فقد أجاز كعب بن زهير برداً حين مدحه بقصيدته التى أولها :

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول ... متيم إثرها لم يفد مكبول

ويروى أن كعباً باع البرد إلى معاوية بعشرين ألف درهم . قال عمر بن الخطاب "كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ، ولهت عن الشعر وروايته ، فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر فلم يولوا إلى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب وألفوا ذلك ، وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل فحفظوا أقل ذلك وذهب عنهم كثير ، وقد كان عند آل النعمان بن المنذر منه ديوان فيه أشعار الفحول وما مدح به هو وأهل بيته فصار ذلك إلى بنى مروان أو ما صار منه" . وبعد الإسلام بزمن لما كثر تمدن العرب وتحضرهم واختلاطهم بأهل الأمصار أخذ الشعراء فى التأنق فى الشعر ، فرق وحسن ولبس صبغة غير صبغته التى كان عليها عصر الجاهلية ، وبالإجمال حضارة الإسلام سلت عن الشعر رداء المعاظلة والحوشية وألبسته حلل الرقة والملاحة ، انظر إلى قول جرير :

إن العيون التى فى طرفها حور ... قتلتنا ثم لم يحيين قتلانا

يصر عن ذا اللب حتى لا حراك به ... وهن أضعف خلق الله إنسانا

ومما كان يساعد على ترقى الشعر أن الخلفاء والأمراء كان يثيبون الشعراء المجيدين ويقربونهم من مجالسهم ، فكان الشاعر ينفتق لسانه بالشعر المليح رغبة فى الجائزة أو طمعًا فى الجاه ، وقد ينتجع بشعره قاصداً الممدوح مع بعد الشقة طلبًا لنواله ، وقد انتجع أبو نواس من بغداد قاصداً الخصيب بن عبد الحميد أمير مصر من قبل الرشيد ومدحه بقصيدته التى أولها :

أجـــارة بيـــتنا أبـوك غـــيـــور   ومـيـسور مـا يرجى لديـك عسـيـر

فغمره بإحسانه ورده إلى أوطانه .

اعتبار الشعر بعد الإسلام : ولم تزل درجه الشعر عالية واعتباره فى النفوس باقيًا عصر الخلفاء الرشدين وخلفاء بنى أمية ، فقد روى أن بنى عبد المدان كانوا يفخرون بطول أجسامهم حتى قال فيهم حسان :

لا بأس بالقـوم من طول ومن غلظ   جـسم البـغال وأحـلام العـصـافيـر

فقالوا له يا أبا الوليد لقد تركتنا ونحن نستحى من ذكر أجسامنا بعد أن كنا نفخر بها ، فقال لهم سأصلح منكم ما أفسدت فقال فيهم :

وقـــــد كنـا نقـــــول إذا رأينـا   لذى جـــسم يعـــد وذى بـيـــان

كـــأنك أيهـــا المعطـى لســـانا   وجــســمــا من بنى عــبــد المدان

وروى أن الزبرقان بن بدر لما هجاه الحطيئة بشعر قال فيه :

دع المكارم لا ترحـل لبـغـيـتـهـا   وأقـعد فـإنك أنت الطاعم الكاسى

حط من أمره فرفع أمره إلى عمر بن الخطاب وأنشده البيت ، فقال ما أرى به بأسا ، قال الزبرقان والله يا أمير المؤمنين ما هجيت بيت قط أشد على منه ، فبعث إلى حسان بن ثابت وقال انظر إن كان هجاه ، فقال ما هجاه ولكن بسلح عليه ، فأمر الأمير بحبس الحطيئة ، فكتب إليه وهو فى الحبس :

ماذا تقول لأفراخ بذى مرخ زغب الحواصل لاماء ولا شجر
ألقيت كاسبهم فى قعر مظلمة فاغفر عليك سلام الله يا عمر
أنت الإمام الذى من بعد صاحبه ألقيت إليك مقاليد النهى البشر
ما أثروك بها إذ قدموك لها لكن لأنفسهم قد كانت الأثر

فأمر بإطلاقه وأخذ عليه أن لا يهجوا أحداً . وكان بنو نمير أشراف قيس ونوائبها ، فلما هجا جرير راعيهم بقوله :

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا

اتضع اسمهم وانحط شأنهم . وروى أن جريراً دخل على عبد الملك بن مروان فأنشده قصيدته التى أولها :

أتصحو أم فؤادك غير صاحى عشية هم صحبك بالرواح
تقول العاذلات علاك شيب أهذا الشيب يمنعنى مزاحى
تعزت أم حرزة ثم قالت رأيت الموردين ذوى لقاح
ثقى بالله ليس له شريك ومن عند الخليفة بالنجاح
سأشكر إن أردت إلى ريشى وأنبت القوادم فى جناحى
ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

فلما انتهى جرير إلى هذا البيت كان عبد الملك متكئا فاستوى جالسًا ، وقال من مدحنا منكم فليمدحنا بمثل هذا أو فليسكت ، ثم أجاز جريراً بمائة ناقة .

ثم أخذ اعتبار الشعر يتناقص فى غضون دولة بنى العباس لما كان يأخذ به الشعراء من مس شرف ذوى المقامات . فمن ذلك ما روى أن بشار بن برد فى خلافة المهدى ثالث خلفاء بنى العباس استنهض بنى أمية فى استرداد الخلافة إليهم ، مدعياً أن الخليفة مغمور فى ملاهيه وأن القائم بأعباء الخلافة وزيره يعقوب بن داود ، فقال فى ذلك :

بنى أميــــة هبـــوا طال نومـكم	إن الخليـفـة يعـقـوب بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا	خليـفـة الله بين الناى والعـود

فضربه حتى مات وقيل إن بشار بن برد هجا صالح بن داود أخا يعقوب حين ولى فقال :

همـو حـملوا فـوق المنابر صـالحـا	أخـاك فـضـجت من أخـيك المنابر

فبلغ يعقوب هجاؤه فدخل على المهدى فقال إن هذا الأعمى المشرك قد هجا الخليفة ، قال وما قال ، قال يعفينى أمير المؤمنين من إنشاده فأبى أن يعفيه فأنشده :

خليـفـة يزنى بعـمـاته	يلـعب بالدبوق والصـولجـان
أبدلنا الله به غـيـره	ودس مـوسـى فى حـر الخـيزران

فوجه فى حمله ، فخاف يعقوب أن يقدم على المهدى فيمدحه فيعفو عنه فوجه إليه من يلقيه فى البطيحة . وفى القرون الأخيرة مالت الأنظار عن الشعر وقلت جوائزه .

تقسيم الشعر إلى أربع طبقات : وقد قسم الشعر إلى أربع طبقات ، شعر جاهلى وهو شعر من جاء قبل الإسلام كشعر امرئ القيس وزهير بن أبى سلمى المتوفى قبل الإسلام بنحو سنة ، وشعر مخضرم وهو شعر من أدرك عصر الجاهلية والإسلام كشعر الأعشى والحطيئة ، وشعر إسلامى كشعر شعراء الدولة الأموية مثل الفرزدق

وجرير ، وشعر مولد كشعر شعراء الدولة العباسية مثل أبى نواس وأبى فراس الحمدانى المتوفى سنة ٣٥٧ ، قالوا إن الشعر ختم بأبى فراس كما بدئ بامرئ القيس الكندى .

الاستشهاد بالشعر فى العلوم : وشعر الطبقة الأولى والثانية يستشهد به فى اللغة وغيرها ، وأما شعر الثالثة(*) فالصحيح أنه يستشهد به أيضا ، وأما الرابعة فالصحيح أنه لا يستشهد بشعرها إلا فى علوم المعانى والبيان والبديع فإنها راجعة إلى المعانى ، ولا فرق فى ذلك بين الجاهلى والمولد . وقد زيدت طبقة خامسة وهى شعر المتأخرين كابن مطروح وصفى الدين الحلى المتوفي سنة ٧٥٠ ، ويلحق بهذه الطبقة شعر شعراء هذا العصر ، أى القرن الرابع عشر الهجرى وما قبله ، مثل الشيخ على الليثى والشيخ على أبى النصر من شعراء العائلة الخديوية ، ولما توفى خديوى مصر محمد باشا توفيق سنة ١٣٠٩ من الهجرة رثاه بقصائد الشعر نحو ستين شاعراً ترى أسماءهم وقصائدهم فى كتاب : القول الحقيق فى رثاء وتاريخ الخديوى المغفور له محمد باشا توفيق .

ولدرك تفاوت درجات الشعر مع تقلبات العصور نذكر أشعاراً لهذه الطبقات تتوارد على باب واحد كالمدح والنسيب والرثاء :

– أشعار متواردة على المدح :

قال الشاعر الجاهلى وهو زهير بن أبى سلمى يمدح هرم بن سنان المرى :

إن الخليط أجد البين فانفرقا	وعلق القلب من أسماء ما علقا[٦]
وأخلفتك ابنة البكرى ما وعدت	فأصبح الحبل منها واهنا خلقا[٧]
وفارقتك برهن لافكاك له	يوم الوداع فأمسى الرهن قد غلقا[٨]

(*) وردت فى الأصل « الثانية » ، والصواب فيما أظن « الثالثة » (المحرر) .

قـامت تراءى بذى ضال لـتحـزننى ولا مـحـالة أن يشـتاق مـن عشـقـا

يجـيــد مــعــزلة أدمــاء خــاذلة من الظبـاء تـراعى شـادنا خـرقـا[٩]

كـأن ريقتـها بعـد الكرى اغتبـقت من طيب الراح لما يعد أن عـتقا [١٠]

شج السـقـاة ُعلى ناجـودها شبـمـا من مــاء لينة لاطرقـا ولا رنـقـا[١١]

مـا زلت أرمـقـهم حـتى إذا هبطت أيدى الركاب بهم من راكس قلقا[١٢]

دانيــة مـن شــرورى أوقــفــا أدم تسعى الحداة علـى آثارهم حزقا[١٣]

كــأن عــينى فى غــربى مـقــتلة من النواضح تسقى جنة سـحقا[١٤]

تمطو الرشـاء فتـجـرى فى ثنايتهـا من المحــالة قــبــا رائدا قلقــا[١٥]

لهــا مــتــاع وأعــوان غــدون به قـتب وغـرب إذا ا فـرغ السـحـقـا

وخلفـها سائـق يحدوا إذا خشـيت منه اللـحـاق تمد الـصلب والعنقـا

وقــابـل يتــغنـى كلمــا قــدرت على العـراقى يداه قـائمـا دفقـا[١٦]

يحـيل فى جـدول تحبـو ضـفادعـه حبو الجوارى ترى فى مائه نطقا[١٧]

يخـرجن من شـربات مـاؤها طحل على الجذوع يخلفن الغمّ والغرقا[١٨]

بل اذكـرن خير قـيس كلهـا حسبا وخـيـرها نـائلا وخـيــرها خلقــا

القــائد الخــيل مـنكوبا دوابـرها قد أحكمت حكمات القد والأبقا[١٩]

غزت سـمانـا فأبت ضـمرا خـدجا من بعـد ما جنبـوها بدنا غقـقا [٢٠]

حـتى يؤوب بهـا عــوجـا مـعطلة تشكو الدوابر والأنساء [٢١] والصفقا

يطل شــأو أمـرأين قــدمـا حــسنا نالا الملوك وبذا هـذه الســـوقـــا

هو الجـواد فــإن يلحق بشــأوهمـا على تـكاليــفــه فــمــثله لحـقــا

أو يسبقاه على ما كان من مهل ... فمثل ما قدما من صالح سبقا

أشم أبيض فياض يفكك عن ... أيدى العناة وعن أعناقها الربقا

وذاك أحزمهم رأيا إذا نبأ ... من الحوادث غادى الناس أو طرقا

فضل الجياد على الخيل البطاء فلا ... يعطى بذلك ممنونا ولا نزقا[٢٢]

قد جعل المبتغون الخير فى هرم ... والسائلون إلى أبوابه طرقا

إن تلق يوما على علاته هرما ... تلق السماحة منه والندى خلقا

وليس مانع ذى قربى وذى رحم ... يوما ولا معدما عن خابط ورقا[٢٣]

ليت بعثر يصطاد الرجال إذا ... ما كذب الليث عن أقرانه صدقا[٢٤]

يطعنهم ما ارتموا حتى إذا طعنوا ... ضارب حتى إذا ما ضاربوا اعتنقا

هذا وليس كمن يعيا بخطبته ... وسط الندى إذا ما ناطق نطقا

لو نال حى من الدنيا بمنزلة ... وسط السماء لنالت كفه الأفقا

وقال الشاعر المخضرم وهو الخطيئة يمدح آل لأى :

ألا هبت أمامة بعد هدء ... تعاتبنى وما قضت كراها

فقلت لها أمام ذرى عتابى ... فإن النفس مبدية ثناها

وليس لها من الحدثان بد ... إذا ما الدهر من كثب رماها[٢٥]

فهل أبصرت أو خبرت نفسا ... أتاها فى تمنيها مناها

كأنى ساورتنى ذات سم ... نقيع لا يلائمها رقاها

لعمر الراقصات بكل فجّ ... من الركبان موعدها مناها

لقـــد شـــدت حـــبـــائل آل لأى ... حـيـالـى بعـدمـا ضـعـفـت قـواها

فـــمـــا تـنام جــــارة آل لأى ... ولكن يـضـمـنون لهـا قـراها[٢٦]

لعـــمـــرك مــا يضـيع آل لأى ... وثيـــقـــات الأمـــور إلى عـــراها

ومـــا تركت حـــفـــائظهـــا لأمـــر ... ألم بهـــا ومـــا صـــغـــرت لهـــاها

ومن يطلب مـــســـاعى آل لأى ... تصـــعــــده الأمــــور إلى عـــلاها

كــرام يفـضـلون قـروم سـعـد ... أولى أحـــســـابهـــا وأولى نهـــاها

وهم فــرع الـذرى من آل ســعــد ... إذا مـــا وعـــد من ســعــد ذراها

وخـطة مـــاجـــد فـى آل لأى ... إذا مـــا قـــام قـــائلهـــا قـضــاها

إذا اعـــوجت قناة الأمـــر يومـــا ... أقـــامـــوا لتـبـلغ منتـــهـــاها

ويبنى المجـــد راحـل آل لأى ... على العـوجـاء مضطمرا حـشـاها

وتسـعى لـلسـيـاسـة آل لأى ... فـتـدركـهـا ومـا اتصلت لحـاها

لعـــمـــرك إن جـــارة آل لأى ... لعف جـيـبـهـا حـسن ثـناها

وقال الشاعر الإسلامى وهو الأخطل يمدح الحجاب بن يوسف :

صــرمت حـبـالك زينب وقـذور ... وحـبـالهـن إذا عـقـدن غـرور

يرمين بالحـــدق المراض قلوبنا ... فـــغـــويهن مكلف مـضـــرور

وزعـمن أنى قد ذهلت عن الصبا ... ومـضـى لذلك أعـصـــر ودهور

وإذا أقـول صـحـوت من أدوائهـا ... هاج الفـــؤاد دمى أو أنس حـــور

وإذا نصبن قـــرونهـن لغــدرة ... فـكـأنمـا حـلـت لـهـن نـذور

ولقد أصيد الوحش فى أوطانها   فيذل بعد شماسه اليعفور

أحيا الإله لنا الإمام فإنه   خير البرية للذنوب غفور

نور أضاء لنا البلاد وقد دجت   ظلم تكاد بها الهداة تجور

الفاخرون بكل يوم صالح   وأخو المكارم بالفعال فخور

فعليك بالحجاج لاتعدل به   أحدا إذا نزلت عليك أمور

ولقد علمت وأنت أعلمنا به   أن ابن يوسف حازم منصور

وأخو الصفاء فما تزال غنيمة   منه يجيء بها إليك بشير

وترى الرواسم تختلفن وفوقها   ورق العراق سبائك وحرير

وبنات فارس كل يوم تصطفى   يعلونهن وما لهن مهور

والخيل يتعبها على علاتها   لله منتصب الفؤاد شكور

خوصا أضر بها ابن يوسف فانطوت   والحرب لاقحة لهن زجور

وترى المذكى فى القياد كأنه   من طول ما جشم الغوار عقير

هربت نطاف عيونهن فأدبرت   فكأنهن من الضرارة عور

وحولن من خلج الأعنة وانطوت   منها البطون وفى الفحول جفور

قطع الغزاة عجافهن فأصبحت   حرذا صلادم قرح وذكور

ولقد علمت بلاءه فى معشر   تغلى شناة صدورهم وتفور

والقوم زأرهم وأعلى صوتهم   تحت السيوف غماغم وهرير

وإذا اللقاح غلت فإن قدوره   جوف لهن بما ضمن هدير

طلب الأزارق بالكتائب إذا هوت   بشبيب غائلة النفوس غدور

يرجو البقية بعدما حدقت به | فرط المنية يحصب وحجور
فأباح جمعهم تحميدا وانثنى | وله لوقعة آخرون زئير

وقال الشاعر المولد وهو المتنبى يمدح كافور الإخشيدى :

من الجآذر فى زى الأعاريب | حمر الحلى والمطايا والجلابيب
إن كنت تسأل شكا فى معارفها | فمن بلاك بتسهيد وتعذيب
لا تجزنى بضنى لى بعدها بقر | تجزى دموعى مسكوبا بمسكوب
سوائر ربما سارت هوادجها | منيعة بين مطعون ومضروب
وربما وخدت أيدى المطى بها | على نجيع من الفرسان مصبوب
كم زورة لك فى الأعراب خافية | أدهى وقد رقدوا من زورة الذيب
أزورهم وسواد الليل يشفع لى | وانثنى وبياض الصبح يغرى بى
قد وافقوا الوحش فى سكنى مراتعها | وخالفوها بتقويض وتنطيب
جيرانها وهم شر الجوار لها | وصحبها وهم شر الأصاحيب
فؤاد كل محب فى بيوتهم | ومال كل أخيذ المال محروب
ما أوجه الحضر المستحسنات به | كأوجه البدويات الرعابيب
حسن الحضارة مجلوب بتطرية | وفى البداوة حسن غير مجلوب
أين المعيز من الآرام ناظرة | وغير ناظرة فى الحسن والطيب
أفدى ظباء فلاة ما عرفن بها | مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب
ولا برزن من الحمام مائلة | أوراكهن ثقيلات العراقيب
ومن هوى كل من ليست مموهة | تركت لون مشيبى غير مخضوب

ومن هوى الصدق فى قولى وعادته رغبت عن شعر فى الوجه مكذوب

ليت الحوادث باعتنى الذى أخذت منى بحلمى الذى أعطت وتجريبى

فما الحداثة من حلم بمانعة قد يوجد الحلم فى الشبان والشيب

ترعرع الملك الأستاذ مكتهلا قبل اكتهال أديبا قبل تأديب

مجربا فهما من قبل تجربة مهذبا كرما من قبل تهذيب

حتى أصاب من الدنيا نهايتها وهمه فى ابتداآت وتشبيب

يدبر الملك من مصر إلى عدن إلى العراق فأرض الروم فالنوب

إذا أتتها الرياح النكب من بلد فما تهب بها إلا بترتيب

ولا تجاوز شمس إذا شرقت إلا ومنه لها إذن بتغريب

يصرف الأمر فيها طين خاتمه ولو تطلس منه كل مكتوب

يحط كل طويل الرمح حامله من سرج كل طويل الباع يعبوب

كأن كل سؤال فى مسامعه قميص يوسف فى أجفان يعقوب

إذا غزته أعاديه بمسئلة فقد غزته بجيش غير مغلوب

أو حاربته فما تنجو بتقدمة مما أراد ولا تنجو بتجبيب

أضرت شجاعته أقصى كتائبه على الحمام فما موت بمرهوب

قالوا هجرت إليه العيث قلت لهم إلى غيوث يديه والشآبيب

إلى الذى تهب الدولات راحته لا يمن على آثار موهوب

ولا يروغ بمغدور به أحدا ولا يفزع موفورا بمكتوب

بل يروغ بذى جيش يجدله ذا مثله فى أحم النقع غربيب

وجـــدت أنفع مـــا لاكنت أدخـــره ... ما فى الـسوابق من جرى وتـقريب

لما رأيت صـروف الدهـر تغـدر بى ... وفـين لى ووقـت صنـع الأنـابيـب

فتن المهــالك حتى قــال قـائلـهـا ... مـاذا لقينا مـن الجـرد السـراحـيب

تهـوى بمتـــجـرد ليـست مـــذاهبـه ... للبس ثوب ومــأكـول ومـشـروب

يرمى النجـوم بعيـنى من يحاولها ... كـــأنهـــا سلب فـى عين مــسلوب

حـتى وصلت إلى نفس مـحـجـبـة ... تلقى النفوس بفضل غير محجوب

فى جسم أروع صافى العقل تضحكه ... خلائق الناس إضـحاك الأعـاجيب

فـالحمـد قـبل له والحـمد بعـد لهـا ... ولـلـقـنـا ولا دلاجـــى وتـأويـبـى

وكـيف اكتـفـر يا كـافور نعـمـتهـا ... وقـــد بلغنك بى ياخـــيـــر مطلوب

يا أيـهـــا المـالك ولكـنـى أعـــوذ به ... فى الشرق والغرب عن وصف وتلقيب

وقال شـاعر العصر حـفنى بك ناصف القاضى بالمحاكم الأهليـة يمدح خديوى مصر توفـيق باشا ويهنئه بالعام الجـديد ، ويذكر حريق قصـر عابدين والخديوى فى مصيفه بالإسكندرية .

وافى يقـــبل راحــــتـيك الـعـــام ... وحنـت إليك رؤوســـهــــا الأيام

والدهر أقـسم لايجىء بغـيـر مـا ... ترضـى وكم برت لـه أقـــســـام

فـــاقـبل مـــعـــاذير الـزمـان فـطالما ... قـــبـلت مـــعـــــاذير المنيـب كـــرام

واغـفـر جنايتـه على القـصـر الذى ... لـم تحـــو مـــصـــر نظيــره والشــام

شـبـت به النيـــران فـارتاعت لـهـا ... مـــهج الأنام وهالهـــا اسـتـــعظام

وسـعـوا إلى إطفـائها فـتزاحـمت ... ثم الـسنابـك والتـــقـى الإقـــدام

زاغت لها الأبصار واحتشدت لها النظار بل طاشت لها الأحلام

لولا الدخان أحاط حول لهيبها ما شك فرد أنها أعلام

أمر به نفذ القضاء وليس في أحكامه نقض ولا إبرام

لسنا نذكرك القضاء فأنت في هذا المقام وفي سواه إمام

بل حكمة شاء الإله بيانها لعباده ليذيع الاستسلام

حتى يروا أن الملوك وإن علوا قدرا تسير عليهم الأحكام

فإذا اقتدى بهم الرعية أحسنوا صبرا وخفت عنهم الآلام

عين السماء لعابدين تطلعت حسدا عليك وللعيون سهام

وتشوف القصر الكريم لأهله والشوق في قلب المحب ضرام

لم يستطع صبرا على طول النوى والصبر في شرع الغرام حرام

فتصعدت زفراته وتأججت جمراته والصب كيف يلام

لولا الدموع من المطافي ما انقضى منه الهيام ولم يبل أوام

خرقت طباق الجو إلا أنها برد قصارى أمرها وسلام

والنار من أي القبول فقد عفا قربان هابيل لها إضرام

هذا وكم من نعمة في نقمة طويت فلم تفطن لها الأفهام

عام بما فيه مضى ووفا أبا الـ عباس عام وجهه بسام

يفتر ثغر الدهر عن نفحاته ويضيء من قسماته الإظلام

أيامه بك كلهن مسرة وزمانه بك كله إنعام

مولاي أغرقت الأنام بأنعم ليست تفي ببيانها الأقلام

طوقتهم بمواهب سجعوا بها | كالروض تسجع فى رباه حمام
عفو وإحسان وحط ضرائب | ومدارس ومجالس ونظام
ودوام إرسال الوفود لمنتدى | أهل العلوم وللعلوم ذمام
أكرمتهم حتى ملكت قلوبهم | والحر يملك قلبه الإكرام
دم يا عزيز لمصر تصلح شأنها | فدوام ملكك للصلاح دوام
واستقبل الأيام تكلؤك العلى | ويحوطك التبجيل والإعظام
وأنعم بعباس وطب بمحمد | فهما لأوصاف الكمال مرام
واهنأ بعام قلت فى تاريخه | توفيقنا تسمو به الأعدام

سنة ١٣٠٩

وقال الشاعر المجيد أحمد بك شوقى من موظفى المعية السنية يهنئ الجناب العالى بعوده من دار الخلافة إلى مصر سنة ١٣١٦ :

على قدر الهوى يأتى العتاب | ومن عاتبت تفديه الصحاب
ألوم معذبى فألوم نفسى | فأغضبها ويرضيها العذاب
ولو أنى استطعت لتبت عنه | ولكن كيف عن روحى المتاب
ولى قلب بأن يهوى يجازى | ومالكه بأن يجنى يثاب
ولو ساغ العقاب فعلت لكن | نفار الظبى ليس له عقاب
يلوم اللائمون وما رأوه | وقدما ضاع فى الناس الصواب
صحوت فأنكر السلوان قلبى | على وراجع الطرب الشباب

وللعيش الصبا فإذا تولى ... فكل بقية في الكأس صاب
ومارثت له عندي حبال ... لا ضاقت له عني ثياب
وشأني والصبابة منذ كنا ... كما الصهباء يألفها الحباب
كأن يد الغرام زمام قلبي ... فليس عليه دون هوى حجاب
كأن جوانحي والحب فيها ... فلاة التيه ما منها مآب
كأن الحب جوعة قوم موسى ... فبعدي عنه بالسلوى اقتراب
كأن رواية الأشواق عود ... على بدء وما كمل الكتاب
كأني والهوى أخوا مدام ... لنا عهد بها ولنا اصطحاب
إذا ما اعتضت عن عشق بعشق ... أعيد الكأس وامتد الشراب
وكل هوى بلائمة مشوب ... وحبك بالملامة لا يشاب
لأنك أنت للأوطان كهف ... وأنت حقوق مصرك والطلاب
وأنت الرأس ما منه بديل ... وأنت الروح ما عنها مناب
وأنت سلاحنا ما خان يوماً ... وبغيرك سهمنا وبه نصاب
فأهلا (بالأمير) وما رأينا ... هلالا تستقر به الركاب
ولاشمساً (برأس التين) حلت ... وفي دنيا ضحاها واللعاب
أكرم قادم أنت المفدى ... وأيمن مقدم هذا الإياب
تغيب عن البلاد وعن بنيها ... ومالك عن قلوبهم غياب
تقربك المنى آناً وآناً ... تقربك الأحاديث العذاب
إذا ما سرت من قطر لقطر ... أقام البحر وانتقل السحاب

إذا جاورت قوماً حل فيهم ... صميم المجد والشرف اللباب

إذا جعل الكرام لنا سماء ... فإنك شمسها وهم الضباب

ولما جئت (دار الملك) حيت ... بأحسن ما تعود ذا الجناب

أظلتك الخلافة فى ذراها ... وبرت سوحها بك والرحاب

وفتح للرعاية ألف باب ... هناك وسد للواشين باب

وردنا الماء بينكما نميراً ... وأظمأ من يريبكما السراب

وما وجدوا لمفسدة مجالا ... ولكن تنبح القمر الكلاب

فعيشا فرقدين من الليالى ... وعاش خلائق بكما وطابوا

نداء الخلف بينكما عقيم ... وداعى الله بينكما مجاب

– **أشعار متواردة على النسيب**

قال امرؤ القيس (وهو جاهلى) :

ألا عم صباحاً أيها الطلل البالى ... وهل يعمن من كان فى العصر الخالى

وهل ينعمن إلا سعيد مخلد ... قليل الهموم ما يبيت بأوجال

وهل ينعمن من كان أحدث عهده ... ثلاثين شهراً فى ثلاثة أحوال

ديار لسلمى عافيات بذى الخال ... ألح عليها كل أسحم هطال

وتحسب سلمى لا تزال كعهدنا ... بوادى الخزامى أو على رأس أوعال

وتحسب سلمى لا تزال ترى طلا ... من الوحش أو بيضاً بميثاء محلال

ليالى سلمى إذ تريك منصباً ... وجيداً كجيد الريم ليس بمعطال

ألا زعمت بسباسة اليوم أننى   كبرت وأن لا يشهد اللهو أمثالى

بلى رب يوم قد لهوت وليلة   بآنسة كأنها خط تمثال

يضىء الفراش وجهها لضجيعها   كمصباح زيت فى قناديل ذبال

كأن على لباتها جمر مصطل   أصاب غضى جزلاً وكف بأجزال

وهبت له ريح بمختلف الصوى   صباً وشمالاً فى منازل قفال

كذبت لقد أصبى على المرء عرسه   وأمنع عرسى أن يزن بها الخالى

ومثلك بيضاء العوارض طفلة   لعوب تنسينى إذا قمت سربالى

لطيفة طى الكشح غير مفاضة   إذا انفتلت مرتجة غير متفال

إذا ما الضجيع ابتزها من ثيابها   تميل عليه هونة غير مجبال

كحقف النقا يمشي الوليدان فوقه   بما احتسبا من لين مس وتسهال

إذا ما استحمت كان فيض حميمها   على متنتيها كالجمان لدى الجالى

تنورتها من أذرعات وأهلها   بيثرب أدنى دارها نظر عال

نظرت إليها والنجوم كأنها   مصابيح رهبان تشب لقفال

سموت إليها بعدما نام أهلها   سمو حباب الماء حالاً على حال

فقالت سباك الله إنك فاضحى   ألست ترى السمار(*) والناس أحوالى

فقلت يمين الله أبرح قاعداً   ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى

فلما تنازعنا الحديث وأسمحت   هصرت بغصن ذى شماريخ ميال

(*) وردت فى الأصل « الستمار » (المحرر) .

فصرنا إلى الحسنى ورق كلامنا ... ورضت فذلت صعبة أى إذلال

حلفت لها بالله حلفة فاجر ... لناموا فما إن من حديث ولا صال

فأصبحت معشوقا وأصبح بعلها ... عليه القتام كاسف الظن والبال

يغط غطيط البكر شد خناقه ... ليقتلنى والمرء ليس بقتال

أيقتلنى والمشرفى مضاجعى ... ومسنونة زرق كأنياب أغوال

وليس بذى سيف فيقتلنى به ... وليس بذى رمح وليس بنبال

أيقتلنى وقد قطرت فؤادها ... كما قطر المهنوءة الرجل الطالى

وقد علمت سلمى وإن كان بعلها ... بأن الفتى يهذى وليس بفعال

وماذا عليه إن ذكرت أوانساً ... كغزلان رمل فى محاريب أقوال

وبيت عذارى يوم دجن دخلته ... يطفن بجماء المرافق مكسال

قليلة جرس الليل إلا وساوساً ... وتبسم عن عذب المذاقة سلسال

طوال المتون والعرانين كالقنا ... لطاف الخصور فى تمام وإكمال

أوانس يتبعن الهوى سبل المنى ... يقلن لأهل الحلم ضلاً بتضلال

صرفت الهوى عنهن من خشية الردى ... ولست بمقلى الخلال ولا قالى

كأنى لم أركب جواداً للذة ... ولم أتبطن كاعباً ذات خلخال

ولم أسبأ الزق الروى ولم أقل ... لخيلى كرى كرة بعد إجفال

ولم أشهد الخيل المغيرة بالضحى ... على هيكل نهد الجزارة جوال

سليم الشظى عبل الشوى شنج النسا ... له حاجيات مشرفات على الفال

وصم صلاب ما يقين من الوحى ... كأن مكان الردف منه على رال

وقد أغتدى والطير فى وكناتها ... لغيث من الوسمى رائده خال

تحاماه أطراف الرماح تحامياً ... وجاد عليه كل أسحم هطال

بعجلزة قد أترز الجرى لحمها ... كميت كأنها هراوة منوال

ذعرت بها سرباً نقياً جلوده ... وأكرعه وشى البرود من الخال

كأن الصوار إذ يجاهدن غدوة ... على جمد خيل تجول بإجلال

فجال الصوار واتقين بقرهب ... طويل القرا والروق أخنس ذيال

فعادى عداء بين ثور ونعجة ... وكان عداء الوحش منى على بال

كأنى بفتخاء الجناحين لقوة ... صيود من العقبان طأطأت شملالي

تخطف خزان الشربة بالضحى ... وقد حجرت منها ثعالب أورال

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً ... لدى وكرها العناب والحشف البالى

فلو إنما أسعى لأدنى معيشة ... كفانى ولم أطلب قليلا من المال

ولكنما أسعى لمجد مؤثل ... وقد يدرك المجد المؤثل أمثالى

وما المرء ما دامت حشاشة نفسه ... بمدرك أطراف الخطوب ولا آلى

وقال النابغة الذبيانى (وهو جاهلى) يصف المتجردة ، وقد دخل على النعمان ففاجأته ، فسقط نصيفها عنها فغطت وجهها بمعصمها :

أمن آل مية رائح أو مغتدى ... عجلان ذا زاد وغير مزود

أفد الترحل غير أن ركابنا ... لما تزل برحالنا وكأن قد

زعم الغداف بأن رحلتنا غداً ... وبذاك خبرنا الغداف الأسود

لا مرحبا بغد ولا أهلاً به ... إن كان تفريق الأحبة فى غد

حان الرحيل ولم تودع مهدراً والصبح والإمساء منها موعدي

في إثر غانية رمتك بسهمها فأصاب قلبك غير أن لم تقصد

غنيت بذلك إذ هم لك جيرة منها بعطف رسالة وتودد

ولقد أصاب فؤاده من حبها عن ظهر مرنان بسهم مصرد

نظرت بمقلة شادن متربب أحوى أحم المقلتين مقلد

والنظم في سلك يزين نحرها ذهب توقد كالشهاب الموقد

صفراء كالسيراء أكمل خلقها كالغصن في غلوائه المتأود

والبطن ذو عكن لطيف طيه والنحر تنفجه بثدي مقعد

محطوطة المتنين غير مفاضة ريا الروادف بضة المتجرد

قامت تراءى بين سجفي كلة كالشمس يوم طلوعها بالأسعد

أو درة صدفية غواصها بهج متى يرها يهل ويسجد

أو دمية من مرمر مرفوعة بنيت بآجر يشاد وقرمد

سقط النصيف ولم ترد إسقاطه فتناولته واتقتنا باليد

بمخضب رخص كأن بنانه عنم يكاد من اللطافة يعقد

نظرت إليك بحاجة لم تقضها نظر السقيم إلى وجوه العود

تجلو بقادمتي حمامة أيكة برداً أسف لثاته بالإثمد

كالأقحوان غداة غب سمائه جفت أعاليه وأسفله ندي

زعم الهمام بأن فاها بارد عذب مقبله شهي المورد

زعم الهمام ولم أذقه أنه عذب إذا ما ذقته قلت ازدد

زعم الهمام ولم أذقه أنه … يشفى بريا ريقها العطش الصدى

أخذ العذارى عقدها فنظمنه … من لؤلؤ متتابع متسرد

لو أنها عرضت لأشمط راهب … عبد الإله صرورة متعبد

لرنا لرؤيتها وحسن حديثها … ولخاله رشداً وإن لم يرشد

بتكلم لو تستطيع كلامه … لدنت له أروى الهضاب الصخد

وبفاحم رجل أثيث نبته … كالكرم مال على الدعام المسند

وإذا لمست لمست أجثم جاثيا … متحيزاً بمكانه ملء اليد

وإذا طعنت طعنت(*) فى مستهدف … رابى المجسة بالعبير مقرمد

وإذا نزعت نزعت عن مستحصف … نزع الحزور بالرشاء المحصد

وإذا يعض تشده أعضاؤها … عض الكبير من الرجال الأدرد

ويكاد ينزع جلد من يصلي به … بلوافح مثل السعير الموقد

لا وارد منها يحور لمصدر … عنها ولا صدر يحور لمورد

وقال الأعشى (وهو مخضرم) :

ودع هريرة إن الركب مرتحل … وهل تطيق وداعاً أيها الرجل

غراء فرعاء مصقول عوارضها … تمشى الهوينا كما يمشي الوجي الوحل

كأن مشيتها من بيت جارتها … مر السحابة لا ريث ولا عجل

(*) وردت فى الأصل « اطعنت » (المحرر) .

تسمع للحلى وسواساً إذا انصرفت كما استعان بريح عشرق زجل
ليست كمن يكره الجيران طلعتها ولا تراها لسر الجار تختتل
يكاد يصرعها لولا تشددها إذا تقوم إلى جاراتها الكسل
هركولة فنق درم مرافقها كأن أخمصها بالشوك منتعل
إذا تقوم يضوع المسك أصورة والزنبق الورد من أردانها شمل
ما روضة من رياض الحزن معشبة خضراء جاد عليها مسبل هطل
يضاحك الشمس منها كوكب شرق مؤزر بعميم النبت مكتهل
يوماً بأطيب منها نشر رائحة ولا بأحسن منها إذ دنا الأصل

ومنها :

صدت هريرة عنا ما تكلمنا جهلاً بأم خليد حبل من تصل
أ أن رأت رجلا أعشى أضر به ريب المنون ودهر مفند خبل
قالت هريرة لما جئت زائرها ويلى عليك وويلى منك يا رجل
أما ترانا حفاة لا نعال لنا إنا كذلك ما نحفي وننتعل
وقد أخالس رب البيت غفلته وقد يحاذر منى ثم ما يئل
وقد أقود الصبى يوماً فيتبعنى وقد يصاحبنى ذو الشرة الغزل
وقد غدوت إلى الحانوت يتبعنى شاو مشل شلول شلشل شول
فى فتية كسيوف الهند قد علموا أن ليس يدفع عن ذى الحيلة الحيل

نازعتهم قضب الريحان متكئاً | وقهوة مزة راووقها خضل
لا يستفيقون منها وهى راهنة | إلا بهات وإن علوا وإن نهلوا
يسعى بها ذو زجاجات له نطف | مقلص أسفل السربال معتمل
ومستجيب تخال الصنج تسمعه | إذا ترجع فيه القينة الفضل
والساحبات ذيول الربط آونة | والرافلات على أعجازها العجل
من كل ذلك يوم قد لهوت به | وفى التجارب طول اللهو والغزل

وقال عمر بن أبى ربيعة (وهو إسلامى) :

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر | غداة غد أم رائح فمهجر
لحاجة نفس لم تقل فى جوابها | فتبلغ عذراً والمقالة تعذر
أهيم إلى نعم فلا الشمل جامع | ولا الحبل موصول ولا القلب مقصر
ولا قرب نعم أن دنت لك نافع | ولا نأيها يسلى ولا أنت تصبر
وأخرى أتت من دون نعم ومثلها | نهى ذا النهى لو يرعوى أو يفكر
إذا زرت نعما لم يزل ذو قرابة | لها كلما لاقيتها يتنمر
عزيز عليه إن ألم بيتها | يسر لى الشحناء والبغض مظهر
ألكنى إليها بالسلام فإنه | يشهر إلمامى بها وينكر
بآية ما قالت غداة لقيتها | بمدفع أكنان أهذا المشهر
قفى فانظرى أسماء هل تعرفينه | أهذا المغيرى الذى كان يذكر

أهذا الذى أطريت نعتاً فلم أكن   (رعيتك) أنساه إلى يوم أقبر

فقالت نعم لاشك غير لونه   سرى الليل يحيى نصه والتهجر

لئن كان إياه لقد حال بعدنا   عن العهد والإنسان قد يتغير

رأت رجلاً إما إذا الشمس عارضت   فيضحى وإما بالعشى فيحصر

أخا سفر جواب أرض تقاذفت   به فلوات فهو أشعث أغبر

قليل على ظهر المطية ظله   سوى ما نفى عنه الرداء المحبر

وأعجبها من عيشها ظل غرفة   وريان ملتف الحدائق أخضر

ووال كفاها كل شىء يهمها   فليست لشىء آخر الليل تسهر

وليلة ذى دوان جشمنى السرى   وقد يجشم الهول المحب المغرر

فبت رقيباً للرفاق على شفا   أحاذر منهم من يطوف وأنظر

إليهم متى يستمكن اليوم منهم   ولى مجلس لولا اللبانة أوعر

وباتت قلوصى بالعراء ورحلها   لطارق ليل أو لمن جاء معور

وبت أناجى النفس أين خباؤها   وكيف لما آتى من الأمر مصدر

فدل عليها القلب رياً عرفتها   لها وهوى النفس الذى كاد يظهر

فلما فقدت الصوت منهم وأطفئت   مصابيح شبت بالعشاء وأنور

وغاب قمير كنت أهوى غيوبه   وروح رعيان ونوم سمر

وخفض عنى الصوت أقبلت مشية الـ   حباب وشخصى خشية الحى أزور

فحييت إذ فاجأتها فتولهت   وكادت بمخفوض التحية تجهر

وقالت وعضت بالبنان فضحتني وأنت امرؤ ميسور أمرك أعسر

أريتك إذ هنا عليك ألم تخف وقيت وحولي من عدوك حضر

فو الله ما أدرى أتعجيل حاجة سرت بك أم قد نام من كنت تحذر

فقلت لها بل قادني الشوق والهوى إليك وما نفس من الناس تشعر

(فقلت كذاك الحب قد يحمل الفتى من الهول حتى يستقاد فينحر)

فقالت وقد لانت وأفرخ روعها كلاك بحفظ ربك المتكبر

فأنت أبا الخطاب غير مدافع على أمير ما مكثت مؤمر

فبت قرير العين أعطيت حاجتي أقبل فاها في الخلاء فأكثر

فيالك من ليل تقاصر طوله وما كان ليلي قبل ذلك يقصر

ويالك من ملهى هناك ومجلس لنا لم يكدره علينا مكدر

يمج ذكي المسك منها مقبل نقي الثنايا ذو غروب مؤشر

تراه إذا ما افتر عنه كأنه حصا برد أو أقحوان منور

وترنو بعينيها إلى كما رنا إلى ظبية وسط الخميلة جؤذر

فلما تقضى الليل إلا أقله وكادت توالي نجمه تتغور

أشارت بأن الحي قد حان منهم هبوب ولكن موعد منك عزور

فما راعني الأمناد ترحلوا وقد لاح معروف من الصبح أشقر

فلما رأت من قد تنبه منهمو وأيقاظهم قالت أشر كيف تامر

فقلت أباديهم فإما أفوتهم وإما ينال السيف ثأراً فيثأر

فقلت أتحقيقاً لما قال كاشح … علينا وتصديقاً لما كان يؤثر

فإن كان ما لابد منه فغيره … من الأمر أدنى للخفاء وأستر

أقص على أختى بدء حديثنا … ومالى من أن يعلما متأخر

لعلهما إن يطلبا لك مخرجا … وإن يرحبا سربا بما كنت أحصر

فقامت كئيباً ليس فى وجهها دم … من الحزن تذرى عبرة تتحدر

فقامت إليها حرتان عليهما … كساآن من خز دمقس وأخضر

فقالت لأختيها أعينا على فتى … أتى زائراً والأمر للأمر يقدر

فأقبلتا فارتاعتا ثم قالتا … أقلى عليك اللوم فالخطب أيسر

فقالت لها الصغرى سأعطيه مطرفى … ودرعى وهذا البرد إن كان يحذر

يقوم فيمشى بيننا متنكراً … فلا سرنا يفشو ولا هو يظهر

فكان مجنى دون من كنت أتقى … ثلاث شخوص كاعبان ومعصر

فلما أجزنا ساحة الحى قلن لى … أما تتقى الأعداء والليل مقمر

وقلن أهذا دأبك الدهر سادراً … أما تستحى أو ترعوى أو تفكر

إذا جئت فامنح طرف عينيك غيرنا … لكى يحسبوا أن الهوى حيث تنظر

فآخر عهد لى بها حيث أعرضت … ولاح لها خد نقي ومحجر

سوى أننى قد قلت يا نعم قولة … لها والعتاق الأرحبيات تزجر

هنيئا لأهل العامرية نشرها الـ … لذيذ ورياها الذى أتذكر

وقمت إلى عنس تخون نيها … سرى الليل حتى لحمها متحسر

وحبسى على الحاجات حتى كأنها بقيــة لوح أو شجار مؤســـر

ومــاء بمومــاة قليل أنيســـه بسابس لم يحدث به الصيف محضر

به مبتنى للعنكبوت كأنـــه على طرف الأرجـاء خام منشـر

وردت وما أدرى أما بعد موردى من الليل أم ما قد مضى منه أكثر

فقمت إلى مفلاة أرض كأنها إذا التفتت مجنونة حين تنظـر

تنازعنى حرصًا على الماء رأسها ومن دون ما تهوى قليب معـور

محاولة للماء لولا زمامهـا وجذبى لها كادت مراراً تكسـر

فلما رأيت الضر منها وإننـى ببلدة أرض ليس فيها معصـر

قصرت لها من جانب الحوض منشأ جديداً كقاب الشبر أو هو أصغـر

إذا شرعت فيه فليس لملتقى مشافرها منه قدى الكف مسـأر

ولا دلو إلا العقب كان رشاءه إلى الماء نسع والأديم المضفـر

فسافت وما عافت وما رد شربها عن الرى مطروق من الماء أكـدر

وقال ابن زيدون الأندلسى (وهو مولد)

أضحى التنائى بديلاً من تدانينـا وناب عن طيب لقيانا تجافينـا

بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنـا شوقا إليكم ولا جفت مآقينـا

يكاد حين تناجيكم ضمائرنـا يقضى علينا الأسى لولا تأسينا

حالت لبينكم أيامنا فغـدت سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينـا

إذ جـانب العـيش طلق من تـألفنـا — ومورد اللهو صـاف من تصافينـا

وإذ هصـرنا غـصـون الأنس دانيـة — قطوفـهـا فـجنينا منه مـا شـينا

ليسق عهـدكمو عهـد السرور فمـا — كنتم لأرواحـنا إلا رياحـينـا

من مـبلغ الملبـسينـا بانتـزاحـهـم — حـزناً مع الـدهر لا يبلى ويبلينـا

إن الزمـان الذى مـا زال يـضـحكنا — أنسًـا بقـربهم قـد عـاد يبكينـا

غيظ العدا من تساقينا الهوى فدعوا — بأن نغص فـقـال الدهر آمـينـا

فـانحل ما كـان معـقوداً بأنفسـنا — وانبت ما كـان موصـولاً بأيدينـا

وقـد نكون ومـا يخـشى تفـرقنـا — فـاليوم نحن ومـا يرجي تلاقـينـا

لم نعتـقد بعدكم إلا الوفـاء لكـم — رأياً ولـم نتـقلد غـيـره دينـا

لا تحـسـبـوا نأيكم عنا يـغـيـرنـا — إن طال مـا غيـر النأى المحـبينـا

والله مـا طلبـت أهواؤنا بـدلاً — منكم ولا انصرفت عنكـم أمانينـا

ولا استـفدنا خليلاً عنك يـشغلنـا — ولا اتخـذنا بديلاً منك يسلينـا

يا سارى البرق غاد الـقصر فاسق به — من كان صرف الهوى والود يسقينـا

ويا نسـيم الـصـبـا بلغ تحـيـتنـا — من لو على البعد حيًا كان يحيينـا

يا روضـة طال مـا أجنت لواحظنا — ورداً جلاه الصـبا غضًـا ونسرينـا

ويا حـيـاة تملينـا بزهرتهـا — منى ضـروبـاً ولذات أفـانينـا

ويا نعـيـمـاً رفلنا مـن غـضـارتـه — فى وشى نعمى سحـبنا ذيله حينـا

لسنا نسـمـيك إجـلالاً وتـكرمـة — وقـدرك المعـتلى عن ذاك يغنينـا

إذا انفردت وما شوركت فى صفة ... فحسبنا الوصف إيضاحاً وتبيينا

يا جنة الخلد أبدلنا بسلسها ... والكوثر العذب زقوماً وغسلينا

كأننا لم نبت والوصل ثالثنا ... والسعد قد غض من أجفان واشينا

سران فى خاطر الظلماء يكتمنا ... حتى يكاد لسان الصبح يفشينا

لاغرو أنا ذكرنا الحزن حين نهت ... عنه النهى وتركنا الصبر ناسينا

إنا قرأنا الأسى يوم النوى سوراً ... مكتوبة وأخذنا الصبر تلقينا

أما هواك فلم نعدل بمنهله ... شرباً وإن كان يروينا فيظمينا

لم نجف أفق جمال أنت كوكبه ... سالين عنه ولم نهجره قالينا

ولا اختياراً تجنبناك عن كثب ... لكن عدتنا على كره عوادينا

نأسى عليك إذا حثت مشعشعة ... فينا الشمول وغنانا مغنينا

لا كؤس الراح تبدى من شمائلنا ... سيما ارتياح ولا الأوتار تلهينا

دومى على العهد ما دمنا محافظة ... فالحر من دان انصافاً كما دينا

فما ابتغينا خليلاً منك يحسبنا ... ولا استفدنا حبيباً منك يغنينا

ولو صبا نحونا من علو مطلعه ... بدر الدجى لم يكن حاشاك يصبينا

أولى وفاء وإن لم تبذلى صلة ... فالذكر يقنعنا والطيف يكفينا

وفى الجواب قناع لو شفعت به ... بيض الأيادى التى مازلت تولينا

عليك منى سلام الله ما بقيت ... صبابة منك نخفيها فتخفينا

وقال محمود باشا سامى المصرى نزيل جزيرة سيلان الآن :

ظن الظنون فبات غير موسد ... حيران يكلأ مستنير الفرقد

تلوى به الذكرات[٢٧] حتى أنه ... ليظل ملقى بين أيدى العود

طوراً يهيم بأن يزل بنفسه ... سرفاً وتارات يميل على اليد

فكأنما افترست بطائر حلمه ... مشمولة أو ساغ سم الأسود

قالوا غداً يوم الرحيل ومن لهم ... خوف التفرق أن أعيش إلى غد

هى مهجة ذهب الهوى بشغافها ... معمودة إن لم تمت فكأن قد

يا أهل ذا البيت الرفيع مناره ... أدعوكم يا قوم دعوة مقصد[٢٨]

إنى فقدت العام بين بيوتكم ... عقلى فردوه على لأهتدى

أو فاستقيدونى[٢٩] ببعض قيانكم ... حتى ترد إلى نفسى أوتدى

بل يا أخا السيف الطويل نجاده ... إن أنت لم تحم النزيل فأغمد

هذى لحاظ الغيد بين شعابكم ... فتكت بنا خلساً بغير مهند

من كل ناعمة الصبا بدوية ... ريا الشباب سليمة المتجرد[٣٠]

هيفاء إن خطرت سبت وإذا رنت ... سلبت فؤاد العابد المتشدد

يخفضن من أبصارهن تختلاً ... للنفس فعل القانتات العبد

فإذا أصبن أخا الشباب سلبنه ... ورمين مهجته بطرف أصيد

وإذا لمحن أخا المشيب قلينه ... وسترن ضاحية المحاسن باليد

فلئن غدوت دريئة لعيونها ... فلقد أفل زعارة[٣١] المتمرد

ولقد شهدت الحرب فى إبانها ... ولبئس راعى الحى إن لم أشهد

تتقصف المران فى حجراتها ويعود فيها السيف مثل الأدرد

عصفت بها ريح الردى فتدفقت بدم الفوارس كالأتى المزبد

ما زلت أطعن بينها حتى انثنت عن مثل حاشية الرداء المجسد

ولقد هبطت الغيث يلمح نوره فى كل وضاح الأسرة أغيد

تجرى به الآرام بين مناهل طابت مشاربها وظل أبرد

بمضمر أرن (٣٢) كأن سراته بعد الحميم سبيكة من عسجد

خلصت له اليمنى وعم ثلاثة منه البياض إلى وظيف أجرد

فكأنما انتزع الأصيل رداءه سلباً وخاض من الضحى فى مورد

زجل يردد فى اللهاة صهيله دفعاً كزمزة الحبى المرعد (٣٣)

متلفتاً عن جانبيه يهزه مرح الصبا كالشارب المتفرد

فإذا ثنيت له العنان وجدته يمطو(٣٤) كسيد الردهة المتورد

وإذا أطعت له العنان رأيته يطوى المهامة فدفداً فى فدفد

يكفيك منه إذا استحس بنبأة شداً كألهوب الإباء الموقد

صلب السنابك لا يمر بجلمد فى الشد إلا رض فيه بجلمد

نعم العتاد إذا الشفاه تقلصت يوم الكريهة فى العجاج الأربد (٣٥)

ولقد شربت الخمر بين غطارف شم المعاطس كالغصون الميد

يتلاعبون على الكؤوس إذا جرت لعباً يروح الجد فيه ويغتدى

لا ينطقون بغير ما أمر الهوى فكلامهم كالروض مصقول ندى

من كل وضاح الجبين كأنه ... قمر توسط جنح ليل أسود

بل رب غانية طرقت خباءها ... والنجم يطرف عن لواحظ أرمد

قالت وقد نظرت إلى فضحتني ... فارجع لشأنك فالرجال بمرصد

فخلبتها بالقول حتى رضتها ... وطويتها طى الحبيرة [٣٦] باليد

ما زلت أمنعها المنام غواية ... حتى لقد بتنا بليل الأنقد [٣٧]

روعاء تفزع من عصافير الضحى ... ترفاً وتجزع من صياح الهدهد

حتى إذا نم الصبا وتتابعت ... زيم [٣٨] الكواكب كالمها المتبدد

قالت دخلت وما أخالك بارحاً ... إلا وقد أبقيت عار [٤٠] المسند

فمسحتها حتى اطمأن فؤادها ... ونفيت روعتها برأى محصد

وخرجت أخترق الصفوف من العدا ... متلثماً والسيف يلمع فى يدى

فلنعم ذاك العيش لو لم ينقضى ... ولنعم هذا العيش إن لم ينفد

يرجو الفتى فى الدهر طول حياته ... ونعيمه والمرء غير مخلد

- أشعار متواردة على الرثاء :

قال المهلهل يرثى أخاه كليبا وهو جاهلى :

أهاج قذاء عينى الأذكار ... هدوا فالدموع لها انحدار

وصار الليل مشتملاً علينا ... كأن الليل ليس له نهار

وبت أراقب الجوزاء حتى ... تقارب من أوائلها انحدار

أصـــرف مـــقلتـى فى أثر قـــوم	تبـــاينت البـــلاد بهم فـــغـــاروا
وأبكـى والنـجـــوم مـطلعـــــات	كـأن لـم تحـوها عـنى البـــحـــار
على مـن لو نعـيت وكـان حـيـاً	لقـاد الخيـل يحـجـبهـــا الغبـار
دعـــوتك يا كليب فلم تجـبنـى	وكـيف يـجـيـبنـى البلد القـفـــار
أجـــبنـى يا كـليـب خـــلاك ذم	ضنينات النفـــوس لهـــا مـــزار
أجـــبنـى يا كـليـب خـــلاك ذم	لقـد فـجـعت بفـارسـهـا نــــزار
سـقـاك الـغـيث إنك كنت غـيـثـاً	ويســـراً حين يلتـــمس اليســـار
أبت عـــينـاى بعـــدك أن تكفـــا	كـأن غـضـا القـتـاد لهـا شـــفـار
وإنـك كـنـت تحـلـم عـن رجـــال	وتعـــفـــو عنهم ولك اقـتـــــدار
وتمـنع أن يمـســـــهـم لســــان	مـخـافـة من يجـيـر ولا يجـــــار
وكنت أعـــد قـــربى منـك ربحًـا	إذا مـــا عـــدت الربح التـــجـــار
فـــلا تبـعـــد فكل ســـوف يـــلقى	شـعـــوباً يستـــدير بهـا المـــــدار
يـعـــــيش المرء عـند بـنى أبـيـه	ويوشك أن يصـيـر بحـيث صـاروا
أرى طول الحـــيـــاة وقـــد تولـــى	كـمـا قـد يسلب الشيء المعـــار
كـــأنى إذ نعـى الناعـى كليـــبـــاً	تـطاير بـين جنـبي الشـــــرار
فـدرت وقـد عـشى بـصـرى عليـه	كـمـا دارت بشـاربهـا العـقـــار
ســـألـت الحى أين دفنتـــمـــوه	فـقـــالوا لى بســـــفح الحى دار
فسـرت إليـه مـــن بلدى حثـيثـاً	وطار الـنوم وامـتـنـــع القـــرار

وحادت ناقتى عن ظل قبر ثوى فيه المكارم والفخار

لدى أوطان أردع لم يشنه ولم يحدث له فى الناس عار

أتغدو يا كليب معى إذا ما جبان القوم أنجاه الفرار

أتغدو يا كليب معى إذا ما حلوق القوم يشحذها الشفار

أقول لتغلب والعز فيها أثيروها لذلكم انتصار

تتابع إخوتى ومضوا لأمر عليه تتابع القوم الخسار

خذ العهد الأكيد على عمرى بتركى كل ما حوت الديار

وهجرى الغانيات وشرب كأس ولبسى جبة لا تستعار

ولست بخالع درعى وسيفى إلى أن يخلع الليل النهار

وإلا أن تبيد سراة بكر فلا يبقى لها أبدا أثار

وقالت الخنساء وهى مخضرمة :

قذى بعينك أم بالعين عوار أم زرقت إذ خلت من أهلها الدار

كأن عينى لذكراه إذا خطرت فيض يسيل على الخدين مدرار

تبكى لصخرهى العبرى وقد ولهت ودونه من جديد الترب أستار

تبكى خناس فما تنفك ما عمرت لها عليه رنين وهى مفتار

تبكى خناس على صخر وحق لها إذ رابها الدهر إن الدهر ضرار

لابد من ميتة فى صرفها عبر والدهر فى صرفه حول وأطوار

قد كان فيكم أبو عمرو يسودكم نعم المعمم للداعين نصار

صلب النحيزة وهاب إذا منعوا   وفى الحروب جرئ الصدر مهصار

يا صخر وراد ماء قد تناذره   أهل الموارد ما فى ورده عار

مشى السبنتى إلى هيجاء معضلة   له سلاحان أنياب وأظفار

وما عجول على بو تطيف به   لها حنينان إعلان وإسرار

ترتع ما رتعت حتى إذا ادكرت   فإنما هى إقبال وإدبار

لا تسمن الدهر فى أرض وإن رتعت   فإنما هى تحنان وتسجار

يوماً بأوجد منى يوم فارقنى   صخر وللدهر إحلاء وإمرار

وإن صخراً لوالينا وسيدنا   وإن صخراً إذا نشتو لنحار

وإن صخراً لمقدام إذا ركبوا   وإن صخراً إذا جاعوا لعقار

وإن صخراً لتأتم الهداة به   كأنه علم فى رأسه نار

جلد جميل المحيا كامل ورع   وللحروب غداة الروع مسعار

حمال ألوية هباط أودية   شهاد أندية للجيش جرار

فقلت لما رأيت الدهر ليس له   معاتب وحده يسدى ونيار

لقد نعى ابن نهيك لى أخا ثقة   كانت ترجم عنه قبل أخبار

فبت ساهرة للنجم أرقبه   حتى أتى دون غور النجم أستار

لم تره جارة يمشي بساحتها   لريبة حين يخلى بيته الجار

ولا تراه وما فى البيت يأكله   لكنه بارز بالصحن مهمار

ومطعم القوم شحماً عند مسغبهم   وفى الجدوب كريم الجد ميسار

قد كان خالصتى من كل ذى نسب فقد أصيب فما للعيش أوطار
مثل الردينى لم تنفد شبيبته كأنه تحت طى البرد أسوار
جهم المحيا تضيئ الليل صورته أباؤه من طوال السمك أحرار
مورث المجد ميمون نقيبته ضخم الدسيعة فى العزاء مغوار
فرع لفرع كريم غير مؤتشب جلد المريرة عند الجمع فخار
فى جوف لحد مقيم قد تضمنه فى رمسه مقمطرت وأحجار
طلق اليدين لفعل الخير ذو فجر ضخم الدسيعة بالخيرات أمار
ليبكه مقتر أفنى حريبته دهر وحالفه بؤس وإقتار
ورفقة حار حاديهم بمهلكة كأن ظلمتها فى الطخية القار
لا يمنع القوم أن سألوه خلعته ولا يجاوزه بالليل مرار

وقال كعب بن سعد الغنوى وهو إسلامى :

تقول ابنة العبسى قد شبت بعدنا وكل امرئ بعد الشباب يشيب
وما الشيب إلا غائب كان جائيًا وما القول إلا مخطئ ومصيب
تقول سليمى ما لجسمك شاحبا كأنك يحميك الشراب طبيب
فقلت ولم أعى الجواب ولم أنح والدهر فى الصم الصلاب نصيب
تتابع أحداث تخرمن إخوتى فشيبن رأسى والخطوب تشيب
لعمرى لئن كانت أصابت منية أخى والمنايا للرجال شعوب
لقد عجمت منى الحوادث ماجداً عروفاً لريب الدهو حين يريب

لقد كان إما حلمه فمروح عليه وإما جهله فعزيب

أخي ما أخي لا فاحش عند بيته ولا ورع عند اللقاء هيوب

أخي كان يكفيني وكان يعينني على نائبات الدهر حين تنوب

حليم إذا ما سورة الجهل أطلقت حبى الشيب للنفس اللجوج غلوب

هو العسل الماذي ليناً ونائلاً وليث إذا يلقى العداة غضوب

هوت أمه ما يبعث الصبح غادياً وماذا يؤدى الليل حين يؤوب

هوت أمه ماذا تضمن قبره من المجد والمعروف حين يشيب

أخو شتوات يعلم المضيف أنه سيكثر ما فى قدره ويطيب

حبيب إلى الزوار غشيان بيته جميل المحيا شب وهو أديب

كأن بيوت الحى ما لم يكن بها بسابس قفر ما بهن عريب

كعالية الرمح الرديني لم يكن إذا ابتدر الخيل الرجال يخيب

إذا قصرت أيدى الرجال عن العلى تناول أقصى المكرمات شبيب

جموع خلال الخير من كل جانب إذا حال مكروه بهن ذهوب

مغيث مفيد الفائدات معود لفعل الندى والمكرمات كسوب

وداع دعايا من يجيب إلى الندى فلم يستجب عند النداء مجيب

فقلت ادع أخرى وارفع الصوت ثانياً لعل أبى المغوار منك قريب

يجبك كما قد كان يفعل إنه بأمثالها رحب الذراع أريب

أتاك سريعاً واستجاب إلى الندى كذلك قبل اليوم كان يجيب

كأن لم يكن يدعو السوابح مرة
بذى لجب تحت الرمال مهيب

فتى أريحى كان يهتز للندى
كما اهتز من ماء الحديد قضيب

فتى ما يبالى أن يكون بجسمه
إذا نال خلات الكرام شحوب

إذا ما تراآه الرجال تحفظوا
فلم ينطقوا العوراء وهو قريب

على خير ما كان الرجال خلاله
وما الخير إلا قسمة ونصيب

حليف الندى يدعو الندى فيجيبه
سريعاً ويدعوه الندى فيجيب

غياث لعان لم يجد من يعينه
ومختبط يغشى الدخان غريب

عظيم رماد النار رحب فناؤه
إلى سند لم تحتجنه عيوب

يبيت الندى يا أم عمرو ضجيعه
إذا لم يكن فى المنقيات حلوب

حليم إذا ما الحلم زين أهله
مع الحلم فى عين العدو مهيب

معنى إذا عادى الرجال عداوة
بعيد إذا عادى الرجال قريب

غنيناً بخير حقبة ثم جلحت
علينا التى كل الأنام تصيب

فأبقت قليلاً ذاهباً وتجهزت
لآخر والراجى الحياة كذوب

وأعلم أن الباقى الحى منهم
إلى أجل أقصى مداه قريب

لقد أفسد الموت الحياة وقد أتى
على يومه علق على حبيب

فإن تكن الأيام أحسن مرة
إلىّ فقد عادت لهن ذنوب

جمعن النوى حتى إذا اجتمع الهوى
صدعن العصا حتى القناة شعوب

أتى دون حلو العيش حتى أمره
نكوب على آثارهن نكوب

كـأن أبا المغـوار لم يـوف مـرقـبـاً إذا ربأ القـوم الغـزاة رقـيـب
ولم يدع فـتـيـانـاً كـرامـاً لميسـر إذا ربأ الـقـوم الغـزاة رقـيب
فإن غـاب منهم غائب أو تخـاذلـوا إذا اشتد من ريح الشتاء هبـوب
كـأن أبـا المغـوار ذا المجـد لم تجب كفى ذاك منهم والجناب خصـيب
عـلاة ترى فـيـها إذا حـط رحلهـا به البـيد عنس بالفـلاة خبـوب
وإنى لبـاكـيـه وإنى لصـادق ندوبـاً على آثـارهن نـدوب
فتى الحرب إن حاربت كان سمامها عليـه وبعض القـائلين كـذوب
وحـدثـتـمانـى إنما الموت فى القـرى وفى السلم مفضال اليدين وهـوب
ومـاء سمـاء كان غـيـر محـمـة فكيف وهـذا روضـة وقلـيب
ومنزلـه فى دار صـدق وغـبطـة بداوية تجـرى عليـه جنـوب
فلو كـانت الدنيـا تباع اشـتـريتـه وما أقتـال من حكم عليـه طبيب
بعـينى أو يمنى يـدى وقـيل لـي بما لم تكن عـنه النفـوس تطيب
لعـمركـما إن البـعـيد لما مـضـي هو الغانم الجـذلان يوم يـؤوب
وإنى وتأمـيلى لقـاء مـؤمـل وإن الذى يأتـى غـداً لقـريب
كـداعى هذيل لا يـزال مكلفـاً وقد شـعبته عن لقـاي شـعوب
سقى كل ذكـر جاءنا من مـؤمـل ولا يناله حـتى الممـات مـجـيب

وقال ابن الأنبـارى (وهو مولد) يرثى ابن بقـية وزير عز الدولة بـويه لما صلبه عضد الدولة ببغداد بعد قتل عز الدولة :

علو فى الحياة وفى الممات ... لحق تلك إحدى المعجزات

كأن الناس حولك حين قاموا ... وفود نداك أيام الصلات

كأنك قائم فيهم خطيبًا ... وكلهم قيام للصلاة

مددت يديك نحوهم احتفاء ... كمدهما إليهم بالهبات

ولما ضاق بطن الأرض عن أن ... يضم علاك من بعد الوفاة

أصاروا الجو قبرك واستعاضوا ... عن الأكفان ثوب السافيات

لعظمك فى النفوس بقيت ترعى ... بحراس وحفاظ ثقات

وتوقد حولك النيران ليلاً ... كذاك كنت أيام الحياة

ركبت مطية من قبل زيد ... علاها فى السنين الماضيات

وتلك فضيلة فيها تأس ... تباعد عنك تعبير العداة

ولم أر قبل جذعك قط جذعًا ... تمكن من عناق المكرمات

أسأت إلى النوائب فاستثارت ... فأنت قتيل ثأر النائبات

وصير دهرك الإحسان فيه ... إلينا من عظيم السيئات

وكنت لمعشر سعدًا فلما ... مضيت تفرقوا بالمنحسات

غليل باطن لك فى فؤادى ... يخفف بالدموع الجاريات

وكنت تجير من صرف الليالى ... فعاد مطالبا لك بالترات

ولو أنى قدرت على قيام ... بفرضك والحقوق الواجبات

ملأت الأرض من نظم القوافى ... ونحت بها خلاف النائحات

ولكنى أصبر عنك نفسى ... مخافة أن أعد من الجناة
ومالك تربة فأقول تسقى ... لأنك نصب هطل الهاطلات
عليك تحية الرحمن تترى ... برحمات غواد رائحات

وقال الفاضل إسماعيل باشا صبرى ، محافظ ثغر الإسكندرية الآن ، يرثى خديو مصر محمد توفيق باشا المتوفى فى أوائل جمادى الثانية سنة ١٣٠٩ :

نحن لله ما لحى بقاء ... وقصارى سوى الإله(*) فناء
نحن لله راجعون فمن ما ... ت ومن عاش ألف عام سواء
يفرح المرء فى الصباح وما يعـ ... ـلم ماذا يكنه الإمساء
ومتاع الدنيا قليل وما يلـ ... ـهو به المرء من حطام هباء
زهد الناس فى الحياة ملم ... روعتنا بهوله الأنباء
قصر حلوان كنت أنضر قصر ... فيه يحلو ويستطاب الهواء
كنت ذا هيبة يحاذرها الدهـ ... ـر وتكبو أمامها البأساء
كيف أصبحت مستضاماً وللخطـ ... ـب إلى ركنك المنيع ارتقاء
ما كذا عهدنا بعزك ترميـ ... ـه الليالى أو يعتريه انقضاء
كان بالأمس فى ذراك أبو العبا ... س تحيى ببشره الأحياء
قطوت برده الخطوب وكانت ... قبل تشقى بسعده وتساء
ويح من شيعوه قد أودعوا القبـ ... ـر كريا يبكى عليه العلاء

(*) وردت فى الأصل «الأله » ، والصواب « الإله » (المحرر) .

وارتضـوا بالبكـا ومـا الحـزن إلا أن تسـيل القلوب والأحـشـاء

عاش فينا عذب البشاشة والأخـ ـلاق تروى بـه النفـوس الظمـاء

وتولى وفى الصـدور من الوجـ ـد عليـه مـا ليس يرويه مـاء

عطلت مصر من سناه كما قـد عطلت من حليهـا الحسناء

كل خطب فى جنب خطبك يا مصـ ـر يرجى للناس فيـه عـزاء

مـا يقـول الراثـون فى فقـد توفيـ ـق ومـاذا تحاول الشعـراء

والرزايا فى بعضهـا يطلق القـو ل وتعيى فى بعضهـا البلغـاء

إن مولاك كـان أحسن من تز هى بأنور وجهـه البطحـاء

كـان للتـاج فـوق مفرقـه ضـو ء لديه تحـقـر الأضـواء

كـان يجلو دجى الكوارث إن جلـ ـت بـرأى تعنـو لـه الآراء

كـان أدرى المـلأ بكسب ثناء آه لـو خلد النفـوس ثناء

آل توفيـق الكرام البسـوا الصبـ ـر رداء فـالصـبـر نعم الرداء

أنتم الراسخون فى علم مـا كـا ن فقولوا من ذا عـداه الفناء

أين قـوم شـادوا البـلاد وسـادو ها وكـانت تهـواهم العليـاء

ملكـوا الأرض حقبة ثم أمسـوا وهمـو فى بطونهـا نـزلاء

سـنة الله فى البـريـة يسـ ـتـثن منهـا الملوك والأنبيـاء

لا أعـزيكم وإنى لقـولى إن تعـزى بمثله الحكمـاء

أحمـد الله فى العشيـة والإصـ ـبـاح فـالبـؤس قـد تـلاه هناء

إن يكن خـر من سـمـائكم بد ... ر فـعـبـاسكم به يستـضـاء

ورث الملك عن أبيـه فلمـا ... قـام بالأمـر دب فـينا الرجـاء

واجـتنيناه طود مـجـد وسـوراً ... دار منه حـول البـلاد بناء

حبـذا منـه همـة تتـرك الصعـ ... ـب ذلولا وعـزة قـعـسـاء

وثبـات فى طيـه وثبـات ... للمـعـالى وحكمـة وإباء

وصفـات عن كنهها يعجـز الوصـ ... ـف وفيـها يستـغـرق الإحصـاء

دام يكسـو الزمـان حسنًا ويسدى ... أنعـمـا لا يشـوبهن انتـهـاء

وقالت عائشـة هانم التيمورية ترثى ابنتها وهو من الشعر الجزل الرصين المزرى بشعر الخنساء :

إن سـال من غـرب العيـون بحـور ... فـالدهـر باغ والزمـان غـدور

فلـكل عين حـق مـدرار الـدمـا ... ولكـل قلـب لوعـة وثبـور

ستر السنا وتحجبت شمس الضحى ... وتغـيـبت بـعـد الشـروق بدور

ومضى الذى أهوى وجرعنى الأسا ... وغـدت بـقلبى جـذوة وسـعـير

ياليـتـه لما نوى عـهـد النوى ... وافي العـيـون من الظلام نـذير

ناهيك مـا فـعـلت بماء حـشـاشتى ... نار لـهـا بين الـضلوع زفـيـر

لو بث حزنى فى الـورى لم يلتفت ... لمصـاب قـيس والمصـاب كـثـير

طافت بشهر الصـوم كاسات الردى ... سـحـرا وأكـواب الدمـوع تدور

فـتنـاولت منها ابنـتى فـتـغـيـرت ... وجنات خـد شـأنهـا التـغـيـير

فذوت أزاهير الحياة بروضها | وأنقد منها مائس ونضير
لبست ثياب السقم فى صغر وقد | ذاقت شراب الموت وهو مرير
جاء الطبيب ضحى وبشر بالشفا | إن الطبيب بطبه مغرور
وصف التجرع وهو يزعم أنه | بالبرء من كل السقام بشير
فتنفست للحزن قائلة له | عجل ببرئى حيث أنت خبير
وارحم شبابى إن والدتى غدت | ثكلى يشير لها الجوى وتشير
وارأف بعين حرمت طيب الكرى | تشكو السهاد وفى الجفون فتور
لما رأت يأس الطبيب وعجزه | قالت ودمع المقلتين غزير
أماه قد كل الطبيب وفاتنى | مما أؤمل فى الحياة نصير
لو جاء عراف اليمامة يبتغى | برئى لرد الطرف وهو حسير
يا روع روحى حلها نزع الضنا | عما قليل ورقها ستطير
أماه قد عز اللقاء وفى غد | سترين نعشى كالعروس يسير
وسينتهى المسعى إلى اللحد الذى | هو منزلى وله الجموع تصير
قولى لرب اللحد رفقا بابنتى | جاءت عروسا ساقها التقدير
وتجلدى بإزاء لحدى برهة | فتراك روح راعها المقدور
أماه قد سلفت لنا أمنية | يا حسنها لو ساقها التيسير
كانت كأحلام مضت وتخلفت | مذبان يوم البين وهو عسير
عودى إلى ربع خلا ومآثر | قد خلفت عنى لها تأثير

صونى جهاز العرس تذكاراً فلى ... قد كان منه إلى الزفاف سرور

جرت مصائب فرقتى لك بعد ذا ... لبس السواد ونفذ المسطور

والقبر صار لغصن قدى روضة ... ريحانها عند المزار زهور

أماه لا تنسى بحق بنوتى ... قبرى لئلا يحزن المقبور

ورجاء عفو أو تلاوة منزل ... فسواك من لى بالحنين يزور

فلعلها أحظى برحمة خالق ... هو راحم بر بنا وغفور

فأجبتها والدمع يحبس منطقى ... والدهر من بعد الجوار يجور

بنتاه يا كبدى ولوعة مهجتى ... قد زال صفو شأنه التكدير

لا توصى ثكلى قد أذاب وتينها ... حزن عليك وحسرة وزفير

قسمًا يغض نواظرى وتلهفى ... مذ غاب إنسان وفارق نور

وبقبلتى ثغراً تقضى نحبه ... فحرمت طيب شذاه وهو عطير

والله لا أسلو التلاوة والدعا ... ما غردت فوق الغصون طيور

كلا ولا أنسى زفير توجعى ... والقد منك لدى الثرى مدثور

إنى ألفت الحزن حتى إننى ... لو غاب عنى ساءنى التأخير

قد كنت لا أرضى التباعد برهة ... كيف التصبر والبعاد دهور

أبكيك حتى نلتقى فى جنة ... برياض خلد زينتها الحور

إن قيل عائشة أقول لقد فنى ... عيشى وصبرى والإله(*) خبير

(*) وردت فى الأصل «الاله» ، والصواب « الإله » (المحرر) .

ولهى على توحيدة الحسن التى　　قد غاب بدر جمالها المستور

قلبى وجفنى واللسان وخالقى　　راض وباك شاكر وغفور

متعت بالرضوان فى خلد الرضا　　ما ازينت لك غرفة وقصور

وسمعت قول الحق للقوم ادخلوا　　دار السلام فسعيكم مشكور

هذا النعيم به الأحبة تلتقى　　لا عيش إلا عيشه المبرور

ولك الهناء فصدق تاريخى بدا　　توحيدة زفت ومعها الحور

سنة ١٢٩٤

(أ) فترى من قصائد المدح أن أغلبها مبدوء بالنسيب وهو أسلوب غريب ، ولعل سببه أن شعراء العرب كانت أشعارهم فى الغالب حكاية عن واقع ، فكان الشاعر يقص على الممدوح فى مدحته ما انتابه من فراق امرأته أو ابنته ذات المكانة فى فؤاده لما لها من الصفات الحسان ، ولا يأنف من ذكر اسمها ولا صفاتها ، ويقص عليه أيضا ما اعتراه وراحلته من عناء السفر وركوب الخطر حتى وصل إليه ، ثم يمدحه فيستعظم الممدوح حال الشاعر ويجزل له العطاء استعاضة لما نابه . فلما جاء الشعراء المتأخرون أرادوا أن ينسجوا على منوال شعر العرب فافتتحوا مدائحهم بالتشبيب بمحبوب اخترعه وهمهم وخيالهم وصار هذا الأمر عادة مألوفة لهم . وقال الدسوقى : إن السبب فى ذلك تهييج القريحة وتحريك النفس للشعر والمبالغة فى الوصف وترويح النفس ورياضتها . وقال أحمد فارس : إنه لا شىء أفظع عند الإفرنج من أن يروا فى قصائد المدح تغزلاً بامرأة ووصفها بكونها رقيقة الخصر ثقيلة الكفل نجلاء العينين سوداء الفرع وما أشبه ذلك ، وأفظع منه التشبب بغلام وأقبح من هذا وذاك نسبة شىء من صفات المؤنث إلى المذكر ، كقول الشاعر (كأن ثدياه حقان) فإنهم أول ما يبتدئون المدح يوجهونه إلى المخاطب ويجعلونه ضرباً من التاريخ ، فيذكرون فيه مساعى الممدوح ومقاصده وفضله

على من تقدمه من الملوك ، وإنه لما مدح أحمد باشا والى تونس بقصيدته التى مطلعها : "زارت سعاد وثوب الليل مسدول" ، سئل هل اسم الباشا سعاد فقال لا بل هو اسم امرأة ، فقال السائل وما مدخل المرأة بينك وبين الباشا ؟

وأقول إن العرب ما كانت تشبب بالغلمان قط ، وإن هذا ما جاء إلا فى شعر المتأخرين ، ولم نر في أشعار هؤلاء ولا أولئك نسبة شيء من صفات المؤنث إلى المذكر ، واستشهاد أحمد فارس على هذا بقول الشاعر (كأن ثدياه حقان) وهم فإن الضمير فى (ثدياه) لا يعود لمحبوب مذكر إن توهمه بل يرجع إلى الصدر فى الشطر الأول من البيت وهو (وصدر مشرق النحر كأن ثدياه حقان) . ومن أنى جاءه أن هذا الصدر صدر غلام وليس صدر فتاة ، ولم يرو ما قبل هذا البيت ولا ما بعده من الأبيات ، وهو من شواهد سيبويه التى لا يعلم قائلها وكونه صدر فتاة أحق وألزم . وقد قال الشيخ جمال الدين بن هشام : وصدر مرفوع بالابتداء والخبر محذوف تقديره ولها صدر ولم يقل وله صدر . هذا وقد هجر كثير من شعراء العصر الأسلوب العربى القديم كما ترى فى قصيدة حفنى بك وغيره .

(ب) وترى من قصائد النسيب أنهم يذكرون رحيل النساء ونأيهن ويخاطبون أطلالهن ويصفون محاسنهن ويذكرون أيام شباب ولهو ولذات قضوها معهن . قال البعض : والنسيب نوع من التشبب وهو المعبر عنه بالغزل ، وهو عند المحققين من أهل الأدب يشتمل على أربعة أنواع .

١ - ذكر ما فى المحب من الصفات كالشغف والنحول والذبول والحزن والأرق .

٢ - وذكر ما فى المحبوب من الصفات كحمرة الخد ورشاقة القد والملاحة والخفر .

٣ - وذكر ما يتعلق بهما من هجر وصد ووصل وسلو واعتذار ووفاء وإخلاف ونحو ذلك .

٤ - وذكر ما يتعلق بغيرهما بسببهما من الوشاة والرقباء ونحوهما .

(جـ) وترى من قصائد الرثاء أنها دائرة حول الجزع على الفقيد وفيض العبرات والحزن والأسف عليه ووصف مآثره ونحو ذلك .

(د) والإجمال ترى أن كل نوع من الشعر يناسب زمانه ومكانه كما يعلم ذلك من التتبع .

الهوامش

(١) غلبها .

(٢) نصبها أعناقهما .

(٣) يستتبهه يستفعل من تاه يتيه إذا ضلّ .

(٤) الجذم الأصل نهكنا سوامه أى أثرنا فى السائمة من المال بما عودناها من الزجر ، من قولهم نهكه المرض إذا ضربه .

(٥) المنائح جمع منيحة وهى الناقة أو الشاة تدفع إلى الجاز لينتفع بلبنها

(٦) الخليط : الشريك والزوج وابن العم والقوم الذين أمرهم واحد .

(٧) الحبل العهد .

(٨) برهن : أى بقلب ، وغلق لرهن كفرح استحقه المرتهن إذا لم يفتكك فى الوقت المشروط .

(٩) مغزلة : ظبية ذات غزال ، وأدماء من الأدمة فى الظباء وهو لون مشرب بياضاً وخاذلة : من خذلت الظبية إذا تخلفت عن صواحبها أو أقامت على ولدها .

(١٠) اغتبق : شرب الغبوق ، لما يعد لم يحز أن صار عتيقا .

(١١) شج الشراب مزجه ، والناجود : الخمر وإناؤها ، والشبم · الماء البارد ، ولينة : موضع ، الطرق : الماء الذى طرقته الأبل وبالت فيه وبعرت ، والرنق : الكدر .

(١٢) الراكس : واد ، والقلق : المطمئن من الأرض .

(١٣) شرورى وآدم : موضعان ، والحزق : الجماعات وأحدتها حزقة .

(١٤) الغرب : الدلو العظيمة ، والمقتلة : المجربة ، والنواضح : من الإبل التى يستقى عليها واحدها ناضح ، والجنة : البستان ، والسحق : النخل الطويل واحدته سحوق.

(١٥) الرشاء : الحبل ، والثناية : حبل يشد طرفاه فى قتب الناضح ويشد طرف الرشاء فى مثناته ، ومعنى « فى ثنايتها » أى وعليها حبلها ، والمحالة : البكرة : والقب : الثقب يجرى فيه المحور من المحالة .

(١٦) العراقى : يريد العرقوتينت وهما خشبتان يعرضان على الدلو كالصليب .

(١٧) النطق : جمع نطاق والمراد بها هنا نفاخات ودارات على الماء .

(١٨) الشربات : جمع شربه بالتحريك وهى حويض حول النخلة يسع ريها .

(١٩) الدوابر : جمع دابرة وهى فى الخيل مؤخر الحافر ، والقد : السير بقد من جلد غير مدبوغ ، والأبق · القنب .

(٢٠) الخدج التى تلقى أولادها لغير تمام جمع خدوج ، والبدن جمع بادن وهى الضخمة السمينة ، والعقق جمع عقوق وهى التى استبان حملها ، جنبوها : قادوها .

(٢١) الأنسا : عروق الفخدين جمع نسأ ، والصفق صفاق وهو الجلد الذى دون الجلد الأعلى مما يلى البطن .

(٢٢) أى فضل الناس فضل الجياد على البطاء من الخيل ، والممنون : المقطوع ، والنزق : السريع فى أول ما يجرى ثم ينقطع مثل البرذون ، أى الممدوح فى الناس مثل الجواد فى الخيل يعطيك ما عنده من الجرى دون أن يقطع جريه أو يبطىء بعد السرعة .

(٢٣) خابط ورقا : أى سائل معروفا ، وهو مستعار من خبط ورق الشجر ليتناثر وتأكله الماشية .

(٢٤) عثر : اسم موضع .

(٢٥) من كثب محركا أى من قرب .

(٢٦) اتام افتعل من الاتيام وهو ذبح ا لتيمة أى الشاة ، يقول أن جارتهم لا تحتاج أن تذبح شاتها ، لأنهم يضمنون لها كفايتها من القرى .

(٢٧) الذكرات . جمع ذكرة وهى الحدة .

(٢٨) المقصد الذى يمرض ويموت سريعا .

(٢٩) لعلها فاستقيدولى ، يقال استقدت الأمير من القائل فأقادنى منه ، وعلى هذا تكون الباء معنى من .

(٣٠) المتجرد بالكسر الجسم وبالفتح المصدر .

(٣١) الزعارة : الشراسة .

(٣٢) الأرن : النشيط ، مأخوذ من أرن كفرح ، والسراة : الظهر ، والحميم هنا العرق .

(٣٣) الرجل ذو الصوت ، والجلبة والحبى : السحاب .

(٣٤) يمطو يسرع ، والسيد المتورد . الأسد الجرىء.

(٣٥) الأريد الأغيز .

(٣٦) الحبيرة تصغير حبرة كعنبة وهى ثوب يمانى .

(٣٧) الانقد القنفذ لأنه لا ينام الليل كله .

(٣٨) الزيم : المتفرق من الدواب .

(٣٩) عار الدهر .

الفصل الثالث

فيما يتبع الشعر

بعد الإسلام لما رسخت أقدام الأمة العربية فى الحضارة والعمران فى الأندلس والعراق ولواحقهما أولعوا بالعلوم والفنون والآداب ، وركنت نفوسهم إلى ما يريضها ويزكيها من سماع أناشيد الشعراء وألحان المغنيين شأن كل أمة توطدت دعائم ملكها ، وتوفرت دواعى الرفه فيها . فكان شعراؤهم ينظمون جيد الشعر ذى الخيالات التى لا تخطر بفكر العربى البحت ففاقوا أسلافهم فى ذلك حتى نظموا الكلام على أوزان غير المأثورة عنهم فى أشعارهم واستحدثوا فنونًا ستة ألحقها الأدباء بالشعر .

أولها الموشح : واخترعه أرباب الألحان من أهل الأندلس تطبيقًا على أصوات الموسيقى ، وأول من قاله مقدم بن معافر . وقيل إن بعض الألحان الموسيقية كانت تجىء إلى مصر من بلاد الروم على أوزان ساذجة تضرب على آلات الموسيقى خالية من الكلام ، فكان المغنون يأخذون اللحن منها ويتأملون فى دوره وتوقيعه مراعين متحركاته وسواكنه ، وينظمون الكلام على هواه وعلى قدر ما فيه من الأغصان والسلاسل حتى يكمل توشيحًا موزونًا مقفى ويؤخذ مثالاً لغيره .

ويجىء الموشح على أوزان وصور مختلفة منها : أن تأتى ببيت تلتزم فيه التقفية فى صدر الشطر الأول وعروضه وصدر الشطر الثانى وضربه ، ويسمى هذا البيت مذهبًا ، ثم تأتى بثلاثة أشطر أخرى تلتزم فيها التقفية أيضًا لكن على حرف آخر تسمى هذه الأشطر دورًا ، ثم تعود وتأتى ببيت مقفى كالأول ومتحد معه فى حرف التقفية ويسمى قفلة ، ثم تأتى بدور آخر وقفلة أخرى وهكذا إلى سبعة أدوار فى الأكثر ، مثال هذا موشح ابن سنا الملك :

كللى يا سحب تيجان الربى بالحلى واجعلى سوارها منعطف الجدول (للذهب)

يا سما فيك وفى الأرض نجوم وما كلما أغربت نجما أشرقت أنجما (دور)

وهى ما تهطل إلا بالطلى والدمى

فاهطلى على قطوف الكرم كى تمتلى وانقلى للدن طعم الشهد والفوفل (قفلة)

تتقد كالكوكب الدرى للمرتصد يعتقد فيها المجوسى ما يعتقد (دور)

فاتئد يا ساقى الراح بها واعتمد

وأمل لى حتى ترانى عنك فى معزل قلل فالراح كالعشق إن يزد يقتل (قفلة)

من ظلم فى دولة الحسن إذا ما حكم فالسدم يجول فى باطنه والندم (دور)

والقلم يكتب ما سطر فوق القمم

من ولى فى دولة ا لحسن ولم يعدل يعزل الألحاظ الرشا الأكحل (قفلة)

لا أريم عن شرب صهباء وعن عشق ريم فالنعيم عيش جديد ومدام قديم (دور)

لا أهيم إلا بهذين فقم يا نديم

وانهل من كؤوس صورن من صندل أفضل من نكهة العنبر والمندل (قفلة)

هل يعود عيش قطعناه بوادى زرود والجنود فى حضرتى تضرب جنكاوعود (دور)

والحسود فى معزل عنا غدا لا يسود

عذلى لا تغذلونى فالهوى لذلى ما الخلى فى الحب مثل العاشق للبتلى (قفلة)

أسفرت ليلتنا بالأنس مذ أقمرت بشرب بملتقى للمحبوب واستبشرت (دور)

شمرت فقلت للظلماء مذ قصرت

طولى يا لـيلة الوصل ولا تنـجلى   وأسبلى ستركِ فالمحبوب فى منزلى (قفلة)

يا نسيم بلغ سلام المستهام السقيم   للكريم طه إمام المرسلين العظيم (دور المديح)

عن أليم وجدى به حدث وشوقى القديم (قفلة)

ليس لى من ملجأ سوى الحمى الأفضل   الجلى وإله ذوى الجنـاب العلى

وشطر هذا الموشح وزنه (فـاعلن مستـفعلن مسـتفعلن فـاعلن) وقد يأتى فـيه فاعلن على فاعلان .

وقد يكون المذهب بيتين يتفق عروضاهما فى قـافية ويتـفق ضـربهما فـى أخرى ، ويكون الـدور خمسـة أبيـات ثـلاثة منها تتفق أعاريضـها فـى قافـية وأضـربهـا فـى أخرى ، والبيـتان الآخـران يتفـقـان مـع المذهـب فى قافيتيه فهما بمنزلة القفلة ، كقول بعض المغاربة :

(المذهب) قـابل الصـبح الدجى فانـهزمـا   ومـحـا بالـسيف أفـق الفلس

وجـلا الغـيم ببـرق رقـمـا   ثـوب ديباج به الجـو كسـى

(دور) : نسخ الصبـح أحـاديث الدجى   بيـد بيـضـاء فى لوح النهـارْ

ولكهف المغـرب الـليل التـجى   حين نادى الفجر فى الشرق البدارْ

وجـلا الصـبح جـبينًا أبـلجـا   فـاختـفى النجم من نوره وغـارْ

وبكى القُـمْرى لما ابـتـسـمـا   عـاطـر الزهر بثـغـر الـعس

وزهـا خـد الربى فـانسجـما   دمـع عين العـارض المنبـجس

(دور) : للـرياض اذهب ترى بـلبلهـا   يـتـغنى بين زهر يـنجـل

وخـدود الروض قـد كللهـا   دمع طل لاشـتـيـاق البـلبل

وقـدود البـان قـد قـام لهـا   يانع الـغـصن مـقـام الأسل

والربى فـاحت تحـاكى خـزمـا   وعليـهـا من ثيـاب السندس

جـيبهـا زرّر بالزهـر كـمـا   زرُّ بالفضـة ثـوب الأطلس

وكقول الأديب أمين أفندى الخورى ، طبيب مستشفى دمياط ، يوصى الحليلة بآداب جليلة :

(مذهب): إن أوقـات التلاهـى قد مـضت   وأتـى وقـت الـزواج المـؤنـس

فـخـذى عنى وصـايا جـمـعت   يا فـتـاتى من نفـيـس أنفس

(دور) : إن حـسـن الحظ ألـقـانـا إلى   بيت قـوم مـثلنا فـى كل حـال

وحليـل كلمـا فـيـه حـلا   من جـمـال ورشـاد وكـمـال

فـيـه بدرٌ هناك اكـتـمـلا   أسـأل الله لكم حـسـن المآل

إن يكن هام بحـسن قـد حلت   وزهت بـهـجـتـه للأنـفس

فأريـه فيك أخـلاقًا سـمت   حسبمـا يقضيه طيب المغرس

(دور) : سـتنالـين الرضـا بالابتـدا   والصفا الدائم فى شـهر العسلْ

ويكون الـكل فـيكم سـعـدا   والهنـا أين تقـيـمـان يحلْ

إنما ذا ليس يبـقى سـرمـدا   فلقـد يعـقـبـهُ بعـض المللْ

ربما نـار هوى الـزوج خـبت   فـأحـسنى الظن ولا تبـتـأسى

فـإذا المـرأة فى ذا عـقـلت   تجعـل العمر كـشهر العرسِ

(دور) : ودى أخت الزوج واسترضى أباه   وابذلى كـل احـتـرام لأمـه

اتركى الهـزل ولا تلقى أخـاه		بمزاح لا ولا ابنى عـمـه
اقـضى ما يرضى وخلى مـا أباه		وكـذا اهتـمى له فى همـه
وإذا البـشرى عليه ظهـرت		أظهـرى بشـرًا له وأتنسي
وكـذا فى غمـه لو بدرت		حـدة لا تنزعى لـلشـرسِ

(دور) : خلى عنك الهزل مع أهل القرين		لا لكى تستظهرى بالعظمه
بل لأن الهـزل للـنفس مـهين		مثلما الكبر سجايا المجرمه
وزنى الأعـمال بالعـقل الرزين		وقبيل النطق ذوقى الكلمه
حـاذرى الجارة مهـما برهنت		كـذبًا عن حبـهـا واحترسى
وبـك الأقـوام مهمـا أعجبت		فـإلى تمليقـهـم لا تأنسى

(دور) : أودعى سـرّك أعمـاق الفـؤاد		ولدى الحاجة فى وقت الصفا
زوجك المختار من رب العباد		إذ سـواهُ ليس يرجى للوفـا
امـدحى أطـواره فى كـل ناد		واتقى الشكوى ولو يومًا هفا
إنما الشكوى من الزوج عنت		تورث الوحـشة بعـد الأنس
فأمـور مثل هذى لو جـرت		تنطـق الألسـن بعـد الخرس

(دور) : إن يكـنْ عـيبٌ بـه يومًـا طرا		أو أتى أمـرًا على غـيـر المرامْ
غـضى من طرفك عنهُ حـذرا		أن تقـوديه لشـرٍّ وخصـامْ
فـبحسن الرأى تقـضى الوطرا		لا بـبـذل اللوم أو بذء الكلامْ
واحفظى الواجب مهما وصلت		مـعـهُ حـرية واستحرسى

ولتــك الآداب فيــك انطبعــت   خـيفــة من وصـمــة الملتـبس

(دور) : البـسى مـا كـان محـبـوبًا لديهْ   وامنعي مـا النفس منهُ تـشمـئـز

اجـمــعي أولادهُ بين يـديهْ   واشـغليـه فـيـهم عـمن يعـزّ

لا تلـحى بالســؤالات عليــهْ   وأريه فـيك نفس المسـتـعــزّ

وابعـدى الغيـرة مـهـما فـتكت   بالحــشى فـهى نـذير الأبؤس

وانفـــرى منها إذا مـا هجمـت   كالظبــا مــن أســد مفـترس

(دور) : أنت بالحـــسنى وباللـين فـقط   قــد تفــوزين لدى إرجــاعــه

فاحذرى أن تركبى متن الشطط   إن دعت حـــال إلى إقـنـاعــه

وتـأنـى واعـلـمـى أن الـغـلـط   غــالبًا لـلمـرء مـن إسـراعــه

إنمـا المرأة مـن قـــد أدركـت   قــصـــدها تحت لـواء الأنس

لا مـــن الغـــيرة فيـها اشـتعلت   فأضــاعـت رشـدهــا بالهـوس

(دور) : رتبى بيـتك فــيـمـا تقـتـضيـه   حال ذاك الزوج فى هذا الوجود

والذى عنهُ غـنى فـاقـتـصـديه   وامنعى الاثنين تقـتـيرًا وجود

إن من وفــر شـيـئًـا يلـتـقـيـه   قليــالى عــمــرنا بيض ســود

وبأوقـــات فـــراغ قـــد خلت   من مـهـمـلتك لا بأس ادرسى

فـمــبـادى طبنــا قـــد تمـت   كلمـــا يصـــلح أن تلتمــسى

وشـطـر هـذا ومـا قـبله (فـاعـلاتن فـاعـلاتن فـاعلـن) وقد جـاءت العروض والضـرب على فاعلان .

وقد يكون المذهب أربع أبيات تتحد أعاريضها فى قافية وأضربها فى قافية أخرى ، والدور أربعة أخرى تتحد أعاريض ثلاثة منها فى قافية وأضربها فى أخرى ، والبيت الرابع كبيت من المذهب ، كقوله :

(المذهب): اجـمـعـوا بالقـرب شـملى واسـمـحـوا لى بالتـلاق
وصـلـوا بالـود حـبـلـي فـالنـوى مـر المـذاق
نال أهـل العـشـق قـبـلى فى الـهـوى مـا لا يـطاق
مـن رأى فى النـاس مثلى مـن تبـاريـح الفـراق
يا مـلوك الحـسن رفـقـاً بمسـاكين الـغـرام
(الدور): ارحـمـوا من هام عـشـقًـا وتغـشـاه السـقـام
أنـا لا أنـفـك رقًـا عـنك يـا أقـصـى مـرام
فـتـداركنـى بفـضـل واطـف نـار الاشـتـياق

وشطر البيت فاعلاتن فاعلاتن إلا أن ضربه فاعلان

وقد يكون المذهب بيتين تتحد عروضاهما وضرباهما فى قافية ، والدور بيتين تتحد عروضاهما وضرب البيت الأول فى قافية أخرى وضرب البيت الثانى يتحد مع المذهب فى القافية وهكذا ، ومنه قول الشاعر المجيد أحمد بك شوقى عند الاحتفال بفتح مدرسة فى الإسكندرية من مجزوء الرجز :

يـا ربـنـا يـا ذا المـنن أكـثـر مـدارس الـوطن
واجـزل الأجـر لمن يـجـرى على هـذا السـنن
وهب لنا فـيـمـا تـهب حـسن الثـبـات فى الـطلب

وفضل علم وأدب كى ترتقى منا الفطن

إن العلوم للورى كالنجم يهدى فى السرى

والماء يجرى فى الثرى والروح تسرى فى البدن

هن مفاتيح المنى وهى أسباب الغنى

من اقتناهن اقتنى ملكًا كبيرًا فى الزمن

يا من لهذا أسسوا ومن له قد غرسوا

من فضلكم نلتمس دوام ذا السعى الحسن

ها نحن جئنا نشكر والشكر منا أجدر

عذرًا إذا نقصر فليس للعلم ثمن

أبقاكمو الله لنا مؤيدًا سلطاننا

موفقًا عباسنا لما به يحيا الوطن

وثانيها الدوبيت : ويؤخذ من لفظه أنه نشأ عند الفرس ، ومعناه بيتان ويسمونه بالرباعى . وقيل إن اسمه الدوبت بحذف الياء ، وإنه مركب من كلمتين فارسيتين (دو) بمعنى اثنين و(بت) بمعنى حاشية ، وعندهم القافية حاشية الفن ، فمعنى (دوبت) فن ذو قافيتين ، وقافيتاه تكونان محركتين على وزن (قَمَرِى) فيمتاز عن غيره بدخول القمرية فى قافيتيه وتجىء أيضا فى درجة مع الحسن . والشائع هو التسمية الأولى . ووزن الشطر منه (فَعْلُن متفاعلن فعولن فعلن محركا) وقد يغير متفاعلن إلى متفاعيل أو متفاعلين وفعلن المحرك إلى فعلن الساكن أو إلى فعلان . ومنه قول الصلاح الأربلى وهو فى سجن الملك فكان سببًا فى الإفراج عنه :

ما أمر تجنيك على الصب خفى　　أفنيت زمانى بالأسى والأسف

ماذا غضب بقدر ذنبى ولقد　　بالغت وما أردت إلا تلفى

إحسانك طول الدهر لا أنساه　　لا أذكر بعد خالقى إلا هو

ومنه : إن أبعدك الزمان عنى حسدًا　　مولاى خليفتى عليك الله

أهوى رشأ كل الأسى لى بعثًا　　مذ عاينه تصبرى ما لبثا

ومنه : ناديت وقد فكرت فى خلقته　　سبحانك ما خلقت هذا عبثا

أهوى رشأ حوى من الحسن فنون　　عيناه تقول للهوى كن فيكون

ومنه : وتريد تجى إلينا　　لا شك هو النسيم والقوم غصون

والدوبيت والموشح معربان وقيل إن اللحن فى الثانى ليس بعيب .

وثالثها الزجل : وأول شهرته كانت حواضر المغرب ، وأول من قاله ابن قزمان وهو صبى فى المكتب ، و أصل الزجل رفع الصوت ثم خص بالصوت الطرب ، قال (له زجل كأنه صوت حاد) . وله أوزان كثيرة جدا حتى قيل من لا يعرف ألف وزن ليس بزجال ، ويجيء على أوزان الشعر و الموشح إلا أنه يخرج من بابيهما بكونه بلسان العامة حتى إنه يشترط فيه اللحن . فمنه على وزن البسيط :

لو أن مائى ذهب ولى مراكب درر　　ما كان لشمس كسوف ولا خفائى قمر

ومنه على وزن مجزوء الرمل قول مدغيس الأندلسى :

ورذاذ دق ينزل　　وشعاع الشمس يضرب

فترى الواحد يفضض　　وترى الآخر يذهب

والنبات يشرب ويسكر　　والغصون ترقص وتطرب

وتـــريـــد تجـى إلـــيــنـــا ثـــم تســتــحى وتهـــرب

ويسمى منه ما يشبه قصيدة الشعر بالحمل . ومنه للغبارى :

جار حـبيبى فقلت دا الحـجاج جـــا يجـــور أو يزيـد
لو عدل عـشت بو مســرور ويكـــون الرشـــيــد
(دور) : اقلع القلـب فى هوى العشـاق والـدمـــوع فى انحـــدار
وبحـــور الهـــوى إذا هـاجت لـيس لـهـــا من قـــرار
كنت أحـسب قلبى مـعوريس غـــرتوا دى البـــحـــار
صـحت لما وحلت يا مـحبوب بحـــر عـــشــقك يـزيد
خفــت فيه الغرق فقال افـــرح مـن غـــرق مـات شـهـيد
(دور) : أنا يوم فـى الغـبـوق بأتفـرّح عـلـى شـط الـغـــديـر
إذ رأيت عـالشط واحـد واقف شب صـيـاد صـغـيــر
نظـرت مـــقلـتى إلـى منـظر مـــا لحــسنو نظيـــر
قلت يا عين إن غـرك الصـيـاد بالجــمـــال المصـــيـد
يوقعـك فى فخاخ شباك عشـقو وكـــراكـى يصـــيـد
(دور) : من نحـبـو حـديد سلـب قلبى يوم صـدفــتـــو صـدف
قلت لين يا قـاسى لمن دمـعـوا ســـال وحـــالو وقـف
دار وقال لى مـا الاسم بالإنجيل قـلـت اســـمـى خلـف
قـال علـينا يكتب ومن يـسمع دا الكـلام يســتـفـيــد

فى الحقيقة من لا يكون داود — ما يلين لو الحديد

(دور) : لك عوارض فى الخد موقومه — ليس لها من مثال

وجفاك صار حماق وباب وصلك — كان وكان يا غزال

وأنت دوبيت موشح القامه — يا عزيز الدلال

ولك ألفاظ صارت مواليا — بالزجل والنشيد

وبشعرك متوج القامه — وأنت بيت القصيد

(دور) : عن محرّم شرابنا صمنا — ونفطر بالثمار

حين وجدنا سفرجل البستان — يذهب لا صفرار

وغنا الطير به الجماد يطرب — وكذا الجلنار

فى ربيع حين رأى الثمر قاعد — فيه تعاليق عقيد

حسب الروض النص من شعبان — صار يقيد فيه وقيد

(دور) : من لهيب مدمعى جرى الطوفان — للهيب ما طفى

وأنا هو الغبارى فى العشاق — ما جرى لى كفى

حين عليا بالصد والهجران — والبعاد والجفا

جار حبيبى فقلت دا الحجاج — جا يجور أو يزيد

لو عدل عشت بو مسرور — ويكون الرشيد

ومنه ما قيل فى مدينة سيون بعد أن تخربت بالشام :

(مذهب) : فين يا سيون العز راح — والمجد راح فين والعظم

ليه صبحت أرضك براح — ما قصر إلا وانهدم

(دور) : فين الحصون فين القلاع | اللى رؤسها فى السحاب
من بعد هذا الارتفاع | صبحت مساوية للتراب

(دور) : إن كنت أغدو أو أروح | منك خيال فى فكرتى
أبكى على فقدك وأنوح | ديما أقول يا حسرتى

(دور) : يا نهر لردن يا مليح | فين الرياض اللى رويت
ماعاد هناك كروان يصيح | ولا بقا فى الشط بيت

(دور) : كانت وكنا والزمان | رايق ومتبسم لنا
يا هل ترى نفضل كمان | بالغصب منفيين هنا

ويقول الزجل فى عصرنا هذا كثير من أدباء مصر ، منهم الشيخ محمد على أحد طلبة مدرسة دار العلوم ، ومن زجله ما أنشأه حينما قطع محمود باشا الفلكى ناظر المعارف من طلبة هذه المدرسة الجنيه المرتب لكل منهم فى الشهر وهو :

ما للزمان يا ناس علينا جميل | تارة بنا يعدل وتارات يميل
كم للزمن فينا أمور من عجب | يبدى الفرح ساعات ويبدى الغضب
يحكى دولاب الماء إذا ما انقلب | يضحك ولكن أدمعه دوم تسيل
إن سرنا برهة يسئنا سنين | وازداد بنا من كتر جوره الأنين
حتى اشتكى فى بطن أمه الجنين | خايف يبان يصبح بحكمه ذليل
بسطوته كم قد أذل الأسود | أخنى على شداد وعاد مع ثمود
وقبلهم ياما قضى من جنود | من كل ماجد شهم بارع نبيل
دارت بنادى الكل كاس الزمان | شربو على الترتيب وفاتو المكان

وانضـمت الهيـئة لأخـبار كـان حتى استوى فيها السليم والعليل
من فطنته لم ينس من شخص قط إلا علـيــه هامـــه تلاطـم زلط
لكن غلـط مـره وزاد به الـغلط قبض غلام مصرى مهفهف جميل
قبض الغلام والمغرمين فـيه كثير يبلغ ثمانيـة وأربعين شيخ كبـير
وكل شـيخ دمـعه بخـده غـدير وإن طال عليه الحال فعمره قليل
من كل شيـخ عـالم أبوه الأدب لا ينثنـى عطفـه إذا مـا الطرب
يثنى مـعاطف غـانيات العـرب أو عطف زاهى الخد طرفه كحيل
من كل شيخ نحوى فصيح اللسان صرفى فقـيه مقرى بديع الـبيان
حلو المـعـانى لـو بديع الزمـــان أبقـاه زمـانه كـان يلاقى الخليل
والكل فى علم الحديث له مجال والهندسـة مـا عندك إلا رجـال
وكل جـغـرافى كـثيـر المقـال وفى الحساب والخط مالوش مثيل
وكل دول يبـكوا لفـقـد الولد ويصبروا روحهم ولا فيش جلد
وجت تـعـــزيهـم ولاد البـلد سى فلان وسى علان فصبر جميل
إزى مـا يبكيـش أحـدهم عليـه ويكبـس المقلة على مـقلتـيـه
دا كان ولد شـاطر واسمـه جنيه من أكرمين غـينا وأصلو أصيل
كان العشا محسوب عليه والفطور والعمـه والصرمـه وملو المجور
حـتى كـرا الأوده ونابت ونور وأجـرة المركب نهـار الرحيل
من يوم وفاته كم عيون قد بكت حتى الدموع لون العقيق قد حكت

والجبة من كـوع المشايخ شكت	دابت وقفطانهم يخيل فى النخيل
كان النواح والشلـشله والعديد	أربع لغـات عـربى بلاده بعـيـد
شرقى وبحراوى وأقصى الصعيد	وينوحـوا ليثى وصـوتهم طويل
يا هل ترى هذا المصاب للعموم	وإلا مـصيبـة جت لدار العلوم
حـتى غـدت أهـل الملامـة تلوم	والمبغضين فرحوا وأشفوا الغليل
أروح لمين أبكى وأشكى الزمان	وإن رحت للزوجه تقول كان ومان
عمه وتفليس شىء يزرزر كمان	طلقنى يابن الناس وشوف لك سبيل
وإن جت حماتى بيتنا يوم تزور	فايره شبيه البحر مالوش جسور
تمط بوزها مـتـر غـيـر الكسـور	وتقل أنـا ليــه بخت بنتـى يميل
يا هل البـلاغـة والفنون والفكر	قـصر الـكلام العلم فـقره دكـر
شـوفوا لكم صنعـه ويكفى بطر	وإللـى يكذبنـى يقـيم الدلـيل
دى مـسألة تكتـب بماء الفسيـخ	عنى خذوا نانا الزعيق والصريخ
واتاملوا واقروا وشـوفوا التـريخ	مات الجنى واش راح يفيد العويـل

(سنة ١٣٠٢)

ومنهم الأديب الشيخ أحمد القوصى ومن زجله فى حلاق :

اصـــــفح وصـلـح ياريـس	يا مـــزيـن الدنيـــا والـناس
(حـــلاق) (١) مثلك فين اليوم	ولك أيـــــادى فـوق الراس
بحـق ســيـدنا (مـــوسى)	والا مــقــام (الشـعـــرانى)

	ما حـــد ماشى فى (حدك)	ولا رأيت مثـــلك ثانى
(دور) :	دنتـــا جـــدع طيب طاهر	ومحبتك (فضله) عندى
	وليـــك منافع فى (الجلده)[2]	وليـــه متحفظشى ودى
	إزاى بتجرح فى حواسى	وأنا بحاسب على شانك
(دور) :	وليه تقـول على الصحبة (بدم)	وأنت (مواســى) أقرانك
	ولك محاسن (سنتـهـا)	وصـرت قـائم بالواجب
(دور) :	وفى الغســيل كله يطلع	والعين ما تعـلى على الحاجب
	دنا انكسفت كسوف صنعه	لما رأيت عنى بتـــقشع
(دور) :	(واشنابك) أنت من الدنـــيا	وكل (قصـــة) ليه تسمع
	ادعك وشوف (مرآة) فكرك	وتجـعل الواحـد باثنين
(دور) :	إن كنت تزعـل من غير ذنب	تودى (وشـــك) منى فين
	وإن كان كلامى فيه غلطه	ارجوك يا سيدى (تصلحها)
(دور) :	وخد لوحـــده [3] دى عندك	والمســلمين ليه تقطعها
	وإن كـــان واقف فى (الحلق)	(بحلق) ولا تســأل عنه
(دور) :	وإن (طشت) مرة فى (شروطك)	وفضـــلت أرغى سامحنى

ومنهم الأديب الشهير الشيخ محمد النجار ومن أعماله :

(دور) :	يا اللى أنت فى حسنك عديم المثيل	وأنا بحبى فيك ضرب بى المثل
	وفى غرامى شرح حالى طويل	ولو كنت أحكى لك على ما حصل

يا اللى الغزاله وهى شمس الضحى — من نور ضيا خلك بقت فى خجل
يا اللى الغزال من لفتتك فى التفات — ومن سواد عينك أعاوروا الكحل
يا لى الغزل فى وصف حسنك غلا — سعره وشعره فيه مذاق العسل
(دور) : أصبحت من وجلى عليك يا جميل — أهـــوى الغزالة والغزال والغزل
يابو قوام مياس يحاكى الغصون — وجيـد يحاكى جيد غـزال النقا
حبك مـلا قلبى ولى قـد ملك — وطمعت فى قربك وحسن اللقا
حتى فنى صبرى وعمرى انقضى — لك يا حـياة النـفس طول البقـا
(دور) : وكم رثـى لـى فـى غرامى مليم — وكـم عذرنى فى الهوى من عذل
هندى لحظك يا غـزال كم غـزا — فى معتـرك أهل الهوى والغرام
وكم أسَـرْ عشـاق وقطّع مـهج — وكم هزم من جيش قوامك قوام
وبالعيون السود أكم صاد أسود — وكم كسرهم كـسْر جفنك ونام
(دور) : وكـم سـلب وارحمتاه من قتيل — دمـه يطالب فى الهوى من قتـل
فـقت الأهلة يا ضـياء الـعيـون — ودر ثغـرك بالعـقـيق حين برق
أجـرى بَريقُـه من عـيـونى مطر — ومن شرار رعده فـؤادى احترق
وصرت غرقان فى دموع من ولوع — ومـا انطفت نارى بماء الغـرق
(دور) : وصرت أكـذِّب من يقول مستحيل — الجمـع بين ضدين وأمرى جلل
سحر الجفون طلسم على ناظرى — ومـا انفتح للوصل باب مطلبـه
فى الرمل أستأنس بوحش الفلا — والدمـع زادى آكلـه واشـــربه

(دور) : ولذ لى ذلى وعــذب العــذاب ومـر صـبرى كمْ حـلا مـشـربه
واالجسم من جفنو السقيم صار عليل ورق مـن خصـره النحيل وانتحل
لما حلـلت القلب حـل الفــرج والبرج صار طالعه ببـدره سعيد
وخـفت من نارى عليـه قلت له يا قلب كن بردًا عليـه لا تقـيـد
يا هاجــرى أقلل وخلى الـقـلا نانا بقى دا الجسم ماهوش حديد
(دور) : وقــــل لقلبك مـثل قدك يميل يا غصــن بان والغصن طبعه المَيَل
شبهت لفظك يا فـصيح اللسان بالدر ينظم بـاتسـاق فى سلوك
ونور جـبينك قـد أقـام حجـتى بأن أمك شـمـس والبـدر أبوك
وشَعْـرك الليل فوق مـحيا قـمر سترضياؤه وخاف عليك يحسدوك
(دور) : يا شـعر لك طولـه علىّ وجميـل لأجلك أقول يا ليل جميلك وصل
ياللى لأجلك فت نظم القريض وكرهت حرفه سوق رواجها كسد
راحت رجالها والعرب عندهم كله صبون والوقت لآخـر فسد
وصغت من فن (الغبارى) نضار طير غباره وقلت ماهوش حسد
(دور) : ليــه يمدحوا الفحام وفحمه عويل ما يـــوم شراره بالمعانى اشتعل
حـسك خلى البـال تخلى النظر يجــر يوم قلبك لعــشق الملاح
البــحـر دا واسع وبـره بعيــد ياما غرق عـاشق وقع فيه وراح
وارجع وأقول العشق إمتى يكـون خالص لوجهه وفين رجال الصلاح
(دور) : إن كان لوجهه فين رجال مـن قبيل مـن حب ذا عفـة وكتــم وانقتل

(دور) : مَداح محاسنك يابديع الصفات فيك أحسن التشبيه ونظمه انتظم

عيّب (أبو الطيب) وقالوا عليه سيد من تنبأ بالمثل والحكم

وبحتر كلام (البحترى) وبحتره وفاق (أبو تمام) بقوله الأتم

ما يوم رأيت له فى القوافى دخيل ولا زحف منه الزحاف والعلل

(دور) : يا اللى لأجلك صرت منشئ بليغ فى كل موضوع سرت أحكى وأعيد

وفقت (عنتر) فى الغزل والحماس وفى الكتابة فقت (عبد الحميد)

ولى كلام فى السهل صار ممتنع تلقى (لبيد) إن كان يعارضه بليد

عليك قصرت الشعر إلا قليل والشعر فى غير عارفيه مبتذل

(دور) : ياللى بأسبابك جفانى الكرى وصح فى وجدى اختلاف الظنون

واحد يقول عاشق وآخر يقول مسحور وغيره يقول أصابه جنون

وكل قائل قد أصاب الغرض وصح قوله والصبابه فنون

اللحظ سحرى والجفا لى مزيل عقلى وداء العشق داعى الخبل

(دور الاستغفار) :

استغفرك يارب وارجع إليك تايب وظنى فيك قبول من يتوب

دا انت اسمك التواب على من عصى ونا أنا العاصى كثير الذنوب

يارب عاملنا بفضلك وإن عاملتنا بالعدل تحرق قلوب

يارب صنعك فى عبيدك جميل لأجلك رفعنا جميل الجمل

(دور المديح) :

أرسلت خير الناس لخير الأمم   رحمة ونور هادى شفيع العصاه

لمعجزاته الباهرة صدقوه   لكن بقى القرآن دليل لاح ضياه

يا ربنا صلى وسلم عليه   وجملة الأصحاب وآله معاه

ما صُدقت دعوى وصح الدليل   وما تلى فى وصف طه زجل

يا اللى انت فى حسنك عليم المثيل   وأنا بحبى فيك ضرب بى المثل

ورابعها كان وكان : وهو من الزجل إلا أنه جعل فنا مستقلا بسبب أن دوره يأتى على بيتين لكل شطر منهما قافية ، والشطران الأولان من البيتين يتحدان فى وزن والأخيران منهما يختلفان بين وزنين ، وإذا جاء مركبا من أدوار اتحدت ضروب الأبيات الزوجية فى قافية وأعاريض ، والفرد به قد تتحد فى قافية أخرى كقوله :

يا قاسى القلب مالك   تسمع وما عندك خبر

ومن حرارة وعظى   قد لانت الأحجار

أفنيت مالك وحالك   فى كل ما لا ينفعك

ليتك على ذى الحاله   تقلع عن الإصرار

تحضر ولكنّ قلبك   غايب وذهنك مشتغل

فكيفّ يا متخلف   تحسب من الحضار

ويحك تنبه لأمرك   وافهم مقالى واستمع

ففى المجالس محاسن   تحجب عن الأبصار

يحصى دقائق فعلك   وغمز لحظك يعلمه

وكيف تعزب عنه   غوامض الأسرار

تلـــوت قـــــولي ونصـــحى لمـــن تدبـــر واســـــتـــمع

فترى أن الشطور الأوائل على وزن مستفعلن فاعلاتن ، وقد يخبن فاعلاتن أو يشعث ، والشطور الثواني دائرة بين وزن مستفعلن مستفعلن ووزن مستفعلن فاعلان .

وخامسها القومة : وهى نوع من الزجل أيضا إلا أنها تمتاز بمجىء دورها على بيتين شطورهما تتحد فى قافية ما عدا الشطر الثالث ، ووزن كل شطر منها مستفعلن فاعلان . وقيل أول من اخترعه ابن نقطة برسم الخليفة الناصر ، ومن المستظرف أنه لما مات ابن نقطة وأراد ابنه أن يعّرف الخليفة بموته ليأخذ مفروضه أخذ أتباع والده من المسحرين فى شهر رمضان ووقف تحت القصر أول ليلة من هذا الشهر وغنى القومة بصوت رقيق وقال :

يا ســـيـــد الســـادات لـــك بـالـكـرم عـــادات

أنـــا بـنـى بـــن نـقطـــة تعـــيـــش أبويـــا مـــات

فطرب منه الخليفة وخلع عليه وفرض له ضعف ما كان لأبيه . ومن قراءة هذه العبارة يخطر بالذهن أن هذا الفن سمي بالقومة وهى المرة من القيام ، لأن المسحرين كانت تنشده فى رمضان لقيام الناس للسحور ، ويحرفونه بضم القاف وبعض يكتبه بالألف بدل تاء الوحدة فليحرر .

وسادسها المواليا : ويعرف الأن بالمواويل جمع موال ، فيقال إنه ظهر فى بغداد بعد الفتك بالبرامكة والنهى عن رثائهم بالشعر وإن بعض جواريهم صرن يندبنهم بكلام ذى أربع قطع متفقة فى الوزن والتقفية يكثرن فيه من قولهن يا مواليا ، فسمى بذلك . ومن هذا الفن ما يأتى بلسان أهل الأدب ومنه ما يأتى بلسان العامة . ومنه :

يا من على نار خدوده خال كحبة عود ومهجتى فوق قوامه طير بأعلى عود

قل لى سبب دى الغضب منى وإلا عود واصل ونادم فوصلك لى ولفظك عود

ومنه :

ومنه : الأهيف إللى تمناه الفؤاد ودعاه في موقف الذل خلى العاشقين ودعاه

ومنه : كم قلت عينيّ كفا عن هواه ودعاه فإن له قلب عمره ما رحم عاشق

ولا يخاف من قيامه في الدجى ودعاه

يا عبد ابكى على فعل المعاصى ونوح يا عبد اعمل عمل طيب وعش مشروح

ومنه : دنيا غرورة تجينا في صفة مركب ترمى معاشها على شط البحار وتروح

إن كنت عاقل وربك بالتقى برك ادفع أذاك وهات خيرك ودع شرك

وإن تعدى حسودك والحسد ضرك ناديه يا أيها الإنسان ماغرّك

وبالتأمل في وزن هذا الفن نراه من بحر البسيط مع تغير في العروض والقافية . وفي صعيد مصر نوع شائع الآن يعرف المواويل الحمر[٤] ، ونوع آخر يعرف بالواو . ومن الأول قول الأديب مصطفى بك نجيب .

امتى بقى يازمان عدلك يملينى[٥] واكتب كتاب الهنا والشوق يملينى[٦]

كان لى رفاقه وصبحوا اليوم ملينى[٧] صبحت بينى وبين دار الحبايب سد[٨]

أقضى الليالى على نار المحبة سد[٩] أبكى وأنوح وماحدش يقول لى سد

الحق علقلب قال للشوق ملينى[١٠]

ومنه : انفاق مالك على المحتاج انجالك[١١] من التعرض لكيد الدهر انجا لك[١٢]

ما تسمع اللى بلومه كل أنجالك[١٣] أنت من الناس واحد من ألوف ملايين[١٤]

أكثر عدد هم فوارغ والقليل ملايين[١٥] والدهر قلبه علينا من حديد ملايين[١٦]

وانت أبو الكل والمساكين انجالك[١٧] .

ومن الثانى :

الـدهر لـو أريـاح وشــــرود وحــتى الليــالى كــحــايل
بدل الـغـــزالات بقـــرود وحـمـــير بعـــد الكحـايـل

الهوامش

(١) رايحين نلاقى .

(٢) فى الجليل ده .

(٣) لى واحدة

(٤) يريدون بالحمر الصعبة الفهم فى قوافيها المركبة تركيبا مزجيا غريبا لا ينطبق على القواعد النحوية فى الكثير منه .

(٥) يبلغنى أملى .

(٦) من الإملاء .

(٧) من الملل .

(٨) حاجز .

(٩) دائما .

(١٠) من الملء .

(١١) انجى لك .

(١٢) إن جاء لك .

(١٣) أن يجىء لك .

(١٤) جمع مليون .

(١٥) جمع ملآن مملوء .

(١٦) ما يلين .

(١٧) أولادك .

الفصل الرابع

في دواوين الشعر

أشعار العرب الجاهلين ما دونت فى عصر الجاهلية بسبب أن الأمة كانت أمية ، وغاية ما سمع أنه كان عند آل المنذر ديوان فيه أشعار الفحول وما مدح به هو وأهل بيته فصار ذلك إلى بنى مروان ، ولكن لم نر هذا الديوان ولا نعلم أين يوجد الآن . هذا وإنما كان بعض الأشعار يحفظ بتواتر روايته . وفى صدر الإسلام اهتم الأدباء برواية الشعر الجاهلي وجمعه وتدوينه وتفسيره مثل الأصمعى وأبى زيد وأبى عبيدة وحماد الراوية وخلف الأحمر ، وقد حذا حذوهم من خلفهم ونظم هؤلاء وأولئك الشعر وأكثروا منه وأخذ الشعراء يدونون ما نظموه بأنفسهم غالباً .

فمما تدون من أشعارهم واشتهر : كتاب العقد الثمين فى دواوين الشعراء الستة الجاهلين النابغة الذبيانى وعنترة العبسى وطرفة بن العبد وزهير بن أبى سلمى وعلقمة الفحل وامرئ القيس ، وقد طبع هذا العقد فى مدينة غَرَيفِزوَلْد سنة ١٨٦٩ للميلاد . وديوان امرئ القيس الكندى المتوفى سنة ٥٣٩ للميلاد وبه ثلاثون قصيدة طبع فى مصر سنة ١٢٨٢ للهجرة مع شرحه للوزير أبى بكر عاصم بن أيوب وأعيد طبعه سنة ١٣٠٧ . وديوان النابغة الذبيانى وتوجد منه نسخة بالمكتبة الخديوية بخط محمود باشا سامى المصرى الشهير بالبارودى . وديوان المتلمس المتوفى سنة ٥٥٠ للميلاد . وديوان علقمة الفحل المتوفى سنة ٥٦١ للميلاد ، وقد طبع بمدينه ليبسيك سنة ١٨٦٧ . وديوان زهير بن أبى سلمى المتوفى قبل الإسلام بنحو سنة وقد طبع مع شرح له منسوب للأعلم الشنتمرى بمدينة ليدن سنة ١٣٠٦ للهجرة من ضمن مجموعة مسماة بالطرف العربية ومنسوبة إلى الشيخ عمر السويدى ، ولا أدرى من هو المسمى بهذا الاسم

وأظنه إفرنجيًا مستشرقًا تسمى به . ومجموع مشتمل على خمسة دواوين لأربعة جاهلية وهم النابغة الذبياني وعروة بن الورد وحاتم طي وعلقمة الفحل والخامس الإسلامي وهو الفرزدق ، ومع الديوان الأول شرحه للوزير أبي بكر عاصم بن أيوب البطليوسي المتوفى سنة ١٩٤ ، ومع الثاني والثالث شرحهما لابن السكيت المتوفى سنة ٢٤٤ . وهذا المجموع طبع بالمطبعة الوهبية بمصر سنة ١٢٩٣ . ومجموعة المعلقات السبع وشرحها لعبد الله الزوزني ، وعلى الورقة الأولى منه أنه توفي سنة ٣٧٥ ، والزوزني نسبة إلى الزوزن وهي بلدة كبيرة بين هراة ونيسابور وقد طبع بالإسكندرية سنة ١٢٨٨ ، وشرحها لأحمد بن النحاس الغريق في النيل سنة ٣٣٨ ، وشرحها للشيخ عثمان التنوخي جمع فيه بين الشرحين السابقين . وجمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي المتوفى سنة ١٧٠ ، تكلم فيها على الشعر والشعراء وجمع لهم تسعة وأربعين قصيدة مقسمة إلى المعلقات والمجهرات والمنتقيات والمذهبات والمراثي (*) والمشوبات والملحمات ، وشرح هذه القصائد بعض الشرح ، وقد طبع بالمطبعة الأميرية سنة ١٣٠٨ . وديوان قيس بن الخطيم أدرك الإسلام ومات قبل الهجرة . وديوان الأعشى المتوفى سنة ٧ للهجرة . وديوان الخنساء المتوفاة سنة ٢٤ للهجرة ، وقد طبع بمصر سنة ١٨٨٨ وبيروت سنة ١٨٨٩ للميلاد وأضيفت إليه مراث أخرى . وديوان حسان بن ثابت المتوفى سنة ٤٠ للهجرة وكان شاعر النبي عليه الصلاة والسلام . وديوان الحطيئة المتوفى في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . وديوان لبيد بن ربيعة المتوفى في أول خلافة معاوية بعد أن عاش ١٤٠ سنة ، وهو مطبوع بمدينة ويانه سنة ١٨٨٠ للميلاد . وديوان أبي محجن الثقفي الصحابي وشرحه لأبي هلال الحسن بن سهل ، وقد طبع في مدينة ليدن سنة ١٣٠٣ للهجرة من ضمن المجموعة المسماة بالطرف العربية السابقة . وديوان مختارات شعراء العرب وبه خمسون قصيدة وهو مطبوع بمطبعة أبي زيد بمصر سنة ١٣٠٦ . وديوان سيدنا علي بن أبي طالب المتوفى بالكوفة سنة ٤٠ للهجرة ، وهو مرتب على حروف المعجم طبع ببولاق سنة ١٢٥١ . وديوان عمر بن أبي ربيعة المتوفى سنة ٩٣ ، وجميع شعره في النسيب ولم يمتدح أحدًا ، ولذا قال له سليمان بن عبد الملك لم لا تمدحنا فقال إنما أمدح النساء لا الرجال ، وقد طبع هذا

(*) وردت في الأصل « المراثى » (المحرر).

الديوان بمصر سنة ١٣١١ . وديوان الفرزدق المتوفى بالبصرة سنة ١١٠ بعد أن عاش نحو مائة سنة ، وقد تم طبعه بمدينة باريس سنة ١٨٧٥ . وديوان جرير المتوفى سنة ١١٠ باليمامة وقد طبع بمصر سنة ١٣١٣ . وديوان مجنون ليلي وهو شاعر إسلامى وقد طبع سنة ١٢٩٤ بمطبعة بولاق . وديوان ذى الرُمَّة المتوفى سنة ١١٧ للهجرة . وديوان العجاج وديوان ابنه رؤبة المتوفى سنة ١٤٥ ، وليس فيهما إلا أراجيز . والمفضليات وهى أشعار مختارة جمعها للمهدى المفضل الضبى الأول ، وقد طبعت بمدينة ليبسيك سنة ١٨٨٥ للميلاد . وديوان الحسن بن هانئ المعروف بأبى نواس المتوفى سنة ١٩٥ ببغداد ، وقد طبع بمصر سنة ١٢٧٧ . وديوان مسلم بن الوليد الملقب بصريع الغوانى من شعراء الدولة العباسية توفى سنة ٢٠٨ ، وطبع الديوان سنة ١٨٧٥ للميلاد بمدينه ليدن . وديوان إسماعيل أبى العتاهية المتوفى سنة ٢١١ ، وقد طبع ببيروت سنة ١٨٨٦ . وديوان أبى تمام حبيب بن أوس الطائى المتوفى بالموصل سنة ٢٢٨ ، وقيل سنة ٢٣١ ، وفيه سبعة فنون من الشعر المديح والرثاء والعتاب والوصف والغزل والفخر والهجاء ، وقصائد كل فن مرتبة على حروف المعجم وهو مطبوع بمصر سنة ١٢٩٢ للهجرة وبيروت سنة ١٨٨٩ . وديوان الحماسة وهو ديوان جمع فيه أبو تمام ما اختاره من أشعار العرب ورتبه على عشرة أبواب الحماسة والمراثى والأدب والنسيب والهجاء والإضافات والصفات والسير والملح ومذمة النساء ، وهو مطبوع مع شرحه لأبى زكريا يحيى الشهير بالخطيب التبريزى سنة ١٢٩٦ بمطبعة بولاق فى سفرين . وديوان على بن الرومى المتوفى سنة ٢٨٣ ببغداد ، وكان شعره غير مرتب فرتبه أبو بكر الصولى على الحروف . وديوان الوليد البحترى الطائي المتوفى سنة ٢٨٤ بمنبج . وديوان عبد الله بن المعتز العباسى المتوفى سنة ٢٩٦ ، وقد طبع بمصر سنة ١٣٠٨ . وديوان أبى الطيب أحمد المتنبى المتوفى سنة ٣٥٤ ، وهو ديوان مشهور متداول وقد طبع بمصر منفرداً سنة ١٢٨٣ وسنة ١٣٠٢ ، وطبع مع شرحه للعكبرى سنة ١٢٨٤ بمطبعة بولاق فى سفرين . وديوان أبى فراس الحمدانى المتوفى سنة ٣٥٧ . وديوان محمد بن هانئ الأندلسى المتوفى سنة ٣٦٢ ، وقد طبع بمطبعة بولاق سنة ١٢٧٤ للهجرة وفى بيروت سنة ١٨٨٦ للميلاد ، وديوان محمد أبى الحسن الشريف الرضى المتوفى ببغداد سنة ٤٠٦ ، وقد طبع سنة ١٣١٣ . وديوان

أحمد بن زيدون الوزير الأندلسى المتوفى بمدينة إشبيلية سنة ٤٦٣ . وديوان أبى العلاء المعرى المتوفى سنة ٤٩٩ ، وهذا الديوان معروف بسقط الزند ، وقد طبعته جمعية المعارف مع شرحه المسمى التنوير سنة ١٢٨٦ . وديوان إبراهيم بن خفاجه الأندلسى المتوفى بسنة ٥٣٣ ، وقيل سنة ٥٣٨ ، وقد طبعته جمعية المعارف بمصر سنة ١٢٨٦ . ومختارات أشعار العرب اختارها هبة الله بن الشجرى المتوفى سنة ٥٤٢ . ببغداد وديوان عمر بن الفارض المتوفى سنة ٥٧٩ ، وقد طبع بمصر منفرداً سنة ١٢٩٩ ، وطبع مع شرحه لرشيد بن غالب بسنة ١٢٨٩ ، وهذا الشرح مجموع شرحى حسن البورينى وعبد الغنى النابلسى . وديوان كمال الدين المعروف بابن النبيه المصرى المتوفى بنصيبين سنة ٦١٩ ، وقد طبع بمصر سنة ١٢٨٠ وسنة ١٣١٣ . وديوان إبراهيم ابن سهل الإشبيلى المتوفى بسنة ٦٤٩ . جمعه الشيخ حسن العطار المصرى المتوفى سنة ١٢٥٠ وطبع سنة ١٢٧٩ بمصر . وديوان البهاء زهير المتوفى بمصر سنة ٦٥٦ ، وقد طبع بمصر مراراً . وديوان محمد بن سليمان التلمسانى الملقب بالشاب الظريف المتوفى بدمشق سنة ٦٨٨ ، وقد طبع بمصر بسنة ١٢٧٤ وسنة ١٣٠٨ . وديوان عبد العزيز الطائى الملقب بصفى الدين الحلي المتوفى سنة ٧٥٠ ، وقد طبع بدمشق سنة ١٢٩٧ . وديوان جمال الدين بن نباتة المصرى المتوفى سنة ٧٦٨ ، وقد طبع بمصر بسنة ١٢٨٨ . وديوان شهاب الدين الموسوى المعروف بابن معتوق المتوفى بسنة ١٠٨٧ ، وقد طبع بمصر بسنة ١٢٧٨ للهجرة وفى بيروت بسنة ١٨٨٥ للميلاد . وديوان عبد الله الشبراوى المتوفى سنة ١١٧١ ، وهو مرتب على حروف المعجم وقد طبع بمطبعة بولاق بسنة ١٢٨٢ ، وبالمطبعة المحمودية بسنة ١٣١٤ . وديوان السيد عبد الرحمن العيدروس المتوفى بمصر سنة ١١٩٢ . وديوان السيد على الدرويش المصرى المتوفى بسنة ١٢٧٠ ، وهذا الديوان مسمى بالإشعار بحميد الأشعار ، وقد طبع بمصر بسنة ١٢٨٤ ، وديوان شهاب الدين المصرى المتوفى بسنة ١٢٧٤ ، وقد طبع بمصر سنة ١٢٧٧ ، وله أيضا كتاب سفينة الملك ونفيسة الفلك وقد قال فى خطبتها إنه رتبها على ثلاثة أنابير صغير ووسيط وكبير ، الأول فى معرفة الموسيقى والثانى فيما نظمه فيها والثالث فى التلاحين وما فيها من الموشحات والأبيات ، وقد طبعت بمصر بسنة ١٢٨١ . وديوان محمود أفندى صفوت الساعاتى المتوفى فى أواخر القرن الثالث

عشر الهجرى وقد طبع سنة ١٢٧٦ . وديوان السيد على أبى النصر المتوفى سنة ١٢٩٨ ، وقد طبع ببولاق سنة ١٣٠٠ . وديوان السيدة عائشة التيمورية المعاصرة وهو مطبوع سنة ١٣٠٢ للهجرة . وكتاب شعراء النصرانية جمعه وصححه الأب لويس شيخو اليسوعى ، وقد رأيت منه أربعة أقسام فى شعراء الجاهلية مطبوعة فى بيروت سنة ١٨٩٠ للميلاد . وقد جمع فى عصرنا هذا الفاضل السيد توفيق البكرى كتاباً جليلاً فى المختار من أراجيز العرب مفسراً للغريب وشارحاً للمعانى ومبيناً للمقاصد ، وقد طبعه بسنة ١٣١٣ للهجرة ، وقد صنف أيضا كتاباً نافعاً سماه فحول البلاغة وقال فى أوله : "هذا سفر وضعناه فى المختار من شعر ثمانية من فحول الشعراء وأئمة البلاغة وأمراء الكلام وهم مسلم بن الوليد صريع الغوانى وأبو نواس الحسن بن هانئ وأبو تمام حبيب بن أوس الطائى وأبو عبادة البحترى وابن الرومى على بن العباس وابن المعتز وأبو الطيب أحمد المتنبى وأبو العلاء المعرى" ، وقد طبعه بالمطبعة الأميرية بسنة ١٣١٣ للهجرة .

الباب الرابع

فى تاريخ العروض والقافية

فى تاريخ العروض والقافية

(أ) فى تاريخ العروض (*) :

العروض على أوزان الشعر والذى اخترعه الخليل بن أحمد المتوفى سنة ١٧٩ للهجرة ، وجاءه ذلك (كما فى تاريخ ابن خلكان) من معرفة الإيقاع والنغم ، قالوا لا فرق بين صناعة العروض وصناعة الإيقاع إلا أن صناعة الإيقاع تقسيم الزمان بالنغم وصناعة العروض تقسيم الزمان بالحروف المسموعة . وقيل إنه جاء فى فكره حينما مر بشوارع البصرة وسمع طرقات مطارق الحدادين بأصوات مختلفة ، وقال بعضٌ إن شعر اليونان له أوزان مخصوصة والتفاعيل عندهم تسمى الأيدى والأرجل ولا يبعد أن يكون وصل إلى الخليل شىء من ذلك فأعانه على إبراز العروض . وروى الأخفش عن الحسن بن يزيد قال سألت الخليل هل للعروض أصل قال نعم ، مررت بالمدينة حاجاً فرأيت شيخاً يعلم غلامه يقول له قل :

نعم لا نعم لا لا نعم لا نعم لا لا   نعم لا نعم لا لا نعم لا نعم لا لا

فقلت له ما هذا الذى تقوله للصبى ، فقال هو علم يتوارثونه عن سلفهم يسمونه التنغيم لقولهم فيه نغم ، قال الخليل فرجعت بعد الحج فأحكمتها ، فجرى الخليل في تجزئته على ما سمع من الشيخ ، فإن وزن قوله (نعم لا) فعولن و (نعم لا لا) مفاعلين ، قيل وسمى الخليل هذه الصناعة بالعروض لإنه لما شبه البيت من الشعر بالبيت من الشعر شبه ما يقيم وزن الأول بعروض الثانى ، وهى الخشبة المعترضة فى سقفه وشبه الأسباب بالأسباب والأوتاد بالأوتاد والفواصل بالفواصل . وقيل إنه لما امتحن الشعر ووجد الاختلاف والتنقل فى أواخر أبياته على الجملة أكثر منه فى أواسطها

(*) لم يرد التنصيص فى الأصل (المحرر) .

سمى وسط البيت الذى هو منتهي قسمه الأول عروضًا أيضًا تشبيهًا بالعروض وهو العمود المعترض فى وسط الخباء لثباته وقلة تبدله . ولما تتبع الخليل أشعار العرب ورأى أن أوزانها تنحصر فى خمسة عشر وزنًا سماها بحور ، وسمى البحور بأسماء مختلفة الطويل والمديد والبسيط والوافر والكامل والهزج والرجز والرمل والسريع والمنسرح والخفيف والمضارع والمقتضب والمجتث والمتقارب ، وأخذ العروض عن الخليل سبيويه وأخذه عنه الأخفش وزاد بحراً سماه الخبب ، ولم يزل يتواتر أخذ العلماء هذا الفن إلى وقتنا هذا .

وجعل الجوهرى بحور الشعر اثنى عشر لا غير منها المتدارك ، وجعل فيها سبعة مفردات وهى الوافر والكامل والهزج والرجز والرمل والمتقارب والمتدارك ، وخمسة مركبات الطويل والمديد والبسيط والخفيف والمضارع ، فالطويل مركب من المتقارب والهزج لأن المتقارب مركب من (فعولن) والهزج مركب من (مفاعلين) ومنهما الطويل . والمديد مركب من الرمل والمتدارك لأن الرمل من (فاعلاتن) والمتدارك من (فاعلن) والمديد منهما . والبسيط مركب من الرجز والمتدارك . والخفيف مركب من الرمل والرجز . والمضارع مركب من الهزج والرمل . ولم يتركب من الكامل والوافر شطر ، وأسقط السريع والمنسرح والمقتضب والمجتث . قال : "وإنما كثر الخليل الألقاب للتقريب والشرح وإلا فالسريع من البسيط لأن بناءهما من مستفعلن وفاعلن ، والمنسرح والمقتضب من الرجز لأنهما من مستفعلن ، وهذا بناء على قاعدته أن مفعولات مقلوب مستفعلن ، والمجتث من الخفيف لأنهما من مستفعلن وفاعلاتن ولا اختلاف بين هذه الأجزاء إلا في تقديم وتأخير أو تكرير بعضها"(*) .

ولمعرفة أجزاء البحور رسموا خمس دوائر وضعوا فوقها علامات للمتحركات والسواكن من شطر كل بحر ، فالمتحرك علامته (O) والساكن علامته (I) وإن شئت قلت علامة الوتد المجموع (IOO) والمفروق (O|O) والسبب الخفيف (O) والثقيل (OO)، ووضعوا اسم البحر داخل الدائرة تحت علامة مبدأ الشطر والسير فى هذه الدوائر يرشد إليه الموقف . ولا يتحتم أن تجيء أوزان البحور على الأجزاء المستخرجة من الدوائر تمامًا

(*) لم يرد التنصيص فى الأصل (المحرر) .

بل يدخلها الزحاف والعلل والجَزْء والشطر وغير ذلك مما هو مبين فى موضعه كما يظهر من تقطيع أبيات الشعر المسموعة عن العرب .

١ - وتسمى الدائرة الأولى بدائرة المختلف لتركبها من جزأين مختلفين خماسى (فعولن أو فاعلن) وسباعي (مفاعيلن أو فاعلاتن) ويستخرج منها الطويل والمديد والبسيط . فأجزاء الطويل فعولن مفاعيلن أربع مرات ، وهو كثير الدوران فى شعر العرب ومنه قصيدة امرئ القيس التى أولها :

قفا نبك من ذكرى حبيب وعرفان ورسم عفت آياته منذ أزمان

أتت حجج بعدى عليها فأصبحت كخط زبور فى مصاحف رهبان

وقصيدته التى أولها :

خليلى مرّا بى على أم جندب لنقضى لبانات الفؤاد المعذب

وقصيدته التى أولها :

أعنى على برق أراه وميض يضئ حبياً فى شماريخ بيض

ويهدأ تارات سناه وتارة ينؤ كتعتاب الكسير المهيض

وقبض فعولن فى الطويل حسن ويزداد حسنا إن جاء بعده الضرب المحذوف ولا يكاد يسمع إلا مقبوضًا كقوله :

وما كل ذى لب بمؤتيك نصحه ولا كل مؤت نصحه بلبيب

وأجزاء المديد فاعلاتن فاعلن أربع مرات فى الدائرة لكنه لم يسمع إلا مسدسًا ، وهو قليل فى شعرهم ومنه قصيدة لتأبط شراً أولها :

إن بالشعب الذى دون سلع لقتيلا دمه ما يطل

خلف العبء علىّ وولى أنا بالعبء له مستقل

وقصيدة لامرىء القيس منها :

وخليل قد أفارقه ... ثم لا أبكي على أثره
وابن عم قد تركت له ... صفو ماء الحوض من كدره
وابن عم قد فجعت به ... مثل ضوء الصبح فى غرره

وقصيدة على بن زيد :

يا لبينى أوقدى النارا ... فالذى تهوين قد حارا
رب نار بت أرمقها ... تقضم الهندى والغارا
عندها ظبىٌ يؤججها ... عاقدٌ فى الجيد تقصارا
شادن فى عينه حور ... وتخال الوجه دينارا

ومن مشطور العديد قصيدة لامرأة يقال أنها أم تأبط شرا أو أم السليك بن السلكة وهى:

طاف يبغى نجوة ... من هلاك فهلك
ليت شعري ضلة ... أى شىء قتلك
أمريض لم تعد ... أم عدو ختلك
أم تولى بك ما ... غال في الدهر السلك
والمنايا رصد ... للفتى حيث سلك
أى شىء حسن ... لفتى لم يك لك
كل شىء قاتلٌ ... حين تلقى أجلكْ
طال ما قد نلت فى ... غير كد أملك

إن أمـــــراً فـــــادحـــــاً عـن جـــوابى شـــغلك

مـــا عـــزى النفس إذ لـم تجـب مـن ســـألـك

لـيت قلبى ســـاعــــة صـــبـــره عـنك مـلـك

ليـــت نفـــسى قـــدمت لـلمنايـــا بـــدلـك

قال أبو العلا : "هذا الوزن لم يذكره الخليل ولا سعيد بن مسعدة وذكره الزجاج وجعله سابعاً للرمل ، وقد يحتمل أن يكون مشطور للمديد"(*) والعروض الثانية بأضربها الثلاثة قليلة الوجود ، وقد استقريت كثيراً من شعر العرب فلم أرمنها شيئاً وربما كانت شواهدها المذكورة فى كتب العروض موضوعة فإنهم لم يذكروا قائليها ، ورأيت فى شارح الخزرجية : "وحكى للثانية ضرب متمم كقوله :

صـاحـبى اسـتنطقا سـاعةً دمنـة فـيـهـا لـدى الحب داء

وهذه العروض قل أن توجد لمحدث فضلا عن العرب" . وفيه أيضاً أن ضربيها الثانى والثالث اللذين وضعهما الخليل لم يسمع نظيرهما للعرب ، وقال الزجاج : لم يجىء على أولهما قصيدة إلا للطرماح . وكان عليه فى هذا المقام أن يذكر أول القصيدة .

وأجزاء البسيط مستفعلن فاعلن أربع مرات وهو شائع فى الشعر ، ومنه قول سالم بن وابصه :

عليك بالقـصـد فـيـمـا أنت فـاعله إن التـــخـلق يـأتى دونـه الخلـق

ومـوقف مثل حـد السيف قـمت به أحـمى الذمـار وترمـينى به الحـدق

فـما زلقـت ولا أبــديت فاحـشـة إذا الرجـال على أمـثـالهـا زلقـوا

(*) لم يرد التنصيص فى الأصل (المحرر) .

ومنه قول الفضل بن العباس :

مهــلاً بني عـمنـا مهـلاً مـوالينا | لا تنبشـوا بيننا ما كـان مـدفـونا
لا تطمعـوا أن تهـينونا ونـكرمكم | وأن نـكف الأذى عـنكـم وتؤذونـا
مهــلاً بني عــمنا من نحت أثـلتنا | سيـروا رويداً كمـا كنتم تسيـرونا
الله يـعلــم إنــا لا نحـبـكم | ولا نلــومكمُ أن لا تحـبــونا
كل له نيــة في بغـض صاحـبـه | بنعــمــة الله نـقليكـم وتقـلونـا

وجزء البسيط قليل الاستعمال قبيح الوزن لم يجئ فى شعر العرب إلا نادراً ، لكن يحسن إذا حولت العروض والضرب بعد الجزء إلى فعولن ، ويسمى حينئذ مخلعاً ، ومنه قول الأعشى :

ألــم تـــروا إرمـــاً وعـــاداً | أودى بهـــا الليـــل والـنهـــار

وقد جاء مكان فعولن مفعولن فى قصيدة لامرئ القيس أولها :

عـيناك دمــعـهـمـا سـجـال | كـــأن شـأنيـهـمـا أوشـــال
أو جــــــدول فـى ظلال نـخـل | للـمـــاء من تحـتــه مـجـــال
من ذكـــر ليـلى وأيـن لـيـلى | وخـيـــر مــا رمت مــا ينـــال

وقال بعضُ أن المخلع من المنسرح واستدل بإطباق المحدثين على مفعولات مكان فاعلن ، كقول ابن المعتز :

العـــيش مـــرٌ والموت مـــر | فــــــــأى هـذيــن لا أذمّ
انـقـل رحـــلى مــن كـــل دار | خـــوف المنايـــا والأرض ســـهم

وعورض بإطباق العرب على فاعلن . ويقرب من مخلع البسيط قول سلمى بن ربيعة :

إن شـــواء ونشـــوة ... وخـــبب البـــازل الأمـــون

يجشـــمـــها المرء فى الهـوى ... مـــسـافــة الغـــائط البطين

والبيـــض يرفلن كـــالدمى ... فـى الريـط والمذهـب المصـــون

والكثـــر والخـــفض آمناً ... وشـــرع المزهـر الحنـون

من لذه العـــيش والفـــتى ... للـدهـر والدهـر ذو فـنـون

والعـسـر كاليسـر والغنى ... كـالعــدم والحى للمنـون

أهلكن طسـمـــاً وبعـــده ... غـــذى بهـم وذا جـــدون

وأهـــل جـــاش ومـــأرب ... وحـــى لقـمـــان والتـــقـــون

قال التبريزى : « هذه الأبيات خارجة عما وضعه الخليل ، وعما وضعه سعيد أبن مسعدة ، وأقرب ما يقال فيها أنها تجيء على السادس من البسيط [*] . وعد من مجزوء البسيط .

عـجـبت مـا أقـرب الأجـــل ... منـــا ومـا أبعـــد الأمـــل

دار عـــفـــاهـــا القـــدمْ ... بـــين البلـــى والعـــدمْ

واستخرجوا من هذه الدائرة بحرين مهملين أحدهما وزنه مفاعيلن فعولن أربع مرات عكس الطويل ويسموه المستطيل ، ومنه قول بعض المولدين :

أيسلو عنك قلب بنار الحب يصلى ... وقد سلدت نحوى من الألحاظ نصلا

وثانيهما فاعلن فاعلاتن أربع مرات مقلوب المديد ، وسموه الممتد ومنه قول بعض المولدين :

قد شجانى حبيب واعترانى إدكار ... ليته إذ شجانى ما شجته الديار

٢ - تسمى الدائرة الثانية بدائرة المؤتلف لائتلاف أجزائها وتماثلها ، ويستخرج منها الوافر والكامل فالوافر أجزاؤه مفاعلتن ست مرات ، لكن عروضه وضربه لم يسمعا إلا مقطوفين عند عدم الجزء فيحول كل منهما إلى فعولن ، ومنه لقيس بن الخطيم :

وما بعض الإقامة فى ديار ... يهان بها الفتى إلا بلاء

وبعض خلائق الأقوام داء ... كداء البطن ليس له دواء

يريد المرء أن يعطى مناه ... ويأبى الله إلا ما يشاء

وكل شديدة نزلت بقوم ... سيأتى بعد شدتها رخاء

ولا يعطى الحريص غنى لحرص ... وقد ينمى على الجود الثراء

غنى النفس ما عمرت غنى ... وفقر النفس ما عمرت شفاء

وليس بنافع ذا البخل مال ... ولا مُزْرٍ بصاحبه السخاءُ

وبعض الداء ملتمس شفاهُ ... وداء النوكِ ليس له شفاء

ومن مجزوء هذا البحر قول عربى عن ابنه :

هوى ابنى من علا شرف ... يهول عقابه صعده

(*) لم يرد التنصيص فى الأصل (المحرر) .

هوى من رأس مرقبة ... فنزلت رجله ويده
فلا أم فتبكيه ... ولا أخت فتفتقده
هوى عن صخرة صلد ... ففزت[1] تحتها كبده
ألام على تبكيه ... وألمسه فلا أجده
وكيف يلام محزون ... كبير فاته ولده

وزاد الأخفش عروضا ثالثة مجزوءة مقطوعة لها ضرب مثلها وبيتها :

عبيلة أنت همي ... وأنت الدهر ذكرى

والكامل أجزاؤه متفاعلن ست مرات ، وهو كالطويل فى كثرة الدوران فى الشعر ، ومنه معلقة عنترة وأولها :

هل غادر الشعراء من متردم ... أم هل عرفت الدار بعد توهم
نزل المشيب فأين تذهب بعده ... وقد ارعويت وحان منك رحيل
كان الشباب خفيفة أيامه ... والشيب محمله علىَّ ثقيل
ليس العطاء من الفضول سماحة ... حتى تجود وما لديك قليل

وقول عربى :

عادوا مروءتنا فضلل سعيهم ... ولكل بيت مروءة أعداء
لسنا إذا ذكر الفعال كمعشر ... أزرى بفعل أبيهم الأبناء

وقول ابن عبدل الأسدى :

بيناهمو بالظهر قد جلسوا ... يوماً بحيث ينزع الذبح
فإذا ابن بشر فى مواكبه ... تهوى به خطارة سرح

فكـأنمـــا نظـــروا إلـــى قـــمــــر أو حـــيـث عـلـق قـوسـه قـــزح

وقول قيس بن عاصم المنقرى :

إنى امـــرؤ لا يـعــتــرى خلـقى دنـــس يــــفـــنـــده ولا أفـــن

من مـنقـــــر فى بيت مكـرمـــــة والغــصـن ينبت حـــوله الـغـــصن

خطبـاء حـين يـقـــوم قـــائلـهم بيض الوجـــوه مــصـــاقع لـســن

ومن مجزوء الكامل قول ابن زهيمة :

وجـــــد الفــــؤاد بزيـنبــــا وجــــداً شـــديداً مـــتـــعــبـــا

أمـــســـيت من كـلف بـهـــا أدعى الـشـــقـى المسـنـهـبــا

ولقـــد كنيت عن اســـمـهـــا عـــمــــداً لكيـــلاً تغـضــبـــا

وجــعـلــــت زيـنــب ســتــرة وكنيــت أمـــــراً مـــعـــجـــبـــا

ومن مجزوء المرفل قول النابغة :

المرء يـــأمـل أن يـعـــــــيــــ ش وطول عـــيش قـــد يضـــره

تـفنـى بشـــــاشــــــتــــه ويـبـــ قى بـعـــد حلو الـعـــيش مـــره

وتـخــــــونـه الأيـام حــــتــــ ى لا يرى شـــيــــئـــاً يســــره

كـم شـــــامـت لـــى إن هـلكــ ــت وقـــــائــــــــل لـله دره

قال ابن مرزوق ولما كثرت حركات الكامل وقع فى أعاريضه من الاختلاف ما لم يقع فى غيره ، كقول امرئ القيس :

الـله أنجــــح مـــا طلـبـــت بــــه والبـر خـيـر حـقـيـبــــة الرحــل

بعد قوله فى هذه القصيدة بعينها :

يارب غـانيــة صـرمت حبــالهــا ومـشـيت مـتـئـداً علـى رســـلى

وقول زهير في قصيدة له :

إن الـرزية لا رزيـة مــــثلهـــا مـا تبـتـغي غـطفـان يوم أضلت (*)

ولنعـم حـشـــو الـــدرع أنـت إذا نهلت مـن العلـق الرمــاح وعلـت

فاجتمع في هذه الأبيات العروض السالمة والحذاء ، وهذا خلاف ما اشترط في العلل من اللزوم .

واستخرجوا من هذه الدائرة بحرا مهملا بالابتداء من السبب الخفيف وزنه فاعلاتن ست مرات ، ويقال له المتوفر ، ومنه قول بعض المولدين :

مــا رأيت من الجـآذر بــالجــزيرة إن رمين بأسـهم جــرحت فــؤادي

٣ - وتسمى الثالثة بدائرة المجتلب ، لأن أجزاءها كلها اجتلبت إليها من دائرة المختلف ، واستخرجوا منها الهزج والرجز والرمل ، فالهزج أجزاؤه مفاعلين ست مرات على حسب ما تقتضيه دائرته ، لكنه لم يسمع عن العرب إلا مجزوءاً وهو أقل استعمالاً من الكامل ، ومنه قصيدة الفند الزماني التي أولها :

صــفـــحنـــا عـــن بـنـــي ذهــــل وقـلنــــــا القــــــوم إخــــوان

قال ابن مرزوق وحكى استعمال الهزج مسدسا على الأصل وهو قليل جدا كقوله :

عـفا يا صـاح من سلمى مـراعـيهـا فظلت مــقلتي تجــري مـآقــيهــا

ترفق أيــهـــا الحـــادي بعـــشـــاق نشاوى قـد تعاطوا كـأس إشـــراق

(*) وردت في الأصل « أظلت » (المحرر) .

والرجزء أجزاؤه مستفعلن ست مرات وأكثر ما يستعمل منه العرب المشطور ، كقول جحدار بن ضبيعة :

قـد يتـمت بنتى وآمت كنتى ... وشـعثت بـعد الرهـان حمـتى

ردوا عـلى الخليـل إن ألمت ... إن لم ينـاجزها فـجزوا لمتى

قـد علمت والدة مـا ضـمت ... مـا لفـفت فى خـرق وشـمت

إذا الكمـاة بالكمـاة التـفت ... أمـحـدج أم أتمـت

وكقول الزباء :

مـا للجمـال مشيـهـا وئيـداً ... اجندلاً يـحمـلن أم حـديـد

ويقـال إن كل شطرين من هذا بيت ، والتـزمت العـرب التقـفيـة بين الأعـاريض والأضرب . ومن غير الأكثر قول امرئ القيس :

لم تسـبنا خيلكـم فيـمـا مضى ... حتى استفـأنا الحى من أهل ومـال

ذاك وكم كـندية سـوداء قـد ... تسـتقـبل القـوم بوجـه كـالجعـال

قـايظننـا يأكلـن فـينـا عـفـراً ... نطعـمها قـدا ومحـروث الخمـال

أيام صـبـحناكـم ملمـومـة ... كـأنهـا قـد نطقت من حـزم آل

مـن كـل قـبـاء بعـدو الوكـرى ... إذا تـوانى الخيـل بالقـوم الثقـال

ومنهوك الرجز كقول دريد بن الصمة يوم هوازن :

ياليـتنى فـيـهـا جـذع ... أخـب فـيـهـا وأضـع

أقـود وطفـاء الزمـع ... كـأنهـا شـاة صـدع

ويقال إن هذا من مجزوء الرجز الملتزم فيه التقفية بين الأعارض والأضرب ، وللعرب تصرف واتساع فى الرجز لكثرته فى كلامهم فى مواطن الحروب والفخر . قال الزجاج ولو جاء منه شعر على جزء واحد مقفى لاحتمل ذلك ، كقول عبد الصمد بن العدل :

قال أجل ماذا الخجل هذا الرجل حين احتفل أهدى بصل

فجاء بالقصيدة على مستفعلن ، ومثله قول يحيى بن على المنجم :

طيف ألم بذى سلم بعد العتم يطوى الأكم

جاد بفم وملتزم فيه نظم إذا يضم

ويقال إن أول من انتزع مثل هذا مسلم الحاضر فى قصيدة مدح بها موسى الهادى رابع خلفاء العباسيين أخا الرشيد وهى :

موسى المطر غيث بكر ثم انهمر أروى المدر

كم اعتسر ثم ايتسر وكم قدر ثم غفر

عدل السير باقى الأثر خير وشر نفع وضر

فرع مضر بدرُ بدر والمفتخر لمن غبر

ولم يسمع شىء من هذا عن العرب . وأقل ما سمع لهم كان على جزأين كقول دريد ا لسابق .

واشتهر بالرجز فى صدر الإسلام العجاج ورؤبة وكل منهما له ديوان ليس فيه من الشعر غير الأراجيز وكذا أبو النجم ومن رجز :

خرجت من عند زياد كالخرف تخط رجلاى بخط مختلف

تكتبان فى الطريق لام ألف

وقد تصحفنا كثيرا من أراجيزهم وأراجيز من سبقهم فرأيناها ملتزما فيها التقفية بين الأعاريض والأضرب ، لكن من جاء بعدهم لم يلتزموا التقفية ومن ذلك مقصورة ابن دريد التى أولها :

ياظبيـــة أشبـــه شيء بالمهـــا	ترعى الخزامى بين أشجار النقا
إمــا تــرى رأســى حــاكـى لونـه	طرة صبح تحت أذيال الـدجا

ويحتمل أن قول امرئ القيس السابق من الكامل المزاحف المعلول .

والرَّمَل أجزاؤه فى الدائرة فاعلاتن ست مرات ، لكن عروضه لم تسمع فى شعر العرب إلا محذوفة عند عدم الجزء ، ومنه قصيدة لطرفة أولها :

أصحـوت اليوم أم شاقتك هرْ	ومن الحب جنونُ مستعر
لا يكـن حبـك داء قـاتـلاً	ليس هذا منك ماويّ بحر

وقصيدة لعبيد بن الأبرص أولها :

يا خليلى اربعا واستخبرا الـ	منزل الدارس عن حى حلال
مثل سحق البرد عفى بعدك الـ	قطر مغناه وتأويب الشمال

ومن مجزوء هذا البحر قصيدة جساس بن مرة أولها :

إنما جـارى لعـمـرى	فاعلموا أدنى عيالى
وأرى للجـار حـقـاً	كيمينى من شمالى

٤ – وتسمى الدائرة الرابعة بدائرة المشتبه لاشتباه أبحرها ويستخرج منها السريع والمنسرح والخفيف والمضارع والمقتضب والمجتث . فالسريع أجزاؤه مستفعلن مستفعلن مفعولات مرتين ، لكن المسموع فى عروضه أنها لاتجيء تامة . ومنه قول جساس بن مرة :

إنا على ما كان من حادث ... لم نبدأ القوم بذات العقوق
قد جربت تغلب أرماحنا ... بالطعن اذ جاروا وحز الحلوق
لم ينههم ذلك عن بغيهم ... يوماً ولم يعترفوا بالحقوق
وأسعروا للحرب نيرانها ... للظلم فينا بادياً والفسوق
أليس من أردى كليباً لمن ... دون كليب منكم بالمطيق
من شرع العدوان فى قاتل ... اقترف الظلم وضنك المضيق
بدأتم بالظلم فى قومكم ... وكنتم مثل العدو الحقيق
والظلم حوض ليس يسقى به ... ذو منعة فى كل أمر يطيق
فإن أبيتم فاركبوها بما ... فيها من الفتنة ذات البروق

ومنه قول امرئ القيس :

أحللت رحلى فى بنى ثعل ... إن الكريم للكريم محل
وجدت خير الناس كلهم ... جاراً وأوفاهم أبا حنبل
أقربهم خبراً وأبعدهم ... شراً وأجودهم إن بخل

ومنه قول حطان بن المعلى :

أنزلنى الدهر على حكمه ... من شامخ عال إلى خفض
وغالنى الدهر بوفر الغنى ... فليس لى مال سوى عرضى
أبكانى الدهر ويا ربما ... أضحكنى الدهر بما يرضي
لولا بناتٌ كزغب القطا ... رددن من بعض إلى بعض
لكان لى مضطربٌ واسع ... فى الأرض ذات الطول والعرض

وإنمـــا أولادنــــا بــيـــنـــنـــا أكـــبـــادنا تمـشى عـلى الأرض

لو هبت الـريح على بعــضـــهم لامـتنعـت عينى من الغـمـــض

ومن مشطور السريع قول قبيصة الحرمى :

هاجـــرتى يا بنت آل ســـعـــد أ أن حلبت لـقـــحـــة للـورد

جـــهلت مـن عنانـه المـــتـــد ونـظـرى فى عـطـفـــــه الألـد

إذا جـيـاد الخـيل جـاءت تـــردى مملـؤة من غـــضـب وحـــــرد

والمنسرح أجزاؤه مستفعلن مرتين ، إلا أن ضربه عند التمام لا يجىء إلا مطويا . وقال بعض وكذا عروضه لا تجىء إلا مطوية ، ويؤيد هذا تتبع شعر العرب الصحيح ، ومنه قول امرىء القيس :

أنى عـلى اســـتـــب لومكـمـــا ولم تلومــا حـجـراً ولا عـصـمـا

كـــلا يمـين الإله يـجـــمـــعـنا شىء وأخـــوالنا بنـو جـشـــمـــا

حـتى يزور الـضـبـاع ملحـمــــة كـــأنهـــا مــن ثمـود أو إرمـــــا

قال الصبان وحكى غير الخليل ضربا مقطوعًا لهذا البحر كقوله :

مـــا هيـج الشـــوق مــن مطوقـــة قـــامت عـلى بابه تـغنينـــــا

واستحسن هذا الضرب المحدثون وأكثروا منه ، ومن منهوك المنسرح قول هند بند عتبه :

صبراً بنى عبد الدار صـــبراً حماة الأدبار ضـــــربا بكـل بـتـــــار

والخفيف أجزاؤه فاعلاتن مستفع لن مفروق الوتد فاعلاتن مرتين ، ومنه قول منقذ الهلالى :

أى عـــيش عـــيـشى إذا كنـت منه بـين حل وبـين وشك رحـــيـل

كل فج من البـــلاد كـــأنى طالب بعض أهله بذحـــول

مـــا أرى الفـــضل والتكرم إلا كفك النفس عن طلاب الفضول

وبلاء حـمـل الأيـــادى وإن تسـ مع منا تؤتى به من منيـــل

ومنه قصيدة لعدى بن زيد أولها :

طال ليلى أراقب التنويرا أرقب الليل بالصباح بصيرا

شط وصل الذى تريدين منى وصغير الأمور يجنى الكبيرا

كم ترى اليوم من صحيح تمنى وغداً حشو ريطة مقبورا

ومن مجزؤ الخفيف قول فقيد ثقيف :

أيهـــا الجـــيـــرة أسلمــوا وقـــفـــوا كى تكلمــوا

خـــرجت مـــزنة من الـ بحـــر ريا تجـــمـــجـم

هـــى مـــا كنتـــى وتـــز عـــم أنـــى لهـــا حـــم

والمضارع أجزاؤه مفاعلين فاعلاتن مفاعيلن مرتين ، والمقتضب أجزاؤه مفعولات مستفعلن مستفعلن مرتين ، قالوا كلاهما مجزوء وجوباً وذكروا :

شاهد الأول : دعـــانى إلى ســـعـــادى دواعى هوى ســـعـــادى

وشاهد الثانى : أقـــبلت فـــلاح لـهـــا عـــارضـــان كـــالشـــيج

أدبرت فـــقلت لهـــا والفـــؤاد فى وهج

هل على ويحكمـــا إن عـــشقت من حـرج

وقد بحثت كثراً فى شعر العرب الذى يؤخذ حجة فلم أعثر على أبيات من كليهما إلى أن رأيت فى حاشية الدمنهورى على الكافى ما نصه : « قال الدمامنى أنكر أن يكون المضارع والمقتضب من شعر العرب ، وزعم أنه لم يسمع منهم شىء منهما ، قلت وهو محجوج بنقل الخليل . وقال الزجاج هما قليلان حتى إنه لا يوجد منهما قصيدة لعربى وإنما يروى من كل واحد منهما البيت والبيتان ولا ينسب بيت منهما إلى شاعر من العرب ولا يوجد فى أشعار القبائل » .

والمجتث أجزاؤه فى الدائرة مستفع لن فاعلاتن فاعلاتن لكنه لم يستعمل إلا رباعيا ويكاد أن لا يوجد فى شعر العرب الجاهلى كالمضارع والمقتضب ، ومنه قول العباس بن الأحنف فى جارية اسمها فوز حجت مع مولاها :

يارب رد علينا ... من كان أنسا وزينا
من لا نسر بعيش ... حتى يكون لدينا
يا من أتاح لقلبى ... هواه شؤماً وحينا
مازلت مذ غبت عنى ... من أسخن الناس عينا
ما كان حجك عندى ... إلا بلاء علينا

وللوليد بن يزيد بن عبد الملك :

إنى سمعت بليل ... نحو الرصافة رنه
خرجت أسحب ذيلى ... انظر ما شأنهنه
إذا بنات هشام ... يندبن والدهنه
يندبن ويلاً وعولاً ... والويل حل بهنه

وحكى بعضهم استعمال المجتث مسدسا وأنشد :

يا من على الحب يلحى مستهاما ... لا لتحنى إن مثلى لن يلاما

واستخرجوا من هذه الدائرة أيضا ثلاثة أبحر مهملة ، الأول أجزاؤه فاعلاتن فاعلاتن مستفع لن مرتين ويسمى المتئد ، وقال منه بعض المولدين :

ما لسلمى فى البرايا من مشبه   لا ولا البدر المنير المستكمل

والثانى أجزاؤه مفاعيلن مفاعيلن فاعلات ويسمى بالمنسرد ، وقال منه بعض المولدين :

لقد ناديت أقواماً حين جابوا   وما بالسمع من وقر لو أجابوا

والثالث أجزاؤه فاع لاتن مفاعيلن مفاعيلن مفاعيلن ، مرتين ويسمى بالمطرد ، وقال منه بعض المولدين :

من مجيرى من الأشجان والكرب   من مزيلى من الإبعاد بالقرب

٥ - وتسمى الدائرة الخامسة بدائرة المتفق لاتفاق أجزائها ويستخرج منها المتقارب والمتدارك . فالمتقارب أجزاؤه فعولن ثمانى مرات ومنه قصيدة بشر بن أبى حازم التى أولها :

غشيت لليلى بشرق مقاما   فهاج لك الرسم منها سقاما

بسقط الكثيب إلى عسعس   تخال منازل سلمى وشاما

ومنه قصيدة لدريد بن الصمة أولها :

مدحت يزيد بن عبد المدان   فأكرم به من فتى ممتدح

ومنه قول الصلتان العبدى :

تموت مع المرء حاجاته   وتبقى له حاجة ما بقى

وهذا البحر كثير في شعرهم غير أنه يقل منه المجزوء ولم يستعمل منه المشطور ويجوز فيه خلط العروض التامة بالمحذوفة والمقصورة والمحذوفة بالبتراء لتصرف العرب فيه ، وأنشدوا منه لعبيد بن الأبرص :

هى الخمر تكنى الطلا   كما الذيب يكنى أبا جعده

وأصلحه الخليل بقوله :

هى الخمر يكنونها بالطلا   كما الذيب يكنى أبا جعده

والمتدارك أجزاؤه فاعلن ست مرات ، ولم أعثر على شواهد له فى أشعار العرب الجاهلية ، ومع ذلك وزنه محبوب وفى ا لأسماع مؤثر فى النفوس خصوصا إذا دخله الخبن نحو :

كرة طرحت بصوالجة   فتلقفها رجل رجل

أو القطع نحو :

مالى مال إلا درهم   أو برذونى ذاك الأدهم

وقد اجتمعا فى قوله :

قم نحو حماه وابتهج   وعلى ذاك المحيا فعج

وقد سموا هذا البحر بضرب الناقوس والمنتسق وغير ذلك. قال الصبان وحكم كثير بشذوذ ورود هذا البحر سالما وووروده مجزوءًا ، وإن المطرد استعماله مخبوتًا . وهذا البحر لم يذكره الخليل بل زاده الأخفش كما سبق ، وزعم ابن رشيق أنه قديم ومنه :

يا بنى عامر قد تجمعتم   ثم لم تدفعوا الضيم إذ جئتم

وقد نظم بعضهم أسماء بحور الخليل فقال :

طويل مـديد فـالبـسـيط فـوافـر   فكامـل أهزاج الأراجـيـز أرمـلا

سـريع سراح فـالخـفيف مـضـارع   فمقـتضب مجتث قرب لـتفضـلا

ونظم أوزان البحور كثير من الشعراء منهم الصفى الحلى فقال :

الطويل :	طويل له دون البحور فضائل	فعولن مفاعيلن فعولن مفاعل
المديد :	لمديد الشعر عندى صفات	فاعلاتن فاعلن فاعلاتُ
البسيط :	إن البسيط لديه يبسط الأمل	مستفعلن فاعلن مستفعلن فعل
الوافر :	بحور الشعر وافرها جميل	مفاعلتن مفاعلتن فعول
الكامل :	كمل الجمال من البحور الكامل	متفاعلن متفاعلن متفاعل
الهزج :	على الأهزاج تسهيل	مفاعيلن مفاعيل
الرمل :	رمل الأبحر يرويه الثقات	فاعلاتن فاعلاتن فاعلات
السريع :	بحر سريع ماله ساحل	مستفعلن مستفعلن فاعل
الرجز :	فى أبحر الأرجاز بحر مهمل	مستفعلن مستفعلن مستفعل
المنسرح :	منسرح فيه يضرب المثل	مستفعلن فاعلن مفتعل
الخفيف :	يا خفيفاً خفت به الحركات	فاعلاتن مستفعلن فاعلات
المضارع :	بعد المضارعات	مفاعيل فاعلات
المقتضب :	اقتضب كما سألوا	فاعلات مفتعل
المجتث :	اجتثت الحاجات	مستفعلن فاعلات

المتـقـارب : عن المتـقـارب قـال الخـليل فعـولن فعولـن فعولن فـعول

المحـــدث : حركـات المحـدث تـنتقــل فعلــن فعلــن فعلــن فعــل

وقد جاءت آيات قرآنية وأحاديث نبوية على الأوزان الشعرية اتفاقاً ، فمن ذلك آية ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ ، وحديث « إن أنت إلا أصبع دميت وفى سبيل الله ما لقيت » فالآية من مجزوء الرمل والحديث من الرجز المقطوع . وقد نظم الشيخ شهاب بيتين لكل بحر مبيناً فيهما اسم البحر وأجزاؤه ومقتبسا آية من القرآن الكريم جاءت على وزنه :

فقـال فى الطويل : أطال عذولى فيك كـفرانه الهوى وآمنت يا ذا الظبى فـأنس ولا تنفر

فعولن مفاعلين فعولن مفاعلين فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر

وقـال فى المديد : يا مديد الهجـر هل من كتاب فـيـه آيات الشـفـا للسـقـيم

فـاعـلاتن فـاعـلن فـاعـلاتن تلك آ يات الـكـتـاب الحـكيم

وقال فى البـسيط : إنى بسطت يدى أدعو على فـئة لاموا عليك عـسي تخلو أماكنهم

مستفعلن فاعلن مستفعلن فعلن فأصبحـوا لا ترى إلا مساكنهم

وقال فى الـوافر : غــرامى بـالأحـبـة وفـرته وشـاة فى الأزقـة راكـزونا

مـفـاعلتن مفـاعلتن فـعـولن إذا مـروا بهم يتـغـامـزونا

وقـال فى الكامل : كملت صفاتك يارشا وأولوا الهوى قد بايعوك وحظهم بك قد نما

متـفاعلن متـفاعلن متـفاعلن إن الذيـن يبـايعـونـك إنما

وقـال فى الهـزج : لئـن تهـزج بعـشـاق فـهم فى عـشـقـهـم تاهوا

مـفـاعـيلن مـفـاعـيلن وقـالـوا حـسـبنا الـله

وقـال فى الرجـز : يا راجزاً باللوم فى موسى الذى أهوى وعشقى فيه كان المبـتغي

مـسـتـفـعلن مـسـتـفـعلن اذهب إلى فـرعـون إنه طغي

وقال فى الرمل : إن رملتم نحو ظبى نافر فاستميلوه بداعى أنسه

فاعلاتن فاعلاتن فاعلن ولقد راودته عن نفسه

وقال فى السريع : سارع إلى غزلان وادى الحمى وقل أيا غيد ارحموا صبكم

مستفعلن مستفعلن فاعلن يا أيها الناس اتقوا ربكم

وقال فى المنسرح : تنسرح العين فى خديد رشا حيا بكأس وقال خذه بفى

مستفعلن مفعولات مستفعلن هو الذى أنزل السكينة فى

وقال فى الخفيف : خف حمل الهوى علينا ولكن ثقلته عواذلُ تترنمْ

فاعلاتن مستفع لن فاعلاتن ربنا اصرف عنا عذاب جهنم

وقال فى المضارع : إلى كم تضارعون فتى وجهه منير

مفاعيلن فاع لاتن ألم يأتكم نذير

وقال فى المقتضب : اقتضب وشاة هوى من سناك حلولهم

مفعولات مفتعلن كما أضاء لهم

وقال فى المجتث : اجتث من عاب ثغراً فيه الجمان النظيم

مستفع لن فاعلاتن وهو العلىّ العظيم

وقال فى المتقارب : تقارب وهات اسقنى كأس راح وباعد وشاتك بعد السماء

فعولن فعولن فعولن فعولن وإن يستغيثوا يغاثوا بماء

وقال فى المتدارك : دارك قلبى بلمى ثغر فى مبسمه نظم الجوهر

فعلن فعلن فعلن فعلن إنا أعطيناك الكوثر

وقال فى المخلع : خلعت قلبى بنار عشق تصلى بها مهجتى الحرارة

مستفعلن فاعلن فعولن وقودها الناس والحجارة

وقال فى الدوبيت : دوبيت لنظم فارس ميزان ما خصَّصهم بكسبه الإمكان

فعلن متفاعلن فعولن فعلن بل ران على قلوبهم ما كانوا

وقال فى المواليا : لذ بالموالي الأكابر واعتصم بالله يهديك إذا شا وإلا لا تزل باللاه

مستفعلن فاعلن مستفعلن فعلن وما تشاؤن إلا أن يشاء الله

لطائف : الأولى : قيل لا حاجة إلى العروض ، لأن الشعر به شاق ويجيء متكلفاً ، فإن العروضىّ ليتأتى له وزن البيت ينظر فى أجزائه ويقابل ما فيها من الأوتاد والأسباب على التفاعيل وإلى أن ينظم بيتًا ينظم الشاعر بالسليقة قصيدة وقال أبو فراس :

تناهض الناس للمعالى لما رأوا نحوها نهوضى

تكلفوا المكرمات كدًا تكلف النظم للعروضى

وقال ابن حجاج :

مستفعلن فاعلن فعول مسائلُ كلها فضول

قد كان شعر الورى صحيحًا قبل أن يخلق الخليل

وقال بهاء الدين السبكى :

إذا كنت ذا فكر سليم فلا تمل لعلم عروض توقع القلب فى كرب

فكل امرئ عانى العروض فإنما تعرض للتقطيع وانساق للضرب

الثانية : ألغز ابن الصائغ فى جبل فقال :

يا عـــروضـــيـــاً لـه فطن | بحـــرها بالفكر يضطرب
أيما اسم وضـــعـــه وتـد | وهو إذا صـحـفـتـه سـبب
ويرى فـى الـــوزن فــاصـــلة | ســاكن تحـريكـــه عـجـب

أراد بالوتد الجبل ، قال تعالى﴿ وجعلنا الجبال أوتادا ﴾ وهو إذا صحفته جبل وهو السبب لغة ، ووزنه فاصلة صغرى لأن جبلا ثلاثة أحرف متحركة بعدها ساكن .

وألغز بعضهم فى الساقية فقال :

يـا أيهـــا الحـــبـــر الـذى | علـم العـــروض به امــتـــزج
أبـــن لـنـــا دائـــرة | فـــيـــهـــا بسـيـط وهـــزج

وظـاهر هذا مشـكل لأنه ليس فى دوائر العروض مـا يجمع البسيط والهزج ، لأن البسيط من دائرة المختلف ، والهزج من دائرة المجتلب ، وأوهم بالبسيط وهو يريد الماء ، وأوهم بالهزج وهو يريد الصوت المسموع من الساقية حال دورانها .

الثالثة : قال فى النفحات الأرجية قال الخليل وغيره : للعرب نوعان من الشعر المخمس والمسمط ، قال ابن رشيق "المخمس" أن يؤتى بخمسة أقسام على قافية واحدة ثم بخمسة أخرى على قافية أخرى إلى تمام القصيدة هذه أصله ، وقد يستعمل على أقل من خمسة أو أكثر ، أنشد الزجاج :

ســـقـى طللا بـحـــزوى | هـزيم الـودق أحـــــوى
عـــهـــدنا فـــيـــه أروى | زمـــانـاً ثـم أقـــوى
وأروى لا كـــنـــودُ | ولا فـــيـــهـــا صـــدود
لـهـــا طرف صـــيـــود | ومـــبـــتـــسم بـرود
لـــئـــن شـــط المـــزار | بـهـــا ونـأت الـديار
فـقلبـــي مـســتـطار | ولـــيـس لـــه قـــرار

وهذا الوزن يحتمل أن يكون مربع الوافر المقطوع ، أو من المضارع المقبوض الكنوف . والمسمط إنه يؤتى ببيت مصرع ثم بأربعة أقسام على قافية واحدة غير قافية البيت الأول ثم يؤتى بشطر واحد متحد فى الوزن والقافية مع البيت الأول نحو :

توسمت من هند معالم أطلال — عفاهن طول الدهر فى الزمن الخالى

مرابعُ من هندٍ خلت ومطايف — يصبح بمغناها صدى وعوازف

وغيّرها هوج الرياح العواصف — وكل مسفٍ ثم آخر رادف

بأسمح من نوء السما كين هطّال

وهذا جرى عليه اسم المخمس غلطاً ، وربما كان التسميط بالإتيان بثلاثة أشطر متحدة فى التقفية وأربعة على قافية أخرى ثم بثلاثة أخرى متحدة فى التقفية ورابعة متحدة مع الرابعة السابقة فى القافية وهكذا ، كقوله :

خيال هاج لى شجنا — فبت مكابداً حزنا

عميدَ القلب مرتهنا — بذكر اللهو والطرب

سبتنى ظبية عطلُ — كأن رضابها عسلُ

ينوء بخصرها كفل — كميل روادف الحقب

وأقول التخميس المستعمل الآن بمصر أن يؤتى بأربعة أشطر متحدة التقفية وخامسة مخالفة لها فى القافية ، إلا إذا أريد التصريع ، كقول الشيخ إبراهيم راضى المؤدب فى تخميس هذا البيت :

كل من فى الوجود يطلب صيداً — غير أن الشباك مختلفات

احترس من سواك قربًا وبعداً — وتبصر فى الأمر عكساً وطرداً

أنت للناس لست تعلم قصداً — كل من فى الوجود يطلب صيداً

غير أن الشباك مختلفات

والتشطير أن تجعل بيتًا بيتين كقوله فى البيت السابق :

كل من فى الموجود يطلب صيدًا   تتجارى لقنصه الغايات

لو علمنا بسرها لاحترسنا   غير أن الشباك مختلفات

ومن الشعر نوع ثالث يسمى القادوسى لم يذكره الخليل وذكره غيره ، شبه بقواديس الساقية لارتفاع بعض قوافيه فى جهة وانخفاضها فى جهة أخرى نحو :

كم للدمى الأبكار   بالحسن من منازلِ

بمهجتى للوجد من   تذكارها منازلُ

منازل غيَّرها   سواكب الهواطلِ

لما ناء ساكنها   فأدمعه هواطلُ

(ب) فى تاريخ القافية (*) :

القافية علم أحوال أواخر الأبيات ، وتطلق على مجموع الساكنين اللذين فى آخر البيت وما بينهما من المتحركات والمتحرك الذى قبل الساكن الأول ، كذا قال الخليل وقال الكوفيون أنها حرف الروى خاصة . ورأيت فى رسالة لابن كيسان مطبوعة فى ليدن ما يخالف هذا ، فإن فيها ما نصه : "قال الخليل القافية الحرف الذى يلزمه الشاعر في آخر كل بيت حتى يفرغ من شعره ، وكان الخليل يسمى الكلمة التى فيها القافية الضرب والروى" ، وهذا مخالف للمشهور ، ولما جاء فى لسان العرب وهو "وقال الخليل القافية من آخر حرف البيت إلى أول ساكن يليه مع الحركة التى قبل الساكن ، كأن القافية على قوله من قول لبيد "عفت الديار محلها فمقامها" ، من فتحة القاف إلى آخر البيت . وقال قطرب : القافية الحرف الذى تبنى القصيدة عليه وهو المسمى روياً .

(*) لم يرد العنوان فى الأصل (المحرر) .

وقال ابن كيسان القافية كل شئ لزمت إعادته فى آخر البيت وقد لاذ هذا بنحو قول الخليل لولا خلل فيه" . وقال الأخفش : "إنها آخر كلمة فى البيت وقال آخرون هى المصراع الأخير ، قال الخطيب التبريزى والقول قول الأخفش لأنا رأيناهم إذا قالوا البيت حتى تبقى منه كلمة قالوا بقيت القافية ، ولو أن شاعراً قال لك اجمع قوافى لم تجمع له أنصاف أبيات وإنما كنت تجمع له كلمات أواخرها الحرف الذى تريد أن تجعله روى القصيدة" (**) . والعرب يطلقون القافية على البيت وعلى القصيدة ، قال حسان :

فنحكم بالقوافى من هجانا ونضرب حين تختلط الدماء

وقال آخر :

وكم علمته نظم القوافى فلما قال قافية هجانى

وقالت الخنساء :

وقافية مثل حد السنا ن تبقى ويهلك من قالها

وقال الشميذر الحارثى :

بنى عمنا لا تذكروا الشعر بعدما دفنتم بصحراء الغمير القوافيا

أى دفنتم بصحراء الغمير شاعركم صاحب القصائد .

ويقال إن مهلهل بن ربيعة أول من أجاد تقفية القصائد الطوال ، وأنه لم يقل أحد قبله عشرة أبيات من روىّ واحد ، وإنه أول من يروى له كلمة ثلاثون بيتاً من الشعر ، قال الفرزدق : "ومهلهل الشعراء ذاك الأول" . ولهذا نسبوا إليه وضع القوافى . وأما علم القافية فالظاهر أنه من علم العروض ، فيكون من وضع الخليل فإن تعاريف القافية الاصطلاحية وأسماء حروفها وحركاتها وعيوبها وأنواعها منسوبة كلها إلى الخليل ومن تبعه . ولم يؤثر عن زمن الجاهلية وضع علم ولا تدوين فن ، ولو كان العلم

(**) التنصيص لم يرد فى الأصل (المحرر) .

من وضع المهلهل لما خفى على النابغة الذبيانى شاعر العرب المحكمّ عيب الإقواء فى قصيدته التى أولها :

آمن آل ميـة رائح أو مغتـدى عجلان ذا زاد وغير مزوَّد

فإنه خالف فيها مجرى رويها المكسور حيث قال :

زعم البوارح أن رحلتنا غدا وبذلك خبرنا الغداف الأسود

ولما أنكر عليه أهل يثرب ذلك لم يعرف ما أنكروا ، فألقوه على لسان جارية فتغنت فيه فمدت صوتها فى (مزود) ومدت صوتها فى قوله (الأسود) ، فقال النابغة ما أبصركم يا أهل يثرب بمجارى الكلام ، ورجع عنه فقال : "وبذاك تنعاب الغراب الأسود" . وقد أقوى النابغة فى موضع آخر من هذه القصيدة فقال :

سقط النصيف ولم ترد إسقاطه فتناولته واتقتنا باليد

بمخضب رخص كأن بنانه عنم يكاد من اللطافة يعقدّ

ويؤيد ما ذهبنا إليه قول ابن مرزوق شارح الخزرجية : وإنما أفردت القوافى بالتأليف وإن كانت من علم العروض لكثرة مباحثها ، كما أفردت الفرائض بالتأليف وإن كانت من علم الفقه وكإفراد التصريف بالتأليف وإن كان من علم النحو .

ولقافية البيت حروف وحركات إذا جاءت للشاعر فى مطلع شعره وجب عليه التزامها فى بقيته ، فالحروف ستة نظمها بعضهم فقال :

روى ووصل والخروج وردفه ومن قبله التأسيس ثم دخيل

والحركات ست أيضا نظمها آخر فقال :

إن القوافى عندنا حركاتها ست على نسق بهنّ يلاذ

رسّ وإشباع وحذو ثمّ تو جيه ومجرى بعده ونفاذ

١- فالروى الحرف الذى ينسب إليه الشعر ، ويكون ساكنًا ومتحركًا ، فالساكن ويسمى مقيدا كالميم الملتزمة أخيرا فى قصيدة طرفة بن العبد التى أولها :

سـائلوا عنهـا الذى يعـرفنا بقـوانا يوم تحـلاق اللممْ

يوم تبدى البيض عن أسـواقها وتلف الخـيلُ أعـراج النعمْ

ولذا يقال لها ميمية طرفة . والمتحرك ويسمى مطلقا كالهمزة فى معلقة الحارث بن حلزة التى أولها :

آذنتنا بيـنهـا أسـمـاء رب ثاو يمل منه الثـواءُ

بعـد عـهـد لنا ببـرقـة شـمـا ء فـأدنى ديارها الخلصـاء

ويقال لها همزية الحارث ، وكالنون فى معلقة عمرو بن كلثوم التى أولها :

ألا هبى بصـحنك فـاصبحـينا ولا تبـقى خـمـور الأندرينا

مشـعشـة كأن الحص فيـها إذا مـا الماء خـالطهـا سـخـينا

ويقال لها المعلقة النونية ، وكالباء فى قصيدة النابغة التى أولها :

كلينى لهم يا أميـمـة ناصب وليل أقـاسيـه بطىء الكواكب

تطاول حـتى قلت ليس بمنقض وليس الذى يرعى النجـوم بآيب

وتسمى بالبائية ، وكالميم فى قصيدة عبيد بن الأبرص التى أولها :

لمن جمال قبيل الصبح مزمومة ميـمـمات بلادًا غير مـعلومه

عـالين رقـمـا وأنماطًا مظاهرة وكللا بعـتيق العـقل مقـرومه

والباء فى قصيدة أبى النشناش التى أولها :

إذا المرء لم يسرح سوامًا ولم يُرحْ سـوامًـا ولم تعطف عليه أقـاربهْ

واللام فى قطعة لابن زيابة أولها :

نبـــئت عـــمـــراً غـــارزاً رأســـة   فـى سنة بوعـــــد أخـــــواله
وتلـك منه غـــيـــر مـــأمـــونة   إن يـفـــعل الشىء إذ قـــاله

والعين فى قول مسكين الدرامى :

وفتيان صدقٍ لستُ مطلعَ بعضهم   على سر بعض غير أنى جماعها
لكل امرىء شعب من القلب فارغ   وموضع نجوى لإبرام اطلاعــها
يظلون شـتى فى البلاد وسرهم   إلى صخرة أعيا الرجال انصداعها

والهمزة فى قطعة للهذيل بن مشجعة :

إنى وإن كـان بنى عـمى غـائبـا   لمقـــاذف[1] من خلفــه وورائه
ومفـيـدة نصرى وإن كـان أمـرأ   متـزحـزحًا فـى أرضـه وسـمائه

ويعاب على الشاعر أن يغير حرف الروى فى شعر واحد ، وسموا هذا العيب اكفاء ، كقول رؤبة :

أزهـر لـم يـولـد بـنـجـم الـشـح   مـيـم الـبـيـت كـريـم الـسـخّ

وحركة الروى المطلق تسمى مجرى ، وحركة ما قبل الروى المقيد توجيها ، وفى اختلاف المجرى عيب الإقواء كما تقدم فى شعر النابغة ، وفى اختلاف التوجيه عيب السناد كقول امرئ القيس :

فـــلا وأبيك ابنه العـــامـــرى   لا يدعى القـــوم أنى وافـــر
تميم بن مـــر وأشـــيـــاعـــهـــا   وكنده حـولى جـمـيعـا صـبـر
لإذا ركبـوا الخيل واستلأموا   تحـرقـت الأرض واليـوم قـر

٢ - والوصل لين أو هاء تلى الروى المطلق ، كالواو المتولدة بعد الهمزة فى (الثواء) ، والألف بعد النون فى (الأندرينا) ، والياء بعد الباء في (الكواكب) ، وهاء التأنيث بعد الميم فى (معلومه) ، وهاء الضمير في (أقاربه) وفى (أخواله) وفى (جماعها) وفى (ورائه) فليست الهاء وصلاً فى مثل قصيدة الحطيئة التى أولها :

ألا هبت أمامة بعد هدء ... تعاتبنى وما قضت كراها

فقلت لها أمام ذرى عتابى ... فإن النفس مبدية ثناها

بل هى الروى والألف الوصل . والوصل لا يتأتى فى الروى المقيد ، وأشار إلى هذا الورّاق فقال :

قلت صلنى فقد تقيدت فى الحبِّ ... به والإسار فى الحب ذل

قال يا من يجيد علم القوافى ... لا تغالط ما للمقيد وصل

وحركة هاء الوصل نفاد أو نفاذ ، ولم يسمع فى شعر اختلافها .

٣ - والخروج حرف مد يلى هاء الوصل إن ضمه فواو وإن فتحه فألف وإن كسره فياء ، كالواو والألف والياء المتولدة بعد الهاء فى (أخواله) و (جماعها) و (ورائه) .

٤ - والردف حرف لين قبل الروى ، كالألف قبل الهمزة فى (الثواء) ، والياء قبل النون فى (الأندرينا) ، والواو قبل الميم فى (معلومة) ، والردف إذا كان بالألف انفردت فى الشعر كقصيدة بشر بن أبى خازم التى أولها :

تعنى القلب من سلمى عناءُ ... فما للقلب إذ بانت شفاءُ

وآذن آل سمى بارتحال ... فما للقلب إذ ظعنوا عزاء

وإذا كان بالواو والياء جاز أن يجتمعا فى شعر واحد ، كقول المعلوط بن بدل السعدى :

إن الطغـائـن يوم جـو سـويقـة أبكـين عند فـراقـهـن عـيـونا
غـيـضن من عـبـراتهـن وقلن لى مـاذا لقـيت من الهـوى ولقـينا
بل لو يـسـاعـفـنا الغـيـور بداره يومـا لقـد مـات الهـوى وحـيـينا

وحركة ما قبل الردف حذو وفى اختلافها عيب السناد كقول عبيد :

فـإن يك فـاتنـى أسـفـاً شبـابى وأضـحى الرأس منى كـالـلجين
وكـان الـلهـو حـالفنى زمـاناً فـأضـحى الـيـوم منـقطع القـرين
فـقـد ألج الخـباء علـى عـذارى كـأن عـيـونـهن عـيـون عين

وفى إرداف بعض الشعر دون البعض الآخر عيب السناد كقول حسان :

إذا كنت فـى حـاجـة مـرسـلا فـأرسـل حكيـمًـا ولا توصـه
وإن باب أمـر عـلـيك التـوى فـشـاور لبـيـبًـا ولا تعـصـه

٥ - والتأسيس ألف سبق الروى بحرف ، وكان معه فى كلمته أو فى كلمة أخرى بشرط أن يكون الروى ضميرا أو بعض ضمير كقول حفص العليمى :

أقـول لحلمى لا تزعنى عن الصـبـا وللشيب لا تذعر على الغوانيا (من كلمته)
طلبت الهـوى الغورى حـتى بلغتـه وسيرت فى نجـديه ما كفانيا (ضـمير)
فـيارب إن لم تقـضـها لى فـلا تدع قـنور لهم واقبض قـنور كـما هيا (بعض ضـمير
ويا لـيت أن الله إن لم ألاقـهـا قـضى بين كل اثنين أن لا تـلاقـيـا

٥ - والتأسيس ألف سبق الروى بحرف ، وكان معه فى كلمته أو فى كلمة أو فى كلمة أخرى بشرط أن يكون الروض ضميرا أو بعض ضمير كقول حفص العليمى :

حننت إلـى ريا ونفسك بـا عـدت مـزارك من ريا وشـعـبـاكمـا مـعـا

فـمـا حـسن أن تأتـى الأمـر طائعـا   وتجـزع إن داعى ا لصبـابة أسـمعـا

وكقول عنترة :

ولقـد خشـيت بأن أمـوت ولم تدر   للحـرب دائرة على ابنى ضـمـضـم

الشـاتمى عـرضى ولم أشـتـمهـمـا   والناذريـن وإن لم ألقــهـــمـــا دمى

وإذا جاء أول الشعر مؤسسا لزم التأسيس فى باقيه ، كقول معدان الكندى :

صـفا ودليـلى ما صـفـا ثم لع نُطع   عـدوا ولم نسـمع به قـيل صـاحب

فلـمـــا تـولى ود ليـلى لجـــانب   وقـــوم تولـينا لـقـــوم وجـــانب

وكل خلـيل بعــد لـيلى يخـــافنى   على الغـدر أو يرضى بود مـقـارب

وإلا جاء عيب السناد ، كقول حجر بن حية العبسى :

ولا أدوم قـدرى بعـدمـــا نضـجت   بخـلاف لتـمنع مـا فـيـها أثافـيـهـا

حـتى تقسم شـتى بعـد ما وسـعت   ولا يؤنب تحـت الليل عـــافـيـهـــا

لا أحـرم الجـارة الدنيا إذا اقـتـربت   ولا أقـــوم بهـا فى الحـى أخـزيهـــا

ولا أكلـمـــهـــا إلا عـــلانـيـــة   ولا أخـــبـــرهـا إلا أناديـهـــا

فالبيت الثالث غير مؤسس والباقى فيه التأسيس .

٦ – والدخيل حرف متحرك بين التأسيس والروى كنون (الغوانيا) ، وحركته إشباع وفى اختلافها عيب السناد ، كقول النابغة :

وهم طردوا منهـا بليـا فـأصـبـحت   بلـى بواد من تـهـــامـــة غـــائر

وهم منعـوها مـن قـضـاعـة كلهـا   ومن مـضـر الحمـراء عند التـغـاور

ومما تقدم يعلم أن القافية باعتبار حروفها تسعة أنواع ، لأنها إما مطلقة أى لها وصل أو مقيدة ليس لها وصل ، وكلتاهما مردوفة أو مؤسسة أو مجردة من الردف والتأسيس ، والمطلقة بأقسامها الثلاثة إما موصولة بحرف لين وإما بهاء . فالمطلقة المردفة الموصولة كقول أمية بن أبى الصلت :

كل عيش وإن تطاول يومًا   صائر مرة إلى أن يزولا

ليتنى كنت قبل ما قد بدا لى   فى رؤوس الجبال أرعى الوعولا   (الوصل حرف لين)

وكقول عنترة يرثى تماضر زوجة الملك زهير :

جازت ملمات الزمان حدودها   واستفرغت أيامها مجهودها

وقضت علينا بالمنون فعوضت   بالكره من بيض الليالى سودها   (الوصل هاء)

والمطلقة المؤسسة الموصولة كقول سعد بن ناشب :

سأغسل عنى العار بالسيف جالبا   على قضاء الله ما كان جالبا

وأذهل عن دارى وأجعل هدمها   لعرضى من باقى المذمة حاجبا   (الوصل حرف لين)

وكقول طرفة :

فكيف يرجى المرء دهرا مخلدًا   وأعماله عما قليل تحاسبه

ألم تر لقمان بن عاد تتابعت   عليه النسور ثم غابت كواكبه   (الوصل هاء)

والمطلقة المجردة الموصولة كقول جليلة بنت مرة :

يا ابنة الأقوام إن لمت فلا   تعجلى باللوم حتى تسألى

فإذا أنت تبينت الذى   يوجب اللوم فلومى واعذلى   (الوصل حرف لين

وكقول طرفة :

تـذكـــــرون إذ نـقــــاتـلكم ... لا يضـــر مـــعـدمًــا عــدمـــه

أنـــتـم نـــخــل نـــطـــيــف بــه ... فــــإذا مـــا جـــز نـصطرمـــه

والمقيدة المردوفة كقول امرئ القيس :

تـطاول الـلـيل عـلينـا دمـــــون ... دمــــون إنـا مــــعــــشـــر يمـانون

وإنا لأهلنا محبون

والمقيدة المؤسسة كقول الحطيئة :

وغـــــــررتـنى وزعـــــــمت أنــ ... ـك لابن فـى الصـــــيـف تامـــــر

والمقيدة المجردة كقول طرفة :

خــــــالـط الـناس بـخـلق واسـع ... لا تكـن كلبـــا على الـناس تهـــر

وإن التقى ساكنا القافية فهى المتواتر كقول حطان :

أنـزلنـى الدهـر علـى حـكمـــــــه ... من شـــامـخ عــال إلـى خـــفض

وإن كان بينهما حركتان فهى المتدارك كقول المؤمل :

وكم من لئـيم ودّ أنى شـــتـمـــتـه ... وإن كان شـتمى فيـه صاب وعلقم

وللكف عــن شـتم اللئيم تكرمًــا ... أضـر لـه من شتـــمـه حين يشـــتم

وإن كان ثلاث حركات فالمتراكب كقول طرفة :

ولا أغـيـر على الأشـعار أسـرقـهـا ... عنهـا غنيت وشـر الناس من سرقـا

وإن أحـــســن بيت أنـت قـــائـله ... بيت يـقـــال إذا أنشـــدته صــدقـا

وإن أربع فالمكتاوس كقول العجاج ... أو يبـتــغـوا إلى السـمـــاء درجـا

وقافيتا المترادف والمكتاوس نادرتان فى الشعر .

الهوامش

(١) المقاذف : المرامى يقول إنى أذب عنه من قدامه ومن خلفه ، فوراء بمعنى قدام لأنه ذكر معه خلف .

الجزء الثانى

الباب الخامس : فى تاريخ النحو والصرف والاشتقاق (وفيه فصلان)

الفصل الأول

فى تعريف النحو والصرف والاشتقاق

"النحو" كان يطلق على ما يعم الصرف ، فكان يبحث فيه عن أبنية الكلم وأحوالها مفردة ومركبة . وكتب السلف ناطقة بذلك ، قال ابن جنى فى الخصائص : "هو انتحاء سمت كلام العرب فى تصرفه من إعراب وغيره كالتثنية والجمع والتحقير والتكسير والإضافة وغير ذلك ، ليلحق من ليس من أهل اللغة العربية بأهلها فى الفصاحة فينطق بها وإن لم يكن منهم وإن شذ بعضهم عنها رد إليها ، وهو فى الأصل مصدر شائع أى نحوت نحواً كقولك قصدت قصداً ، ثم خص به انتحاء هذا القبيل من العلم" (*) . وقيل النحو علم بأقيسة تغير ذوات الكلم وأواخرها بالنسبة إلى لغة العرب . ثم عنى العلماء بالصرف وأفردوه بالتصنيف لتشعب مسائله وخصصوه بعلم أبنية الكلم وأحوالها مفردة ، فالأبنية كبناء اسم الفاعل من الثلاثى على فاعل واسم المفعول على مفعول واسم التفضيل على أفعل واسم المكان واسم الزمان على مفعل أو مفعل والأحوال كالإعلال والإدغام والحذف والإبدال . وفى الارتشاف لأبى حيان : "التصريف ينقسم إلى قسمين أحدهما جعل الكلمة على صيغ مختلفة لضروب من المعانى ، والآخر تغيير الكلمة لغير معنى طارئ عليها وينحصر فى الزيادة والحذف والإبدال والقلب والنقل والادغام" (**) . وكذا أفردوا النحو بالتأليف وأطلقوه على علم أحوال الكلم وهى مركبة خاصة كرفع الفاعل ونصب المفعول وجر المضاف إليه وتقديم المبتدأ

(*) لم يرد التنصيص فى الأصل (المحرر) .

(**) لم يرد التنصيص فى الأصل (المحرر) .

على الخبر فى حال وتأخيره فى حال وحذف أحدهما عند الاقتضاء . والاشتقاق أخذ كلمة من أخرى بشرط مناسبتهما معنى وتركيبًا ومغايرتهما فى الصيغة ، أو هو أن تجد بين اللفظين تناسبًا فى المعنى والتركيب فترد أحدهما إلى الآخر ، والأول باعتبار العمل والثانى باعتبار العلم ، والاشتقاق يكون صغيراً إن كان بين اللفظين تناسب فى الحروف الأصلية وترتيبها نحو جذب من الجنوب ، وكبيراً إن كان بينهما تناسب فى الحروف دون الترتيب نحو جذب من الجبذ ، وأكبر إن كان بينهما تناسب فى نوع بعض الحروف وفى مخارج البعض الآخر كنعق من النهق وثلب من الثلم ، وإذا أطلق الاشتقاق انصرف للصغير . وقال فى كشف الظنون : "الاشتقاق علم باحث عن كيفية خروج الكلم بعضها عن بعض بسبب مناسبة بين المخرج والخارج بالأصالة والفرعية باعتبار جوهرها ، والقيد الأخير يخرج الصرف إذ يبحث فيه أيضًا عن الأصالة والفرعية بين الكلم لكن لا بحسب الجوهرية بل بحسب الهيئة ، مثلا يبحث فى الاشتقاق عن مناسبة نهق ونعق بحسب المادة ، وفى الصرف عن مناسبته بحسب الهيئة فامتاز أحدهما عن الآخر ، واندفع توهم الاتحاد وموضوعه المفردات من الحيثية المذكورة ، ومبادئه كثيرة منها قواعد مخارج الحروف ومسائله ، القواعد التى يعرف منها أن الأصالة والفرعية بين المفردات بأى طريق يكون وبأى وجه يعلم ودلائله مستنبطة من قواعد علم المخارج ، وتتبع مفردات ألفاظ العرب واستعمالاتها والغرض منه تحصيل ملكة يعرف بها الانتساب على وجه الصواب ، وغايته الاحتراز عن الخلل فى الانتساب . واعلم أن مدلول الجواهر بخصوصها يعرف من اللغة وانتساب البعض إلى البعض على وجه كلى إن كان فى الجوهر.

فالاشتقاق وإن كان فى الهيئة فالصرف فظهر الفرق بين العلوم الثلاثة ، وإن الاشتقاق واسطة بينهما ولهذا استحسنوا تقديمه على الصرف وتأخيره عن اللغة فى التعليم ، ثم إنه كثيراً ما يذكر فى كتب التصريف وقلما يدون مفرداً عنه إما لقلة قواعده أو لاشتراكهما فى المبادئ حتى أن هذا من جملة البواعث على اتحادهما ، والاتحاد فى التدوين لا يستلزم الاتحاد فى نفس الأمر" . قال صاحب الفوائد الخاقانية : "اعلم أن الاشتقاق يؤخذ تارة باعتبار العلم وتارة باعتبار العمل وتحقيقه إن الضارب مثلا يوافق الضرب فى الحروف الأصول والمعنى بناءً على أن الواضع عين

بإزاء المعنى حروفًا وفرع منها ألفاظًا كثيرة بإزاء المعانى المتفرعة على ما تقتضيه رعاية التناسب ، فالاشتقاق هو هذا التفريع والأخذ فتحديده بحسب العلم بهذا التفريع الصادر عن الوضع هو أن تجد بين اللفظين تناسبًا فى المعنى والتركيب ، فتعرف رد أحدهما إلى الآخر وأخذه منه وإن اعتبرناه من حيث احتياج أحد إلى عمله عرفناه باعتبار العمل ، فنقول : هو أن تأخذ من أصل فرعًا يوافقه فى الحروف الأصول وتجعله دالًا على معنى يوافق معناه" . والحق أن اعتبار العمل زائد غير محتاج إليه وإنما المطلوب العلم باشتقاق الموضوعات إذ الوضع قد حصل وانقضى على أن المشتقات مرويات عن أهل اللسان ولعل ذلك الاعتبار لتوجيه التعريف المنقول عن بعض المحققين ، ثم إن المعتبر فيهما الموافقة فى الحروف الأصلية ولو تقديراً إذ الحروف الزائدة فى الاستفعال والافتعال لا تمنع وفى المعنى أيضًا إما بزيادة أو نقصان ، فلو اتحد فى الأصول وترتيبها كضرب من الضرب فالاشتقاق صغير ولو توافقا فى الحروف دون الترتيب كجبذ من الجذب فهو كبير ولو توافقا فى أكثر الحروف مع التناسب فى الباقى كنعق من النهق فهو أكبر" . وفى الارتشاف : "الاشتقاق أكبر وأصغر ، فالأكبر هو عقد تقاليب الكلمة كيفما قلبتها على معنى واحد نحو القول والقلو والولق والوقل واللقو واللوق على معنى الخفة والسرعة ، والكلم والكمل واللكم واللمك والمكل والملك على معنى الشدة والقوة ، ولم يقل بهذا الاشتقاق إلا أبو الفتح ، والاشتقاق الأصغر إنشاء مركب من مادة يدل عليها وعلى معناها كأحمر من الحمرة ، وهذا الاشتقاق أثبته الجمهور فى أن بعض الكلم قد يشتق من بعض ولا بد من اتحاد فى الحروف الأصلية على ترتيب واحد وفى المعنى ويدل على أن اللفظ فرع دلالته على معنى زائد على ما اشتق منه ، نحو ضارب وضرب ، والأصل فى الاشتقاق أن يكون من المصادر وأصدق ما يكون فى الأفعال المزيدة والصفات منها وأسماء المصادر والزمان والمكان ويغلب فى العلم ويقل فى أسماء الأجناس كغراب يمكن أن يشتق من الاغتراب وجرادة من الجرد" (*) . وكان للاشتقاق بأقسامه الثلاثة أهمية كبرى فى قياس اللغة واستنباطها وعلى ذلك كان مدار السلف فى

(*) لم يرد التنصيص فى الأصل (المحرر) .

تدوينها . قال ابن فارس فى فقة اللغة : "أجمع أهل اللغة إلا من شذ منهم أن للغة العرب قياسًا وأن العرب تشتق بعض الكلم من بعض وأن اسم الجن مشتق من الاجتنان وأن الجيم والنون تدلان أبدًا على الستر ، تقول العرب للدرع جنة وأجنه الليل وهذا جنين أى هو فى بطن أمه وإن الأنس من الظهور يقولون آنست الشىء أبصرته وعلى هذا سائر كلام العرب" (**) . وسأل عمرو بن العلاء أعرابيًا عن اشتقاق الخيل فقال الأعرابى استفاد الاسم من فعل السير يريد أن فى مشيها خيلاء فأخذ اسمها من ذلك ، وكان الزجاج يقول الرحل مشتق من الرحيل والثور إنما سمى ثوراً لأنه يثير

(*) لم يرد التنصيص فى الأصل (المحرر) .

(**) لم يرد التنصيص فى الأصل (المحرر) .

الفصل الثانى

فى تاريخ النحو بالمعنى العام

كان العرب يتكلمون كلامًا معربًا بالسليقة والطبع قال أعرابى :

ولست بنحوى يلوك لسانه ... ولكن سليقى أقول فأعرب

فلما جاء الإسلام وقضى باختلاطهم مع الأعاجم تولد فى لسانهم اللحن وأول ما ظهر فى كلام الموالى والمتعربين من عهد النبى عليه الصلاة والسلام فخوفًا من فساد اللغة وضع الإمام على رابع الخلفاء الراشدين أصولًا لذلك أعطاها لأبى الأسود الدؤلى وأمره بأن ينحو منحاها ، فصار يتبع ما رسمه له الإمام ويزيد فى هذه الأصول ويعرض عليه كل ما عنَّ له فى هذا الشأن ، فكان ذلك مبدأ علم النحو ، وصار الإمام يرغب فى تعلم هذا العلم فما يروى عنه أنه قال :

النحو يصلح من لسان الألكن ... والمرء تكرمه إذا لم يلحن

وإذا أردت من العلوم أجلها ... فأجلها عندى مقيم الألسن

لحن الشريف يحطه عن قدره ... فتراه يسقط من لحاظ الأعين

ما ورث الأباء فيما ورثوا ... أبناءهم مثل العلوم فأتقن

وعلى ما تقدم يظهر أن نوى العرفان من العرب قبل وضع النحو كانوا يعرفون علم لسانهم بالتلقى والوارثة عن أسلافهم بدون تدوين فى كتاب ولا معرفة للألفاظ

الاصطلاحية الحديثة ، يرشد إلى ذلك حكاية الخنساء وحسان فى سوق عكاظ وقد مرت فى الشعر ، وحكاية النابغة وقينة المدينة السالفة عند الكلام على القافية وما روى عن عمر ثانى الخلفاء أنه قال تعلموا العربية فإنها تزيد فى العقل والمروءة . ويقال أن السبب فى وضع باب التعجب والاستفهام أن أبا الأسود كان مع ابنته على سطح بيته فرأت السماء ونجومها الزواهر وحسن نظامها البديع الباهر قالت يا أبت ما أحسن السماء بضم النون ، فقال نجومها ظنًا أنها تسأله عن أى شىء أحسن مما نظرته فيها ، فقالت يا أبت إنما أردت التعجب من حسنها وبهجتها ، فقال إذن قولى ما أحسن السماء وافتحى فاك ، وقيل إنه دخل على ابنة له بالبصرة فقالت له يا أبت ما أشد الحر متعجبة ورفعت أشد فظنها مستفهمة فقال شهر ناجر فقالت إنما أخبرتك ولم أسألك ، وأن السبب في وضع باب العطف والنعت أنه سمع رجلًا يقرأ إن الله برىء من المشركين ورسوله بالجر ، وتقدم فى الكلام على الخط أن هذا أيضًا كان سببًا فى وضع علامات الإعراب ، ولما وضع باب إن وأخواتها وعرضه على الإمام أمره بزيادة (لكن) . وروى عاصم قال جاء أبو الأسود إلى زياد وهو أمير البصرة فقال إنى أرى العرب قد خالطت هذه الأعاجم وفسدت ألسنتها أفتأذن لى أن أضع للعرب ما يعرفون به كلامهم ، فقال له زياد لا تفعل ، قال فجاء رجل إلى زياد فقال أصلح الله الأمير توفى أبانا وترك بنونا ، فدعا زياد أبا الأسود وأمره بأن يضع ما كان نهاه عنه . وكان أبو الأسود يجلس لتعليم النحو والناس يختلفون إليه للأخذ منه وكان يزيد فيما وضعه وكان أعلم الناس بكلام العرب .

يحكى أن غلامًا كان يتعلم منه النحو ، فقال له يومًا ما فعل أبوك قال أخذته حمى فضخته فضخًا وطبخته طبخًا وفتخته فتخًا فتركته فرخًا ، قال فما فعلت امرأة أبيك التى كانت تشاره وتجاره وتضاره وتزاره وتهاره وتماره ، قال طلقها وتزوج غيرها فحظيت عنده ورضيت وبظيت ، قال وما بظيت يا ابن أخى ، قال حرف من العربية لم يبلغك ، قال لا خير لك فيما لم يبلغنى منها ومات أبو الأسود فى خلافة عبد الله ابن الزبير (سنة ٦٧) . وكان أخذ عنه النحو أناس نقلوه إلى آخرين وهؤلاء إلى غيرهم وزادوا فى الأصول وفرعوا وخالطوا غرب البوادى واستنبطوا علوم لغتهم من كلامهم ، فإن لغات الحضر كان عرض لها الاختلال ، وانقسم القوم فى بعض المسائل

إلى بصريين وهم أهل البصرة ، وكوفيين وهم سكان الكوفة ، مدينتان مشهورتان بالعراق العربي تسميان المصرين ، فاتسع الأدب فى هاتين المدينتين اتساعًا عظيمًا ، وتدونت فيهما كتب كثيرة وعنهما انتشر بين أهل العراق والأندلس والمغرب ومصر وغيرهم .

نحاة البصرة : فمن نحاة البصرة عنبسة بن معدان ، ويقال له عنبسة الفيل روى الشعر وتعلم النحو من أبى الأسود وكان أبرع أصحابه . ومنهم ميمون الأقرن أخذ عن أبى الأسود وعن عنبسة فرأس الناس وزاد فى الشرح . ومنهم عبد الله بن أبى إسحق الحضرمى أخذ عن ميمون وكان أعلم أهل البصرة وهو أول من علل النحو وقاسه ، وكان يرد كثيرًا على الفرزدق ، ويكلمه فى شعره ، فقال فيه الفرزدق :

فلو كان عبد الله مولى هجوته ولكن عبد الله مولى مواليا

فقال له ابن أبى إسحق ولقد لحنت أيضًا فى قولك مولى مواليا ، وكان ينبغى أن تقول مولى موال ، وتوفى بالبصرة سنة ١١٧ فى خلافة هشام بن عبد الملك . ومنهم أبو عمرو بن العلاء المازنى ، كان في عصر ابن أبى إسحق وكان أعلم الناس بالعربية والشعر ومذاهب العرب ، روى أنه سئل عن قوله تعالى "فعززنا بثالث" ، فقال المعنى شددنا وأنشد :

أجد إذا ضمرت تعزز لحمها وإذا يشد بنسعها لا تنبس[1]

ويروى عنه قال كنت هاربًا من الحجاج بن يوسف وكان يشتبه على لفظ (فرجة) هل هو بالفتح أو بالضم فسمعت قائلًا يقول :

ربما تجزع النفوس من الأمر له فرجة كحل العقل

بفتح الفاء من فرجة ، ثم قال إلا أنه قد مات الحجاج ، قال أبو عمرو فما أدرى بأيهما كنت أشد فرحًا بقوله (فرجة) أو بقوله (مات الحجاج) ، وتوفى أبو عمرو سنة ١٥٤ فى خلافة المنصور . ومنهم عيسى بن عمر الثقفى ، أخذ عن أبى عمرو ، وكان

عالمًا متفيقهًا يتقعر فى الكلام ويستعمل غريب الألفاظ ، ألف كتابين فى النحو أحدهما مبسوط سماه الجامع ، والآخر مختصر سماه المكمل ، وفيهما يقول الخليل :

بطل النحو الذى الفتمو غير ما ألف عيسى بن عمر

ذاك كمال وهذا جامع فهما للناس شمس وقمر

وتوفى سنة ١٤٩ فى خلافة المنصور . ومنهم يونس بن حبيب الضبى ، أخذ عن أبى عمرو ، وسمع من العرب ، وكان من أكابر النحويين له مذاهب وأقيسة تفرد بها ، وكان يقصد حلقاته بالبصرة طلبة العربية وفصحاء الأعراب والبادية ، وتوفى سنة ١٨٣ فى خلافة الرشيد . ومنهم أبو خطاب الأخفش ، أخذ عن أبى عمرو أيضًا ، وهو أول من فسر الشعر تحت كل بيت وما كان الناس يعرفون ذلك قبله وإنما كانوا إذا فرغوا من القصيدة فسروها . ومنهم الإمام الخليل بن أحمد ، أخذ عن أبى عمرو وعيسى بن عمر ، ولم يكن قبله ولا بعده مثله ، وكان أعلم الناس وأذكاهم وأفضلهم ، قالوا لم يكن للعرب بعد الصحابة أذكى من الخليل ولا أجمع ، ولا كان فى العجم أذكى من ابن المقفع ولا أجمع ، قال أبو عمرو التوجى اجتمعنا بمكة أدباء كل أفق فتذاكرنا أمر العلماء حتى جرى ذكر الخليل فلم يبق أحد إلا قال الخليل أذكى العرب ، وهو مفتاح العلوم ، وأبدع الخليل بدائع لم يسبق إليها كتآليفه اللغة فى كتاب العين واختراعه العروض ، توفى سنة ١٦٠ .

ومنهم ثلاثة كانوا فى عصر واحد ، وكانوا أئمة الناس فى النحو واللغة والشعر ، منهم أخذ جل مافى أيدى الناس من هذا العلم ، وهم : أبو زيد وأبو عبيدة والأصمعى ، وكلهم أخذوا عن أبى عمرو وعيسى بن عمر وأبى الخطاب الأخفش ويونس بن حبيب وعن جماعة من ثقات الأعراب وعلمائهم مثل أبى مالك وعمرو بن كركرة صاحب النوادر من بنى نمير . وأبو زيد الأنصارى كان أعلم الثلاثة بالنحو أخذ عنه أكابر الناس منهم سيبويه ، قال كان يأتى مجلسى سيبويه وله نؤابتان ، فإذا قال وحدثنى من أثق بعربيته يريدنى ، ويروى أن أعرابيًا وقف على حلقة أبى زيد ، فظن أبو زيد أنه قد جاء يسأل عن مسألة فى النحو ، فقال له سل يا أعرابى ، فقال له على البديهة :

لست للنحو جئتكم لا ولا فيه أرغب

أنا مالى ولا مرئ أبد الدهر يضرب

خل زيداً لشأنه أينما شاء يذهب
واستمع قول عاشق قد شجاه التطرب
همه الدهر طفلة فهو فيها يشبب

وكبر سن أبى زيد حتى قارب المائة ومات سنة ٢١٤ فى خلافة المأمون ، ومن مصنفاته كتاب النوادر فى اللغة وقد طبع فى عصرنا سنة ١٣١٤ . وأبو عبيدة كان أعلمهم بأيام العرب وأخبارهم وأنسابهم وهو أول من ألف غريب الحديث ، وأقدمه من البصرة إلى بغداد الوزير الفضل بن الربيع ، فلما حضر أنشده فطرب منه ، ثم دخل إبراهيم بن إسماعيل من كتاب الوزير فأجلسه بجانبه ، وسأله أتعرف هذا قال لا ، قال أبو عبيدة علامة أهل البصرة أقدمناه لنستفيد من علمه فبعد أن حياه استأذنه فى مسألة ، فقال هات ، قال : قال الله تعالى "طلعها كأنه رؤس الشياطين" ، وإنما يقع الوعد والإيعاد بما قد عرف مثله ، وهذا لم يعرف ، فأجابه بأن الله كلم العرب على قدر كلامهم ، أما سمعت قول امرئ القيس :

أيقتلنى والمشرفى مضاجعى ومسنونة زرق كأنياب أغوال

وهم لم يروا الغول قط ولكنهم لما كان أمر الغول يهولهم أوعدوا به ، فاستحسن ذلك الفضل وإبراهيم . وكان هذا سبباً فى أن يضع أبو عبيدة كتاباً فى مجاز القرآن ، وتوفى سنة ٢٠٧ . والأصمعى كان أتقن القوم باللغة وأعلمهم بالشعر وأحضرهم حفظاً ، وكان الرشيد يسميه شيطان الشعر ، قال الأخفش ما رأينا أحداً أعلم بالشعر من الأصمعى وخلف ، قيل له أيهما أعلم قال الأصمعى لأنه كان نحوياً ، وكان الإمام أحمد بن حنبل يقول إن الأصمعى ثقة فى السنة ، وقال الشافعى ما رأيت بذلك المعسكر أصدق من الأصمعى ، وتوفى سنة ٢١٣ فى خلافة المأمون ، ورثاه أبو العتاهية بقوله :

أسفت لفقد الأصمعى لقد مضى حميداً له فى كل صالحة سهم
نقضت بشاشات المجالس بعده وودعنا إذ ودع الأنس والعلم

وقد كان نجم العلم فينا حياته فلما انقضت أيامه أفل النجم

ومنهم حماد بن سلمة وأبو بشر عمرو المعروف بسيبويه والنضر بن شميل المازني وأبو محمد اليزيدي وكلهم أخذوا عن الخليل وغيره . وكان سيبويه أعلم الجميع بالنحو ، يروى أن سبب قراءته النحو أنه جاء إلى حماد بن سلمة لكتابة الحديث ، فاستملى منه قوله عليه الصلاة والسلام "ليس من أصحابي أحد إلا ولو شئت لأخذت عليه ليس أبا الدرداء" ، يعني لعتبت عليه إلا أبا الدرداء ، فقال سيبويه ليس أبو الدرداء ، فصاح به حماد لحنت يا سيبويه إنما هذا استثناء ، فقال والله لأطلبن علماً لا يلحنني معه أحد ثم مضى ، وأخذ النحو عن الخليل وغيره حتى برع فيه وفاق ، وألف كتابه المشهور وكان يطلق عليه بالبصرة اسم "الكتاب" فقط لشهرته ومكانته ، وقد اطلعت على نسخة منه بالمكتبة الخديوية مطبوعة بمدينة باريس سنة ١٨٨١ بعد الميلاد [٢] فرأيته ٥٧١ باباً منها في المبدأ : (١) هذا باب علم ما الكلم من العربية ، (٢) هذا باب مجاري أواخر الكلم من العربية ، (٣) هذا باب المسند والمسند إليه ، (٤) هذا باب اللفظ للمعاني ، (٥) هذا باب ما يكون في اللفظ من الأعراض ، ومنها في الآخر : (٥٦٧) هذا باب الإدغام في الحروف المتقاربة ، (٥٦٨) هذا باب الإدغام في حروف طرف اللسان والثنايا ، (٥٦٩) هذا باب الحرف الذي يضارع به حرف من موضعه والحرف الذي لا يضارع به ذلك الحرف وليس من موضعه ، (٥٧٠) هذا باب ما تقلب فيه السين صاداً في بعض اللغات ، (٥٧١) هذا باب ما كان شاذاً مما خففوا على ألسنتهم وليس ذلك بمطرد . وليتعرف المطلع لسان المتقدمين في تآليفهم وسيرهم فيها ذكرت هنا بعض تراجم هذه الأبواب ، وأذكر نص باب من أصاغرها وهو "هذا باب اللفظ للمعاني" : "اعلم أن من كلامهم اختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين ، واختلاف اللفظين والمعنى واحد ، واتفاق اللفظين واختلاف المعنيين ، وسترى ذلك إن شاء الله تعالى ، فاختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين هو نحو جلس وذهب ، واختلاف اللفظين والمعنى واحد نحو ذهب وانطلق ، واتفاق اللفظين والمعنى مختلف نحو وجدت عليه من الموجدة ووجدت إذا أردت وجدان الضالة وأشباه هذا كثير" . وتوفي سنة ١٨٠ .

ويحكى أن النضر بن شميل كان بمجلس المأمون فسأله عن الفرق بين السداد بالفتح والسداد بالكسر فقال السداد بالفتح القصد فى الدين والسبيل والسداد بالكسر البلغة ، وكل ما سددت به شيئًا ، قال له أو تعرف العرب ذلك فأجاب نعم وأنشد قول العرجي :

أضاعونى وأى فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

ويحكى أن النضر لما مرض عاده رجل يكنى أبا صالح ، فقال له مسح الله ما بك ، فقال لا تقل (مسح) بل قل (مصح) أى أذهبه الله وفرقه أما سمعت قول الشاعر :

وإذا الخمرة فيها أزبدت أقل الإزباد فيها ومصح

فقال أبو صالح أن السين تبدل من الصاد ، كما يقال الصراط والسراط وصقر وسقر ، فقال له أنت إذًا أبو سالح ، وتوفى النضر سنة ٢٠٣ . وكان أبو محمد اليزيدى يصحب يزيد بن منصور خال المهدى يؤدب ولده فنسب إليه ثم اتصل بالرشيد فجعله مؤدب المأمون ، ويروى أن المأمون سأله يومًا عن شيء فقال لا وجعلنى الله فداءك فاستحسن منه زيادة الواو فى هذا الموضع ، ووصله بعطية سنية ، وألف اليزيدي كتاب النوادر فى اللغة وكتاب المقصور والممدود ومختصراً فى النحو وكتاب النقط والشكل ، وتوفى سنة ٢٠٢ .

ومنهم قطرب ومحمد بن سلام ، والأول أخذ عن يونس بن حبيب ، وفى الطبقات أنه أخذ النحو عن سيبويه وهو الذى سماه قطرباً لأنه كان يراه بالأسحار على بابه ، فيقول له إنما أنت قطرب ليل ، والقطرب نويبة تدب ولا تفتر ، واسمه محمد بن المستنير ، وله من التصانيف كتاب معانى القرآن وكتاب غريب الحديث وكتاب الصفات وكتاب الأصوات وكتاب الاشتقاق وكتاب النوادر وكتاب الأضداد وكتاب خلق الإنسان وكتاب فعل وأفعل وكتاب القوافى وكتاب الأزمنة وكتاب المثلث وكتاب العلل فى النحو ، وتوفى سنة ٢٠٦ فى خلافة المأمون . وأما محمد بن سلام فأخذ عن يونس وغيره ، وفى الطبقات أنه أخذ عن حماد بن سلمة وأنه ألف كتاباً فى طبقات الشعراء ، وروى عنه الإمام أحمد بن حنبل وأبو العباس ثعلب ، وتوفى سنة ٢٣٢ .

ومنهم أبو الحسن سعيد الأخفش ، وكان أعلم من أخذ عن سيبويه وكان أكبر منه ، وهو الذى زاد فى العروض بحر الخبب كما سبق ، وفى الطبقات : "أن مروان بن سعيد المهلبي سأل الأخفش عن قوله تعالى : "فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان" ، ما الفائدة من هذا الخبر ، قال أفاد العدد المجرد من الصفة ، وأراد مروان بسؤاله أن الألف فى كانتا تفيد التثنية فلم فسر ضمير المثنى بالاثنتين مع أنه لا يجوز أن يقال ، فإن كانتا ثلاثًا أو خمسًا ، وأراد الأخفش أنه كان يجوز أن يقال فإن كانتا صغيرتين فلهما كذا ، وان كانتا كبيرتين فلهما كذا ونحو ذلك ، فلما قال فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان أفاد الخبر أن فرض الثلثين تعلق بمجرد كونهما اثنين فقط فقد حصل من الخبر فائدة لم يحصل من ضمير المثنى" (*) . وله كتاب الأوسط وكتاب المقاييس فى النحو وكتاب الاشتقاق وكتاب العروض وكتاب القوافي وكتاب معانى الشعر وكتاب الملوك وكتاب الأصوات وغير ذلك ، وتوفى سنة ٢١٥ وقيل سنة ٢٢١ . ومنهم أبو عمر وصالح الجرمى ، كان فقيهًا عالمًا بالنحو واللغة ، وأخذ النحو عن الأخفش وغيره ، واللغة عن أبى عبيدة وأبى زيد والأصمعى ، قدم من البصرة إلى بغداد وناظر الفراء ، قال المبرد كان الجرمي أثبت القوم فى كتاب سيبويه وعليه قرأت الجماعة ، وله كتاب فى السير عجيب وكتاب الأبنية وكتاب العروض ومختصر فى النحو وكتاب غريب سيبويه ، توفى سنة ٢٢٥ . ومنهم أبو عثمان بكر المازنى ، كان إمام عصره فى النحو والأدب أخذ عن أبى عبيدة والأصمعى وأبى زيد وأخذ عنه أبو العباس المبرد ، وروى عنه المبرد أن بعض أهل الذمة قصده ليقرأ عليه كتاب سيبويه ، وبذل له مائة دينار فامتنع ، قال فقلت له جعلت فداك أترد هذه المنفعة مع فاقتك ، فقال له إن هذا الكتاب يشتمل على ثلثمائة وكذا آية من كتاب الله ولست أرى أن أمكن منها ذميًا ، قال فاتفق أن غنت جارية بحضرة الواثق بقول العرجي :

أظلوم إن مصابكم رجلا ... أهدى السلام تحية ظلم

فاختلف من كان بالحضرة فى إعراب (رجلاً) فمنهم من نصبه وجعله اسم إن ، ومنهم من رفعه على أنه خبرها ، والجارية مصرة على أن شيخها أبا عثمان المازنى

(*) لم يرد التنصيص فى الأصل (المحرر) .

لقنها إياه بالنصب فأمر الواثق بإشخاصه ، فلما حضر مجلسه سأله عن ذلك . فقال إنه منصوب على أنه مفعول لمصابكم فإنه مصدر بمعنى أصابتكم فعارضه اليزيدى ، فقال له إنه بمنزلة إن ضربك زيداً ظلم ، والدليل عليه إن الكلام معلق إلى أن تقوم (ظلم) فيتم ، فاستحسنه الواثق وأمر له بألف دينار ، قال فلما عاد إلى البصرة قال لى كيف رأيت يا أبا العباس رددنا لله مائة فعوضنا ألفًا ، وتوفى المازنى سنة ٢٤٦ بالبصرة .

ومنهم أبو عثمان عمرو الجاحظ ، كان عالمًا أديبًا متفننًا لكنه كان مشوه الصورة ، ومن أخباره أنه قال ذكرت للمتوكل لتأديب بعض أولاده فلما رآنى استبشع منظرى فأمر لى بعشرة آلاف درهم وصرفنى . وروى أنه كان يأكل مع ابن الزيات فجاؤا بفالوذجة فأسرع الجاحظ في الأكل حتى خلا ما بين يديه ، فقال له ابن الزيات تقشعت سماؤك قبل سماء الناس ، فقال الجاحظ لأن غيمها كان رقيقًا . ومن أحسن تصانيفه كتاب الحيوان والبيان والتبيين وقد طبع هذا سنة ١٣١٣ فى مصر . قال أبو القاسم السيرافي حضرنا مجلس الأستاذ ابن العميد الوزير فجرى ذكر الجاحظ فغض منه بعض الحاضرين وأزرى به ، وسكت الوزير عنه فلما خرج الرجل قلت سكت أيها الوزير عن هذا الرجل فى قوله مع عادتك فى الرد على أمثاله ، فقال لم أجد فى مقابلته أبلغ من تركه على جهله ولو وافقته وبينت له لنظر فى كتبه وصار بذلك إنسانًا يا أبا القاسم ، فكتب الجاحظ تعلم العقل أولًا والأدب ثانيًا ولم أستصلحه لذلك . وكان الجاحظ من أئمة المعتزلة وكان ابن أبى داود يقول أنا أثق بظرفه ولا أثق بدينه . وروى المبرد قال دخلت على الجاحظ فى آخر أيامه وهو عليل فقلت له كيف أنت فقال كيف يكون من نصفه مفلوج ولو نشر بالمناشير لما أحس به ونصفه الآخر منقرس لو طار الذباب بقربه لآلمه وقد جزت التسعين وأنشد :

أترجـــو أن تكون وأنت شـــيخ   كـمـــا قـــد كنت أيام الشـبـــاب
لقـــد كـــذبت نفـــسك لـيس ثوب   خليـق كـــالجـــديد من الـثـيـــاب

وتوفى سنة ٢٥٥ بالبصرة . ومنهم أبو العباس المبرد نزيل بغداد . كان إمامًا فى النحو واللغة أخذ عن المازنى وغيره وأخذ عنه نفطويه وغيره ، وكان حسن المحاضرة

مليح الأخبار كثير النوادر وكان هو وأبو العباس ثعلب الكوفى عالمين متناظرين قد ختم بها تاريخ الأدباء ، ويروى أن المبرد قال حين بلغه أن ثعلباً تكلم فيه بما لا ينبغى :

رب من يعنيه حالى وهو لا يجرى ببالى
قلبه مـلآن منى وفؤادى منه خالى

فلما بلغ ثعلبًا ذلك انتهى عن الكلام فى المبرد . وللمبرد تآليف فى الأدب منها كتاب الكامل وقد طبع طبعًا حسنًا فى مصر بالمطبعة الخيرية سنة ١٣٠٨ بعد الهجرة ، ولما توفى سنة ٢٨٥ فى خلافة المعتضد نظم فيه وفى ثعلب ابن العلاف :

ذهب المبرد وانقضت أيامه وليذهبن أثر المبرد ثعلب
بيت من الآداب أضحى نصفه خربًا وباقى النصف منه سيخرب
فابكوا لما سلب الزمان ووطنوا للدهر أنفسكم على ما يسلب
وتزودوا من ثعلب فبكأس ما شرب المبرد عن قريب يشرب
وأرى لكم أن تكتبوا أنفاسه إن كانت الأنفاس مما يكتب

ومنهم أبو بكر محمد المعروف بابن دريد ، ولد بالبصرة سنة ٢٢٣ ، ونشأ بها وأخذ عن علمائها ، ثم انتقل إلى عمان وسكن بها ثم عاد إلى البصرة ثم خرج إلى فارس وانتقل إلى بغداد وأقام بها إلى حين وفاته سنة ٣٢١ ، فعمره يقرب من المائة وكان إمام عصره فى اللغة والأدب والشعر . قال المسعودى فى مروج الذهب وكان ابن دريد فى بغداد ممن برع فى زماننا فى الشعر واللغة وقام مقام الخليل وأورد أشياء فى اللغة لم توجد فى كتب المتقدمين ؛ وكان يذهب بالشعر كل مذهب ، فمن جيد شعره قصيدته المشهورة بالمقصورة التى مدح بها الشاه بن ميكال

وولديه وأولها :

أمـــا ترى رأسى حـــاكى لـونه	طرة صـــبح تحت أذيال الـدجى
المبـــيض فـى مـــســـوده	مثل اشتعال النار فى جمر الغضـا

وله من المؤلفات المشهورة كتاب الجمهرة فى اللغة ، وقد تقدم الكلام عليه وله كتاب الاشتقاق وكتاب السرج واللجام وكتاب زوار العرب وكتاب اللغات وكتاب السلاح وغير ذلك .

نحاة الكوفة وأدباؤها : من نحاة الكوفة وأدبائها معاذ بن مسلم الهراء أستاذ الكسائى ، وهو أول من وضع التصريف ولكن لم يظهر له مصنف وكان صديق الكميت الشاعر ، وقد عاش زمنًا طويلًا يتجاوز المائة فإنه على الصحيح ولد فى أيام عبد الملك المتوفى سنة ٨٦ ، وتوفى سنة نكبة البرامكة أى سنة ١٨٧ ، وفى هذا قال سهل الشاعر قصيدة منها :

إن مـــعـــاذ بن مـــسلم رجل	ليس لميـقـــات عـــمـــره أمـــد
قد شاب رأس الزمان واكتهل الدهر	وأثواب عـــمـــره جـــدد قـــد
قـل لمعـــاذ إذا مـــررت بـــه	قـد ضج من طول عـمـرك الأمـد

ومنهم أبو جعفر محمد الرؤاسى وهو ابن أخى معاذ الهراء ، وهو أول من وضع من الكوفيين كتابًا فى النحو سماه الفيصل ، وأخذ عنه الكسائى أيضًا . ومنهم أبو الحسن على بن حمزة الكسائى ، وهو عالم أهل الكوفة كان إمامًا فى النحو واللغة والقراءات ، والسبب فى تعلمه النحو أنه قال مرة (عييت) بعد أن مشى طويلًا فرد عليه بإن الصواب أن تقول (أعييت) من التعب و (عييت) من الحيرة فى الأمر ، فأنف من ذلك وأخذ يتعلم على معاذ بن مسلم الهراء ، ثم ذهب إلى البصرة وأخذ عن الخليل ، ثم ذهب إلى البوادى وسمع من العرب ثم عاد إلى بغداد ، وجاء سيبويه من البصرة إلى بغداد وكان الكسائى يعلم الأمين بن هارون الرشيد ، فجمع بينهما وتناظرا ، وزعم الكسائى أن العرب تقول كنت أظن الزنبور أشد لسعًا من النحلة فإذا هو إياها . فقال

سيبويه ليس المثل كذا بل فإذا هو هي ، وتجادلا طويلًا واتفقا على مراجعة عربى خالص لا يشوب كلامه شيء من كلام أهل الحضر ، فأحضروا عربيًا فوافق الكسائى بإيعاذ من الأمين مع أن الحق مع سيبويه ، وتوفى الكسائي سنة ١٨٩ . ومنهم أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء ، كان أبرع الكوفيين وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب أخذ عن الكسائى ، وورد بغداد فى خلافة المأمون وعلم ولديه وأمره أن يؤلف كتابًا يجمع فيه أصول النحو وما سمع من العربية ، فصنف كتاب الحدود فى سنتين ، قال ابن الأنبارى لو لم يكن لأهل بغداد والكوفة من علماء العربية إلا الكسائى والفراء لكان لهم الافتخار إذ انتهت العلوم إليهما ، وتوفى الفراء سنة ٢٠٧ فى خلافة المأمون . ومنهم أبو عبد الله محمد المعروف بابن الأعرابى ، كان صاحب لغة أخذ الأدب عن الكسائى وغيره وأخذ عنه أبو العباس ثعلب وابن السكيت ، وكان يناقش العلماء ويستدرك عليهم ويخطئ كثيراً من نقله اللغة ، وكان يزعم أن أبا عبيدة والأصمعى لا يحسنان شيئًا وكان يقول جائز فى كلام العرب أن يعاقبوا بين الضاد والظاء فلا يخطئ من يجعل هذه فى موضع تلك ، وينشد :

إلى الله أشكو من خليل أوده ثلاث خلال كلها لى غائض

بالضاد ، ويقول هكذا سمعته من فصحاء العرب ، وكان يحضر مجلسه كثير من المستفيدين ، وله مصنفات كثيرة منها كتاب النوادر وكتاب الأنواء وكتاب تاريخ القبائل وكتاب معانى الشعر وكتاب تفسير الأمثال وكتاب الألفاظ ولد فى السنة التى توفى فيها الإمام أبو حنيفة أى سنة ١٥٠ وتوفى سنة ٢٣١ . ومنهم أبو طالب المفضل بن سلمة الضبى ، كان فاضلًا فى الأدب أخذ عن ابن الأعرابى وغيره ، واستدرك على الخليل في كتاب العين ، وصنف فى ذلك كتابًا ، ومن تصانيفه كتاب التاريخ فى علم اللغة وكتاب المفاخر وكتاب العود والملاهي وكتاب المقصور والممدود وكتاب المدخل فى علم النحو ، وروى عنه أبو بكر الصولى وزعم له أنه سمع منه سنة ٢٩٠ (انتهى من ابن خلكان فى ترجمة أبى الطيب محمد الضبى) . والمفضل الضبى هذا غير "أبى عبد الرحمن المفضل بن محمد الضبى" ، الذى جمع للمهدى أشعاراً اختارها سماها بالمفضليات وتزيد وتنقص وأصحها التى رواها عنه ابن الأعرابى ، فابن الأعرابى

متوسط بين المفضلين ناقل الأدب من هذا إلى ذاك . ومنهم أبو العباس ثعلب ، كان إمام الكوفيين فى النحو واللغة فى زمانه ، أخذ عن ابن الأعرابى وغيره وأخذ عنه أبو الحسن على الأخفش وابن عرفة وابن الأنبارى وغيرهم ، وكان المبرد يقول أعلم الكوفيين ثعلب ، حكى ثعلب عن العرب راكب الناقة طلحيان أى راكب الناقة والناقة طلحيان إلا أنه حذف المعطوف لتقدم ذكر الناقة ، ومن تصانيفه كتاب الفصيح وهو صغير الحجم كثير الفائدة وقد طبع فى مطبعة وادى النيل بالقاهرة سنة ١٢٨٥ ، وتوفى ثعلب ببغداد سنة ٢٩١ .

من اشتهر بالأدب فى بغداد : وكان كثير من علماء المصريين ينتقلون إلى بغداد ويسكنونها كما علمت ، وممن اشتهر بالأدب فى بغداد غير من سلفوا يعقوب بن السكيت ، كان يؤدب أولاد الخليفة المتوكل ، وكتبه جيدة صحيحة منها اصلاح المنطق ويوجد بالمكتبة الخديوية ، وكتاب الألفاظ وقد طبع فى سنة ١٣١٤ ، وكتاب في معانى الشعر وكتاب القلب والإبدال . قال أبو الحسن الطوسى : كنا فى مجلس أبى الحسن على اللحيانى وكان عازمًا على أن يملى نوادره ، فقال تقول العرب مثقل استعان بذقنه ، فقال له ابن السكيت وهو حدث إنما هو مثقل استعان بدفيه يريدون الجمل إذا نهض استعان بجنبيه فقطع الإملاء ، فلما كان المجلس الثانى أملى فقال تقول العرب هو جارى مكاشرى ، فقال له ابن السكيت وما معنى مكاشرى إنما هو مكاسرى كسر بيتى إلى كسر بيته فما أملي اللحيانى بعد ذلك ، ومات ابن السكيت ببغداد سنة ٢٤٤ . وأبو محمد عبد الله بن مسلم الدينورى المعروف بابن قتيبة ، ولد سنة ٢١٣ ببغداد ، وقيل بالكوفة وأقام بالدينور مدة قاضيًا فنسب إليها ثم سكن بغداد وكان فاضلًا ثقة فى النحو واللغة والشعر متفننًا فى العلوم ، وله من التصانيف كتاب أدب الكاتب وكتاب المعارف وكتاب طبقات الشعراء وكتاب الميسر والقداح وغير ذلك ، وأقرأ كتبه ببغداد ، ويقال إنه ألف كتاب أدب الكاتب لأبى الحسن وزير المعتمد وقد طبع فى مصر سنة ١٣٠٠ بمطبعة الوطن وقد شرحه البطليوسى ، وتوفى ابن قتيبة سنة ٢٧٦ . وأبو إسحق الزجاج كان عالمًا ماهرًا فى الأدب أخذ عن المبرد وثعلب وأخذ عنه أبو على الفارسى ، ومن مصنفاته كتاب الأمالى وكتاب الاشتقاق وكتاب العروض وكتاب القوافى وكتاب مختصر فى النحو وكتاب فعلت وأفعلت وكتاب ما ينصرف ومالا

ينصرف وكتاب شرح أبيات سيبويه وكتاب النوادر ، وتوفى سنة ٢١٦ ببغداد . وأبو بكر محمد بن السراج كان إمامًا جليلًا فى النحو والأدب أخذ عن المبرد وغيره وأخذ عنه أبو سعيد السيرافي ونقل عنه الجوهرى فى صحاحه ، ومن مصنفاته المشهورة كتاب الأصول فى علم العربية وكتاب جمل الأصول وكتاب الاشتقاق وشرح كتاب سيبويه وكتاب الشعر والشعراء ، وتوفى سنة ٢١٦ . وأبو عبد الله إبرهيم نفطويه النحوى ولد بواسط وسكن بغداد ، وتوفى بها سنة ٣٢٣ ، وكان يتبع طريقة سيبويه ويدرس كتابه . وأبو بكر محمد بن الأنبارى أخذ عن ثعلب ، وكان علامة وقته فى الأدب ، وله مصنفات منها كتاب الكافي فى النحو وكتاب الأضداد وكتاب الجاهليات وكتاب المذكر والمؤنث وشرح المفضليات والسبع الطوال ، وتوفى سنة ٣٢٧ . وأبو القاسم عبد الرحمن الزجاجي نشأ ببغداد وأخذ النحو عن أبى بكر بن الأنبارى وغيره وصحب أبا إسحق الزجاج فنسب إليه ، وصنف كتابه المشهور بالجمل وانتفع به ناس كثيرون ، وانتقل إلى دمشق وسكنها وتوفي بها سنة ٣٣٧ . وأبو محمد عبد الله بن درستويه أخذ الأدب عن المبرد وابن قتيبة وغيرهما ببغداد وأخذ عنه جماعة من الأفاضل كالدارقطنى ، وله مصنفات كثيرة منها كتاب المقصور والممدود وكتاب معانى الشعر وكتاب الإرشاد فى النحو وكتاب الهجاء وكتاب أخبار النحويين ، وتوفى ببغداد سنة ٣٤٧ فى خلافة المطيع . وأبو على حسن الفارسى ولد بمدينة فسا ثم انتقل إلى بغداد سنة ٣٠٧ ، وأخذ عن الزجاج وغيره حتى برع فى النحو ، ثم أقام بحلب عند سيف الدولة ابن حمدان ، وكان بينه وبين المتنبى مجالس ، ثم انتقل إلى فارس وصحب عضد الدولة بن بويه وقد علت منزلته عنده حتى قال أنا غلام أبى على الفسوى فى النحو ، وصنف له كتاب الإيضاح والتكملة فى النحو وله تصانيف كثيرة غير ذلك ، وتوفى سنة ٣٧٧ ببغداد . وأبو سعيد الحسن السيرافى تولى قضاء بغداد ، وكان من أعلم الناس بنحو البصريين ، شرح كتاب سيبويه وله كتاب ألفات الوصل والقطع وكتاب أخبار النحويين وكتاب صنعة الشعر والبلاغة وشرح مقصورة ابن دريد ، وأخذ اللغة عنه والنحو عن أبى بكر بن السراج ، وكان بينه وبين أبى الفرج الأصبهانى صاحب الأغانى تنافس فقال فيه هذا :

لست صدراً ولا قرأت على صد ... ر ولا علمك البكى بشاف

لعن الله كل نحو وشعر ... وعروض يجىء من سيراف

وتوفى السيرافى سنة ٣٦٠ ببغداد .

واشتهر من الموصل : أبو الفتح عثمان بن جنى أخذ الأدب عن أبى على الفارسى ، وكان إمامًا فى العربية ، وله مصنفات كثيرة منها كتاب الخصائص وسر الصناعة والتلقين فى النحو وشرح ديوان المتنبى ، وكان قد قرأه على صاحبه ، قال ابن خلكان : ورأيت فى شرحه قال سأل شخص أبا الطيب المتنبى عن قوله : "باد هواك صبرت أم لم تصبرا" ، فقال كيف أثبت الألف فى "تصبرا" مع وجود لم الجازمة ، وكان الواجب أن نقول لم تصبر ، فقال المتنبى لو كان أبو الفتح هنا لأجابك بعينى وهذه الألف هى بدل من نون التوكيد الخفيفة كان فى الأصل لم تصبرن ونون التوكيد الخفيفة إذا وقف الإنسان عليها أبدل منها ألفًا ، قال الأعشى : "ولا تعبد الشيطان والله فاعبدا" ، وكان الأصل فاعبدن فلما وقف أتى بالألف بدلًا من النون ، وتوفى ابن جنى ببغداد سنة ٣٩٢ . وكان فى عصر ابن جنى على بن عيسى الربعى ، أخذ فى بغداد عن أبى سعيد السيرافى ، ثم خرج إلى شيراز وأخذ عن أبى على الفارسى ، ثم عاد إلى بغداد وشرح كتاب الإيضاح لأبى على وكتاب الجرمى ، وصنف كتاب البديع فى النحو ، وتوفى سنة ٤٢٠ فى بغداد .

واشتهر فى هذا العصر بالأندلس : أبو الحجاج يوسف المعروف بالأعلم ، من أهل شنتمرية الغرب ، رحل إلى قرطبة سنة ٤٣٣ وأقام بها مدة وأخذ عن علمائها ، وشرح الجمل فى النحو لأبى القاسم الزجاجى ، وشرح كتاب أبيات الجمل فى كتاب مفرد ، وتوفى سنة ٤٧٦ بمدينة إشبيلية من جزيرة الأندلس .

واشتهر من المعرة أبو العلاء أحمد المعرى ، كان إمامًا واسع الأدب متفننًا ، قرأ النحو واللغة على أبيه بالمعرة ثم على محمد بن عبد الله النحوى بحلب ، وقرأ عليه أبو القاسم على التنوخى والخطيب التبريزى ، وتصانيفه مشهورة منها ديوان سقط الزند وشرحه ضوء السقط وكتاب اللامع فى شرح شعر المتنبى ، ولهذا كان يقول وهو أعمى كأن المتنبى ينظر إلى بلحظ الغيب حيث يقول :

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى وأسمعت كلماتى من به صمم

وديوان لزوم ما لا يلزم ومنه :

لا تطلبن بآله لك رتبة   قلم البليغ بغير حد مغزل
سكن السما كان السماء كلاهما   هذا له رمح وهذا أعزل

واختصر ديوان أبى تمام وشرحه وسماه ذكرى حبيب ، وديوان البحترى وسماه عبث الوليد ، وديوان المتنبى وسماه معجز أحمد ، ومكث مدة خمس وأربعين سنة لا يأكل اللحم كى لا يذبح الحيوان فيؤلمه ، والآن توجد طائفة بأوربا ترى رأى أبى العلاء وتقتصر على أكل النبات ، ودخل بغداد سنة ٤٩٨ ، ثم عاد إلى المعرة وتوفى بها سنة ٤٩٩ ، أوصى بأن يكتب على قبره :

هذا جناه أبى علىَّ وما جنيت على أحد

واشتهر من تبريز يحيى الخطيب التبريزى ، وأخذ عن أبى العلاء وأبى محمد الدهان ، ودرس الأدب بالمدرسة النظامية ببغداد ، وله شعر حسن ومن تصانيفه كتاب إعراب القرآن وكتاب الكافى فى علمى العروض والقوافى وشرح اللمع لابن جني وشرح الحماسة وديوان المتنبي والمعلقات والمفضليات والمقصورة لابن دريد وسقط الزند وأخذ عنه أبو منصور موهوب الجواليقى وتوفى سنة ٥٠٢ ببغداد . وكان فى هذا العصر أبو محمد القاسم الحريرى البصرى ، وكان أديبًا فاضلًا نحويًا منشئًا ، ومن مصنفاته درة الغواص فى أوهام الخواص وملحة الإعراب وشرحها والمقامات المشهورة وجاء بها إلى بغداد وادعاها فلم يصدقه أدباؤها . وهذه المصنفات مطبوعة ومشهورة وكان يقول نقلًا عن شيخه إذا قت ما أسود زيداً وما أسمر عمراً وما أصفر هذا الطائر وما أبيض هذه الحمامة وما أحمر هذه الفرس فسدت كل مسألة منها من وجه وصحت من وجه ، فيفسد جميعها إذا أردت التعجب من الألوان وتصح جميعها إذا أردت التعجب من سود زيد وسمر عمرو وهو الحديث بالليل خاصة ومن صفير الطائر وكثرة بيض الحمامة ومن حمر الفرس وهو أن ينتن فوها ومن شعره :

ولما تعــامى الدهر وهـو أبو الورى عن الرشـد فى أنحـائه ومـقـاصـده

تعاميت حـتى قيل إنى أخـو العمى ولا غرو أن يحذو الفتى حذو والده

وتوفى سنة ٥١٦ ببنى حرام من البصرة .

واشتهر من نيسابور أبو الفضل أحمد الميدانى ، صاحب كتاب الأمثال المشهورة وكتاب نزهة الطرف فى علم الصرف ، وهما مطبوعان وله مؤلفات حسنة غير ذلك ، وكان ينشد كثيراً :

تنفس صبح الشيب فى ليل عارضى فـقـلت عـســاه يكتـفى بـعـذارى

فلمـا فـشـا عاتـبتـــه فـأجـــابنى أيا هل ترى صـبـحًـا بغـيـر نهـــار

وتوفى سنة ٥١٨ بنيسابور . واشتهر من هراة إحدى مدن خراسان أبو سعد آدم بن أسد ، وكان أديبًا فاضلًا ورد بغداد حاجًا سنة ٥٢٠ وقرئ عليه الحديث والأدب ، وجرى بينه وبين أبى منصور الجواليقي ببغداد نوع منافرة فى شىء اختلفا فيه ، فقال الهروى للجواليقى أنت لا تحسن أن تنسب نفسك فإن الجواليقى نسبه إلى الجمع والنسبة إلى الجمع بلفظة لا تصح ، وفى طبقات الأنبارى أن هذا مغالطة فإن لفظ الجمع إذا سمى به جاز أن ينسب إليه كمدائنى وأنمارى ، وتوفى سنة ٥٣٦ . واشتهر من زمخشر إحدى قرى خوارزم أبو القاسم محمود الزمخشرى ، وكان إمام عصره فى الأدب وله تصانيف جليلة تدل على علو منزلته ، وإن لا يدرك شأوه منها الكشاف فى تفسير القرآن الكريم والفائق فى تفسير الحديث وأساس البلاغة فى اللغة والمفصل والأنموذج فى النحو والمستقصى فى أمثال العرب والقسطاس فى العروض وديوان الرسائل وديوان الشعر وكتاب أسماء الأودية والجبال وغير ذلك وقدم بغداد للحج وجاور بمكة زمانًا فلذا يقال له جار الله وتوفى سنة ٥٣٨ بجرجانية خوارزم بعد رجوعه من مكة .

ومن مفاخر بغداد فى هذا العصر أبو منصور موهوب الجواليقى وهبة الله بن الشجرى وأبو محمد سعيد المعروف بابن الدهان ، فالأول كان إمامًا فى فنون الأدب

أخذ عن الخطيب التبريزى وصنف للإمام المقتفى كتاباً لطيفاً فى العروض وألف شرح أدب الكاتب والمعرب وتتمة درة الغواص للحريرى وسماها التكملة فيما يلحن فيه العامة ، وكان فى اللغة أمثل منه فى النحو وتوفى سنة ٥٣٩ ببغداد . والثانى كان إماماً فى النحو واللغة وأشعار العرب وأيامها وله كتاب الآمالى فى فنون الأدب وكتاب سماه الحماسة ضاهى به حماسة أبى تمام وتصانيف فى النحو ، حكى عن المبرد فى بناء حذام أنه اجتمع فيه ثلاث علل التعريف والتأنيث والعدل فبعلتين يجب منع الصرف وبالثالثة يجب البناء ، وتقابل ابن الشجرى والزمخشرى ببغداد وتوفى سنة ٥٤٢ ببغداد . والثالث كان سيبويه عصره ومن تصانيفه المفيدة فى الأدب شرح الإيضاح والتكملة وشرح اللمع لابن جنى وسماه الغرة وكتاب العروض وكتاب الدروس فى النحو وكتاب الرسالة السعيدية فى المآخذ الكندية يشتمل على سرقات المتنبي والعقود فى المقصور والممدود والغنية فى الأضداد وانتقل من بغداد إلى الموصل وكانت كتبه قد تخلفت ببغداد فاستولى الغرق تلك السنة على البلد فسير من يحضرها إليه فوجدها قد غرقت ولما حملت إليه على تلك الصورة بخرها باللاذن لتظهر كتابتها ، فعمى من ذلك وأخذ عنه خلق كثير بالموصل وتوفى سنة ٥٦٩ . واشتهر من الأنبار وهى قرية قديمة على الفرات على عشرة فراسخ من بغداد عبد الرحمن بن محمد الأنبارى ، سكن بغداد وأخذ عن الجواليقى وابن الشجرى وتفقه بالمدرسة النظامية وتصدر لإقراء النحو بها وتبحر فى علم الأدب ، وأخذ عنه علماء كثيرون ، وله فى النحو كتاب أسرار العربية وكتاب الميزان وكتاب طبقات الأدباء ، وقد اقتطفت منه ومن ابن خلكان ما أنا بصدده الآن ولم يزل مشتغلًا بالعلم حتى مات سنة ٥٧٧ ببغداد .

واشتهر بالأندلس أيضاً أبو الحسن على المعروف بابن خروف الإشبيلى ، تخرج على ابن طاهر النحوى الأندلسى وشرح كتاب سيبويه وكتاب الجمل لأبى القاسم الزجاجى ، وتوفى سنة ٦١٠ بإشبيليه . واشتهر من حلب أبو البقاء يعيش بن على بن يعيش المعروف بابن الصائغ ، كان عالمًا ماهراً فى النحو والصرف ، واجتمع فى دمشق بالشيخ أبى اليمن زيد الكندى وسأله عن مواضع مشكلة فى العربية وعن إعراب قول الحريرى فى المقامة العاشرة "حتى إذا لألأ الأفق ذنب السرحان وآن انبلاج الفجر وحان" ، فاستبهم الجواب على الكندى هل الأفق وذنب مرفوعان أو منصوبان أو

أحدهما مرفوع والآخر منصوب ، قالوا ويجوز فى ذلك أربعة أوجه والمختار منها نصب الأفق ورفع ذنب . قال ابن خلكان ولما وصلت حلب سنة ٦٢٦ للاشتغال بالعلم وهى إذ ذاك أم البلاد مشحونة بالعلماء والمشتغلين وكان ابن الصائغ شيخ الجماعة فى الأدب قرأت عليه ، وابتدأت بقراءة اللمع لابن جنى عليه ، وكان حسن التفهيم لطيف الكلام خفيف الروح ظريف الشمائل كثير المجون مع سكنية ووقار ، وشرح كتاب المفصل للزمخشرى وتصريف الملوكى لابن جنى ، وتوفى بحلب سنة ٦٤٣ .

واشتهر بالقاهرة أبو عمرو عثمان المعروف بابن الحاجب ، تخرج بها وبرع فى علوم العربية وغيرها ثم انتقل إلى دمشق ودرس بجامعها . قال ابن خلكان : "وقد سألته عن موضع فى العربية مشكلة فأجاب أبلغ إجابة ، ومن جملة ذلك أن سألته فى بيت المتنبى :

لقد تصبرت حتى لات مصطبرٍ   فالآن أقحم حتى لات مقتحمِ

عن السبب فى خفض مصطبر ومقتحم ولات ليست من أدوات الجر فأطال الكلام وأحسن الجواب" (*) . ولم يذكر ابن خلكان صورة إجابة ابن الحاجب عن ذلك خوف الإطالة . وأقول يجوز فى هذا أن يكون الجر بحتى ولات كلا ليست حاجزاً كما جروا بالباء فى قولهم جئت بلا زاد على رأى ونصبوا المضارع بأن فى نحو (لئلا يعلم) ، وفى شرح المتنبي للعكبري فى هذا الموضع التاء فى لات زائدة ، وقد تزاد فى الحروف كثم وثمت ورب وربت والجر به شاذ وقد جر به العرب وأنشدوا :

طلبوا صلحنا ولات أوانٍ   فأجبنا أن لات حين بقاء

ثم عاد ابن الحاجب إلى القاهرة وأخذ عنه خلق كثير ، ومن مصنفاته الكافية فى النحو والشافية فى الصرف وتوفى سنة ٦٤٦ . وعلى الكافية شروح كثيرة من أشهرها شرح رضى الدين محمد ابن الحسن الاستربادى المتوفى حوالى سنة ٦٩٠ . وهذا الشرح جليل الاعتبار كثير الفوائد فيه أشياء لا توجد فى غيره ، وشواهد هذا الشرح

(*) لم يرد التنصيص فى الأصل (المحرر) .

أخذها عبد القادر البغدادى المتوفى بالقاهرة سنة ١٠٩٣ بنى عليها خزانته المشهورة المسماة خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، وهى واسعة الأرجاء مملوءة بجواهر الأدب قل أن يوجد كتاب فى بابها يحاكيها ، فهى ضالة الأديب ، وقد طبعت بمطبعة بولاق سنة ١٢٩٩ فى أربعة أسفار ضخمة .

واشتهر بدمشق محمد بن عبد الله بن مالك ، نشأ بمدينة جيان من الأندلس ، ثم انتقل إلى دمشق وأقام بها وكان بحراً لا يشق عبابه فى العلوم خصوصاً فى النحو ، وتصدر بحلب لإقراء العربية ، وكان يجتمع به قاضى القضاة ابن خلكان ويحترمه لعلمه ، ومن تصانيفه منظومة الكافية الشافية فى النحو وهى ثلاثة آلاف بيت وشرحها ثم لخصها فى أرجوزة سماها الخلاصة وهى ألف بيت ولذا تعرف بالألفية ، ونثر هذه فى كتاب سماه الفوائد النحوية والمقاصد المحوية ، ولتسهيل هذا الكتاب وتكميله صنف كتاباً سماه تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد ، واشتهر كتاب التسهيل دون كتاب الفوائد ، ومن تصانيفه أيضاً الإعلام بمثلث الكلام وعدة اللافظ وعمدة الحافظ ، وتوفى بدمشق سنة ٦٧٢ . هذا وقد أقبل الناس إقبالا زائداً على الألفية يحفظونها ويتعرفون أحكامها ولذا أكثر العلماء من شروحها ، فممن شرحها محمد بن ناظمها المتوفي سنة ٦٨٦ بدمشق ، وعبد الله بن عبد الرحمن المشهور بابن عقيل المتوفى بالقاهرة سنة ٦٩٨ ، وحسن بن قاسم المصرى المتوفى سنة ٧٤٩ وقد شرح التسهيل أيضاً ، وأبو زيد عبد الرحمن المكودى المتوفى سنة ٨٠١ ، وأبو الفضل عبد الرحمن جلال الدين السيوطى المتوفى سنة ٩١١ ، وبدر الدين على الأشمونى المتوفي فى حدود سنة ٩٠٠ ، وهذا الشرح يسمى منهج السالك إلى ألفية ابن مالك ويدرس بالأزهر بعد شرح ابن عقيل لأنه أوسع منه وأصعب ، ودونوا على هذه الشروح حواشى فمن ذلك حاشية أحمد بن قاسم العبادى المتوفى سنة ٩٩٢ ، على شرح بن الناظم وحاشية الشيخ أحمد السجاعى المتوفى سنة ١١٩٧ بمصر على شرح ابن عقيل ، وحاشية الشيخ محمد الخضرى الدمياطى المتوفى سنة ١٢٨٨ على هذا الشرح وهى أوسع وأنفع من حاشية السجاعى وكلاهما يقرأ بالأزهر ، وحاشية الشيخ محمد الحفنى المصري المتوفى سنة ١٠١١ بمصر على شرح الأشمونى ، وحاشية الشيخ محمد الصبان المصرى المتوفى سنة ١٢١٦ على هذا الشرح أيضاً ويقرأها المنتهون بالأزهر .

ومن إشبيلية على بن محمد الكتامى أبو الحسن المعروف بابن الضائع ، كان إمامًا فى العربية لا يجارى ، لازم الشلوبين وفاق أصحابه بأسرهم ، أملى على إيضاح الفارسى ورد اعتراضات ابن الطراوه على الفارسى واعتراضات على سيبويه واعتراضات البطليوسى على الزجاجى ورد على ابن عصفور معظم اختياراته وله شرح الجمل وشرح كتاب سيبوية جمع فيه بين شرحى السيرافى وابن خروف وله فى مشكلاته عجائب ، توفى سنة ٦٨٠ . وكان من أهل فاس أبو عبد الله محمد بن محمد بن داود المعروف بابن آجروم الصنهاجى نسبة إلى صنهاجة وهى قبيلة بالمغرب ، المتوفى سنة ٧٢٣ ، ولا يؤثر عنه إلا متن الأجرومية وعليها شروح كثيرة منها شرح الشيخ خالد الأزهرى المتوفى سنة ٩٠٥ ، وعليه حاشية للسيد محمد أبى النجا من نحاة القرن الثالث عشر ، ومنها شرح الشيخ حسن الكفراوى (نسبه إلى كفر الشيخ حجازى بالقرب من المحلة الكبرى) الأزهرى المتوفي سنة ١٢٠٢ بالقاهرة ، وعليه حاشية للشيخ إسماعيل الحامدى شيخ رواق الصعائدة بالأزهر الآن (سنة ١٣١٤) وهذا الشرح أول كتاب يقرأة طالب النحو بالأزهر ويقرأ بعده شرح الشيخ خالد السابق ويقرأ بعدهما الأزهرية وشرحها للشيخ خالد المذكور ، وعلى الأزهرية حاشية للشيخ محمد الأمير المتوفى سنة ١٢٣١ وحاشية للشيخ حسن العطار المصرى المتوفى سنة ١٢٥٠ . واشتهر من الأندلس أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسى الغرناطى نزيل مصر ، كان إمام عصره فى فنون الأدب أخذ عن ابن الضائع وغيره وأخذ عنه كثير من الأئمة كتقى الدين السبكى وابن قاسم وابن عقيل والسمين ، وكان يقرئ الناس كتاب سيبويه ومصنفات ابن مالك ويرغبهم فيها ، ويشرح لهم غامضها ، ومصنفاته فى العربية كثيرة منها التذييل والتكميل فى شرح التسهيل ، وهو مطول واختصره فى كتاب سماه ارتشاف الضرب من لسان العرب . قال الصفدى لم أره قط إلا يسمع أو يشتغل أو يكتب أو ينظر فى كتاب وكان ثبتًا قيمًا عارفًا باللغة وأما النحو والصرف فهو الإمام المطلق فيهما وخدم العلم أكثر عمره حتى صار لا يدركه أحد فى أقطار الأرض ، وله اليد الطولى فى التفسير والحديث وتراجم الناس ومعرفة طبقاتهم خصوصًا المغاربة ومن شعره :

عـــداى لـهم فـــضـل على ومـنة　　فـلا أذهب الرحـمـن عنى الأعـاديا
هم بحثـوا عن ذلتى فاجـتنبتـهـــا　　وهم نافسـونى فاكتسبت المعاليـــا

ومنه :

ســبق الدمـع بالمســيـــر المطـايا　　إذ نـوى مـن أحـب عـنـــى نـقـلـه
وأجـاد السطور فى صفحـه الخـــد　　ولـم لا يجـيـد وهـو ابـــن مـقلـه

ومات بالقاهرة سنة ٧٤٥ .

واشـتـهـر من مـصـر عبـد الله بن هـشـام الأنصـارى خـاتمة النحـاة نوى الآراء والمذاهب ، كان إمـامًا لا يبارى ومصنفاته فى النحو تشـهد له برفعة المكانة ورسوخ القدم وللناس إقبال عليها ، فمنها قطر الندى وبل الصدى وشرحه ، وشذور الذهب فى معرفة كلام العرب وشرحـه ، ويقرأ القطر والشذور بالأزهـر قبل شرح ابن عقيل على الألفية وبعد الأزهرية ، ومنها مغنى اللبيب ورتبه على ثمانية أبواب ، الأول فى تفسير المفردات وفيـه يذكر حروف المعانى ومـا أشبـهـا والثانى فى تفسيـر الجملة وذكر أقسامـها وأحكامـها ، والثالث فى ذكر أحكام ما يشبـه الجملة وهو الظروف والجار والمجرور وذكر حكمهما فى التعلق ، والرابع فى ذكر أحكام يكثر دورها ويقبح بالمعرب جهلها ، والخامس فى ذكر الجهات التى يدخل الاعتراض على المعرب من جهـتها ، والسادس فى التحذير من أمور اشتهرت بين المعربين والصواب خلافها ، والسابع فى كيفية الإعراب ، والثامن فى ذكر أمور كلية يتخرج عليها ما لا ينحصر من الصور الجزئية وهى إحدى عشر قاعدة ويندرج تحت كل باب مواد كثيرة تعرف من الاطلاع على فهرس الكتاب ، وله أيضًا كتاب أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك وقد نثرها فيه ويعرف بالتوضيح قال الأمير فى حاشيته على المغنى هذا : "ولد ابن هشام بالقاهرة سنة ٧٠٨ ، ولم يأخذ عن أبى حيان غير أنه سمـع منه ديوان زهير بن أبى سلمى ومن شعره :

ومن يصطبر للعلم يظفر بنيله ومن يخطب الحسناء يصبر على البذل

ومن لم يذل النفس فى طلب العلا يسيراً يعش دهراً طويلا أخا ذل

وتوفى سنة ٧٦١ ورثاه ابن نباتة المصرى شاعر الملك المؤيد صاحب مصر وحماه بقوله :

سقى ابن هشام فى الثرى نوء رحمة يجر على مثواه ذيل غمام

سأروى له من سائر المدح سيرةً فما زلت أروى سيرة ابن هشام

تورية بعبد الملك بن هشام صاحب السيرة" (*). وقد اعتنى العلماء بمصنفات ابن هشام فشرحوها وكتبوا عليها الحواشى ، فمن ذلك "تحفة القريب فى الكلام على مغنى اللبيب" لمحمد بن أبى بكر المخزومى الإسكندرى المعروف بالدمامينى ، ولد بالإسكندرية وتوفي بالهند سنة ٨٢٧ ، وألف هذا الشرح بأمر السلطان أبى الفتح ناصر الدين محمد شاه الهندى ، والتصريح بمضمون التوضيح وهو شرح للشيخ خالد الأزهرى المتوفى بالقاهرة سنة ٩٠٥ ، وبلوغ الأرب بشرح شذور الذهب لأبى يحيي زكريا الأنصارى المتوفى بمصر سنة ٩٢٦ ، وحاشية السجاعى المتوفى سنة ١١٩٧ على شرح القطر ، (وحاشية محمد الأمير) المتوفى سنة ١٢٣٢ ، وحاشية محمد الدسوقى المتوفى سنة ١٢٣٩ ، وكلاهما على المغنى . واشتهر من مصر أيضًا أبو الفضل عبد الرحمن المعروف بجلال الدين السيوطى ، كان إمامًا مجتهداً فى العلوم كما تشهد بذلك مصنفاته التى تبلغ ثلثمائة كتاب . أخذ عن تقى الدين الشمنى ومحيى الدين الكافيجى وغيرهما ، وقال إنه تبحر في سبعة علوم التفسير والحديث والفقه والنحو والمعانى والبديع وأصل الفلسفة ، وقد وصل فى هذه العلوم الستة سوى الفقه إلى درجة لم يصل إليها ولا وقف عليها أحد من أشياخه ، ومن مصنفاته فى فن العربية كتاب الأشباه والنظائر النحوية وهو كتاب جامع للمهمات مرتب على سبعة فنون كل فن مستقل بخطبة ولقب ، وكتاب الافتراح فى علم أصول النحو ، قال فى أوله :

(*) لم يرد التنصيص فى الأصل (المحرر) .

هذا كتاب غريب الوضع عجيب الصنع في علم لم أسبق إلى ترتيبه وهو علم أصول النحو الذى هو بالنسبة إلى النحو كأصول الفقة بالنسبة إلى الفقه . رتبه على مقدمة وسبعة كتب وشرح الألفية والتوضيح والمغنى وشواهده وحشى الشذور وغير ذلك ، وإن أردت الاطلاع على أسماء مصنفاته فعليك بترجمته فى كتابه المسمى بحسن المحاضرة ، وتوفى سنة ٩١١ .

وفى القرن السابع الهجرى وما بعده إلى وقتنا هذا مال النحاة فى الغالب عن الابتداع فى الأصول وقصروا هممهم على فهم وتفهيم ما دونه السلف فأكثرو من تصنيف الشروح والحواشى على متونهم كما رأيتهم فعلوا فى مصنفات ابن مالك ومصنفات ابن هشام ، وقد تغالوا فى هذا الأمر حتى كتبوا كتبًا على الحواشى سموها التقارير ، كتقارير شمس الدين محمد الإنبابى من أكابر علماء القرن الرابع عشر على حاشية أبى النجاء على شرح الشيخ خالد على متن الأجرومية وعلى حاشية العطار على شرح الازهرية وعلى حواشي القطر وعلى حواشى الشذور وعلى حواشى ابن عقيل وعلى حواشى الصبان ، وقد توفى الشيخ الإنبابى سنة ١٣١٤ .

دراسة النحو فى الأزهر : قبل الخوض فى ذلك نذكر لمحة من تاريخ هذا الجامع الشهير فنقول : الأزهر مدرسة جامعة واسعة الأرجاء أنشأها جوهر قائد الخليفة المعز الفاطمى بعد أن فتح مصر سنة ٣٥٨ ، واختط مدينة القاهرة وكان الشروع فى بنائه سنة ٣٥٩ وكمل بناؤه سنة ٣٩١ ، وترتب المتصدرون لقراءة العلم به سنة ٣٨٠ فى عهد العزيز بن المعز . ولقد أخذ الأزهر شهرة واسعة ملأت طباق الأرض فهرعت إليه الناس أفواجًا من أقاصى مصر والشام والمغرب والترك والكرد واليمن والهند وغيرها طلبًا للعلم والأخذ عن علمائه ، وبه لكل طائفة ممتازة منزل يعرف بالرواق أو جهة تعرف بالحارة بها خزائن من خشب يضع فيها الطلاب بعض مختصاتهم الخفيفة ، ويبلغ عدد ما به من الأروقة نحو ٢٢ رواقًا ومن الحارات ١٥ حارة ، ولكل رواق أو حارة شيخ يرجع إليه فيما يختص بطائفته ، وللجامع رحبة سماوية واسعة جداً تعرف بالصحن بها أربعة صهاريج ، وله ست منارات للأذان وسبع مزاول لمعرفة الوقت وثمانية أبواب بعد كل باب ذى فرجتين بابين ، وما زال ملوك مصر وأمراؤها بعد الخليفة المعز يعتنون بالأزهر ويجددون فى بنائه ويوقفون الأرزاق على علمائه وطلابه إلى وقتنا هذا . ففى

سنة ١١٩٠ الأمير عبد الرحمن كتخدا زاد فى اتساعه طولًا وعرضًا قسمًا عظيمًا وهو القسم المرتفعة أرضه قليلاً من جهه الشرق ، ويشتمل هذا القسم على ٥٠ عمودًا من الرخام تحمل مثلها من البواكى ، وأنشأ به محرابًا ومنبرًا جديدين ، وفى جهته الجنوبية بنى مدفنًا له ورواقًا للصعائدة وكتابًا بأعلاه وبابًا كبيرًا ذا فرجتين واسعتين بجوار الرواق ومنارة بجانب الباب ، وبالجهة الغربية من الجامع جدد مدرسة الطيبرسية (١) ومدرسة الأقبغاوية (٢) وبين المدرستين ممشى ينتهى إلى باب كالسابق ، وبنى فوق الباب كتابًا وله منشآت بالجامع غير ذلك .

وفى هذا العصر أمر مولانا الخديو الأفخم عزيز مصر عباس باشا حلمى الثانى الأكرم بشراء الأملاك التى تتاخم الجامع من جنوبه الغربى وإدخالها فيه وبناء عمارة ضخمة فى موضعها تشتمل على رواق عظيم ومحل رفيع للمشيخة ، فأقيمت العمارة وشيد الرواق فجاء أفخم وأبدع رواق فى الأزهر وسمى بالرواق العباسى ، وكذا أمر حفظه الله بإنشاء مكتبة نفيسة فى محل المدرسة الاقبغاوية وبتشكيل مجلس لإدارة شؤون الأزهر يتركب من رئيس وخمسة أعضاء ، الرئيس شيخ الجامع والأعضاء ثلاثة من أفاضل علماء الآزهر واثنان من العلماء الموظفين فى الحكومة ، ورئيس المجلس الآن سنة ١٣١٤ صاحب الفضيلة الشيخ حسونه النواوى وأعضاؤه أرباب الفضل والعرفان الشيخ محمد عبده القاضى بمحكمة الاستئناف الأهلية والشيخ عبد الكريم سلمان وكيل قلم الوقائع المصرية بديوان الداخلية والشيخ سليم البشرى شيخ المالكية والشيخ مصطفى عز الشافعى والشيخ يوسف النابلسى شيخ الحنابلة . ويبلغ عدد علماء ومدرسى الأزهر الآن نحو ١٩٠ ، وعدد الطلبة به يتجاوز ثمانية آلاف ، وعليهم ضابط عام يفصل فى وقائعهم كما يأمره شيخ الجامع ، والضابط الآن هو السيد أحمد الجندى . والعلوم التى تدرس بالأزهر هى تفسير القرآن والحديث والفقه وأصوله وعلم الكلام (الإلهيات) والمنطق والنحو والصرف والمعانى والبيان والبديع والعروض والقافية وغير ذلك .

ولنرجع إلى ما نحن بصدده الآن فنقول : يدرسون فى الأزهر من كتب النحو شرح الشيخ حسن الكفراوى على متن الأجرومية ثم حاشية أبى النجا على شرح الشيخ خالد ثم حاشية العطار على الأزهرية ثم حاشية السجاعى على شرح القطر ثم

شرح الشذور وحواشيه ثم حاشية السجاعي أو الخضرى على شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ثم حاشيه الصبان على شرح الأشمونى على الألفية ثم المغنى وشروحه وحواشيه وذلك فى نحو ست سنوات ، وهذا كله بعد حفظ الطلاب متن الأجرومية ومنظومة الألفية وغيرهما . وكيفية الدراسة أن يعين المدرس لطلبته جزءاً من أول الكتاب المراد قراءته يطالعه كل واحد منهم على انفراده أو بالاشتراك مع غيره ، ثم يجيئون فى اليوم التالى ويجلسون بين يدى شيخهم بهيئة حلقة ويسمعون منه توضيح ما عينه لهم ويناقشونه فيه هذا يسأل وهذا يعترض على المصنف ، وثالث يجيب عنه وهكذا ، وكل منهم يجتهد فى إظهار علمه فى مناقشاته وربما طالع لهذا الغرض حواشي غير المقرر قراءتها ، ولا يزال الطلبة فى أخذ ورد وتصويب وتخطئة إلى أن ينتهى الدرس فى نحو ساعتين وربما لا يتم الجزء المعين فيعين لهم جزءاً آخر ويحصل فيه ما حصل فى سابقة وهكذا إلى أن يفرغ الكتاب . وهذه الطريقة تربى فيهم ملكة الجدل والبحث .

دراسة النحو فى المدارس : نتقدم أولًا بذكر نبذة من تاريخ المدارس فى مصر فنقول : قبل استيلاء محمد على باشا رأس الأسرة الفخيمة الخديوية على مصر كانت المعارف فيها قاصرة على معرفة القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم بالكتاتيب التى أنشأها سلاطين المماليك وأمراؤهم وعلى التخرج من علوم الأزهر السابقة ، فكانت هذه الكتاتيب بمنزلة مدارس ابتدائية والأزهر بمنزلة مدارس ثانوية وعليا ، فلما استقام الأمر للباشا بهذه الديار أنشأ عدة مدارس ذات شأن كبير منها مدرسة للطب بأبى زعبل ومدرسة للهندسة ببولاق ومدرسة للألسن ومدرسة للزراعة ببلد نبروه ومدرسة للصناعات وثلاث مدارس للفنون الحربية ، ثم اقتفى أثره فى ذلك من خلفه من أمراء هذه الأسرة الخديوية ، وكذا حكوماتهم وأشراف الأمة فزادوا فى المدارس وشيدوا فى أركانها وفرضوا لها النفقات إلى أن وصلت إلى ما هى عليه فى وقتنا الحاضر من التقدم والنظام يدير شؤونها ديوان عال يرأسه وزير كبير من وزراء الحكومة ، وله وكيل من كبار الأمراء وأعالمهم ومفتشون ماهرون وكتاب أماثل ، وهذا الديوان يسمي ديوان المعارف ويرأسه الآن (سنة ١٣١٤) صاحبا العطوفة والعرفان حسين باشا فخرى ويعقوب باشا أرتين ، ويتبع هذا الديوان نحو أربعين مدرسة ابتدائية تعلم فيها القراءة

والكتابة والقرآن والنحو والحساب ومبادى الهندسة والخط ورسم الحروف ورسم الأشكال وصور الأرض وتقويم البلدان والتاريخ والأخلاق واللغات الإنكليزية والفرنساوية والتركية وذلك فى مدة أربع سنين . وثلاث مدارس تجهيزية تعلم فيها العلوم السابقة مع الاتساع فى مسائلها والزيادة فى فروعها ويزاد عليها المعانى والبيان والبديع والإنشاء والتاريخ الطبيعى والطبيعة والكيميا والهيئة ، وهذا فى مدة خمس سنين ، ومدرسة للحقوق ومدرسة للهندسة ومدرسة للطب ومدرسة للصيدلة ومدرسة للولادة ومدرستان للصنائع إحداهما ببولاق والأخرى بالمنصورة ومدرسة للزراعة بالجيزة وثلاث مدارس لتخريج معلمين أكفاء . وفى هذه المدارس الآن ما بين ثمانية الآف وتسعة آلاف متعلم وفيها وفى الديوان ٤٤٣ موظفًا بين رئيس ووكيل ومفتشين وكتاب ونظار مدارس ومدرسين وضباط ، وينفق فى ذلك كله ما يتجاوز مائة ألف جنية مصرى . وأيضًا توجد مدرسة لتخريج ضابط فى الجيش تابعة لديوان الحربية . وللأهالى والأجانب مدارس أخرى لا تقل عن مدارس الحكومة فى العدد وهذه وتلك خلاف الكتاتيب المنتظمة وغيرها وهى كثيرة جداً يزيد عدد ما بها من المتعلمين هى والأزهر وجوامع العلم الأخرى عما فى المدارس السابقة كلها .

عودة إلى ما نحن بصدده : كان المقرر تدريسه فى النحو بالمدارس الابتدائية الأميرية هو كتاب الفصول الفكرية تأليف المرحوم عبد الله باشا فكرى من علماء وأمراء القرن الرابع عشر المتوفى سنة ١٣٠٧ ، وكتاب القواعد الأولية للشيخ محمد حسين من علماء الأزهر وأساتذة المدارس . وللمدارس التجهيزية وما فوقها شرح ملحة الحريرى للشيخ حسين والى وشرح أنموذج الزمخشرى للشيخ محمد عسكر ، وشرح الألفية للسيوطى ، وأنوار الربيع فى النحو والصرف والمعانى والبيان والبديع للشيخ محمود العالم . وكان تعليم النحو فى هذه المدارس لا يأتى بالثمرة المطلوبة لأن هذه الكتب وإن كانت صحيحة فى ذاتها إلا أنها ليست منسوقة فى تصنيفها على حسب أعمار الناشئة المتعلمين ، ولأن معلمى هذا العلم وإن كانوا عارفين به لا يحسنون طريقة أدائه إلى أذهان الأحداث ولا يراعون طاقاتهم ، فكان هؤلاء يهملونه بسبب ما يعترضهم من الصعوبات فى طريق تعلمهم ، فلما أخذ بزمام المعارف صاحب السعادة والدراية يعقوب باشا أرتين سنة ١٨٨٤ للميلاد وشرع فى إصلاح شؤونها والسير بها فى طرق

النجاح أمر كثيراً من ذوى الفضل بتصنيف مؤلفات جديدة فى علوم المدارس موافقة للناشئين ، وقد أمرنى أنا وحفنى بك ناصف ومحمد بك صالح القاضيين الآن بالحاكم الأهلية والشيخ مصطفى طموم المدرس بالمدرسة الخديوية بتأليف ثلاثة كتب سهلة المأخذ فى النحو مدرجة على حسب أعمار تلامذة المدارس الابتدائية ، فألفنا هذه الكتب وقدمناها إلى سعادته فعرضها على لجنة من أفاضل العلماء فأثنوا عليها وحلت لديه محل القبول وأمر بطبعها فطبعت بمطبعة بولاق ، وانتشرت بين أبناء المدارس وانتفعوا بها انتفاعاً زائداً ، وأخذت شهرة واسعة وأجازنا عليها بمائة ليرة مصرية ، ثم أمرنا بعد ذلك بتصنيف كتاب رابع فى النحو أوسع من الثلاثة المتقدمة ، وكتاب خامس فى علوم البلاغة للمدارس التهجيزية فصنفناهما وطبعا وعم نفعهما وأجازنا عليهما بمائة أخرى وكان معنا فى الكتاب الرابع محمود أفندى عمر بدلًا من محمد بك صالح ، وفى الكتاب الخامس محمد أفندى سلطان أستاذ اللغة العربية بمدرسة الحقوق بدلًا منهما .

وليست طريقة تعليم النحو فى المدارس كطريقته فى الأزهر فان المعلم فيها لا يحدد جزءاً من الكتاب تطالعه التلامذة من قبل ، بل يعطى الدرس أولًا فى وقته المحدد له والتلامذة يفهمونه منه بدون كبير مناقشة يضيع معها الزمن سدى ويسألهم أسئلة تثبت ما أخذوه فى أذهانهم ، ثم يكلفهم بواجب علمى يؤدونه فى منازلهم تطبيقاً على الدرس الذى سمعوه ، وفى اليوم التالى يعيد سؤال البعض فى بعض مسائل الدرس السابق ، ثم يعطى درساً آخر وهكذا . وفى خلال كل ثلاثة أشهر ما عدا أشهر المسامحة يختبرهم فيما حصلوه من العلم ويعطيهم درجات على حسب إجاباتهم فيه ، وقبل الاختبار يجتهدون فى مذاكرته رغبة فى الحصول على الدرجات العلى .

الهوامش

(١) أجد أى ناقة قوية ، وتعزز   اشتد ، ولا تتبس : لا تصوت .

(٢) وقد طبع الآن سنة ١٣١٨ بمطبعة بولاق الأميرية .

الباب السادس : فى تاريخ علوم البلاغة

(المعانى والبيان والبديع)

بعدما نظر علماء السلف فى كلام العرب من جهة صحته ودونوا لذلك النحو تتبعوا كلام البلغاء منهم ، فرأوا أن تراكيبه تتفاوت بهيآت وخواص تدل على معان ثانوية زائدة عن أصل المعنى ، فاستنبطوا من ذلك أصولًا دونوها ونوعوها إلى ثلاثه علوم . الأول : يبحث فيه عن الخواص والهيآت التى تقتضيها المقامات والأحوال وسموه علم البلاغة أو المعانى . والثانى : يعرف به إيراد المعنى الواحد بعبارات مختلفة فى وضوح الدلالة عليه وسموه علم البيان وإن شئت قلت هو علم يبحث فيه عن التشبيه والمجاز والكناية . والثالث : يبحث فيه عن وجوه تكسو الكلام حسنًا وسموه البديع . وقد سموا العلوم الثلاثة تارة بالبديع وتارة بالبيان وتارة بعلوم البلاغة ، ومسائل هذه الفنون لم تجئ دفعة واحدة بل تلاحقت واحدة بعد أخرى ثم رتبت أخيراً .

ويظهر أن أبا عبيدة المتوفى سنة ٢٠٦ هو أول من صنف فى المجاز فإنه لما سئل بمجلس الفضل بن الربيع عن التشبيه فى قوله تعالى : "طلعها كأنه رءوس الشياطين" ، وأجاب بأنه كقول امرئ القيس :

أيقتلنى والمشرفى مضاجعى ومسنونة رزق كأنياب أغوال

كان هذا سببًا فى أن يضع كتابًا فى مجاز القرآن وقد سبق بسط ذلك فى تاريخ النحو . وعبد الله بن المعتز العباسى المتوفى سنة ٢٩٦ أول من كتب فى البديع ، فإنه

جمع من وجوهه سبعة عشر نوعًا، وقال فى كتابه وما جمع قبلى فنون البلاغة أحد ولا سبقنى إليه مؤلف ، ومن أحب أن يقتدى بى ويقتصر على ما اخترعناه فليفعل ، ومن رأى إضافة شيء من المحاسن إليه فله اختياره . وعاصره قدامة الكاتب فجمع منها عشرين نوعًا توارد معه على سبعة منها وسلم له ثلاثة عشر فتكامل لهما ثلاثون ، ثم جمع أبو هلال العسكرى المتوفى سنة ٣٩٥ سبعة وثلاثين فى كتابه المسمى بالصناعتين ، ثم جمع مثلها ابن رشيق القيروانى المتوفى سنة ٤٥٦ فى كتابه المسمى بالعمدة ، ثم أوصلها عبد العظيم بن أبى الإصبع العدوانى المصرى المتوفى سنة ٤٥٦ إلى التسعين فى كتاب سماه تحرير التحبير فى علم البديع ، ثم جاء صفى الدين عبد العزيز الحلى المتوفى سنة ٧٥٠ ، ونظم قصيدة طويلة فيها ١٤٠ نوعًا باعتبار أصناف التجنيس نوعًا واحدًا، وجعل كل بيت منها مثالًا لنوع وذكر اسم النوع البديعى إلى جانب البيت وسماها الكافية البديعية ثم شرحها شرحًالطيفًا، ثم حذا الناس حذوه ونظموا بديعيات . منها بديعية عز الدين الموصلى المتوفى في حدود سنة ٨٠٠ ملتزمًا فى البيت ذكر اسم النوع وشرحها شرحًا وافيًا وتسمى بالفتح الآلى فى مطارحه الحلى ومنها بديعية شرف الدين إسماعيل (*) اليمنى المعروف بابن المقرى المتوفى سنة ٨٣٧ جمع فيها ١٥٠ نوعًامن أنوا ع البديع . وبديعية الشيخ أبى بكر على المعروف بابن حجة الحموى المتوفى سنة ٨٣٧ وتعرف بخزانة الأدب وشرحها ، والمولى الناصر هو الذى رسم له بنظمها ملتزمًافيها تسمية النوع ومجاريًا فيها الصفى الحلى ، وكان يشيد البيت فيرسم له بهدمه ويقول له بيت الصفى أصفى موردًا، فيعيد النظم إلى أن يحكم له بالسبق كذا ذكر فى خطبة الشرح . ومنها بديعية عائشة الباعونية الدمشقية المتوفاة سنة ٩٢٢ وتسمى بالفتح المبين وقد شرحتها شرحًا مختصرا والشرح مطبوع مع شرح بديعية ابن حجة سنة ١٣٠٤ فى المطبعة الخيرية بالقاهرة . ومنها بديعية عبد الغنى النابلسى المتوفى سنة ١١٤٣ المسماة نسمات الأسحار وقد شرحها شرحًا جليلًا متقنًا سماه نفحات الأزهار ، أتى فى خطبته على ذكر البديعيات الأربع السابقة وعاب بديعيتى الموصلى وابن حجة وقد طبع الشرح بمطبعة بولاق سنة ١٢٩٩ .

(*) وردت فى الأصل « اسمعيل (المحرر) .

والشيخ عبد القاهر الجرجانى المتوفى سنة ٤٧١ ، ألف كتاب دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة فى المعانى والبيان ، ومن كلامه أن الكلام الذى يدق فيه النظر ويقع به التفاضل هو الذى تدل بلفظه على معناه اللغوى ، ثم تجد لذلك اللفظ دلالة ثانية على المعنى المقصود فهناك ألفاظ ومعان أول ومعان ثوان .

وأبو يعقوب يوسف السكاكى المتوفى سنة ٦٢٦ ، ألف كتاب مفتاح العلوم قال فى مقدمته : "اعلم أن علم الأدب متى كان الحامل على الخوض فيه مجرد الوقوف على بعض الأوضاع وشىء من الاصطلاحات فهو لديك على طرف الثمام ، أما إذا خضت فيه لهمة تبعثك على الاحتراز عن الخطأ فى العربية وسلوك جادة الصواب فيها اعتراض دونك منه أنواع نلقى لأدناها عرق القربة لاسيما إذا انضم إلى همتك الشغف بالتلقي لمراد الله تعالى من كلامه الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فهناك يستقبلك منها ما لايبعد أن يرجعك القهقرى ، وكأنى بك وليس معك من هذا العلم إلا ذكر النحو واللغة قد ذهب بك الوهم إلى أن ما قرع سمعك هو شىء قد افترعته عصبية الصناعة لا تحقيق له وإلا فمن لصاحب علم الأدب بأنواع تعظم تلك العظمة ، لكنك إذا اطلعت على ما نحن مستودعوه كتابنا هذا مشيرين فيه إلى ما تجب الإشارة إليه ولن يتم لك ذلك إلا بعد أن تركب له من التأمل كل صعب وذلول علمت إذ ذاك أن صوغ الحديث ليس إلا من عين التحقيق وجوهر السداد" . وقد قسم المفتاح إلى ثلاثة أقسام الأول فى الصرف والثانى فى النحو والثالث فى علوم المعانى والبيان والبديع ، وعرف المعانى بأنه تتبع خواص تراكيب الكلام فى الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ليحترز بالوقوف عليها من الخطأ فى تطبيق الكلام على ما يقتضى الحال ذكره ، قال وأعنى بتراكيب الكلام التراكيب الصادرة عمن له فضل تمييز ومعرفة وهى تراكيب البلغاء لا الصادرة عمن سواهم لنزولها فى صناعة البلاغة ، وأعنى بخاصية التركيب ما يسبق منه إلى الفهم عند سماع ذلك التركيب ، وعرف البيان بأنه معرفة إيراد المعنى الواحد بطريق مختلفة بالزيادة فى وضوح الدلالة عليه أو بالنقصان ليحترز بالوقوف على ذلك عن الخطأ فى مطابقة الكلام لتمام المراد منه وقد طبع بالمطبعة الأدبية بالقاهرة سنة ١٣١٧ للهجرة . وقد شرح القسم الثالث من المفتاح العلامة محمود بن مسعود الشيرازى المتوفى سنة ٧١٠ ، وسمى شرحه

مفتاح المفتاح . وشرحه أيضا السيد الشريف على الجرجانى المتوفى سنة ٨١٦ . ولخص هذا القسم محمد بن عبد الرحمن القزوينى خطيب دمشق المتوفى سنة ٧٣٩ وسمى كتابه تلخيص المفتاح ثم وضحه فى كتاب سماه إيضاح المعانى والبيان وضم إليه ما خلا عنه مما تضمنه المفتاح مع زيادات من دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة . وقد شرح التلخيص مسعود بن عمر التفتازانى المدعو بسعد المتوفى سنة ٧٩١ شرحاً واسعًا سماه المطول ، ثم اختصر المطول فى شرح يعرف بمختصر السعد . وقد شرح التلخيص أيضًا عصام الدين إبراهيم الاسفراينى المتوفى بسمرقند سنة ٩٥١ وقيل سنة ٩٤٥ وسمى شرحه بالأطول . وقد أخذ شواهد التلخيص الشيخ عبد الرحيم العباسى المتوفى سنة ٩٦٣ وبنى عليها كتاباً جليلا فى الأدب يشبه خزانة الأدب للبغدادى وسماه معاهد التنصيص . وشروح التلخيص الثلاثة السابقة تقرأ بالأزهر بعد كتب النحو ، وقد أكثر العلماء من الحواشى على شرحى التفتازانى . فمنها على المطول حاشية السيد الجرجانى المتوفى سنة ٨١٦ . وحاشية حسن جلبى الفنارى المتوفى سنة ٨٨٦ . وحاشية عبد الحكيم الهندى المتوفى سنة ١٠٦٧ . ومنها على المختصر حاشية أحمد بن يحيى حفيد السعد المتوفى سنة ٩٠٦ ، وحاشية محمد الحفنى المتوفى سنة ١١٨١ ، وحاشية الشيخ محمد الدسوقى المتوفى سنة ١٢٣٠ .

وأبو الليث السمرقندى من علماء النصف الثانى من القرن التاسع صنف متنًا فى الاستعارات يعرف بالسمرقندية يقرأه الطلاب المبتدئون ، وقد كتب عليه كثير من العلماء فمن ذلك شرح العصام وشرح أحمد الملوى المتوفى سنة ١١٨١ ، وحاشية الشيخ حسن العطار المتوفى سنة ١٢٥٠ ، وحاشية الشيخ إبراهيم الباجورى المتوفى سنة ١٢٧٦ . وعلى شرح العصام حاشية لحفيده الشيخ على المتوفى بمكة سنة ١٠٠٧ ، وحاشية للشيخ محمد الصبان المتوفى سنة ١٢٠٦ ، وعلى شرح الملوى حاشية للشيخ محمد الأمير المصرى المتوفى سنة ١٢٣٢ . وحاشية للشيخ محمد الدمنهورى فرغ من تأليفها سنة ١٢٣٣ ، وحاشية للشيخ محمد الخضرى الدمياطى المتوفى سنة ١٢٨٨ .

ومحمد بن الشحنه التركى المتوفى سنة ٨١٥ بحلب له منظومة فى المعانى والبيان والبديع ، وهى مائة بيت ولذا يقال لها مائية المعانى والبيان ولمحمد بن عبد الحق الطرابلسى شرح عليها سماه درر الفوائد المستحسنة فرغ من تأليفه سنة ١١٠٩ ، ولمحمد بن العزى شرح عليها أيضًا سماه مواهب الرحمن فرغ من تأليفه سنة ١١٣٤ . وجلال الدين عبد الرحمن السيوطى المتوفى سنة ٩١١ له أرجوزة سماها عقود الجمان فى علم المعانى والبيان قال فيها :

وهذه أرجـــوزة مـــثل الجـــمـــان ضـمنتـها علم المعانى والبيـان

لخصت فيها ما حوى التلخيص مع ضم زيادات كـأمـثـال اللـمـع

وقد شرحها شرحًا حسنًا. والشيخ عبد الرحمن الأخضرى له منظومة أيضًاسماها الجوهر المكنون فى الثلاثة فنون ، فرغ من نظمها سنة ٩٥٠ ، وعليها شرح حلية اللب المصون تأليف الشيخ أحمد الدمنهورى المتوفى سنة ١١٩٢ ، وللشيخ مخلوف حاشية على هذا الشرح فرغ من تأليفها سنة ١٢٦٥ . والشيخ محمد الصبان المتوفى سنة ١٢٠٦ له كتاب فى البيان يعرف بالرسالة البيانية ، وللشيخ محمد عليش المصري المتوفى سنة ١٢٩٩ حاشية عليها ، وكذا للشيخ مخلوف حاشية عليها ، وقد طبعت سنة ١٢٨٥ بالمطبعة الوهبية بمصر ، وأيضا للشيخ محمد الإنبابى حاشية كبيرة عليها طبعت ببولاق سنة ١٣١٥ .

والشيخ حسين المرصفى من أساتذة المدارس المصرية له كتاب جليل فى فنون الأدب يسمى بالوسيلة الأدبية وقد طبع سنة ١٢٨٩ بمطبعة المدارس الملكية ، وكان رحمه الله مع كونه بصيرًاواسع الاطلاع فى الأدب حسن المحاضرة والنوادر قرأت عليه كتابه هذا بمدرسة دار العلوم ، وقد جاء في مقدمته ما نصه : "اعلم أن هذه الفنون وغيرها من علوم العربية كما سبقت الإشارة إليه إنما تحصلت لباذلى هممهم فى تحصيلها بتتبع الكلم العربى يسمعونه منهم ويروونه عنهم ، وأول من تنبه لاستخراج هذه الفنون واتخاذها معيارًالصناعة الكلام حسب ما تقتضيه الشاعران الشهيران مسلم بن الوليد وأبو تمام حبيب بن أوس الطائى ، ولكن لم يدونها وإنما

كانا يتحدثان بها ويسميانها البديع ، ولما أكثرا من استعمال مقتضياتها وتبعهما بعض شعراء ذلك العصر غالب ميلهم مع زخرفة الألفاظ ، أخذ الشعر هيئة غير هيئته العربية حتى إن فحول الشعراء إذ ذاك كانوا يقولون قد أفسد هؤلاء الشعر بذلك الشيء الذى يسمونه البديع ، ولم يزل يتزايد الحديث فى ذلك إلى أن جاء عبد الله بن المعتز وقدامة الكاتب فوضع كل منهما موضوعًا لطيفًا ثم اتسع القول فيه بعد وأقبل عليه كتاب الإنشاء وسموه البيان ، وهذا النموذج تأليف الأوائل فى هذه الفنون ابتدأ بعضهم كتابه بقوله : "البلاغة على عشرة أقسام الإيجاز والتشبيه والاستعارة والتلاؤم والفواصل والتجانس والتصريف والتضمين والمبالغة وحسن البيان" ، ثم أخذ فى بيان كل منها والاستشهاد عليه وذكر تفاوت البلغاء فيه . ولما اتسعت دائرة القول فى العلوم الفلسفية بين المسلمين حتى أفضى بهم التكلم فى تخليص العقائد الإسلامية وإزاحة الشبه عنها إلى كشف حقيقة النبوة وبيان جهة إعجاز القرآن رأى الناس نفع هذه الفنون فى معرفة إعجاز القرآن ، الذى هو برهان الدين الحق ، فصارت من العلوم الدينية ، واشتغل بها طائفة من الناس وأكثروا فيها من التآليف ، وأولهم الشيخ عبد القاهر ، وبحسب اختلاف جهات البحث ميزوا الفنون وخصوا كلاًبلقب وهى ثلاثة فنون ، فن يبحث عن الألفاظ من حيث كونها مستعملة فى معانيها التى وضعت لها أو فيما يناسبها اعتماداًعلى المناسبات وسموه فن البيان ، وفن يبحث عن المركبات من حيث تختلف صورها لاختلاف الأغراض منها وسموه فن المعانى ، وفن يبحث عن أحوال تعرض للكلام فتكسبه حسناًوسموه البديع" .

والشيخ محمد البسيونى من علماء الأزهر وأساتذة المدارس له كتاب فى العلوم الثلاثة سماه حسن الصنيع ، وقد طبع بمطبعة ديوان المعارف سنة ١٣٠١ ، وكان يقرأ بمدرسة الحقوق . والشيخ محمود العالم المنزلى من علماء الأزهر وأساتذة المدارس المتوفى حوالى سنة ١٣١٠ له كتاب جمع فيه خمسة علوم الصرف والنحو والمعانى والبيان والبديع وسماه أنوار الربيع ، وقد طبع فى مطبعة بولاق سنة ١٣٠٢ ، وكان يقرأ بالمدارس التجهيزية . والشيخ الفاضل هارون عبد الرزاق من علماء الأزهر وأساتذة المدارس له كتاب حسن الصياغة فى فنون البلاغة ، طبع بالمطبعة الأميرية

ببولاق سنة ١٨٨٩ للميلاد ، وهو رسالة صغيرة كانت تقرأ بالمدارس . وقد ألفنا أنا وحفنى بك ناصف ومحمد أفندى سلطان والشيخ مصطفى طموم كتاب دروس البلاغة لتلامذة المدارس التجهيزية ، يقرأ بعد كتبنا النحوية السابقة وقد طبع بالمطبعة الأميرية سنة ١٣١٠ .

الباب السابع

في تاريخ المحاضرات

كانت سوق الأدب رائجة فى عهد خلفاء بنى أمية فى الشام والأندلس وخلفاء بنى العباس فى العراق ، إذ كانوا يقربون من مجالسهم أدباء عصرهم ليحادثوهم بما يروح نفوسهم ويشرح صدورهم من قص نوادر غريبة وأخبار عجيبة وإنشاد أشعار رقيقة ، وعلى سننهم جرى عمالهم فى الأمصار فكان الأديب يبذل وسعه فى تعرف أنباء السالفين والحاضرين وحفظ أشعارهم واستحضار ملحهم ولطائفهم ليكون ذا اطلاع واسع واقتدار بارع على أن يحضره بداهة فى مجلس الخليفة أو الأمير ما يقتضى الحال ذكره ، لينال منه كذا جائزة وقد دونوا لهذا الغرض مصنفات تجمع نوادر وأخباراً وملحًا وأشعاراً وغيرها وسموا معرفة ذلك بعلم المحاضرات ، وهو لا ريب نوع خاص من علم التاريخ .

وأساس هذا العلم على ما يقال كتاب "كليلة ودمنة" الذى ترجمه إلى العربية عبد الله بن المقفع ، كاتب الخليفة أبى جعفر المنصور العباسى المتولى الخلافة سنة ٧٣١ للهجرة ، وهو كتاب يشتمل على حكايات موضوعة على ألسنة الحيوانات متضمنة حكمًا وسياسات تهذب الأخلاق والنفوس ، وضعه الفيلسوف بيدبا لملك الهند فى القرن الرابع قبل الميلاد ، وقد طبع هذا الكتاب أحد علماء الإفرنج الشهير بسلفستر دساسى "Sylvester de Saey" سنة ١٨١٦ ، وطبع أيضًا فى مطبعة وادى النيل بالقاهرة سنة ١٢٧٩ للهجرة ، وفى مطبعة بولاق وفى بيروت سنة ١٨٨٤ . وفى عصر الخليفة المنصور هذا صنف محمد بن إسحق كتاب المغازى والسير .

ومما دون في المحاضرات كتاب العقد الفريد لشهاب الدين أحمد بن محمد الأندلسي المعروف بابن عبد ربه المتوفى بقرطبة سنة ٣٢٨ ، قال في خطبته : "وبعد فان أهل كل طبقة وجهابذة كل أمة قد تكلموا في الأدب وتفلسفوا في العلوم على كل لسان ومع كل زمان ، وإن كل متكلم منهم قد استفرغ غايته وبذل مجهوده في اختصار بديع معاني المتقدمين واختيار جواهر ألفاظ السالفين ، وأكثروا في ذلك حتى احتاج المختصر منها إلى اختصار والمتخير إلى اختيار ، ثم إني رأيت آخر كل طبقة وواضعي كل حكمة ومؤلفي كل آداب أعذب ألفاظًا وأسهل بنية وأحكم مذهبًا وأوضح طريقة من الأول ، لأنه ناقض متعقب والأول باد متقدم ، فلينظر الناظر إلى الأوضاع المحكمة والكتب المترجمة بعين إنصاف ثم يجعل عقله حكمًا عادلاً قاطعًا ، فعند ذلك يعلم أنها شجرة باسقة الفرع طيبة المنبت زكية التربة يانعة الثمرة ، فمن أخذ بنصيبه منها كان على إرث من النبوة ومنهاج من الحكمة لا يستوحش صاحبه ولا يضل من تمسك به ، وقد ألفت هذا الكتاب وتخيرت جواهره من متخير جواهر الآداب ومحصول جوامع البيان ، فكان جوهر الجوهر ولباب اللباب ، وإنما لي فيه تأليف الاختيار وحسن الاختصار وفرش لدور كل كتاب وما سواه فمأخوذ من أفواه العلماء ومأثور عن الحكماء والأدباء . وقد نظرت في بعض الكتب الموضوعة فوجدتها غير متفرقة في فنون الأخبار ولا جامعة لجمل الآثار ، فجعلت هذا الكتاب كافيًا جامعًا لأكثر المعاني التي تجري على أفواه العامة والخاصة وتدور على ألسنة الملوك والسوقة ، وحليت كل كتاب منها بشواهد من الشعر تجانس الأخبار في معانيها وتوافقها في مذاهبها وقرنت بها غرائب من شعري ليعلم الناظر في كتابنا هذا أن لمغربنا على قاصيته وبلدنا على انقطاعه حظًا من المنظوم والمنثور ، وسميته كتاب العقد الفريد لما فيه من مختلف جواهر الكلام مع دقة المسلك وحسن النظام ، وجزأته على خمسة وعشرين كتابًا كل كتاب منها جزآن فتلك خمسون جزءًا في خمسة وعشرين كتابًا ، قد انفرد كل كتاب منها باسم جوهرة من جواهر العقد ، فأولها كتاب اللؤلؤة في السلطان ، ثم كتاب الفريدة في الحروب ومدار أمرها ، ثم كتاب الزبرجدة في الأجواد والأصفاد ، ثم كتاب الجمانة في الوفود ، ثم كتاب المرجانة في مخاطبة الملوك ، ثم كتاب الياقوتة في العلم والأدب ، ثم كتاب الجوهرة في الأمثال ، ثم كتاب الزمردة في المواعظ والزهد ،

ثم كتاب الدرة فى التعازى والمراثى ، ثم كتاب اليتيمة فى النسب وفضائل العرب ، ثم كتاب العسجدة فى كلام الأعراب ، ثم كتاب المجنبة فى الأجوبة ، ثم كتاب الواسطة فى الخطب ، ثم كتاب المجنبة الثانية فى التوقيعات والفصول والصدور وأخبار الكتبة ، ثم كتاب العسجدة الثانية فى الخلفاء وتواريخهم وأيامهم ، ثم كتاب اليتيمة الثانية فى أخبار زياد والحجاج والطالبين والبرامكة ، ثم كتاب الدرة الثانية فى أيام العرب ووقائعهم ، ثم كتاب الزمردة الثانية فى فضائل الشعر ومقاطعه ومخارجه ، ثم كتاب الجوهرة الثانية فى أعاريض الشعر وعلل القوافى ، ثم كتاب الياقوتة الثانية فى الألحان واختلاف الناس فيه ، ثم كتاب المرجانة الثانية فى النساء وصفاتهن ، ثم كتاب الجمانة الثانية فى المتنبئين والموسومين والبخلاء والطفيليين ، ثم كتاب الزبرجدة الثانية فى بيان طبائع الإنسان وسائر الحيوان ، ثم كتاب الفريدة الثانية في الطعام والشراب ، ثم كتاب اللؤلؤة الثانية فى الفكاهات والملح" . وقد طبع بمطبعة بولاق سنة ١٢٩٣

وكتاب الأغانى لأبى الفرج على الأصفهانى المتوفى ببغداد بسنة ٣٥٦ ، وهو كتاب جامع لكثير من السير والنوادر والأشعار وأيام العرب وأخبارهم وقصص الملوك فى الجاهلية والخلفاء فى الإسلام ، وقد بنى كل ذلك على المائة صوت المختارة للخليفة هارون الرشيد العباسى ، وهذا الكتاب قل أن يوجد له مثيل ، وقد طبع فى عشرين سفراً بمطبعة بولاق الأميرية سنة ١٢٨٥ ، وطبع السفر الحادى والعشرون من هذا الكتاب فى مدينة ليدن سنة ١٣٠٥

وكتاب نثر الدرر لأبى سعد منصور بن الحسين ، وزير مجد الدولة رستم بن بويه من أدباء القرن الرابع ، اختصره من كتاب نزهة الأدب . وكتاب محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء لأبى القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصبهانى ، كان فى أوائل المائة الخامسة وهو كتاب نفيس فى سفرين طبعته جمعية المعارف المصرية سنة ١٢٨٧ بمطبعة السيد إبراهيم المويلحى . وكتاب زهر الآداب وثمر الألباب لأبى إسحق إبراهيم المعروف بالحصرى القيروانى المتوفى بالقيروان سنة ٤٥٣ ، وقد طبع على هامش كتاب العقد الفريد المتقدم . وكتاب الغرر والدرر للشريف المرتضى أبى القاسم على بن الطاهر المتوفى ببغداد سنة ٤٣٦ وهو ذو ثلاثة أسفار .

وكتاب ربيع الأبرار ونصوص الأخبار لأبى القاسم محمود الزمخشرى المتوفى سنة ٥٣٨ . وكتاب زاد الرفاق لأبى المظفر محمد الابيوردى المتوفى بأصبهان سنة ٥٥٧ . وأبو قماش لشرف الدين مبارك بن أحمد الأربلى المتوفى سنة ٦٣٧ فى الموصل جمع فيه من النوادر ما لا يحصى . وكتاب محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار فى الأدبيات والنوادر والأخبار لمحيى الدين أبى بكر محمد المعروف بابن العربى المتوفى بدمشق سنة ٦٣٨ . وكتاب العدد المعدود تأليف أبى يحيى زكريا المراغي من علماء النصف الثانى من القرن السادس ، فيه مائة باب ، ثمانون منها فى خمس مقالات وعشرون منفردة . وريحانة الأدب لأبى الحسن على بن موسى الأندلسى المتوفى سنة ٦٧٣ ، جمع فيه بين عيون الأخبار ومستحسنات الأشعار . وكتاب تمام المتون إلى شرح رسالة ابن زيدون التى كتب بها إلى ابن جهور لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى المتوفى سنة ٧٦٤ . والتذكرة لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى أيضًا وهى ثلاثون سفراً جمع فيها نوادر الأشعار ولطائف الأدبيات نظمًا ونثراً . وثمرات الأوراق لابن حجة الحموى المتوفى سنة ٨٣٧ ، وقد طبع منفرداً سنة ١٣٠٠ بالمطبعه الوهبية ، وطبع أيضًا على هامش محاضرات الراغب السابقة . وفاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء لشهاب الدين أحمد الدمشقى المعروف بابن عرب شاه ، المتوفى بالخانقاه الصالحية من القاهرة سنة ٨٥٤ ، وقد نحا منحى كتاب كليلة ودمنة ، وقد طبع بمطبعة بولاق سنة ١٢٧٦ . وروض الأخبار المنتخب من ربيع الأبرار لمحيى الدين محمد بن الخطيب المتوفى سنة ٩٤٠ ، قال فى أوله : "لما كان علم المحاضرات علمًا نافعًا لا تدرك غايته ، استخرجت من بحث فوائده على وجه الاختصار ما عثرت عليه فى كتب الأدباء" واسم الكتاب يدل على انتخابه من كتاب الزمخشرى . والمستطرف فى كل فن مستظرف لشهاب الدين أحمد الإبشيهى من علماء القرن التاسع ، وقد طبع فى بولاق سنة ١٢٨٥ . وكتاب طراز المجالس لأحمد بن محمد الخفاجى المتوفى سنة ١٠٦٩ ، وله أيضًا كتاب ريحانة الألباب وزهرة الحياة الدنيا ، ذكر فيه من عاصرهم من الشعراء والأدباء فى الشام والمغرب وجزيرة العرب ومصر ، وقد طبع بمطبعة بولاق سنة ١٢٧٣ . وكتاب نفحة اليمن فيما يزول بذكره الشجن لأحمد بن محمد الأنصارى اليمنى من علماء النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجرى .

الباب الثامن : فى تاريخ الإنشاء

(وفيه أربعة فصول)

الفصل الأول

فى تعريف الإنشاء ووجه تعلمه وأنواعه

الإنشاء فى اللغة الشروع والإيجاد والوضع ،تقول أنشأ الغلام يمشى إذا شرع فى المشى ، وأنشأ الله العالم أوجدهم وأنشأ فلان الحديث وضعه . وفى اصطلاح الأدباء هو صناعة النثر ، ويعرف بفن الكتابة فهو يقابل قرض الشعر ، ويكون سجعًا وموازن الفواصل ومرسلاً . فالسجع يكون ذا فقر متحدة فواصلها فى الحرف الأخير نحو : "سرر مرفوعة وأكواب موضوعة" ، فإن الفاصلتين مرفوعة وموضوعة اتحدتا فى العين ، فإن كانت ألفاظ الفقرة أو أكثرها مثل ما يقابلها من ألفاظ قرينتها وزنًا وتقفية كان السجع مرصعًا نحو : "يطبع الأسجاع بجواهر لفظه ويقرع الأسماع بزواجر وعظه" . والموازن كالسجع لكن فواصله تتحد فى الوزن دون الحرف الأخير ، نحو : "نمارق مصفوفة وزرابىّ مبثوثة" ، فإن مصفوفة ومبثوثة اتحدتا فى الوزن دون التقفية إذ الأولى على الفاء والثانية على الثاء ولا عبرة بتاء التأنيث ، وإن كانت ألفاظ إحدى القرينتين أو أكثرها مثل ما يقابلها من الأخرى فى الوزن كان الموازن مماثلاً نحو : "وآتيناه الكتاب المستبين وهديناه الصراط المستقيم" . والمرسل ما جاء من غير توخى تقفية أو وزن ، وقد جاء بالثلاثة القرآن وأحسنها المرسل فإنه يمضى مع النفس وأسرع إلى الأفهام فى أداء المعنى ، فإن منشئ السجع قد يضطر إلى تقديم لفظ وحقه التأخير أو الإتيان بلفظ لا يوافق موضعه كى يتيسر له التقفية أو الوزن ، وقد يحذف ما تضيق عبارته عنه فيأتى الكلام معقوداً ركيكًا ، فإن جاءت الألفاظ فيهما على ترتيب المعانى بحيث لا يظهر على الكلام غبار التكلف أو القلاقة فقد امتازا عن المرسل بحسن وقعهما فى الأسماع وهما لا يوجدان فى غير العربية .

قال ابن خلدون : "السجع هو الكلام الذى يؤتى به قطعًا ويلتزم فى كل كلمتين منه قافية واحدة ، والمرسل هو الذى يطلق الكلام فيه إطلاقًا ولا يقطع أجزاء بل يرسل إرسالاً من غير تقييد بقافية ولا غيرها ، وقد استعمل المتأخرون أساليب الشعر وموازينه فى المنثور من كثرة الأسجاع والتزام التقفية وتقدم النسيب بين يدى الأغراض وصار هذا المنثور إذا تأملته من باب الشعر وفنه ، ولم يفترقا إلا فى الوزن واستمروا على هذه الطريقة واستعملوها فى المخاطبات السلطانية وقصروا الاستعمال فى المنثور كله على هذا الفن الذى ارتضوه وخلطوا الأساليب فيه ، وهجروا المرسل وتناسوه وخصوصًا أهل المشرق وصارت المخاطبات السلطانية لهذا العهد عند الكتاب الغفل جارية على هذا الأسلوب الذى أشرنا إليه وهو على صواب من جهة البلاغة لما يلاحظ فى تطبيق الكلام على مقتضى الحال من أحوال المخاطِب والمخاطَب ، ويجب أن تنزه هذه المخاطبات عن هذا المنثور المقفى إذا أساليب الشعر تنافيها اللوذغية وخلط الجد بالهزل والإطناب فى الأوصاف وضرب الأمثال وكثرة التشبيهات والاستعارات حيث لا تدعو ضرورة إلى ذلك فى الخطاب ، والمحمود فى المخاطبات السلطانية الترسل وهو إطلاق الكلام وإرساله من غير تسجيع إلا فى الأقل النادر وحيث ترسله الملكة إرسالاً من غير تكلف له ، أما إجراؤها على هذا النحو الذى من أساليب الشعر فمذموم ، وما حمل عليه أهل العصر إلا استيلاء العجمة على ألسنتهم وقصورهم لذلك عن إعطاء الكلام حقه فى مطابقته لمقتضى الحال ، فعجزوا عن الكلام المرسل وأولعوا بهذا المسجع يلفقون به ما نقصهم من تطبيق الكلام على المقصود ، يجبرونه بذلك القدر من التزيين بالأسجاع والألقاب البديعة ويغفلون عما سوى ذلك حتى أنهم يخلون بالإعراب والتصريف فى الكلمات إذا دخلت لهم فى تجنيس أو مطابقة لا يجتمعان مع صحتها" (*) . وأحسن السجع ما تساوت فيه القرائن وقصرت نحو : ﴿ يا أيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر وثيابك فطهر والرجز فاهجر ﴾ ، ويليه ما طالت فيه القرينة الثانية عن الأولى طولا لا يخرجها عن الاعتدال ، وعكسه غير حسن فإن السمع يكون متوقعًا طول الثانية كالأولى فإذا قصرت نبا عنها ولم يصل إلى غايته المنتظرة .

(*) يشير المؤلف إلى أن الكلام المنقول عن « ابن خلدون » بتصرف (المحرر) .

وعلى من يريد أن يبرع فى صناعة الإنشاء أن يتزود من فنون الأدب لاسيما اللغة والمحاضرات ، ثم يطلع بإمعان نظر منشآت من اشتهروا بالبراعة فى هذه الصناعة ، ثم ينثر أبياتاً شعرية أو يدرس فصولاً من كتاب ممتاز كمقدمة ابن خلدون ويلخص هذه الفصول أو يطوى الكتاب ويكتب من تلقاء نفسه ما علق بذهنه منها أو يأخذ مثلاً سائراً ويبنى عليه موضوعًا واسعًا أو يكتب قصة سمعها أو يصف منظراً رآه ، وفى كل هذا يعرض ما كتبه على منشئ ماهر كى يرشده إلى الصواب ، وبالجملة هذه الصناعة لا تصير ملكة إلا بالمرانة والدربة .

والإنشاء أنواع منها الترسل أى إنشاء الرسائل وتسمى الكتب أيضًا ، ومنها التحرير أى كتابة دواوين الحكومات وصحف الأخبار المعروفة بالجرائد ومنها التأليف أى تصنيف كتب العلوم ومنها القصص أى وضع القصص أو الحكايات ومنها الخطابة أى وضع الخطب ومنها الوصف .

الفصل الثانى

فى تاريخ الإنشاء

كانت الرسائل تفتح فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين بكتابة : "من فلان إلى فلان" ، سواء كانت الكتابة من أعلى إلى أدنى أو من أدنى إلى أعلى أو بين متساويين ، وقد يسبق ذلك : "بسم الله الرحمن الرحيم" ، ويليه : "السلام عليكم أو السلام على من اتبع الهدى" ، وبعد هذا : "أما بعد فإن الأمر كيت وكيت" ، أو "أما بعد فإنى أحمد إليك الله وإن الأمر كذا وكذا" ، وقد يؤخر السلام فى آخر الكتاب . وكانت عبارة الرسائل سهلة لا يتوخى فيها السجع ولا تزيين الألفاظ إلا إذا جاء ذلك عفواً . ولما أراد عليه الصلاة والسلام أن يكتب للملوك قيل له يا رسول الله إنهم لا يقرءون كتاباً إلا إذا كان مختوماً ، فاتخذ صلى الله عليه وسلم خاتماً من فضة منقوشاً عليه ثلاثة أسطر "محمد" فى سطر و"رسول" فى الوسط و"الله" فوق ذلك ، وصار يختم به كتبه ، وقد اتخذ هذا سنة من بعده ، قال ابن عبد ربه فى عقده مانصه : "كان رسول الله يكتب إلى الصحابة وأمراء جنوده من محمد رسول الله إلى فلان ، وكذا كانوا يكتبون إليه يبدءون بأنفسهم ، فممن كتب إليه وبدأ بنفسه أبو بكر والعلاء بن الحضرمى وغيرهما ، وكذلك كتب الصحابة والتابعين ثم لم يزل حتى ولى الوليد بن عبد الملك فعظم الكتاب وأمر أن لا يكاتبه الناس بمثل ما يكاتب به بعضهم بعضاً ، فجرت به بسنة الوليد إلى يومنا هذا ، إلا ما كان من عمر بن عبد العزيز ويزيد الكامل فإنهما عملا بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم رجع الأمر إلى رأى الوليد والقوم عليه إلى اليوم" .

ولما ارتفع شأن الخلافة الإسلامية وبلغت مبلغها من العظمة والفخار واتسع مجال الأدب اصطلحوا على ديباجات يصدرون بها كتبهم المقدمة إلى ديوان الخلافة أو ما يتبعها ، فكانوا يكتبون إلى الخليفة فى أول الكتاب : "أدام الله بقاء الديوان العزيز أو خلد سلطانه أو نحو ذلك" ، وإلى الملك : "أطال الله بقاء الملك أو خلد الله ملكه أو ما أشبه" ، وإلى الأمير : "أعز الله أنصار الجانب الشريف أو أعز الله نصره أو نحوه" ، وإلى الوزير "أدام الله سعادة الوزير أو خلد مجده أو أسبغ عليه نعمة أو ما شاكله" ، ويدعون للقضاة والحكام بعز الأحكام وتأييدها ثم بعد هذا الدعاء كانوا يمدحون المكتوب إليه بعدة أوصاف تليق بمقامه ثم يدخلون فى أغراضهم المقصودة لهم بمثل هذه العبارات الآتية : "العبد أو المملوك يقبل الأرض أو الأعتاب الشريفة وينهى ما هو كذا وكذا" ، أو "الخادم المطيع يقبل الأيدى الكريمة وينهى .. .. " ، أو "صنيعتكم يتشرف بعرض ما هو كيت وكيت" ، أو "الداعى ينهى ما هو .. .. " ، وبعد بيان الغرض من رسالة يختمونها بالدعاء ويؤرخونها إن كانت فى أول ليلة من الشهر بكتابة : "كتب لأول ليلة منه أو لغرته أو مستهله" ، وفى الليلة الثانية : "كتب لليلة الثانية" ، وعلى هذا القياس إلى آخر الشهر ويكتب فى الليلة الأخيرة "لآخر ليلة منه أو سلخه أو انسلاخه" ، وإن كتب فى اليوم الأول يؤرخون بكتابة "كتب لليلة خلت أو أول الشهر أو غرة الشهر" ، وفى الثانى "لليلتين خلتا" ، وفى الثالث "لثلاث خلون أو خلت" ، وكذا إلى عشر ليال خلون أو خلت وفى الحادى عشر : "لإحدى عشرة ليلة خلت أو خلون" ، وفى الخامس عشر : "للنصف من كذا" ، وفى السادس عشر : "لأربع عشرة ليلة بقيت أو بقين" ، إلى التاسع عشر فيكتبون : "لإحدى عشرة ليلة بقيت أو بقين" ، وفى العشرين : "لعشر ليال بقين أو بقيت" ، وهكذا إلى الثامن والعشرين فيكتبون فيه : "لليلتين بقيتا" ، وفى التاسع والعشرين : "لليلة بقيت" ، وفى اليوم الأخير : "لآخر يوم من كذا أو سلخه أو انسلاخه" ، فالليل عندهم سابق النهار وأول الشهر أول ليلة يرون فيها الهلال . قال ابن عبد ربه فى عقده : "لابد من تاريخ الكتاب لأنه لا يدل على تحقيق الأخبار وقرب عهد الكتاب وبعده إلا بالتاريخ ، فإن أردت أن تؤرخ كتابك فانظر إلى ما مضى من الشهر وما بقى منه ، فإن كان ما بقى أكثر من نصف الشهر كتبت لكذا أو كذا ليلة مضت من شهر كذا ، وإن كان الباقى أقل من النصف جعلت

مكان مضت بقيت ، وقد قال بعض الكتاب لا تكتب إذا أرخت إلا بما مضى من الشهر لأنه معروف وما بقى منه مجهول" . ويعد التاريخ يكتبون على الرسائل أسماءهم أو يطبعون خواتمهم فإذا عرض الكاتب على الخليفة أو السلطان أو الأمير الرسالة المرفوعة إليه وأمره أن يكتب على حاشيته بما يفصل فى شأنها فما كتبه كانوا يسمونه توقيعاً (١) . ومثل هذا فى عصرنا يسمى شرحاً ، قال ابن خلدون : "ومن خطط الكتابة التوقيع ، وهو أن يجلس الكاتب بين يدى السلطان فى مجالس حكمه وفصله ويوقع على القصص المرفوعة إليه أحكمها والفصل فيها متلقاة من السلطان بأوجز لفظ وأبلغه ، فإما أن تصدر كذلك وإما أن يحنو الكاتب على مثالها فى سجل يكون بيد صاحب القصة" . وقال أيضاً : "إن الرسائل وغيرها فى سالف العصر إلى عهد خلافة بنى العباس كانت تكتب فى الرق المهيأ بالصناعة من الجلد ، ثم طمى بحر التأليف والتدوين وكثر ترسيل السلطان وصكوكه وضاق الرق عن ذلك ، فأشار الفضل بن يحيى بصناعة الكاغد ، وصنعه وكتب فيه رسائل السلطان وصكوكه ، واتخذه الناس من بعده صحفاً لمكتوباتهم السلطانية والعلمية ، وبلغت الإجادة فى صناعته ما شاءت" (*) . وقال فى موضع آخر : "وكانت صناعة الكتابة عند بنى العباس رفيعة ، وكان الكاتب يصدر السجلات مطلقة ويكتب فى آخرها اسمه ويختم عليها بخاتم السلطان وهو طابع منقوش فيه اسم السلطان أو شارته ، يغمس فى طين أحمر مذاب بالماء ويسمى طين الختم ويطبع به على طرفى السجل عند طيه وإلصاقه ، ثم صارت السجلات من بعدهم تصدر باسم السلطان ويضع الكاتب فيها علامته أولاً وآخراً" (**) . وقال أيضاً :"وأما الخاتم فهو من الخطط السلطانية والوظائف الملوكية ، والختم على الرسائل والصكوك معروف للملوك قبل الإسلام وبعده ، وقد ثبت فى الصحيحين أن النبى صلى الله عليه وسلم أراد أن يكتب إلى قيصر فقيل له إن العجم لا يقبلون كتاباً إلا أن يكون مختوماً ، فاتخذ خاتماً من فضة ونقش فيه محمد رسول الله ، قال البخارى جعل الثلاث كلمات فى ثلاثه أسطر وختم به ، وقال لا ينقش أحد مثله ، قال وتختم به أبو بكر وعمر وعثمان ثم سقط من يد عثمان فى بئر أريس وكانت قليلة الماء

(*) لم يرد التنصيص فى الأصل (المحرر) .

(**) لم يرد التنصيص فى الأصل (المحرر) .

فلم يدرك قعرها بعد واغتم عثمان وتطير منه وصنع آخر على مثله . وفى كيفية نقش الخاتم والختم به وجوه ، وذلك أن الخاتم يطلق على الآلة التى تجعل فى الإصبع ومنه تختم إذا لبسه ، ويطلق على النهاية والتمام ومنه ختمت الأمر إذا بلغت آخره وختمت القرآن كذلك ومنه خاتم النبيين وخاتم الأمر ، ويطلق على السداد الذى يسد به الأوانى والدنان ، ويقال فيه ختام ومنه قوله تعالى : "ختامه مسك" ، وقد غلط من فسر هذا بالنهاية والتمام ، قال لأن آخر ما يجدونه فى شرابهم ريح المسك وليس المعنى عليه وإنما هو من الختام الذى هو السداد لأن الخمر يجعل لها فى الدن سداد الطين أو القار يحفظها ويطيب عرفها ونوقها ، فبولغ فى وصف خمر الجنة بأن سدادها من المسك وهو أطيب عرفًا ونوقًا من القار والطين المعهودين فى الدنيا ، فإذا صح إطلاق الخاتم على هذه كلها صح إطلاقه على أثرها الناشئ عنها ، وذلك أن الخاتم إذا نقشت به كلمات أو أشكال ثم غمس فى مداف من الطين أو مداد ووضع على صفح القرطاس بقى أثر الكلمات فى ذلك الصفح ، وكذلك إذا طبع به على جسم لين كالشمع فإنه يبقى نقش ذلك المكتوب مرتسمًا فيه ، وإذا كانت كلمات وارتسمت فقد يقرأ من الجهة اليسرى إذا كان النقش على الاستقامة من اليمنى وقد يقرأ من الجهة اليمنى إذا كان النقش من الجهة اليسرى ، لأن الختم يقلب جهة الخط فى الصفح عما كان فى النقش من يمين أو يسار ، فيحتمل أن يكون الختم بهذا الخاتم بغمسة فى المداد أو الطين ووضعه على الصفح فتنقش الكلمات فيه ، ويكون هذا من معنى النهاية والتمام بمعنى صحة ذلك المكتوب ونفوذه كأن الكتاب إنما يتم العمل به بهذه العلامات وهو من دونها ملغى ليس بتمام" .

وأما الرسائل التى كانت سائرة بينهم ، فكانوا يبتدئونها بما يعن لهم مع مراعاة حال المكتوب إليه فبعضهم كان يبتدئ بنحو : "كتابى إلى فلان أطال الله بقاءه" ، أو "كتابى إلى ولدى العزيز أمتع الله به" ، أو "إلى فلان التاجر أدام الله إقباله" ، ثم يقول : "وبعد فكيت وكيت" ، ثم ينهى الرسالة بقوله "والسلام" ، وبعضهم كان يبتدئ بالسلام والتحية ويبالغ فى وصفها ثم يقول : "نخص بذلك فلان" ، ويمدحه ويدعو له ثم يقول : "وبعد فالأمر ما هو كذا وكذا" ، ثم يتم الكتاب بما يشعر بالانتهاء ويؤرخون الرسائل ويوقعون عليها كما سبق . وكانوا يتوخون فى هذه الرسائل السجع وتحسين

الألفاظ لكن بعضهم كن يطنب فى صدور الكتب ويبالغ فى مدح المكتوب إليه ويوجز فى الغرض المقصود ، وهذا غير حسن فى زماننا ، ولهذا اختاروا الآن فى صدور الكتب الرسمية والأهلية ديباجات مختصرة يتلوها الغرض المقصود .

أما الكتب الرسمية فى مصر وإن شئت قلت الرسائل بين موظفى الحكومة أو كما يقولون الإفادات أو الجوابات فديباجاتها عربية مشوبة بالتركية ، مع أن عبارات الرسائل نفسها عربية محضة فيكتبون لجلالة السلطان : "شوكتلو ولى النعم أفندمز حضر تلريناه" ، وللحضرة الفخيمة الخديوية : "دولتلو فخامتلو خديو مصر أفندمز حضر تلرى" ، وللصدر الأعظم : "دولتلو فخامتلو صدر أعظم أفندم حضر تلرى" ، ولشيخ الإسلام : "دولتلو سماحتلو أفندم حضر تلرى" ، وللسر عسكر : "دولتلو عطوفتلو افندم حضر تلرى" ، وللمشير : "دولتلو أفندم حضر تلرى" ، ولذى الرتبة الأولى من النصف الأول : "عطو فتلو أفندم حضر تلرى" ، ولذى الرتبة الأولى من النصف الثانى : "سعادتلو أفندم حضر تلرى" ، ولذى الرتبة الثانية من النصف الأول : "عزتلو أفندم" ، ولذى الرتبة الثانية من النصف الثانى : "عزتلو أفندى أو بيك" ، ولذى الرتبة الثالثة : "رفعتلو أفندى أو بيك" ، ولذى الرتبة الرابعة : "فتوتلو أفندى" ، ولذى الرتبة الخامسة : "حميتلو أفندى" . وجاء هذا من دخول مصر في حوزة الأتراك ، ويمكن الاصطلاح على ديباجات عربية خالصة توازى هذه ، وقد أخذ بعض الناس فى ذلك الآن فكتبوا بدل (دولتلو فخامتلو) صاحب الدولة والفخامة وبدل (أفندمز) مولانا وغير ذلك ، وبعد هذه الديباجات يدخلون على المقاصد بعبارات وجيزة تليق بالمكتوب إليه مثل : "يرفع هذا للسدة الكريمة العبد الخاضع فلان وينهى .." أو "أتشرف برفع هذا للمقام العالى وأنهى .." أو "أعرض على مسامع دولتكم ما هو .." أو "أحيط عطوفتكم علمًا بما هو .." أو "أقدم هذا لسعادتكم راجيًا كذا" أو "ألتمس من عزتكم كيت وكيت" أو "أبدى لحضرتكم كذا" ، وعلامة الانتهاء كلمة "أفندم" . ويؤرخونها بالتاريخ العربى والإفرنجى معًا ، ويضعونه أسفل الرسالة ، والمستعمل الآن فى التاريخ أن يكتب عدد ما مضى من أيام الشهر بالرقم وبعده اسم الشهر ثم اسم السنة وفوقها ما يدل عليها من الأرقام فيكتب مثلاً : "٢٥ شعبان سنة ١٣١٤" ثم يكتبون أسماء وظائفهم ويختمون تحتها وإن اقتصر المرسل على كتابة الاسم سموا

ذلك إمضاء ، ويسمون آلة طبع الاسم ختماً لا خاتماً ، وإن كانت الرسائل الرسمية جواباً عن أخرى ابتدءوها بعد الديباجات بنحو : "طبقاً للأمر الصادر فى كذا نمرة كذا أو أمر دولتكم" ، أو "بناء على أمر عطوفتكم أو سعادتكم" ، أو "بناء على ما ورد إلينا من عزتكم" ، أو "حيث إن حضرتكم طلبتم كذا" .

وأما الرسائل الأهلية الآن فيكتبون فى صدورها مثل "حضرة الفاضل أو الكامل أو الأديب أو المحترم أو العزيز أو الأخ أو صديقنا أو السيد فلان دام بقاؤه أو لازال ملحوظاً بعين العناية أو نحو ذلك" ، وقد يجمع الكاتب بين وصفين أو ثلاثة ثم بعد ذلك يذكرون عبارات تفيد إهداء التحية والسلام إلى المكتوب إليه ، ثم يدخلون فى الأغراض ويتممون الكتاب بنحو : "اقبلوا فائق احترامي والسلام" ، ويؤرخونها بالتاريخ العربى أو الإفرنجي ، وبعضهم يكتبه أسفل الرسالة وبعضهم يكتبه أعلاها كعادة الإفرنج ويمضونها بكتابة : "عبدكم فلان أو الخاضع المطيع أو محسوبكم أو صديقكم أو المحب المخلص أو ولدكم أو أخوكم أو الفقير إليه تعالى أو الحقير أو نحو ذلك" ، ومع هذا قد مال أغلب الناس إلى ترك مثل ذلك واقتصروا على كتابة الاسم مجرداً أو ختمه . وبعد إنهاء الرسالة ، رسمية أو أهلية ، توضع فى غلاف يسمى ظرفاً مصنوعاً على صورتها بعد طيها ، وأطراف الظروف مصمغة فتبل ويلصق بعضها ببعض ، ويكتب عليه عنوان المكتوب إليه وهو الديباجة المصدرة بها الرسالة . وعبارة الرسائل الرسمية والأهلية سهلة لا يتوخى فيها السجع ، إلا أن أدباء عصرنا يحتوون فى رسائلهم حذو أدباء السلف ليظهروا فضل أدبهم .

ومن أشهر ما كتب فى الرسائل رسائل أبى الفضل أحمد بن الحسين المعروف ببديع الزمان الهمذانى المتوفى سنة ٣٩٣ ، وقد طبعت بمطبعة الجوائب سنة ١٢٩٨ ، وقد كتب عليها شرحاً مفيداً الشيخ إبراهيم الأحدب الطرابلسى وطبع هذا الشرح سنة ١٨٩٠ للميلاد فى بيروت . ورسائل أبى بكر الخوارزمى وكان معاصراً للبديع وقد طبعت بمطبعة الجوائب سنة ١٢٩٧ . ورسالة أبى الوليد أحمد المعروف بابن زيدون الأندلسى المتوفى بإشبيلية سنة ٤٦٣ ، وقد أنشأها على لسان ولادة بنت المستكفى فى هجاء الوزير أبى عامر بن عبدوس الملقب بالفار ، وعليها شرح جليل لأبى بكر محمد ابن نباتة المتوفى سنة ٧٩٨ يعرف بسرح العيون .

ومما ساعد على تقديم صناعة الإنشاء فى عصرنا هذا (سنة ١٣١٤ للهجرة) صحف الأخبار الحاضرة المعروفة بالجرائد ، وإنشاؤها فى الجملة مرسل حسن يفهمه العوام ، ويرضاه الخواص ، وأقدم الجرائد العربية المنتشرة الآن فى مصر الجريدة الرسمية المعروفة بالوقائع المصرية ، فإن إنشاءها كان منذ ست وستين سنة فى عهد المغفور له محمد على باشا ، ثم جريدة الأهرام التى أنشئت من نحو ٢٢ سنة وصاحبها الفاضل تقلا باشا ، ثم جريدة الوطن ومحررها الفاضل ميخائيل أفندى عبد السيد ، وكلتاهما ظهرت فى عهد المغفور له إسماعيل باشا خديو مصر ، ثم جريدة المقطم التى أنشئت منذ تسع سنين ومنشئوها الأفاضل يعقوب أفندى صروف ، وفارس أفندى نمر ، وجاهين أفندى مكاريوس ، ثم جريدة المؤيد وصاحبها الفاضل الشيخ على يوسف وعمرها نحو ثمانى سنين ، وكلتاهما ظهرت فى عهد المغفور له محمد باشا توفيق خديو مصر .

وأما كتب العلوم فسير التأليف فيها لم يتغير عما كان عليه فى العصر السالف ، اللهم إلا من جهة حسن الوضع والترتيب والتقريب إلى الأذهان ، ومن عاداتهم أن يبتدئوها بخطب مفتتحة بالبسملة والحمولة والصلاة والتسليم ، ثم يقولون وبعد فكذا وكذا ويبينون الغرض من تأليف الكتاب وقد يذكرون فيه اسم الخليفة أو الملك أو الأمير الذى ألف فى عصره هذا الكتاب . وبعض معاصرينا لا يستحسنون ذلك وفاتهم أن هذا مفيد فى تاريخ العلوم . وفى هذه الخطب المؤلفون يظهرون براعتهم فى الإنشاء ويتوخون فيها تهذيب الكلام وتحسينه بأنواع البديع ، كبراعة الاستهلال والسجع والجناس ، ولهذا أفرد العلماء بعض خطب المصنفات بالشروح .

وأما القصص فمنها ماله خارج يطابقه فيكون من علم التاريخ ، ومنها ما هو حكايات مخترعة وضعت لتسلية النفوس وقت الفراغ ككتاب ألف ليلة وليلة ، وهذا النوع يعرف الآن بالروايات ، وقد أكثر من التصنيف فيه معاصرونا اقتداء بالإفرنج فإنهم فى هذا الفن قد حازوا قصبات السبق . ومن الحكايات الموضوعة المقامات الأدبية التى قصد بها منشئوها جمع مواد لغوية فى حكايات لطيفة حسنة الأسلوب يرغب فيها طالب الأدب ويسهل عليه حفظها ، ويتعرف منها أساليب الإنشاء كمقامات أبى الفضل أحمد بن الحسين الهمذانى المعروف ببديع الزمان المتوفى سنة ٣٩٣ ،

نسب روايتها إلى عيسى بن هشام ومبنى حديثها إلى أبى الفتح الإسكندرى ، وكلاهما اخترعه وهمه وخياله ، وقد طبعت هذه المقامات سنة ١٢٩٣ بمطبعة الجوائب ، وهى إحدى وخمسون مقامة ، وقد شرحها شرحاً لطيفاً الفاضل الشيخ محمد عبده ، وقد طبع هذا الشرح فى بيروت سنة ١٨٨٩ للميلاد . ومقامات أبى محمد القاسم بن على الحريري البصرى المتوفى سنة ٥١٦ بالبصرة ، قال فى خطبتها : "وبعد فإنه قد جرى ببعض أندية الأدب الذى ركدت فى هذا العصر ريحه وخبت مصابيحه ذكر المقامات التى ابتدعها بديع الزمان وعلامة همذان رحمه الله ، وعزا إلى أبى الفتح الإسكندرى نشأتها وإلى عيسى بن هشام روايتها ، وكلاهما مجهول لا يعرف ونكرة لا تتعرف ، فأشار من إشارته حكم وطاعته غنم إلى أن أنشئ مقامات أتلو فيها تلو البديع وإن لم يدرك الظالع شأو الضليع" .. إلى أن قال : "وأنشأت خمسين مقامة تحتوى على جد القول وهزله ورقيق اللفظ وجزله وغرر البيان ودرره وملح الأدب ونوادره ، إلى ما وشحتها به من الآيات ومحاسن الكنايات ورصعته فيها من الأمثال العربية واللطائف الأدبية والأحاجي النحوية والفتاوى اللغوية والرسائل المبتكرة والخطب المحبرة والمواعظ المبكية والأضاحيك الملهية ، مما أمليت جميعه على لسان أبى زيد السروجي وأسندت روايته إلى الحارث بن همام البصرى" .. إلى أن قال : "ومن نقد الأشياء بعين المعقول وأنعم النظر فى مبانى الأصول ، نظم هذه المقامات فى سلك الإفادات وسلكها مسلك الموضوعات عن العجماوات والجمادات ، ولم يسمع بمن نبا سمعه عن تلك الحكايات أو إثم رواتها فى وقت من الأوقات .. فأى حرج على من أنشأ ملحاً للتنبيه لا للتموية ونحا بها منحى التهذيب لا الأكاذيب وهل هو في ذلك إلا بمنزلة من انتدب لتعليم أو هدى إلى صراط مستقيم" . وقد طبعت فى بولاق سنة ١٣٠٠ للهجرة ، وكثير من طلاب الأدب يحفظونها أو بعضها وقد علق الأدباء عليها شروحاً كثيرة من أشهرها الشروح الثلاثة لأبى العباس أحمد بن عبد المؤمن القيسى الشريشى المتوفى سنة ٦١٩ ، وقد طبع منها الشرح الكبير في سفرين بمطبعة بولاق سنة ١٣٠٠ . ومقامات جمال الدين أبى الطاهر محمد بن يوسف السرقسطى المعروف بابن الاشتركونى المتوفى سنة ٥٣٨ ، وهى خمسون مقامة أنشأها بقرطبة على منوال مقامات الحريرى والتزم فيها ما لا يلزم ، ولذا تعرف بالمقامات اللزومية ، وحدث فيها المنذر بن حمام عن السائب بن

تمام . والمقامات الزينبية لشمس الدين أبى الندى معد بن أبى الفتح المعروف بابن صيقل الجزرى المتوفى سنة ٧٠١ ، وهى خمسون مقامة على منوال مقامات الحريرى ، نسبها إلى أبى نصر المصرى وعزا روايتها إلى القاسم بن جربال الدمشقى . ومجمع البحرين وهو ستون مقامة على منوال مقامات الحريرى ، أنشأها الشيخ ناصيف اليازجى المتوفى سنة ١٢٨٧ ، وقد طبعت ببيروت سنة ١٨٥٦ وسنة ١٨٧٢ للميلاد وفى كتابى قلائد الذهب فى فصيح لغة العرب أنشأت فى ألفاظ مادة (جلل) مقامة على منوال مقامات الحريرى التزمت فى كل سجعة منها أن آتى بكلمة من هذه المادة وتعرف بالمقامة الجلالية ، وسيأتى ذكرها فى الفصل الثالث .

وأما الخطب فلا تزال أحوال الناس فى كل عصر تدعو إلى قيام نبلائهم ليخطبوا فيهم بما يقوم معوجهم أو يرشدهم إلى ما فيه صلاحهم أو يعظهم الموعظة الحسنة أو يستفزهم إلى خير أو يثبطهم عن ضير أو نحو ذلك . وكان الخطباء فى العصر السالف يخطبون ارتجالاً فى الأحوال القائمة بينهم ، وقبل الإسلام كانت لهم أسواق يلقون فيها الخطب وبعده كانوا يلقونها فى المحافل والمساجد ، وفى عصرنا هذا الخطب الدينية مدونة يحفظها الخطباء ويلقونها كما هى أيام الجمع على المصلين وقت الظهر ، وهذه الخطب تسمى بالمنبرية لأنهم يلقونها وهم على المنابر ، وكثير من العلماء صنف لكل جمعة من كل شهر خطبة خاصة بها ، ومصنفات الخطب تعرف بالدواوين ، فإذا اتبع خطيب مسجد ديوان خطب خاص تكررت الخطبة الواحدة قدر سنى الخَطّابة هذا . وقد جمع السيد المرتضى أبو القاسم على بن الطاهر المتوفى سنة ٤٣٦ ببغداد المختار من كلام أمير المؤمنين على بن أبى طالب فى الخطب والرسائل والحكم فى كتاب سماه "نهج البلاغة" ، قال فى خطبته : "وقد رأيت كلامه عليه السلام يدور على أقطاب ثلاثة أولها الخطب والأوامر وثانيها الكتب والرسائل وثالثها الحكم والمواعظ" . وعلى هذا النهج شرح لطيف للقاضى الفاضل الشيخ محمد عبده ، طبع فى بيروت سنة ١٨٨٥ للميلاد . ولأبى يحيى عبد الرحيم المعروف بابن نباتة خطيب حلب المتوفى سنة ٣٧٤ بميافارقين "ديوان خطب أدبية" عليه شروح كثيرة ، منها شرح لعبد اللطيف البغدادى المتوفى سنة ٦٢٩ ، ومنها شرح الشيخ طاهر أفندى الجزائرى من أفاضل هذا العصر ، وقد طبع هذا الشرح مع الخطب فى بيروت سنة ١٣١١ .

وابن نباتة هذا اجتمع مع المتنبى فى خدمة سيف الدولة بن حمدان . وينخرط فى سلك الخطب مقالات الزمخشرى المعروفة بأطواق الذهب في المواعظ والخطب ، طبعت فى بيروت فى مطبعة جمعية الفنون سنة ١٢٩٣ ، وعليها شرح لطيف للشيخ الفاضل يوسف أفندى الأسير . ومقامات الزمخشرى الوعظية وقد طبعت بالمطبعة العباسية بمصر سنة ١٣١٢ عليها شرح له . ومقالات عبد المؤمن المغربى الأصفهانى المعروفة بأطباق الذهب قد سلك فيها مسلك الزمخشرى فى أطواقه وقد طبعت بدار الطباعة ببولاق سنة ١٢٨٠ للهجرة . ومن دواوين الخطب المنبرية ديوان شيخ الإسلام أبى يحيى زكريا الأنصارى المتوفى سنة ٩٢٦ ، ويسمى بالتحفة العلية فى الخطب المنبرية . وديوان الشيخ إبراهيم السقا الأزهرى المتوفى سنة ١٢٩٨ ويسمى غاية الأمنية فى الخطب المنبرية . وديوان الفاضل السيد محمد الببلاوى وكيل المكتبة الخديوية وقد طبع هذه السنة (سنة ١٣١٤) بمطبعة بولاق .

وأما الوصف فطريقة كتابة السلف والخلف فيه كطريقتهم فى غيره من حيث ابتكار المعانى وحسنها وتسجيع الكلام وإرساله ، إلا أن تجدد المرئيات المبتدعة مع العصور المتوالية والأمكنة المختلفة جعلت صور الإنشاء فيها بديعة الآن عما كانت عليه قبل ، فالحضارة والإقليم لهما تأثير عظيم على الوصف الكتابى كتأثيرهما على الشعر ، وهذا النوع من أهم أنواع الإنشاء ، وفيه تتفاوت أقدار المنشئين ، وقد عنى به الإفرنج كثيراً تبعاً لمدنيتهم .

الفصل الثالث

فى شذرات من منشآت السلف والخلف

١ – خطب أبو طالب فى محفل زواج النبى صلى الله عليه وسلم بخديجة بنت خويلد ، فقال : "الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل وضئضئ معد وعنصر مضر ، وجعل لنا بيتًا محجوجًا وحرمًا آمنًا ، وجعلنا أمناء بيته وسواس حرمه ، وجعلنا حكامًا على الناس ، وإن ابن أخى محمد بن عبد الله من قد علمتم قرابته ، وهو لا يوزن به أحد إلا رجح به فإن كان فى المال قل فإن المال ظل زائل ، وقد خطب خديجة بنت خويلد وبذل لها من الصداق ما عاجله وآجله من مالي كذا وكذا ، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل" .

٢ – وكتب عليه الصلاة والسلام إلى خالد بن الوليد جوابًا عن كتابه له بإسلام بنى الحارث ، وقد أرسل إليهم وهو : "من محمد رسول الله إلى خالد بن الوليد ، سلام عليك ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو أما بعد ، فإن كتابك جاءنى مع رسولك يخبرنى بأن بنى الحارث قد أسلموا قبل أن تقاتلهم وأجابوا إلى ما دعوتهم إليه من الإسلام ، وشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وإن قد هداهم الله بهداه فبشرهم وأنذرهم وأقبل وليقبل معك وفدهم ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته" .

٣ – رسالة معزوّة إلى أبى بكر وعمر بعثا بها كما قيل إلى على ، روى عن أبى عبيدة أنه قال : لما استقامت الخلافة لأبى بكر بين المهاجرين والأنصار ، ولحظ بعين الهيبة والوقار وإن كان لم يزل كذلك بعد هنة كاده الشيطان بها ، فدفع الله عز وجل

شرها ورحض عرّها ويسر خيرها وأزاح ضيرها وردّ كيدها وقسم ظهر النفاق والفسوق من أهلها ، بلغ أبا بكر الصديق رضي الله عنه عن على بن أبى طالب رضى الله عنه تلكؤ وشماس وتهمهم ونفاس وكره أن يتمادى الحال وتبدو العدواة وتنفرج ذات البين ، ويصير ذلك دربة لجاهل مغرور أو عاقل ذى دهاء أو صاحب سلامة ضعيف القلب خوّار العنان ، دعانى فحضرته وعنده عمر بن الخطاب وحده وكان يدمل أرضه بالسرجين ، وكان عمر قبسًا له ظهيرًا معه يستضيئ برأيه ويستملى على لسانه ، فقال لى يا أبا عبيدة ما أيمن ناصيتك وأبين الخير بين عينيك وعارضيك ، ولقد كنت من رسول الله صلي الله عليه وسلم بالمكان المحوط والمحل المغبوط ، ولقد قال فيك فى يوم مشهود أبو عبيدة أمين هذه الأمة وطال ما أعز الله بك الإسلام وأصلح فساده على يديك ولم تزل للدين ملجأ وللمؤمنين دوحًا ولا هلك ركنًا ولإخوانك ردأ ، قد أردتك لأمر له ما بعده خطره مخوف وصلاحه معروف ، ولئن لم يندمل جرحه بمسبرك ولم تستجب حيته لرقيتك فقد وقع اليأس وأعضل البأس واحتيج بعد ذلك إلى ما هو أمر من ذلك وأعلق وأعسر منه وأغلق ، والله أسال تمامه بك ونظامه على يديك فتأنّ له يا أبا عبيدة وتلطف فيه وانصح لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم ولهذه العصابة غير آل جهدًا ولا قال جدًا ، والله كالئك وناصرك وهاديك ومبصرك وبه الحول والتوفيق ، امض إلى على واخفض جناحك له واغضض من صوتك عنده واعلم أنه سلالة أبى طالب ومكانه ممن قد فقدناه بالأمس صلى الله عليه وسلم مكانه ، وقل له :

"البحر مغرقة والبر مفرقة والجو أكلف والليل أغلف والسماء جلواء والأرض صلعاء والصعود متعذر والهبوط متعسر والحق رءوف عطوف ، والباطل شنوف عنوف والعجب قادح والشرار والضغن رائد البوار والتعريض شجار الفتنة والقعة ثقوب العدواة ، وهذا الشيطان متكئ على شماله متحبل بيمينه نافج حضنيه لأهله ينتظر الشتات والفرقة ويدب بين الأمة بالشحناء والعداوة عنادًا لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم ولدينه ثالبًا ، يوسوس بالفجور ويدلى بالغرور ويمنى أهل الشرور ويوحى إلى أوليائه بالباطل والزور ، دأبًا له مذ كان على عهد أبينا آدم صلى الله عليه وسلم وعادة منه منذ إهانة الله عز وجل فى سالف الدهر ، لا ينجى منه إلا بعض النواجذ على الحق ، وغض الطرف عن الباطل ووطء هامة عدو الله وعدو الدين بالأشد فالأشد

والأحد فالأحد وإسلام النفس لله عز وجل فيما حاز رضاه وجنب سخطه ، ولابد الآن من قول ينفع إذا ضر السكوت وخيف غبه ، ولقد أرشدك من أفاء ضالتك وصافاك من أحيا مودته لك بعتابك وأراد الخير بك من آثر البقاء معك ، ما هذا الذى تسول لك نفسك ويدوى به قلبك ويلتوى به عليك رأيك ويتخاوص دونه طرفك ، ويسرى فيه ظعنك وتتراد معه نفسك وتكثر معه صعداؤك ، ولا يفيض به لسانك أعجمه بعد إفصاح ، أتلبيس بعد إيضاح أدين غير دين الله عز وجل ، أخلق غير خلق القرآن ، أهدى غير هدى النبى صلى الله عليه وسلم ، أمثلى يدب له الضراء أو يمشى إليه الخمر أم مثلك ينقبض عليه الفضاء أو يكسف فى عينه القمر ، ما هذه القعقعة بالشنان وما هذه الوعوعة باللسان ، إنك جد عارف باستجابتنا لله عز وجل ولرسوله عليه السلام وخروجنا عن أوطاننا وأموالنا وأولادنا وأحبتنا هجرة إلى الله تعالى عز ذكره ولنصرة نبيه صلى الله عليه وسلم فى زمان أنت فيه فى كن الصبى وخدر الغرارة غافل عما يشيب ويريب ، لا تعى ما يراد ويشاد ولا تحصل ما يساق ويقاد ، سوى ما أنت جار عليه إلى غايتك التى إليها عدى بك وعندها حط رحلك غير مجهول القدر ولا مجحود الفضل ، ونحن فى أثناء ذلك نعانى أحوالاً تزيل الرواسى ونقاسى أهوالاً تشيب النواصى ، خائضين غمارها راكبين تيارها نتجرع صابها ونشرج عبابها ونسوغ غبابها ونحكم أساسها ونبرم أمراسها ، والعيون تحدج بالحسد والأنوف تعطس بالكبر والصدور تستعر بالغيظ والأعناق تتطاول بالفخر والشفار تشحذ بالمكر والأرض تميد بالخوف ، ولا ننتظر عند المساء صباحًا ولا عند الصباح مساءً ، ولا ندفع فى نحر أمر لنا إلا بعد أن نحسو الموت دونه ، ولا نبلغ إلى شىء إلا بعد جرع الغصص معه ، ولا نقوم منادًا إلا بعد اليأس من الحياة عنده ، فأدين فى كل ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالأب والأم والخال والعم والنشب والسبد واللبد والهلة والبلة بطيب نفس وقرور عين ورحب أعطان وثبات عزائم وصحة عقول وطلاقة أوجه وذلاقة ألسن ، هذا إلى خفيات أسرار ومكنونات أخبار كنت عنها غافلاً ولولا حداثة سنك لم تكن عنها ناكلاً ، كيف وفؤادك مشهوم وعودك معجوم وغيبك مخبور والقول فيك كثير ، والآن قد بلغ الله بك وأرهص الخير لك وجعل مرادك بين يديك ، وعن علم أقول ما تسمع فارتقب زمانك وقلص إليه أردانك ودع التجسس والتعسس لمن لا يظلع إليك

إذا خطا ، ولا يتزحزح عنك إذا عطا ، فالأمر غض والنفوس فيها مض ، وإنك أديم هذه الأمة فلا تحلم لجاجًا وسيفها العضب فلا تنب اعوجاجا وماؤها العذب فلا تحل أجاجًا ، والله لقد سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذا الأمر فقال لى يا أبا بكر هو لمن يرغب عنه لا لمن يرغب فيه ويجاحش عليه ولمن تضاءل له لا لمن ينتفخ إليه ولمن يقول هو لك لا لمن يقول هو لى ، والله لقد شاورنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصهر فذكر فتيانًا من قريش فقلت أين أنت من على ، فقال إنى لأكره لفاطمة ميعة شبابه وحداثة سنة ، فقلت له متى كنفته يدك ورعته عينك حفت بهما البركة وسبغت عليهما النعمة مع كلام كثير خطبت به عنك ورغبته فيك ، وما كنت عرفت منك فى ذلك حوجاء ولا لوجاء ، فقلت ما قلت وأنا أرى مكان غيرك واجد رائحة سواك ، وكنت لك إذ ذاك خيراً منك الآن لى ، ولئن كان عرّض بك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد كنى عن غيرك وإن كان قال فيك فما سكت عن سواك وإن يختلج فى نفسك شىء فهلم فالحكم مرضى والصواب مسموع والحق مطاع ، ولقد نقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلىّ ما عند الله عز وحل وهو عن هذه العصابة راض وعليها حدب يسره ما يسرها ، ويكيده ما كادها ، ويرضيه ما أرضاها ويسخطه ما أسخطها ألم تعلم أنه لم يدع أحداً من أصحابه وخلطائه وأقاربه وشجرائه إلا أبانه بفضيلة وخصه بمكرمة وأفرده بخلاله لو أصفقت الأمة عليه لكان عنده إبالتها وكفالتها وكرامتها وغزارتها ، أتظن أنه صلى الله عليه وسلم ترك الأمة نشراً بسدى بدداً عدى عباهل مباهل طلاحًا مفتونة بالباطل مغبونة عن الحق لا ذائد ولا حائط ولا ساقى ولا واقى ولا هادى ولا حادى ، كلا والله ما اشتاق إلى ربه تعالى ولا سأله المصير إلى رضوانه حتى ضرب الصُّوَى وأوضح الهدى وأمَّن المهالك والمطاوح وسهل المبارك والمهايع وشدخ يا فوخ الشرك بإذن الله عز وجل وشرم وجه النفاق لوجه الله تعالى جَدَّه وجدع أنف الفتنة فى ذات الله تبارك اسمه وتفل فى وجه الشيطان بعون الله وجل ذكره وصدع بملء فيه ويده بأمر الله عز وجل ، وبعد فهؤلاء المهاجرون والأنصار عندك ومعك فى دار واحدة وبقعة جامعة إن استقالونى لك وأشاروا عندى بك فأنا واضع يدى فى يدك وصائر إلى رأيهم فيك ، وإن تكن الأخرى فادخل فيما دخل فيه المسلمون وكن العون على مصالحهم والفاتح لمغالقهم والمرشد لضالهم والرادع لغاويهم ، فقد أمر

الله عز وجل بالتعاون على البر وأهاب إلى التناصر على الحق ، ودعنا نقضى هذه الحياه الدنيا بصدور برئية من الغل ، ونلق الله عز وجل بقلوب سليمة من الضغن ، (وبعد) فالناس ثمامة فارفق بهم وأحن عليهم ولن لهم ولا تشق نفسك بنا خاصة فيهم واترك ناجم الحقد حصيداً وطائر الشر واقعًا وباب الفتنة غلقًا ، فلا قال ولا قيل ولا لوم ولا تبيع ، والله عز وجل على ما نقول وكيل وبما نحن عليه بصير" .

قال أبو عبيدة : فلما تهيأت للنهوض قال لى عمر كن لدى الباب هنية فلى معك نصيب من القول ، فوقفت ولا أدرى ما كان بعدى إلا أنه لحقنى ووجهه يندى تهللا ، وقال قل لعلى :

"الرقاد محلمة واللجاج ملحمة والهوى مفحمة ، وما منا أحد إلا وله مقام معلوم وحق مشاع أو مقسوم ونبأ ظاهر أو مكتوم وإن أكيس الكيسى من منح الشارد تألفًا وقارب البعيد تلطفًا ووزن كل امرئ بميزانه ، ولم يخلط خبره بعيانه ولم يجعل فتره مكان شبره ولا خيره مكان شره ولا خير فى معرفة مشوبة بنكرة ولا فى علم معتمل فى جهل ، ولسنا كجلدة رفغ البعير بين العجان وبين الذنب ، وكل صال فبناره وكل سبيل فإلى قراره ، وما كان سكوت هذه العصابة إلى هذه الغاية لعى وشىً وكلامها اليوم لفتق أو رتق ، قد جدع الله بمحمد صلى الله عليه وسلم أنف كل ذى كبر وقصف ظهر كل جبار وقطع لسان كل كنوب ، فماذا بعد الحق إلا الضلال ، ما هذه الخنزوانة التى فى فراش رأسك ، وما هذا الشجا المعترض فى مدارج أنفاسك ، وما هذه الوحرة التى أكلت شرأسيفك ، والقذاة التى أعشت ناظرك ، وما هذا الدخس والدس اللذان يدلان على ضيق الباع وخور الطباع ، وما هذا الذى لبست بسببه جلدة النمر واشتملت عليه بالشحناء والنكر لشد ما استسعيت إليها وسريت سرى ابن أنقد إليها ، إن العوان لا تعلم الخمره ، وإن الحصان لا تكلم خبرة ، وما أحوج الفرعاء إلى فال ، وما أفقر الصلعاء إلى خال ، لقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والأمر محبس ليس لأحد فيه ملمس ، ولم يسير فيك قولاً ، ولم يستنزل فيك قرآنًا ، ولم يجزم فى شأنك حكمًا ، ولسنا فى كسروية كسرى ، ولا فى قيصرية قيصر ، إنما ذلك لأخدان فارس وأبناء الأصفر ، قوم جعلهم الله جزراً لرماحنا وخرزًا لرماحنا ومرمى

لطعاننا وتبعًا لسلطاننا ، بل نحن فى نور نبوة وضياء رسالة وثمرة حكمة وأثرة رحمة وعنوان نعمة وظل عصمة بين أمة مهدية بالحق والصدق مأمونة على الفتق والرتق ، لها من الله عز وجل قلب أبيّ وساعد قوى ويد ناصرة وعين باصرة ، أتظن أن أبا بكر الصديق وثب على هذا الأمر مفتاتًا على هذه الأمة خادعًا لها متسلطًا عليها ، أتراه امتلخ أحلامها وأزاغ أبصارها وحل عقدها وأحال عقولها واستل من صدورها حميتها وانتزع من أكبادها عصبيتها ونكث رساءها وأنضب ماءها وأضلها عن هداها وساقها إلى رداها وجعل نهارها ليلاً ووزنها كيلاً ويقظتها رقاداً وصلاحها فساداً ، إن كان هكذا إن سحره لمبين وإن كيده لمتين ، كلا والله بأى خيل ورجل وبأى سنان ونصل وبأى قوة ومنة وبأى نخر وعدجة وبأى أيد وشدة وبأى عشيرة وأسرة وبأى تدرع وبسطة ، لقد أصبح عندك بما وسمته منيع العقبة رفيع العتبة ، لا والله ولكن سلا عنها فولهت إليه وتطامن لها فلصقت به ومال عنها فمالت إليه واشتمل دونها فاشتملت عليه ، حبوة حباه الله بها وعاقبة بلغه الله إياها ونعمة سربله الله جمالها ويد أوجب عليه شكرها وأمة نظر الله به لها ، ولطال ما حلقت فوقه فى أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو لا يلتفت لفتها ولا يرتصد وقتها ، والله أعلم بخلقه وأرأف بعباده يختار ما كان لهم الخيرة ، وأنك بحيث لا يجهل موضعك من بيت النبوة ومعدن الرسالة وكهف الحكمة ولا يجحد حقك فيما أتاك ربك ، ولكن لك من يزاحمك بمنكب أضخم من منكبك وقرب أمس من قربك ، وسن أعلى من سنك وشيبة أروع من شيبتك وسيادة لها عرق من الجاهلية وفرع فى الإسلام والشريعة ، ومواقف ليس لك فيها من جمل ولا ناقة ، ولا تذكر منها فى مقدمة ولا ساقة ، ولا تضرب فيها بذراع ولا إصبع ولا تخرج منها ببازل ولا هبع ، فإن عذرت نفسك فيما تهدر به شقشقتك من صاغيتك فاعذرنا فيما تسمع منا فى لين وسكون مما لا تبعده منه ، ولا تناضله عليه ولئن حدثت بهذا نفسك ليتنخشن عليك ما ينسيك الأولى ويلهيك عن الأخرى ، ولو علم من عرضنا به بما فى أنفسنا له وعليه لما سكت ولاتخذت أنت وليجة إلى بعض الأرب . فأما أبو بكر الصديق فلم يزل حبة سويداء قلب رسول الله صلي الله عليه وسلم ، وعلاقة همه وعيبه سره ومثوى حزنه ومفزع رأيه ومشورته وراحة كفه ومرمق طرفه ، وذلك كله بمحضر الصادر والوارد من المهاجرين والأنصار شهرته مغنية عن الدلالة عليه ،

ولعمرى إنك أقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قرابة لكنه أقرب قربة ، والقرابة لحم ودم والقربة روح ونفس ، وهذا فرق قد عرفه المؤمنون وكذلك صاروا أجمعين ، ومهما شككت فيه فلا تشك أن يد الله مع الجماعة ورضوانه لأهل الطاعة فادخل فيما هو خير لك اليوم وأنفع لك غداً ، والفظ من فيك ما تعلق بلهاتك وانفث سخيمة صدرك عن نفاثك فإن يكن فى الأمد طول وفى الأجل فسحة فستأكله مريًا أو غير مرىّ وستشربه هنيًا أو غير هنىّ ، حين لا راد لقولك إلا من كان منك ولا تابع لك إلا من كان طامعًا فيك ، يمض إهابك ويفرى قادمتك ويزرى على هديك ، هناك تقرع السن من ندم وتجرع الماء ممزوجًا بدم ، وحينئذ تأسى على ما مضى من عمرك ودرج من قومك فتود أن لو سقيت بالكأس التى أبيتها ورددت للحال التى استبريتها ، ولله تعالى فينا وفيك أمر هو بالغه وغيب هو شاهده وعاقبة هو المرجو لضرّائها وسرائها ، وهو الولى الحميد الغفور الودود" .

قال أبو عبيدة رضى الله عنه : فمشيت متزملا أتوجى كأنما أخطو على أم رأسى فرقًا من الفرقة وشفقًا على الأمة ، حتى وصلت إلى على فى خلاء فأبثثته بثى كله وبرئت إليه منه ورفقت به ، فلما سمعها ووعاها وسرت فى أوصاله حمياها ، قال حلت معلوطة وولت مخروطة حل لآحليت التعس أدنى لها من أن أقول لها .

إحدى ليـاليك فـهيـسى هيسى   لا تنـعـمى الليـلة بالتـعـريس

نعم يا أبا عبيدة أكل هذا فى أنفس القوم يحتبون عليه ويضطبعون به ، قال أبو عبيدة فقلت لا جواب لك عندى إنما أنا قاض حق الدين وراتق فتق الإسلام للمسلمين وساد ثلثمة الأمة يعلم الله ذلك من جلجلان قلبى وقرارة نفسى ، قال على رضى الله عنه : والله ما كان قعودى فى كسر هذا البيت قصداً للخلاف ولا إنكاراً للمعروف ولا زراية على مسلم ، بل لما وقذنى به رسول الله صلى الله عليه وسلم بفراقة ، وأودعنى من الحزن بفقده ، وذلك أنى لم أشهد بعده مشهداً إلا جدد لى حزنًا وذكرنى شجواً وإن الشوق إلى اللحاق به كاف عن الطمع فى غيره ، فقد عكفت على عهد الله أنظر فيه وأجمع ما تفرق منه رجاء ثواب معد لمن أخلص عمله وسلم لعلمه ومشيئة ربه ،

على أني ما علمت أن التظاهر عليّ واقع ولا عن الحق الذى سبق إلى دافع ، وإذ قد أفعم الوادى بى وحشد النادى من أجلى فلا مرحبًا بما ساء أحداً من المسلمين وفى النفس كلام لولا سابق قول وسالف عهد لشفيت غيظى بخنصرى وبنصرى وخضت لجته بأخمصى ومفرقى ، لكنى ملجم إلى أن ألقى الله عز وجل ، وعنده أحتسب ما نزل بي وأنا غاد إلى جماعتكم ومبايع لصاحبكم وصابر على ما ساءني وسركم ليقضى الله أمراً كان مفعولاً ، وكان الله على كل شيء شهيداً ، قال أبو عبيدة : فعدت إلى أبى بكر وعمر رضى الله عنهما فنصصت القول على غره ولم أختزل شيئًا من حلوه ومره وذكرت غدّوه إلى المسجد ، فلما كان صباح يومئذ وافى على فخرق إلى أبى بكر فبايعه ، وقال خيراً ووصف جميلاً وجلس زميتًا واستأذن للقيام ونهض فشيعه عمر تكرمة له واستثاره لما عنده ، فقال له على : ما قعدت عن صاحبكم كارهاً له ولا آتيته فرقًا منه وما أقول ما أقول لعلة وإني لأعرف مسمى طرفى ومخطى قدمى ومنزع قوسى وموقع سهمى ، ولكنى قد أزمت على فأسى ثقة بالله فى الإبالة فى الدنيا والآخرة ، فقال له عمر كفكف غربك واستوقف سربك ودع العصا بلحائها والدلاء برشائها فإنا من خلفها وورائها ، إن قدحنا أورينا وإن متحنا أروينا وإن جرحنا أدمينا وإن نصحنا أربنا ، ولقد سمعت أماثيلك التى لغوت بها عن صدر أكل بالجوى ولو شئت لقلت على مقالتك ما إذا سمعته ندمت على ما قلته ، زعمت أنك قعدت فى كسر بيتك لما وقذك به رسول الله صلى الله عليه وسلم بفراقه ، أفرق رسول الله صلى الله عليه وسلم وقذك وحدك ولم يقذ سواك بل مصابه أعظم وأعز من ذلك فإن من حق مصابه أن لا يصدع شمل الجماعة بكلمة لا عصام لها ، ولا يزرى على أخيارها بما لا يؤمن كيد الشيطان فى عقباها ، هذه العرب حولنا والله لو تداعت علينا فى مصبح يوم لم نلتق فى ممساه ، وزعمت أن الشوق إلى اللحاق به كاف عن الطمع فى غيره فمن الشوق إليه نصرة دينه وموازرة أولياء الله تعالى جده ومعاونتهم فيه ، وزعمت أنك عكفت على عهد الله عز وجل تجمع ما تبدد منه فمن العكوف على عهده النصيحة لعباده والرقة على خلقه وبذل ما يصلحون به ويرشدون إليه ، وزعمت أنك لم تعلم أن التظاهر عليك واقع ولك عن الحق الذى سبق إليك دافع فأى تظاهر وقع عليك وأى حق لك ليط دونك ، وقد علمت ما قالت الأنصار لك بالأمس سراً وجهراً وما تقلبت عليه

بطنًا وظهراً فهل نكرتك أو أشارت بك أو وجدنا رضاها عنك هؤلاء المهاجرون من الذى قال بلسانه تصلح لهذا الأمر أو أومأ بعينه أوهمهم فى نفسه ، أتظن أن الناس قد ضلوا من أجلك وعادوا كفاراً زهداً فيك وباعوا الله عز وجل ورسول الله صلى الله عليه وسلم تحاملاً عليك ، لا والله ولكنك اعتزلت تنتظر الوحى وتتوكف مناجاة الملك لك ، ذلك أمر طواه الله عز وجل بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، أكان الأمر معقوداً بأنشوطه أو مشدوداً بأطراف ليطه ، كلا والله إن الغيابة لمحلقة وإن الشجرة لمورقة ولا عجماء بعد حمد الله إلا وقد فصحت ولا عجفاء إلا وقد سمنت ولا بلهاء إلا وقد فطنت ولا شوكاء إلا وقد نقحت ، ومن أعجب شأنك قولك لولا سابق قول وسالف عهد لشفيت غيظى وهل ترك الدين لأحد من أهله أن يشفى غيظه بيده ولسانه تلك جاهلية قد استأصل الله شأفتها ودفع عن الناس آفتها وأقلع جرثومتها وهور ليلها وغور سيلها ، وأبدل منها الروح والريحان والهدى والبرهان ، وزعمت أنك ملجم فلعمرى إن من اتقى الله عز وجل وآثر رضاه وطلب ما عنده أمسك لسانه وأطبق فاه وجعل سعيه لما وراءه ، قال على رضى الله عنه : والله ما بذلت مابذلت وأنا أريد نكثه ولا أقررت بما أقررت وأنا أريد حولاً عنه ، وإن أخسر الناس صفقة عند الله عز وجل من آثر النفاق واحتضن الشقاق وبالله سلوة من كل كارث وعليه التوكل فى كل الحوادث ، ارجع يا أبا حفص ناقع القلب فسيح البال مبرود الغليل فصيح اللسان فليس وراء ما سمعته وقلته إلا ما يشد الأزر ويحط الوزر ويضع الإصر ويجمع الألفة ويرفع الكلفة ويوقع الزلفة بمعونة الله عز وجل وحسن توفيقه .

٤ - وخطب عمر بن الخطاب فقال : "أيها الناس اتقوا الله فى سريرتكم وعلانيتكم وأمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر ، ولا تكونوا مثل قوم كانوا فى سفينة فأقبل أحدهم على موضعه يخرقه فنظر إليه أصحابه فمنعوه ، فقال هو موضعي ولى أن أحكم عليه فإن أخذوه على يده سلم وسلموا ، وإن تركوه هلك وهلكوا معه ، وهذا مثل ضربته لكم رحمنا الله وإياكم " .

٥ - وكتب إلى أبى موسى الأشعرى : "بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد ، فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة فافهم إذا أدلى إليك ، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا

نفاذ له آس بين الناس في مجلسك ووجهك ، حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا يخاف ضعيف من جورك ، والبينة على من ادعي واليمين على من أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحًا حرم حلالاً أو أحل حرامًا ، ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس راجعت فيه نفسك وهديت فيه لرشدك أن ترجع عنه ، فإن الحق قديم ومراجعه الحق خير من التمادى في الباطل ، الفهم الفهم عندما يتلجلج في صدرك مما لم يبلغك في كتاب الله ولا سنة النبي صلى الله عليه وسلم ، اعرف الأمثال والأشباه وقس الأمور عند ذلك ، ثم اعمد إلى أحبها إلى الله وأشبهها بالحق فيما ترى ، واجعل للمدعى حقًا غائبًا أو بينة أمدًا ينتهي إليه فإن أحضر بينة أخذت له بحقه وإلا وجهت عليه القضاء ، فإن ذلك أنفى للشك وأجلى للعمى وأبلغ في العذر . المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلودًا في حد أو مجريًا عليه شهادة زور أو ظنينًا في ولاء أو قرابة ، فإن الله قد تولي منكم السرائر ودرأ عنكم بالشبهات ، ثم إياك القلق والضجر والتأذى بالناس والتنكر للخصوم في مواطن الحق التي يوجب الله بها الأجر ويحسن بها الذخر ، فإنه من يخلص نيته فيما بينه وبين الله تبارك وتعالى ، ولو على نفسه يكلفه الله ما بينه وبين الناس ، ومن تزين للناس بما يعلم الله خلافه منه هتك الله ستره وأبدى فعله والسلام عليك" .

٦ - ووقع في أسفل كتاب كتبه إليه سعد بن أبي وقاص في بنيان يبنيه بما صورته : "ابن ما يكنك من الهواجر وأذى المطر" .

٧ - وكتب عثمان بن عفان إلى على بن أبي طالب وكان خرج إلى الينبع وقد أحاط الناس بعثمان : "أما بعد ، فقد بلغ السيل الزبي وجاوز الحزام الطبيين وطمع فيّ كل من كان يضعف عن نفسه ، ولم يغلبك مِثْلُ مغلب فأقبل إلى صديقًا كنت أو عدوًا .

فان كنت مأكولاً فكن خير آكل وإلا فأدركني ولما أمزق

٨ - وخطب على بن أبي طالب عليه السلام لما خاطبه العباس وأبو سفيان بن حرب في أن يبايعا له بالخلافة بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم خطبة منها : "أيها الناس شقوا أمواج الفتن بسفن النجاة ، وعرجوا عن طريق المنافرة ، وضعوا عن

تيجان المفاجرة ، أفلح من نهض بجناح ، أو استسلم فأراح ، هذا ما آجن ولقمة يغض بها آكلها . ومجتنى الثمرة لغير وقت إيناعها كالزارع بغير أرضه فإن أقل يقولوا حرص على الملك ، وإن أسكت يقولوا جزع من الموت . هيهات بعد اللتيا والتى والله لابن أبى طالب آنس بالموت من الطفل بثدى أمه . بل اندمجت على مكنون علم لو بحت به لاضطربتم اضطراب الأرشية فى الطوى البعيدة" .

٩ - وكتب للأشتر النخعى لما ولاه على مصر وأعمالها عهداً يجمع كثيراً من المحاسن وهو : "بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أمر به عبد الله على أمير المؤمنين مالك بن الحارث الأشتر فى عهده إليه حين ولاه مصر جباية خراجها وجهاد عدوها واستصلاح أهلها وعمارة بلادها . أمره بتقوى الله وإيثار طاعته واتباع ما أمر به فى كتابه من فرائضه وسننه ، التى لا يسعد أحد إلا باتباعها ولا يشقي إلا مع جحودها وإضاعتها ، وإن ينصر الله سبحانه بقلبه ويده ولسانه فإنه جل اسمه قد تكفل بنصر من نصره وإعزاز من أعزه . وأمره أن يكسر نفسه عند الشهوات ويزعها عند الجمحات فإن النفس أمارة بالسوء إلا ما رحم الله ، ثم اعلم يا مالك أنى وجهتك إلى بلاد قد جرت عليها دول قبلك من عدل وجور وإن الناس ينظرون من أمورك فى مثل ما كنت تنظر فيه من أمور الولاة قبلك ، ويقولون فيك ما كنت تقول فيهم وإنما يستدل على الصالحين بما يجرى الله لهم على ألسن عباده ، فليكن أحب الذخائر إليك ذخيرة العمل الصالح ، فاملك هواك وشح بنفسك عما لا يحل لك فإن الشح بالنفس الإنصاف منها فيما أحبت أو كرهت ، وأشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بهم ولا تكونن عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم ، فإنهم صنفان إما أخ لك فى الدين أو نظير لك فى الخلق ، يفرط منهم الزلل وتعرض لهم العلل ويؤتى على أيديهم فى العمد والخطأ ، فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذى تحب أن يعطيك الله من عفوه وصفحه فإنك فوقهم ووالى الأمر عليك فوقك ، والله فوق من ولاك وقد استكفاك أمرهم وابتلاك بهم ، ولا تنصبن نفسك لحرب الله فإنه لا يدى لك بنقمته ولا غنى بك عن عفوه ورحمته ، ولا تندمن على عفو ولا تبجحن بعقوبة ولاتسرعن إلى بادرة وجدت منها مندوحة ، ولا تقولن إنى مؤمر آمر فأطاع ، فان ذلك إدغال فى القلب ومنهكة للدين وتقرب من الغير . وإذا أحدث لك ما أنت فيه من سلطانك أبهة أو مخيلة فانظر إلى عظم ملك الله فوقك

وقدرته منك على ما لا تقدر عليه من نفسك ، فإن ذلك يطامن إليك من طماحك ويكف عنك من غربك ويفيء إليك بما عزب عنك من عقلك . وإياك ومساماة الله فى عظمته والتشبه به فى جبروته فإن الله يذل كل جبار ويهين كل مختال . أنصف الله وأنصف الناس من نفسك ومن خاصة أهلك ومن لك فيه هوى من رعيتك فإنك إلا تفعل تظلم ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده ومن خاصمه الله أدحض حجته وكان لله حرباً حتى ينزع ويتوب ، وليس شيء أدعى إلى تغيير نعمة الله وتعجيل نقمته من إقامة على ظلم فإن الله سميع دعوة المضطهدين وهو للظالمين بالمرصاد . وليكن أحب الأمور إليك أوسطها فى الحق وأعمها فى العدل وأجمعها لرضا الرعية ، فإن سخط العامة يجحف برضا الخاصة وإن سخط الخاصة يغتفر مع رضا العامة ، وليس أحد من الرعية أثقل على الوالي مؤنة فى الرخاء وأقل معونة له فى البلاء وأكره للإنصاف وأسأل بالإلحاف وأقل شكراً عند الإعطاء وأبطأ عذراً عند المنع وأضعف صبراً عند ملمات الدهر من أهل الخاصة ، وإنما عماد الدين وجماع المسلمين والعدة للأعداء العامة من الأمة ، فليكن صفوك لهم وميلك معهم . وليكن أبعد رعيتك منك وأشنأهم عندك أطلبهم لمعائب الناس ، فإن فى الناس عيوباً الوالى أحق من سترها ، فلا تكشفن عما غاب عنك منها فإنما عليك تطهير ما ظهر لك والله يحكم على ما غاب عنك ، فاستر العورة ما استطعت يستر الله منك ما تحب ستره من رعيتك ، أطلق عن الناس عقدة كل حقد واقطع عنك بسبب كل وتر ، وتغاب عن كل ما لا يصح لك ولا تعجلن إلى تصديق سماع فإن الساعي غاش وإن تشبه بالناصحين . ولا تدخلن فى مشورتك بخيلاً يعدل بك عن الفضل ويعدك الفقر ولا جباناً يضعفك عن الأمور ولا حريصاً يزين لك الشره بالجور ، فإن البخل والجبن والحرص غرائز شتى يجمعها سوء الظن بالله . إن شر وزرائك من كان للأشرار قبلك وزيراً ومن شركهم فى الآثام فلا يكونن لك بطانة فإنهم أعوان الأثمة وإخوان الظلمة ، وأنت واجد منهم خير الخلف ممن له مثل آرائهم ونفاذهم وليس عليه مثل آصارهم وأوزارهم ممن لم يعاون ظالماً على ظلمه ولا آثماً على إثمه أولئك أخف عليك مؤنة وأحسن لك معونة وأحنى عليك عطفاً وأقل لغيرك إلفاً ، فاتخذ أولئك خاصة لخلواتك وحفلاتك ، ثم ليكن أثرهم عندك أقولهم بمر الحق لك وأقلهم مساعدة فيما يكون منك مما كره الله لأوليائه واقعاً من

هواك حيث وقع . والصق بأهل الورع والصدق ثم رضهم على أن لا يطروك ولا يبجحوك بباطل لم تفعله ، فإن كثرة الإطراء تحدث الزهو وتدنى من العزة . ولا يكونن المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء فإن في ذلك تزهيداً لأهل الإحسان في الإحسان وتدريباً لأهل الإساءة على الإساءة وألزم كلاً منهم ما ألزم نفسه . واعلم أنه ليس شيء بأدعى إلى حسن ظن راع برعيته من إحسانه إليهم وتخفيفه المؤنات عليهم وترك استكراهه إياهم على ما ليس قبلهم ، فليكن منك في ذلك أمر يجتمع لك به حسن الظن برعيتك فإن حسن الظن يقطع عنك نصباً طويلاً وإن أحق من حسن ظنك به لمن حسن بلاؤك عنده وإن أحق من ساء ظنك به لمن ساء بلاؤك عنده . ولا تنقض سنة صالحة عمل بها صدور هذه الأمة واجتمعت بها الألفة وصلحت عليها الرعية ، ولا تحدثن سنة تضر بشيء من ماضي تلك السنن فيكون الأجر لمن سنها والوزر عليك بما نقضت منها وأكثر مدارسة العلماء . ومنافثة الحكماء في تثبيت ما صلح عليه أمر بلادك وإقامة ما استقام به الناس قبلك . واعلم أن الرعية طبقات لا يصلح بعضها إلا ببعض ولا غنى ببعضها عن بعض ، فمنها جنود الله ، ومنها كتاب العامة والخاصة ، ومنها قضاة العدل ، ومنها عمال الإنصاف والرفق ، ومنها أهل الجزية والخراج من أهل الذمة ومسلمة الناس ، ومنها التجار وأهل الصناعات ، ومنها الطبقة السفلى من ذوى الحاجة والمسكنة ، وكلاً قد سمى الله سهمه ووضع على حده فريضة في كتابه أو سنة نبيه صلى الله عليه وآله عهداً منه عندنا محفوظاً . فالجنود بإذن الله حصون الرعية وزين الولاة وعز الدين وسبل الأمن ، وليس تقوم الرعية إلا بهم ثم لا قوام للجنود إلا بما يخرج الله لهم من الخراج الذى يقوون به في جهاد عدوهم ، ويعتمدون عليه فيما يصلحهم ويكون من وراء حاجتهم ، ثم لا قوام لهذين الصنفين إلا بالصنف الثالث من القضاة والعمال والكتاب لما يحكمون من المعاقد ويجمعون من المنافع ويؤتمنون عليه من خواص الأمور وعوامها ، ولا قوام لهم جميعاً إلا بالتجار وذوى الصناعات فيما يجتمعون عليه من مرافقهم ويقيمونه من أسواقهم ويكفونهم من الترفق بأيديهم ما لا يبلغه رفق غيرهم . ثم الطبقة السفلي من أهل الحاجة والمسكنة الذين يحق رفدهم ومعونتهم وفي الله لكل سعة ولكل على الوالي حق بقدر ما يصلحه وليس يخرج الوالي من حقيقة ما ألزمه الله من ذلك إلا بالاهتمام والاستعانة بالله وتوطين نفسه على لزوم

الحق والصبر عليه فيما خف عليه أو ثقل . فولّ من جنودك أنصحهم فى نفسك لله ولرسوله ولإمامك وأنقاهم جيبًا وأفضلهم حلمًا ممن يبطئ عن الغضب ويستريح إلى العذر ويرأف بالضعفاء وينبو على الأقوياء وممن لا يثيره العنف ولا يعقد به الضعف . ثم الصق بذوى الأحساب وأهل البيوتات الصالحة والسوابق الحسنة ثم أهل النجدة والشجاعة والسخاء والسماحة فإنهم جماع من الكرم وشعب من العرف ، ثم تفقد من أمورهم ما يتفقد الوالدان من ولدهما ، ولا يتفاقمن فى نفسك شىء قويتهم به ، ولا تحقرن لطفًا تعاهدتهم به وإن قل فإنه داعية لهم إلى بذل النصيحة لك وحسن الظن بك ، ولا تدع تفقد لطيف أمورهم اتكالاً على جسيمها فإن لليسير من لطفك موضعًا ينتفعون به وللجسيم موقعًا لا يستغنون عنه . وليكن أثر رؤس جندك عندك من واساهم فى معونته وأفضل عليهم من جدته بما يسعهم ويسع من وراءهم من خلوف أهليهم حتى يكون همهم همًا واحدًا فى جهاد العدو ، فإن عطفك عليهم يعطف قلوبهم عليك وإن أفضل قرة عين الولاة استقامة العدل فى البلاد ، وظهور مودة الرعية ، وإنه لا تظهر مودتهم إلا بسلامة صدرهم ، ولا تصح نصيحتهم إلا بحيطتهم على ولاة أمورهم وقلة استثقال دولهم ، وترك استبطاء انقطاع مدتهم ، فافسح فى آمالهم وواصل فى حسن الثناء عليهم وتعديد ما أبلى ذوو البلاء منهم ، فإن كثرة الذكر لحسن أفعالهم تهز الشجاع وتحرض الناكل إن شاء الله ، ثم اعرف لكل امرئ منهم ما أبلى ولا تضيفن بلاء امرئ إلى غيره ولا تقصرن به دون غاية بلائه ، ولا يدعونك شرف امرئ إلى أن تعظم من بلائه ما كان صغيراً ، ولا ضعة امرئ إلى أن تستصغر من بلائه ما كان عظيمًا ، واردد إلى الله ورسوله ما يضلعك من الخطوب ويشتبه عليك من الأمور ، فقد قال الله تعالي لقوم أحب إرشادهم : "يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فان تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول" ، فالرد إلى الله الأخذ بحكم كتابه والرد إلى الرسول الأخذ بسنته الجامعة غير المفرقة . ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك فى نفسك ممن لا تضيق به الأمور ولا تمحكه الخصوم ولا يتمادى فى الزلة ولا يحصر من الفئ إلى الحق إذا عرفه ولا تشرف نفسه على طمع ولا يكتفى بأدنى فهم دون أقصاه ، أوقفهم فى الشبهات وآخذهم بالحجج وأقلهم تبرمًا بمراجعة الخصم وأصبرهم على تكشف الأمور وأصرمهم عند اتضاح الحكم

ممن لا يزدهيه إطراء ولا يستميله إغراء وأولئك قليل ، ثم أكثر تعاهد قضائه وأفسح له فى البذل ما يزيل علته وتقل معه حاجته إلى الناس وأعطه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك ، فانظر فى ذلك نظراً بليغاً فإن هذا الدين قد كان أسيراً فى أيدى الأشرار يعمل فيه بالهوى ويطلب به الدنيا . ثم انظر فى أمور عمالك فاستعملهم اختباراً ولا تولهم محاباة وأثرة فإنهما جماع من شعب الجور والخيانة ، وتوخ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقدم فى الإسلام المتقدمة فإنهم أكرم أخلاقاً وأصح أعراضاً وأقل فى المطامع إشرافاً وأبلغ فى عواقب الأمور نظراً ، ثم أسبغ عليهم الأرزاق فإن ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم وحجة عليهم إن خالفوا أمرك أو ثلموا أمانتك ، ثم تفقد أعمالهم وابعث العيون من أهل الصدق والوفاء عليهم فإن تعاهدك فى السر لأمورهم حدوة لهم على استعمال الأمانة والرفق بالرعية وتحفظ من الأعوان فإن أحد منهم بسط يده إلى خيانة اجتمعت بها عليه عندك أخبار عيونك اكتفيت بذلك شاهداً فبسطت عليه العقوبة فى بدنه وأخذته بما أصاب من عمله ثم نصبته بمقام المذلة ووسمته بالخيانة وقلدته عار التهمة . وتفقد أمر الخراج بما يصلح أهله فإن فى صلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سواهم إلا بهم لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله ، وليكن نظرك فى عمارة الأرض أبلغ من نظرك فى استجلاب الخراج لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة ، ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد ولم يستقم أمره إلا قليلاً فإن شكوا ثقلاً أو علة أو انقطاع شرب أو باله أو إحالة أرض اغتمرها غرق أو أجحف بها عطش خففت عنهم بما ترجو أن يصلح به أمرهم ولا يثقلن عليك شىء خففت به المؤنة عنهم فإنه ذخر يعودون به عليك فى عمارة بلادك وتزيين ولايتك مع استجلابك حسن ثنائهم وتبجحك باستفاضة العدل فيهم معتمداً فضل قوتهم بما ذخرت عندهم من إجمامك لهم والثقة منهم بما عودتهم من عدلك عليهم فى رفقك بهم ، فربما حدث من الأمور ما إذا عولت فيه عليهم من بعد احتملوه طيبة أنفسهم به فإن العمران محتمل ما حملته وإنما يؤتى خراب الأرض من إعواز أهلها وإنما يعوز أهلها لأشراف أنفس الولاة على الجمع وسوء ظنهم بالبقاء وقلة انتفاعهم بالعبر . ثم انظر فى حال كتابك فول على أمورك خيرهم وأخصص

رسائلك التي تدخل فيها مكائدك وأسرارك بأجمعهم لوجود صالح الأخلاق ممن لا تبطره الكرامة فيجترئ بها عليك فى خلاف لك بحضرة ملأ ولا تقتصر به الغفلة عن إيراد مكاتبات عمالك عليك وإصدار جواباتها على الصواب عنك فيما يأخذ لك ويعطى منك ولا يضعف عقداً اعتقده لك ولا يعجز عن إطلاق ما عقد عليك ولا يجهل مبلغ قدر نفسه فى الأمور فإن الجاهل بقدر نفسه يكون بقدر غيره أجهل ، ثم لا يكن اختيارك إياهم على فراستك واستنامتك وحسن الظن منك فإن الرجال يتعرفون لفراسات الولاة بتصنعهم وحسن خدمتهم وليس وراء ذلك من النصيحة والأمانة شيء ولكن اختبرهم بما ولوا للصالحين قبلك فاعمد لأحسنهم كان فى العامة أثراً وأعرفهم بالأمانة وجهاً فإن ذلك دليل على نصيحتك لله ولمن وليت أمره ، واجعل لرأس كل أمر من أمورك رأساً منهم لا يقهره كبيرها ولا يتشتت عليه كثيرها ومهما كان فى كتابك من عيب فتغابيت عنه ألزمته . ثم استوص بالتجار وذوى الصناعات وأوص بهم خيراً ، المقيم منهم والمضطرب بماله والمترفق ببدنه فإنهم مواد المنافع وأسباب المرافق وجلابها من المباعد والمطارح فى برك وبحرك وسهلك وجبلك ، وحيث لا يلتئم الناس لمواضعها ولا يجترئون عليها فإنهم سلم لا تخاف بائقته وصلح لا تخشي غائلته وتفقد أمورهم بحضرتك وفى حواشي بلادك ، واعلم مع ذلك أن فى كثير منهم ضيقًا فاحشاً وشحاً قبيحاً واحتكاراً للمنافع وتحكماً فى البياعات ، وذلك باب مضرة العامة وعيب علي الولاة فامنع من الاحتكار فإن رسول الله صلى الله عليه وآله منع منه ، وليكن البيع بيعاً سمحاً بموازين عدل وأسعار لا تجحف بالفريقين من البائع والمبتاع فمن قارف حكرة بعد نهيك إياه فنكل به وعاقب فى غير إسراف . ثم الله الله فى الطبقة السفلي من الذين لا حيلة لهم والمساكين والمحتاجين وأهل البؤسى والزمنى فإن فى هذه الطبقة قانعاً ومعتراً واحفظ لله ما استحفظك من حقه فيهم ، واجعل لهم قسماً من بيت مالك وقسماً من غلات صوافي الإسلام فى كل بلد فإن للأقصى منهم مثل الذى للأدنى وكل قد استرعيت حقه فلا يشغلنك عنهم بطر فإنك لا تعذر بتضييعك التافه لأحكامك الكثير المهم فلا تشخص همك عنهم ولا تصعر خدك لهم وتفقد أمور من لا يصل إليك منهم ممن تقتحمه العيون وتحقره الرجال ففرغ لأولئك ثقتك من أهل الخشية والتواضع فليرفع إليك أمورهم ثم اعمل فيهم بالأعذار إلى الله يوم تلقاه فإن هؤلاء من بين الرعية

أحوج إلى الإنصاف من غيرهم وكل فأعذر إلى الله فى تأدية حقه إليه ، وتعهد أهل اليتم وذوى الرقة فى السن ممن لا حيلة له ولا ينصب للمسألة (*) نفسه وذلك على الولاة ثقيل والحق كله ثقيل وقد يخففه الله على أقوام طلبوا العاقبة فصبروا أنفسهم ووثقوا بصدق موعود الله لهم . واجعل لذوى الحاجات منك قسمًا تفرغ لهم فيه شخصك وتجلس لهم مجلسًا عامًا فتتواضع فيه لله الذى خلقك وتقعد عنهم جندك وأعوانك من أحراسك وشرطك ، حتى يكلمك متكلمهم غير متتعتع ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول فى غير موطن : "لن تقدس أمة لا يؤخذ للضعيف فيها حقه من القوي غير متتعتع" ، ثم احتمل الخرق منهم والعيّ ونحّ عنهم الضيق والأنف يبسط الله عليك بذلك أكناف رحمته ويوجب لك ثواب طاعته واعط ما أعطيت هنيئًا وامنع فى إجمال وإعذار . ثم أمور من أمورك لابد لك من مباشرتها منها إجابة عمالك بما يعيا عنه كتابك . ومنها إصدار حاجات الناس يوم ورودها عليك مما تحرج به صدور أعوانك ، وامض لكل يوم عمله فإن لكل يوم ما فيه ، واجعل لنفسك فيما بينك وبين الله أفضل تلك المواقيت وأجزل تلك الأقسام وإن كانت كلها لله إذا صلحت فيها النية وسلمت منها الرعية . وليكن فى خاصة ما تخلص به لله دينك إقامة فرائضه التى هى له خاصة ، فاعط الله من بدنك فى ليلك ونهارك ووف ما تقربت به إلى الله من ذلك كاملاً غير مثلوم ولا منقوص بالغًا من بدنك ما بلغ ، وإذا قمت فى صلاتك للناس فلا تكونن منفرًا ولا مضيعًا فإن فى الناس من به العلة وله الحاجة ، وقد سألت رسول الله صلى الله عليه وآله حين وجهنى إلى اليمن كيف أصلى بهم فقال : "صل بهم كصلاة أضعفهم وكن بالمؤمنين رحيمًا" . أما بعد فلا تطولن احتجابك عن رعيتك فإن احتجاب الولاة عن الرعية شعبة من الضيق وقلة علم بالأمور ، والاحتجاب منهم يقطع عنهم علم ما احتجبوا دونه فيصغر عندهم الكبير ويعظم الصغير ويقبح الحسن ويحسن القبيح ويشاب الحق بالباطل ، وإنما الوالي بشر لا يعرف ما توارى عنه الناس به من الأمور وليست على الحق سمات تعرف بها ضروب الصدق من الكذب ، وإنما أنت أحد رجلين إما امرؤ سخت نفسك بالبذل فى الحق ففيم احتجابك من واجب حق تعطيه أو فعل

(*) وردت فى الأصل « المسئلة » (المحرر) .

كريم تسديه أو مبتلى بالمنع فما أسرع كف الناس عن مسألتك إذا أيسوا من بذلك مع أن أكثر حاجات الناس إليك مما لامؤنة فيه عليك من شكاة مظلمة أو طلب إنصاف فى معاملة . ثم إن للوالى خاصة وبطانة فيهم استئثار وتطاول وقله إنصاف فى معاملة فاحسم مادة أولئك يقطع أسباب تلك الأحوال ولا تقطعن لأحد من حاشيتك وحامتك قطيعة ولا يطمعن منك فى اعتقاد عقدة تضر بمن يليها من الناس فى شرب أو عمل مشترك يحملون مؤنته على غيرهم فيكون مهنأ ذلك لهم دونك وعيبه عليك فى الدنيا والآخرة ، وألزم الحق من لزمه من القريب والبعيد وكن فى ذلك صابرًا محتسبًا واقعًا ذلك من قرابتك وخاصتك حيث وقع ، وابتغ عاقبته بما يثقل عليك منه فإن مغبة ذلك محمودة . وإن ظنت الرعية بك حيفًا فأصحر لهم بعذرك وأعدل عنك ظنونهم بإصحارك فإن فى ذلك رياضة منك لنفسك ورفقًا برعيتك وإعذارًا تبلغ به حاجتك من تقويمهم على الحق . ولا تدفعن صلحًا دعاك إليه عدوك ولله فيه رضا فإن فى الصلح دعة لجنودك وراحة من همومك وأمنًا لبلادك ، ولكن الحذر كل الحذر من عدوك بعد صلحه فإن العدو ربما قارب ليتغفل فخذ بالحزم واتهم فى ذلك حسن الظن وإن عقدت بينك وبين عدوك عقدة أو ألبسته منك ذمة فحط عهدك بالوفاء وارع ذمتك بالأمانة واجعل نفسك جنة دون ما أعطيت فإنه ليس من فرائض الله شىء الناس أشد عليه اجتماعًا مع تفرق أهوائهم وتشتت آرائهم من تعظيم الوفاء بالعهود ، وقد لزم ذلك المشركون فيما بينهم دون المسلمين لما استوبلوا من عواقب الغدر ، فلا تغدرن بذمتك ولا تخيسن بعهدك ولا تختلن عدوك فإنه لا يجترئ على الله إلا جاهل شقى ، وقد جعل الله عهده وذمته أمنًا أفضاه بين العباد برحمته وحريمًا يسكنون إلى منعته ويستفيضون إلى جواره فى إدغال ولا مدالسة ولا خداع فيه ، ولا تعقد عقدًا تجوز فيه العلل ولا تعولن على لحن قول بعد التأكيد والتوثقة ولا يدعونك ضيق أمر لزمك فيه عهد الله إلى طلب انفساخه بغير الحق فإن صبرك على ضيق أمر ترجو انفراجه وفضل عاقبته خير من عذر تخاف تبعته وإن تحيط بك من الله فيه طِلبة فلا تستقيل فيها دنياك ولا آخرتك . إياك والدماء وسفكها بغير حلها فإنه ليس شىء أدعى لنقمة ولا أعظم لتبعة ولا أحرى بزوال نعمة وانقطاع مدة من سفك الدماء بغير حقها ، والله سبحانه وتعالي مبتدئ بالحكم بين العباد فيما تسافكوا من الدماء يوم القيامة فلا تقوين سلطانك بسفك دم

حرام فإن ذلك مما يضعفه ويوهنه بل يزيله وينقله ولا عذر لك عند الله ولا عندى فى قتل العمد لأن فيه قود البدن وإن ابتليت بخطأ وأفرط عليك سوطك أو سيفك أو يدك بعقوبة فإن فى الوكزة فما فوقها مقتلة فلا تطمحن بك نخوة سلطانك عن أن تؤدى إلى أولياء المقتول حقهم . وإياك والإعجاب بنفسك والثقة بما يعجبك منها وحب الإطراء فإن ذلك من أوثق فرص الشيطان فى نفسه ليمحق ما يكون من إحسان المحسنين . وإياك والمنّ على رعيتك بإحسانك أو التزيد فيما كان من فعلك أو أن تعدهم فتتبع موعدك بخلفك فإن المنّ يبطل الإحسان والتزيد يذهب بنور الحق والخلف يوجب المقت عند الله والناس ، قال الله تعالى : "كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون" . وإياك والعجلة بالأمور قبل أوانها أو التسقط فيها عند إمكانها أو اللجاجة فيها إذا تنكرت أو الوهن عنها إذا استوضحت ، فضع كل أمر موضعه وأوقع كل أمر موقعه . وإياك والاستئثار بما الناس فيه أسوة والتغابى عما يعتنى به مما قد وضح للعيون فإنه مأخوذ منك لغيرك وعما قليل تنكشف عنك أغطية الأمور وينتصف منك للمظلوم . أملك حمية أنفك وسورة حدك وسطوة يدك وغرب لسانك واحترس من كل ذلك بكف البادرة وتأخير السطوة حتى يسكن غضبك فتملك الاختيار ، ولن تحكم ذلك من نفسك حتى تكثر همومك بذكر المعاد إلى ربك والواجب عليك أن تتذكر ما مضى لمن تقدمك من حكومة عادلة أو سنة فاضلة أو أثر عن نبينا صلي الله عليه وآله أو فريضة فى كتاب الله فتقتدى بما شاهدت مما عملنا به فيها وتجتهد لنفسك فى اتباع ما عهدت إليك فى عهدى هذا واستوثقت به من الحجة لنفسى عليك لكيلا تكون لك علة عند تسرع نفسك إلى هواها ، وأنا أسال الله بسعة رحمته وعظيم قدرته على إعطاء كل رغبة أن يوفقنى وإياك لما فيه رضاه من الإقامة على العذر الواضح إليه وإلى خلقه مع حسن الثناء فى العباد وجميل الأثر فى البلاد وتمام النعمة وتضعيف الكرامة ، وأن يختم لى ولك بالسعادة والشهادة ، إنا إليه راغبون والسلام على رسول الله صلى الله عليه وآله الطيبين الطاهرين وسلم تسليماً كثيراً والسلام" .

١٠ – وخطب معاوية على منبر المدينة ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : "يا أهل المدينة إنى لست أحب أن تكونوا خلقاً كخلق العراق يعيبون الشيء وهم فيه . كل امرئ منهم شيعة نفسه . واقبلوا بما فينا فإن ما وراءنا شر لكم . وإن معروف

زماننا هذا منكر زمان قد مضى . ومنكر زماننا هذا معروف زمان لم يأت ، ولو قد أتى فالرتق خير من الفتق وفى كل بلاغ ولا مقام على الرزية" .

١١ – وخطب الحجاج حين ولاة عبد الملك العراق وأمره أن يحشر الناس الي المهلب فى حرب الأزارقة :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا   متى أضع العمامة تعرفونى

صليب العود من سلفى نزار   كنصل السيف وضاح الجبين

وماذا تبتغى الشعراء منى   وقد جاوزت حد الأربعين

أخو خمسين مجتمع أشدى   وتنجدنى مداورة الشؤون

أما والله إنى لأحمل الشر بحمله ، وآخذه بفعله وأجزيه بمثله ، وإنى لأرى رؤسًا قد أينعت وحان قطافها وإنى لصاحبها ، وإنى لأنظر الدماء بين العمائم واللحي تترقرق :

قد شمرت عن ساقها فشمرى   هذا أوان الحرب فاشتدى زيم

قد لفها الليل بسواق حطم   ليس براعى إبل ولا غنم

ولا بجزار على ظهر وضم

قد لفها الليل بعصلبى   أروع جراح من الدوى

ولا بجزار على ظهر وضم

قد شمرت عن ساقها فشدوا   ما علتى وأنا شيخ جلد

والقوس فيها وتر عرد   مثل ذراع البكر أو أشد

إنى والله يا أهل العراق ومعدن الشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق لا يغمز جانبى كتغماز التنين ، ولا يقعقع لى بالشنان ، ولقد فررت عن ذكاء وفتشت عن تجربة وأجريت مع الغاية ، وإن أمير المؤمنين نثر كنانته ثم عجم عيدانها فوجدنى أمرها عوداً وأشدها مكسراً ، فوجهنى إليكم ورماكم بى فإنه طالمًا أوضعتم فى الفتن وسننتم سنن البغى وسعيتم فى الضلالة ، وأيم الله لألحونكم لحو العصا ولأقرعنكم قرع المروة ولأعصبنكم عصب السلمة ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل ، أما والله لا أعد إلا وفيت ولا أخلق إلا فريت وإياى وهذه الزرافات والجماعات وقال وقيل وما يقولون وفيم أنتم والله لتستقيمن على طريق الحق أو لأدعن لكل رجل منكم شغلاً فى جسده . من وجدته بعد ثالثة من بعث المهلب سفكت دمه وانتهبت ماله وهدمت منزله .

١٢ - وله أيضًا : "يا أهل العراق إن الشيطان قد استبطنكم ، فخالط اللحم والدم والمسامع والأطراف والأعضاد والشفاه ، ثم مضى إلى الأمخاخ والأصماخ ، ثم ارتفع فعشش ثم باض وفرخ فحشاكم شقاقًا ونفاقًا ، وإن أشعركم خلافًا اتخذتموه دليلاً تتبعونه وقائداً تطيعونه ومؤامراً تستشيرونه ، وكيف تنفعكم تجربة أو تعظكم وقعة أو يحجزكم إسلام أو يردكم إيمان ، ألستم أصحابى بالأهواز حيث رمتم المكر وسعيتم بالغدر واستجمعتم للكفر وظننتم أن الله يخذل دينه وخلافته ، وأنا أرميكم بطرفى وأنتم تتسللون لواذاً وتنهزمون سراعًا يوم الزواية ، وما يوم الزاوية بها كان فشلكم وتنازعكم وتخاذلكم وبراءة الله منكم ونكوص وليه عنكم إذ وليتم كالإبل الشوارد إلى أوطانها النوازع إلى أعطانها ، لا يسأل المرء منكم عن أخيه ولا يلوى الشيخ على بنيه حتى عضكم السلاح وقصمتكم الرماح يوم دير الجماجم وما دير الجماجم به كانت المعارك والملاحم ، بضرب يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله . يا أهل العراق أهل الكفرات والفجرات والغدرات بعد الخترات والثورة بعد الثورات ، إن أبعثكم إلى ثغوركم غللتم وخنتم ، وإن أمنتكم أرجفتم وإن خفتم نافقتم ، لا تذكرون نقمة ولا تشكرون نعمة . يا أهل العراق هل استخفكم ناكث أو استغواكم غاو أو استفزكم عاص أو استنصركم ظالم أو استعضدكم خالع إلا وثقتموه وأويتموه وعززتموه ونصرتموه ورضيتموه وأرضيتموه . يا أهل العراق هل شغب شاغب أو نعب ناعب أو نعق ناعق أو زفر زافر إلا كنتم أتباعه وأنصاره . يا أهل العراق ألم تنهكم

المواعظ ألم تزجركم الوقائع ، يا أهل الشأم إنما أنا لكم كالظليم الذاب عن فراخه ينفي عنها المدر ، ويباعد عنها الحجر ، ويكنها من المطر ، ويحميها من الضباب ، ويحرسها من الذباب ، يا أهل الشام أنتم الجبة والرداء ، وأنتم العدة والحذاء" .

١٣ - وكتب عبد الحميد كاتب مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية رسالة لكتاب أوصاهم فيها بمحاسن الآداب وهى : "أما بعد حفظكم الله يا أهل صناعة الكتابة وحاطكم ووفقكم وأرشدكم ، فإن الله عز وجل جعل الناس بعد الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ومن بعد الملوك المكرمين أصنافًا وإن كانوا فى الحقيقة سواء ، وصرفهم فى صنوف الصناعات وضروب المحاولات إلى أسباب معاشهم وأبواب أرزاقهم ، فجعلكم معشر الكتاب فى أشرف الجهات أهل الأدب والمروآت والعلم والرزانة ، بكم تنتظم للخلافة محاسنها وتستقيم أمورها وبنصائحكم يصلح الله للخلق سلطانهم وتعمر بلدانهم ، لا يستغنى الملك عنكم ولا يوجد كاف إلا منكم ، فموقعكم من الملوك موقع أسماعهم التى بها يسمعون وأبصارهم التى بها يبصرون وألسنتهم التى بها ينطقون وأيديهم التى بها يبطشون ، فأمتعكم الله بما خصكم من فضل صناعتكم ولا نزع عنكم ما أضفاه من النعمة عليكم وليس أحد من أهل الصناعات كلها أحوج إلى اجتماع خلال الخير المحمودة وخصال الفضل المذكورة المعدودة منكم أيها الكتاب إذا كنتم على ما يأتى فى هذا الكتاب من صفتكم ، فإن الكاتب يحتاج من نفسه ويحتاج منه صاحبه الذى يثق به فى مهمات أموره أن يكون حليمًا فى موضع الحلم فهيمًا فى موضع الحكم مقدامًا فى موضع الإقدام محجامًا فى موضع الإحجام مؤثرًا العفاف والعدل والإنصاف كتومًا للأسرار وفيًا عند الشدائد عالمًا بما يأتى من النوازل ، يضع الأمور مواضعها والطوارق فى أماكنها ، قد نظر فى كل فن من فنون العلم فأحكمه وإن لم يحكمه أخذ منه بمقدار ما يكتفى به ، يعرف بغريزة عقله وحسن أدبه وفضل تجربته ما يرد عليه قبل وروده وعاقبة ما يصدر عنه قبل صدوره فيعد لكل أمر عدته وعتاده ويهيئ لكل وجه هيئته وعادته . فتنافسوا يا معشر الكتاب فى صنوف الآداب وتفقهوا فى الدين وابدؤا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض ، ثم العربية فإنها ثقاف ألسنتكم ، ثم أجيدوا الخط فإنه حلية كتبكم وارووا الأشعار واعرفوا غريبها ومعانيها وأيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها فإن ذلك

معين لكم على ما تسمو إليه همكم ، ولا تضيعوا النظر فى الحساب فإنه قوام كتاب الخراج وارغبوا بأنفسكم عن المطامع سنيها ودنيها وسفساف الأمور ومحاقرها فإنها مذلة للرقاب مفسدة للكتاب ، ونزهوا صناعتكم عن الدناءة واربؤوا بأنفسكم عن السعاية والنميمة وما فيه أهل الجهالات ، وإياكم والكبر والسخف والعظمة فإنها عداوة مجتلبة من غير احنة ، وتحابوا فى الله عز وجل فى صناعتكم وتواصوا عليها بالذى هو أليق لأهل الفضل والعدل والنبل من سلفكم ، وإن نبا الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه وواسوه حتى يرجع إليه حاله ويثوب إليه أمره وإن أقعد أحد منكم الكبر عن مكسبه ولقاء إخوانه فزوروه وعظموه وشاوروه واستظهروا بفضل تجربته وقديم معرفته . وليكن الرجل منكم على من اصطنعه واستظهر به ليوم حاجته إليه أحوط منه على ولده وأخيه ، فإن عرضت في الشغل محمدة فلا يصرفها إلا إلى صاحبه وإن عرضت مذمة فليحملها هو من دونه ، وليحذر السقطة والزلة والملل عند تغير الحال فإن العيب إليكم معشر الكتاب أسرع منه إلى الفراء وهو لكم أفسد منه لها ، فقد علتمتم أن الرجل منكم إذا صحبه من يبذل له من نفسه ما يجب له عليه من حقه فواجب عليه أن يعتقد له من وفائه وشكره واحتماله وخيره ونصيحته وكتمان سره وتدبير أمره ما هو جزاء لحقه ويصدق ذلك تبعًا له عند الحاجة إليه والاضطرار إلى ما لديه ، فاستشعروا ذلك وفقكم الله من أنفسكم فى حالة الرخاء والشدة والحرمان والمواساة والإحسان والسراء والضراء فنعمت الشيمة هذه من وسم بها من أهل هذه الصناعة الشريفة . وإذا ولي الرجل منكم أو صير إليه من أمر خلق الله وعياله أمر فليراقب الله عز وجل وليؤثر طاعته ، وليكن على الضعيف رفيقًا وللمظلوم منصفًا ، فإن الخلق عيال الله وأحبهم إليه أرفقهم بعياله ثم ليكن بالعدل حاكمًا وللأشراف مكرمًا وللفيء موفرًا وللبلاد عامرًا وللرعية متألفًا وعن أذاهم متخلفًا . وليكن فى مجلسه متواضعًا حليمًا وفى سجلات خراجه واستقضاء حقوقه رفيقًا ، وإذا صحب أحدكم رجلا فليختبر خلائقه فإذا عرف حسنها وقبيحها أعانه على ما يوافقه من الحسن واحتال على صرفه عما يهواه من القبح بألطف حيلة وأجمل وسيلة . وقد علمتم أن سائس البهيمة إذا كان بصيرًا بسياستها التمس معرفة أخلاقها فإن كانت رموحًا لم يهجها إذا ركبها وإن كانت شبوبًا اتقاها من بين يديها وإن خاف منها شرودًا توقاها من ناحية رأسها وإن كانت

حروناً قمع برفق هواها فى طرقها ، فإن استمرت عطفها يسيراً فيسلس له قيادها ، وفى هذا الوصف من السياسة دلائل لمن ساس الناس وعاملهم وجربهم وداخلهم . والكاتب لفضل أدبه وشريف صنعته ولطيف حيلته ومعاملته لمن يحاوله من الناس ويناظره ويفهم عنه أو يخاف سطوته أولى بالرفق لصاحبه ومداراته وتقويم أوده من سائس البهيمة التى لا تحير جواباً ولا تعرف صواباً ولا تفهم خطاباً إلا بقدر ما يصيرها إليه صاحبها الراكب عليها . ألا فارفقوا رحمكم الله فى النظر واعملوا ما أمكنكم فيه من الروية والفكر تأمنوا بإذن الله ممن صحبتموه النبوة والاستثقال والجفوة ويصير منكم إلى الموافقة وتصيروا منه إلى المؤاخاة والشفقة إن شاء الله . ولا يجاوزن الرجل منكم فى هيئة مجلسه وملبسه ومركبه ومطعمه ومشربه ونباله وخدمه وغير ذلك من فنون أمره قدر حقه ، فإنكم مع ما فضلكم الله به من شرف صنعتكم خدمة لا تحملون فى خدمتكم على التقصير ، وحفظة لا تحتمل منكم أفعال التضييع والتبذير . واستعينوا على عفافكم بالقصد فى كل ما ذكرته لكم وقصصته عليكم واحذروا متالف السرف وسوء عاقبة الترف فإنهما يعقبان الفقر ويذلان الرقاب ويفضحان أهلهما ولا سيما الكتاب وأرباب الآداب ، وللأمور أشباه وبعضها دليل علي بعض فاستدلوا على مؤتنف أعمالكم بما سبقت إليكم تجربتكم ثم اسلكوا من مسالك التدبير أوضحها محجة وأصدقها حجة وأحمدها عاقبة . واعملوا أن للتدبير آفة متلفة وهو الوصف الشاغل لصاحبه عن إنفاذ علمه ورويته فليقصد الرجل منكم فى مجلسه قصد الكافى من منطقه وليوجز فى ابتدائه وجوابه وليأخذ بمجامع حججه فإن ذلك مصلحة لفعله ومدفعه للشاغل عن إكثاره ، وليضرع إلى الله فى صلة توفيقه وإمداده بتسديده مخافة وقوعه فى الغلط المضر ببدنه وعقله وآدابه ، فإنه إن ظن منكم ظان أو قال قائل إن الذى برز من جميل صنعته وقوة حركته إنما هو بفضل حيلته وحسن تدبيره فقد تعرض بحسن ظنه أو مقالته إلى أن يكله الله عز وجل إلى نفسه فيصير منها إلى غير كاف وذلك على من تأمله غير خاف ، ولا يقول أحد منكم إنه أبصر بالأمور وأحمل لعبء التدبير من مرافقه فى صناعته ومصاحبه فى خدمته ، فإن أعقل الرجلين عند ذوى الألباب من رمي بالعجب وراء ظهره ورأى أن أصحابه أعقل منه وأجمل فى طريقته ، وعلى كل واحد من الفريقين أن يعرف فضل نعم الله جل ثناؤه من

غير اغترار برأيه ولا تزكية لنفسه ولا يكاثر على أخيه أو نظيره وصاحبه وعشيره ، وحمد الله واجب على الجميع وذلك بالتواضع لعظمته والتذلل لعزته والتحدث بنعمته . (وأنا أقول) فى كتابى هذا ما سبق به المثل من تلزمه النصيحة يلزمه العمل وهو جوهر هذا الكتاب وغرة كلامه بعد الذى فيه من ذكر الله عز وجل فلذلك جعلته آخره وتممته به . تولانا الله وإياكم يا معشر الطلبة والكتبة بما يتولى به من سبق علمه بإسعاده وإرشاده فإن ذلك إليه وبيده ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته" .

١٤ - وكتب وصاية على شخص إلى بعض الرؤساء فقال : "حقٌّ موصل كتابي هذا عليك كحقه على أنراك موضعًا لأمله ورآنى أهلاً لحاجته ، وقد أنجزت الحاجة فصدق أمله" .

١٥ - وكتب وهو منهزم مع مروان : "أمّا بعد فان الله تعالى جعل الدنيا محفوفة بالكره والسرور ، فمن ساعده الحظ فيها سكن إليها ومن عضته بنابها ذمها ساخطًا عليها وشكاها مستزيداً لها ، وقد كانت أذاقتنا أفاويق استحليناها ثم جمحت بنا نافرة ورمحتنا مولية فملح عذبها وخشن لينها فأبعدتنا عن الأوطان وفرقتنا عن الإخوان فالدار نازحة والطير بارحة وقد كتبت والأيام تزيدنا منكم بعداً وإليكم وجداً فإن تتم البلية إلى أقسى مدتها يكن آخر العهد بكم وبنا ، وإن يلحقنا ظفر جارح من أظفار من يليكم نرجع إليكم بذل الأسار والذل شر جار . نسأل الله الذى يعز من يشاء ويذل من يشاء أن يهب لنا ولكم ألفة جامعة فى دار آمنة تجمع سلامة الأبدان والأديان فإنه رب العالمين وأرحم الراحمين" .

١٦ - ووقع جعفر بن يحيى إلى رجل شكاه بعض عماله : "قد كثر شاكوك وقل شاكروك ، فإما عدلت وإما اعتزلت" .

١٧ - وكتب الحسين بن الحسن بن سهل إلى صديق له يدعوه : "نحن فى مأدبة لنا تشرف على روضة تضاحك حسنًا ، قد باتت السماء تعلها فهي مشرقة بمائها حانية بنوارها ، فاحضرنا لنكون على سواء من استمتاع بعضنا ببعض" ، فكتب إليه : "هذه صفة لو كانت فى أقاصى الأطراف لوجب انتجاعها وحث المطى فى ابتغائها ، فكيف فى موضع أنت تسكنه وتجمع إلى أنيق منظره حسن وجهك وطيب شمائلك وأنا الجواب" .

١٨ – وكتب عمرو بن مسعدة إلى المأمون : "كتابى إلى أمير المؤمنين ومن قبلى من قواده وسائر أجناده فى الانقياد والطاعة على أحسن ما تكون طاعة جند تأخرت أرزاقهم وانقياد كفاة تراخت أعطياتهم ، واختلت لذلك أحوالهم والتاثت معه أمورهم" ، فلما قرأه المأمون استحسنه وأمر للجند بعطائهم لسبعة أشهر .

١٩ – وكتاب طاهر بن الحسين لابنه أبى العباس عبد الله المعروف بابن طاهر حين ولاه المأمون من الرقه إلى مصر كتاباً جمع فيه كل ما تحتاج إليه الأمراء من الآداب والسياسة وهو : "بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد فعليك بتقوى الله وحده لا شريك له وخشيته ومراقبته عز وجل ومزايلة سخطه وحفظ رعيتك فى الليل والنهار ، والزم ما ألبسك الله من العافية بالذكر لمعادك وما أنت صائر إليه وموقوف عليه ومسئول عنه ، والعمل فى ذلك كله بما يعصمك الله عز وجل وينجيك يوم القيامة من عقابه وأليم عذابه ، فإن الله سبحانه وتعالى قد أحسن إليك وأوجب عليك الرأفة بمن استرعاك أمرهم من عباده ، وألزمك العدل فيهم والقيام بحقه وحدوده عليهم ، والذب عنهم والدفع عن حريمهم وبيضتهم والحقن لدمائهم والأمن لسبيلهم وإدخال الراحة عليهم ومؤاخذك بما فرض عليك وموقفك عليه ومسائلك عنه ومثيبك عليه بما قدمت وأخرت ، ففرغ لذلك فهمك وعقلك ونظرك ولا يشغلك عنه شاغل فإنه رأس أمرك وملاك شأنك . وأول ما يوفقك الله عز وجل به لرشدك ، وليكن أول ما تلزم بها نفسك وتنسب إليه أفعالك المواظبة على ما افترض الله عز وجل عليك من الصلوات الخمس والجماعة عليها بالناس وعلى سننها من إسباغ الوضوء لها ، وافتتاح ذكر الله عز وجل فيها وترتل فى قراءتك وتمكن فى ركوعك وسجودك وتشهدك وتصدق فيها لربك ونبيك ، واحضض عليها جماعة من معك وتحت يدك وادأب عليها فإنها كما قال الله عز وجل "تنهى عن الفحشاء والمنكر" . ثم أتبع ذلك بالأخذ بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبالمثابرة على خلائقه واقتفاء آثار السلف الصالح من بعده . وإذا ورد عليك أمر فاستعن عليه باستخاره الله عز وجل وتقواه ولزوم ما أنزل الله عز وجل فى كتابه من أمره ونهيه وحلاله وحرامه ، وإتمام ما جاءت به الآثار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قم فيه بما يحق لله عز وجل عليك . ولا تمل عن العدل فيما أحببت أو كرهت لقريب من الناس أو بعيد ، وآثر الفقه وأهله والدين وحملته وكتاب الله عز وجل

والعاملين به فإن أفضل ما يزين به المرء الفقه في دين الله والطلب له والحث عليه والمعرفة بما يتقرب به منه إلى الله عز وجل ، فإنه الدليل على الخير كله والقائد له والآمر به والناهى عن المعاصي والموبقات كلها ، وبه مع توفيق الله عز وجل يزداد العبد معرفة له وإجلالاً له ودركًا للدرجات العلى فى المعاد ، مع ما فى ظهوره للناس من التوقير لأمرك والهيبة لسلطانك والأنس بك والثقة بعدلك . وعليك بالاقتصاد فى الأمور كلها فليس شىء أبين نفعًا ولا أخص أمنًا ولا أجمع فضلاً منه والقصد داع إلى الرشد ، والرشد دليل على التوفيق ، والتوفيق قائد إلى السعادة وقوام الدين والسنن الهادية بالاقتصاد وأثره فى دنياك كلها . ولا تقصر فى طلب الآخرة والأعمال الصالحة والسنن المعروفة ومعالم الرشد ولا غاية لاستكثار البر والسعى له إذا كان يطلب به وجه الله ومرضاته ومرافقة أوليائه فى دار كرامته . واعلم أن القصد فى شأن الدنيا يورث العز ويحصن من الذنوب ، وإنك لن تحوط نفسك ومرتبتك ولا تستصلح أمورك بأفضل منه فأته واهتد به تتم أمورك وتزد مقدرتك وتصلح خاصتك وعامتك وأحسن الظن بالله عز وجل تستقم لك رعيتك والتمس الوسيلة إليه فى الأمور كلها تستدم به النعمة عليك ولا تتهمن أحدًا من الناس فيما توليه من عملك قبل أن تستكشف أمره فإن إيقاع التهم بالبرآء والظنون السيئة بهم مأثم ، فاجعل من شأنك حسن الظن بأصحابك واطرد عنك سوء الظن بهم وارفضه فيهم يعنك ذلك على اصطناعهم ورياضتهم ، ولا يجدن عدو الله الشيطان فى أمرك مغمزًا فإنه إنما يكتفى بالقليل من وهنك ، فيدخل عليك من الغم فى سوء الظن ما ينقص لذاذة عيشك . واعلم أنك تجد بحسن الظن قوة وراحة وتكتفى به ما أحببت كفايته من أمورك ، وتدعو به الناس الي محبتك والاستقامة فى الأمور كلها ، ولا يمنعك حسن الظن بأصحابك والرأفة برعيتك أن تستعمل المسألة والبحث عن أمورك والمباشرة لأمور الأولياء والحياطة للرعية والنظر فيما يقيمها ويصلحها بل لتكن المباشرة لأمور الأولياء والحياطة للرعية والنظر فى حوائجهم وحمل مؤناتهم آثر عندك مما سوى ذلك فإنه أقوم للدين وأحيا للسنة . واخلص نيتك فى جميع هذا وتفرد بتقويم نفسك تفرد من يعلم أنه مسئول عما صنع ومجزى بما أحسن ومأخوذ بما أساء ، فان الله عز وجل جعل الدين حرزًا وعزًا ورفع من اتبعه وعززه فاسلك بمن تسوسه وترعاه نهج الدين

وطريقة الهدى . وأقم حدود الله عز وجل فى أصحاب الجرائم على قدر منازلهم وما استحقوه ولا تعطل ذلك ولا تهاون فيه ، ولا تؤخر عقوبة أهل العقوبة فإن فى تفريطك فى ذلك ما يفسد عليك حسن ظنك واعزم على أمرك فى ذلك بالسنن المعروفة وجانب البدع والشبهات يسلم لك دينك وتقم لك مروءتك ، وإذا عاهدت عهداً فأوف به وإذا وعدت خيراً فأنجزه ، واقبل الحسنة وادفع بها واغمض عن عيب كل ذى عيب من رعيتك ، واشدد لسانك عن قول الكذب والزور ، وابغض أهل النميمة فإن أول فساد أمورك فى عاجلها وآجلها تقريب الكذوب والجرأة على الكذب لأن الكذب رأس المآثم والزور ، والنميمة خاتمتها لأن النميمة لا يسلم صاحبها وقائلها لا يسلم له صاحب ولا يستقيم لمطيعها أمر . وأحبب أهل الصلاح والصدق وأعز الأشراف بالحق وواس الضعفاء وصل الرحم وابتغ بذلك وجه الله تعالي وإعزاز أمره والتمس فيه ثوابه والدار الآخرة . واجتنب سوء الأهواء والجور واصرف عنهما رأيك وأظهر براءتك من ذلك لرعيتك وانعم بالعدل فى سياستهم وقم بالحق فيهم وبالمعرفة التى تنتهى بك الي سبيل الهدى . واملك نفسك عند الغضب وآثر الوقار والحلم وإياك والحدة والطيش والغرور فيما أنت بسبيله وإياك أن تقول أنا مسلط أفعل ما أشاء فإن ذلك سريع إلى نقص الرأى وقلة اليقين بالله عز وجل . واخلص لله وحده النية فيه واليقين به ، واعلم أن الملك لله سبحانه وتعالى يؤتيه من يشاء ، وينزعه ممن يشاء ولن تجد تغير النعمة وحلول النقمة إلى أحد أسرع منه إلى جهلة النعمة من أصحاب السلطان والمبسوط لهم فى الدولة إذا كفروا نعم الله وإحسانه واستطالوا بما آتاهم الله عز وجل من فضله . ودع عنك شره نفسك ولتكن ذخائرك وكنوزك التى تدخر وتكنز البر والتقوي والعدل واستصلاح الرعية وعمارة بلادهم والتفقد لأمورهم والحفظ لدمائهم والإغاثة لملهوفهم .
واعلم أن الأموال إذا كثرت وادخرت فى الخزائن لا تنمو ، وإذا كانت فى صلاح الرعية وإعطاء حقوقهم وكف المؤنة عنهم نمت وزكت وصلحت بها العامة وتزينت بها الولاة وطاب بها الزمان واعتقد فيها العز والمنعة ، فليكن كنز خزائنك تفريق الأموال فى عمارة الإسلام وأهله وفرق منه على أولياء أمير المؤمنين قبلك حقوقهم وأوف رعيتك من ذلك حصصهم وتعهد ما يصلح أمورهم ومعاشهم ، فإنك إذا فعلت ذلك قرت النعمة عليك واستوجبت المزيد من الله عز وجل ، وكنت بذلك على جباية خراجك وجمع أموال

رعيتك وعملك أقدر وكان الجميع لما شملهم من عدلك وإحسانك أساس لطاعتك وأطيب نفساً بكل ما أردت ، فاجهد نفسك فيما حددت لك فى هذا الباب ولتعظم خشيتك فيه ، وإنما يبقي من المال ما أنفق فى سبيل الله . واعرف للشاكرين شكرهم وأثبهم عليه وإياك أن تنسيك الدنيا وغرورها هول الآخرة فتتهاون بما يحق عليك ، فإن التهاون يورث التفريط ، والتفريط يورث البوار ، وليكن عملك لله عز وجل وارج الثواب فيه ، فإن الله سبحانه قد أسبغ عليك نعمته فى الدنيا وأظهر لديك فضله فاعتصم بالشكر وعليه فاعتمد يزدك الله خيراً وإحساناً . فإن الله عز وجل يثيب بقدر شكر الشاكرين وإحسان المحسنين . ولا تحقرن ذنبًا ولا تمالئن حاسداً ولا ترحمن فاجراً ولا تصلن كفوراً ولا تداهنن عدواً ولا تصدق نماماً ولا تأمنن غداراً ولا توالين فاسقاً ولا تتبعن غاوياً ولا تحمدن مرائياً ولا تحقرن إنساناً ولا تردن سائلاً فقيراً ولا تحسنن باطلاً ولا تلاحظن مضحكاً ولا تخلفن وعداً ولا تزهون فخراً ولا تظهرن غضباً ولا تأتين ندماً ولا تمشين مرحاً ولا تزكين سفيهاً ولا تفرطن فى طلب الآخرة ولا تدفعن الأيام عتاباً ولا تغمضن عن ظالم رهبة منه أو محاباة ولا تطلبن ثواب الآخرة فى الدنيا . وأكثر مشاورة الفقهاء واستعمل نفسك بالحلم وخذ عن أهل التجارب وذوى العقل والرأى والحكمة ولا تدخلن فى مشورتك أهل الرفه والبخل ولا تسمعن لهم قولاً فإن ضررهم أكثر من منفعتهم ، وليس شيء أسرع فساداً لما استقبلت فيه أمر رعيتك من الشح . واعلم أنك إذا كنت حريصاً كنت كثير الأخذ قليل العطية وإذا كنت كذلك لم يستقم أمرك إلا قليلاً ، فإن رعيتك إنما تعقد على محبتك بالكف عن أموالهم وترك الجور عليهم . ووال من صافاك من أوليائك بالإفضال عليهم وحسن العطية لهم ، واجتنب الشح وأعلم أنه أول ما عصى به الإنسان ربه وإن العاصي بمنزلة الجرى ، وهو قول الله عز وجل . "ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون" ، فسهل طريق الجود بالحق واجعل للمسلمين كلهم من فيئك حظاً ونصيباً ، وأيقن أن الجود من أفضل أعمال العباد فاعدده لنفسك خلقاً وارض به عملاً ومذهباً . وتفقد الجند فى دواوينهم ومكاتبهم وأدرر عليهم أرزاقهم ووسع عليهم فى معايشهم ليذهب الله عز وجل بذلك فاقتهم فيقوى لك أمرهم وتزيد به قلوبهم فى طاعتك وأمرك خلوصاً انشراحاً وحسب ذى السلطان من السعادة أن يكون على جنده ورعيته ذا رحمة فى عدله وحيطته

وإنصافه وعنايته وشفقته وبره وتوسعته ، فزايل مكروه أحد البابين باستشعار فضيلة الآخر ولزوم العمل به تلق إن شاء الله تعالى نجاحًا وفلاحًا . واعلم أن القضاء من الله تعالى بالمكان الذى ليس يعدل به شىء من الأمور لأنه ميزان الله الذى تعدل عليه أحوال الناس فى الأرض وبإقامة العدل فى القضاء والعمل تصلح أحوال الرعية وتأمن السبل وينتصف المظلوم ويأخذ الناس حقوقهم وتحسن المعيشة ويؤدى حق الطاعة ويرزق الله العافية والسلامة ويقوم الدين وتجرى السنن والشرائع على مجاريها بتنجيز الحق والعدل فى القضاء . واشتد فى أمر الله عز وجل وتورع عن النطف وامض لإقامة الحدود وأقلل العجلة وأبعد عن الضجر والقلق واقنع بالقسم ، وليسكن ريحك ويقر حدك وانتفع بتجربتك وانتبه فى صمتك واسدد فى منطقك وأنصف الخصم وقف عند الشبهة وأبلغ فى الحجة ولا يأخذك فى أحد من رعيتك محاباة ولا مجاملة ولا لومة لائم وتثبت وتأن وراقب وانظر وتفكر وتدبر واعتبر وتواضع لربك وأرفق بجميع الرعية وسلط الحق على نفسك ، ولا تسرعن إلى سفك دم فإن الدماء من الله عز وجل بمكان عظيم انتهاكًا لها بغير حقها . وانظر هذا الخراج الذى استقامت عليه الرعية وجعله الله للإسلام عزًا ورفعة ولأهله توسعة ومنعة ولعدوه وعدوهم كبتًا وغيظًا ولأهل الكفر من معاهدتهم ذلاً وصغاراً فوزعه بين أصحابه بالحق والعدل والتسوية والعموم فيه ، ولا ترفعن منه شيئًا عن شريف لشرفه ولا عن غنى لغناه ولا عن كاتب لك ولا عن أحد من خاصتك وحاشيتك ولا تأخذن منه فوق الاحتمال . ولا تكلفن أمراً فيه شطط واحمل الناس كلهم على أمر الحق فإن ذلك أجمع لألفتهم وألزم لرضا العامة . واعلم أنك جعلت بولايتك خازنًا وحافظًا وراعيًا وإنما سمى أهل عملك رعيتك لأنك راعيهم وقيمهم وخذ منهم ما أعطوك من عفوهم ونفذه فى قوام أمرهم وصلاحهم وتقويم أودهم واستعمل عليهم ذوى الرأى والتدبير والتجربة والخبرة بالعمل والعلم بالسياسة والعفاف ووسع عليهم فى الرزق فإن ذلك من الحقوق اللازمة لك فيما تقلدت وأسند إليك ولا يشغلنك عنه شاغل ولا يصرفنك عنه صارف فإنك متى آثرته وقمت فيه بالواجب استدعيت به زيادة النعمة من ربك وحسن الأحدوثة فى عملك واستجررت به المحبة عن رعيتك وأعنت على الصلاح فدرت الخيرات ببلدك وفشت العمارة بناحيتك وظهر الخصب فى كورك وكثر خراجك وتوفرت أموالك وقويت بذلك على ارتياض جندك

وإرضاء العامة بإفاضة العطاء فيهم من نفسك ، وكنت محمود السياسة مرضى العدل فى ذلك عند عدوك وكنت فى أمورك كلها ذا عدل وآلة وقوة وعدة فتنافس فى هذا ولا تقدم عليه شيئًا تحمد فيه مغبة أمرك إن شاء الله تعالى . واجعل فى كل كورة من عملك أمينًا يخبرك أخبار عمالك ويكتب إليك بسيرهم وأعمالهم حتى كأنك مع كل عامل فى عمله معاين لأموره كلها فإن أردت أن تأمرهم فانظر فى عواقب ما أردت من ذلك فإن رأيت السلامة فيه والعافية ورجوت فيه حسن الدفاع والصنع فأمضه وإلا فتوقف عنه وراجع أهل البصر والعلم به ثم خذ فيه عدته فإنه ربما نظر الرجل فى أمر من أموره وقد أتاه على ما يهوى فأغواه على ذلك وأعجبه فإن لم ينظر فى عواقبه أهلكه ونقض عليه أمره فاستعمل الحزم فى كل ما أردت وباشره بعد عون الله عز وجل بالقوة . وأكثر من استخارة ربك فى جميع أمورك وافرغ من عمل يومك ولا تؤخره لغد فإن لغد أمورًا وحوادث تلهيك عن عمل يومك الذى أخرت ، واعلم أن اليوم إذا مضى ذهب بما فيه فإذا أخرت عمله اجتمع عليك عمل يومين فيشغلك ذلك حتى تعرض عنه وإذا أمضيت لكل يوم عمله أرحت نفسك وبدنك وأحكمت أمور سلطانك . وانظر أحرار الناس وذوى الفضل منهم ممن بلوت صفاء طويتهم وشهدت مودتهم لك ومظاهرتهم بالنصح والمحافظة على أمرك فاستخلصهم وأحسن إليهم . وتعاهد أهل البيوتات ممن قد دخلت عليهم الحاجة فاحتمل مؤنتهم وأصلح حالهم حتى لا يجدوا لخلتهم مسا . وأفرد نفسك بالنظر فى أمور الفقراء والمساكين ومن لا يقدر علي رفع مظلمته إليك والمحتقر الذى لا علم له بطلب حقه فسل عنه أحفى مسألة ووكل بأمثاله أهل الصلاح من رعيتك ومرهم برفع حوائجهم وحالاتهم إليك لتنظر فيها بما يصلح الله به أمرهم . وتعاهد ذوى البأساء ويتاماهم وأراملهم واجعل لهم أرزاقًا من بيت المال اقتداء بأمير المؤمنين أعزه الله فى العطف عليهم والصلة لهم ليصلح الله بذلك عيشهم ويرزقك به بركة وزيادة وأجرًا للاضراء من بيت المال ، وقدم حملة القرآن منهم والحافظين لأكثره فى الجراية على غيرهم . وانصب لمرضى المسلمين دورًا تؤويهم وقوامًا يرفقون بهم وأطباء يعالجون أسقامهم وأسعفهم بشهواتهم ما لم يؤد ذلك إلى إسراف فى بيت المال . واعلم أن الناس إذا أعطوا حقوقهم وأفضل أمانيهم لم يرضهم ذلك ولم تطب أنفسهم دون رفع حوائجهم إلى ولاتهم طمعًا فى نيل الزيادة وفضل الرفق منهم ، وربما يبرم

المتصفح لأمور الناس لكثرة ما يرد عليه ويشغل ذهنه وفكره منها ما يناله به مؤنة ومشقة ، وليس من يرغب في العدل ويعرف محاسن أموره في العاجل وفضل ثواب الآجل كالذى يستفز بما يقربه إلى الله تعالى ويلتمس به رحمته . وأكثر الإذن للناس عليك وأرهم وجهك وسكن لهم حراسك واخفض لهم جناحك وأظهر لهم بشرك ولن لهم في المسألة والمنطق واعطف عليهم بجودك وفضلك ، وإذا أعطيت فأعط بسماحة وطيب نفس والتماس للصنيعة والأجر من غير تكدر ولا امتنان ، فان العطية على ذلك تجارة مربحة إن شاء الله تعالى . واعتبر بما ترى من أمور الدنيا ومن مضي قبلك من أهل السلطان والرئاسة في القرون الخالية والأمم البائدة ثم اعتصم في أحوالك كلها بأمر الله والوقوف عند محبته والعمل بشريعته وسنته وإقامة دينه وكتابه ، واجتنب ما فارق ذلك وخالف ما دعا إلى سخط الله عز وجل . واعرف ما يجمع عمالك من الأموال وينفقون منها ولا تجمع حرامًا ولا تنفق إسرافًا . وأكثر مجالسة العلماء ومشاورتهم ومخالطتهم ، وليكن هواك اتباع السنن وإقامتها وإيثار مكارم الأمور ومعاليها ، وليكن أكرم دخلائك وخاصتك عليك من إذا رأى عيبًا فيك لم تمنعه هيبتك عن إنهاء ذلك إليك في سر وإعلامك ما فيه من النقص ، فإن أولئك أنصح أوليائك ومظاهريك لك . وانظر عمالك الذين بحضرتك وكتابك فوقت لكل رجل منهم في كل يوم وقتًا يدخل فيه عليك بكتبه ومؤامرته وما عنده من حوايج عمالك وأمور كورك ورعيتك ، ثم فرغ لما يورده عليك من ذلك سمعك وبصرك وفهمك وعقلك وكرر النظر فيه والتدبر له ، فما كان موافقًا للحق والحزم فأمضه واستخر الله عز وجل فيه ، وما كان مخالفًا لذلك فاصرفه إلى التثبت فيه والمسألة عنه . ولا تمن على رعيتك ولا غيرهم بمعروف تؤتيه إليهم ولا تقبل من أحد منهم إلا الوفاء والاستقامة والعون في أمور المسلمين ولا تصنعن المعروف إلا على ذلك . وتفهم كتابي إليك وأكثر النظر فيه والعمل به واستعن بالله على جميع أمورك فإن الله عز وجل مع الصلاح وأهله . وليكن أعظم سيرتك وأفضل رغبتك ما كان لله عز وجل رضا ولدينه نظامًا ولأهله عزًا وتمكينًا وللملة والذمة عدلاً وصلاحًا . وأنا أسأل الله أن يحسن عونك وتوفيقك ورشدك وكلاءتك والسلام" .

٢٠ – ومن نثر أبي الفضل محمد المشهور بابن العميد وزير ركن الدولة ابن بويه : "خير القول ما أغناك جده وألهاك هزله . المرء أشبه شيء بزمانه ، وصفة كل زمان منتسخة من سجايا سلطانه ، اجتنب سلطان الهوى وشيطان الميل . المرح والهزل

بابان إذا فتحا لم يغلقا إلا بعد العسر وفحلان إذا ألقحا لم ينتجا غير الشر" .

٢١ - وكتب أبو علي عبد الرحيم المصري المعروف بالقاضي الفاضل وزير صلاح الدين الأيوبي في صفة قلعة شاهقة : "وهذه القلعة عقاب في عقاب ، ونجم في سحاب ، وهامة لها الغمامة عمامة ، وأنملة إذا خضبها الأصيل كان الهلال لها قلامة" .

٢٢ - وكتب إلى عبد الله الطبرى : "وصل كتابك فصادفنى قريب العهد بالانطلاق من عنت الفراق ، ووافقنى مستريح الأعضاء والجوانح من جوى الاشتياق ، فإن الدهر جرى على حكمه المألوف في تحويل الأحوال ، ومضى على رسمه المعروف في تبديل الأشكال ، وأعتقني من مخالبك إعتاقًا لا تستحق به ولاء ، وأبرأنى من عهدتك براءة لا تستوجب معها دركًا ولا استثناء ، ونزع من عنقي ربقة الذل في إخائك ، بيدى جفائك ورش على ما كان يضرم في ضميرى من نيران الشوق بالسلو ، وشن على ما كان يلتهب في صدرى من الوجد ماء اليأس ، ومسح أعشار قلبى فلأم فطورى بجميل الصبر ، وشعب أفلاذ كبدى فلاحم صدوعها بحسن العزاء ، وتغلغل في مسالك أنفاسي فعوض عن النزاع إليك نزوعًا عنك ، ومن الذهاب فيك رجوعًا دونك ، وكشف عن عيني ضبابات ما ألقاه الهوى على بصرى ، ورفع عنها غيابات ما سدله الشك دون نظرى ، حتى حدر النقاب عن صفحات شيمك وسفر عن وجوه خليقتك ، فاذهب فقد ألقيت حبلك على غاربك ورددت إليك نمم عهدك" .

٢٣ - وكتب ولد ابن العميد أبو الفتح على كتابًا إلى بعض أصدقائه يستهديه شرابًا وهو : "قد اغتنمت الليلة أطال الله بقاءك يا سيدي ومولاى رقدة من عين الدهر ، وانتهزت فرصة من فرص العمر ، وانتظمت مع أصحابى في سمط الثريا ، فإن لم تحفظ علينا النظام بإهداء المدام عدنا كبنات نعش والسلام" .

٢٤ - وكتب الصاحب بن عباد إلى صديق له : "نحن يا سيدى في مجلس غنى إلا عنك شاكر إلا منك ، قد تفتحت فيه عيون النرجس ، وتوردت خدود البنفسج ، وفاحت مجامر الأترج ، وفتقت فارات النارنج ، وانطلقت ألسن العيدان ، وقامت خطباء الأطيار ، وهبت رياح الأقداح ، ونفقت سوق الأنس ، وقام منادى الطرب ، وامتد سحاب الند ، فبحياتى إلا ما حضرت فقد أبت راح مجلسنا أن تصفو إلا أن

تتناولها يمناك ، وأقسم غناؤه ألا يطيب حتى تعيه أذناك ، فخدود نارنجه قد احمرت خجلاً لإبطائك وعيون نرجسه قد حدقت تأميلاً للقائك" .

٢٥ – وكتب البديع الهمذانى إلى أبى نصر بن المرزبان : "كنت أطال الله بقاء سيدى ومولاى فى قديم الزمان أتمنى للكتاب الخير ، وأسال الله أن يدر عليهم أخلاف الرزق ، ويمد لهم أكناف العيش ، ويوطئهم أعراف المجد ، ويؤتيهم أصناف الفضل ، ويركبهم أكتاف العز ، وقصاراى أن أرغب إلى الله تعالى فى أن لا ينيلهم فوق الكفاية ولا يمد لهم فى حبل الرعاية ، فشد ما يطغون للنعمة ينالونها والدرجة يعلونها وسرع ما ينظرون من عال بما ينظمون من حال ويجمعون من مال ، وتنسيهم أيام الليونة أوقات الخشونة وأزمان العذوبة ساعات الصعوبة . وللكتاب مزية فى هذا الباب فبينما هم فى العطلة إخوان كما انتظم السمط وفى العذلة أعوان كما انفرج المشط حتى لحظهم الجد لحظة حمقاء بمنشور عمالة أوصك جعالة فيعود عامر ودهم خراباً وينقلب شراب عهدهم سراباً . فما غلت أمورهم حتى أسبلت ستورهم ، ولا علت قدورهم إلا خلت بدورهم ، ولا اتسعت دورهم إلا ضاقت صدورهم ، ولا أوقدت نارهم إلا انطفأ نورهم ، ولا زاد ما لهم إلا نقص معروفهم ، ولا ورمت أكياسهم إلا ورمت أنوفهم ولا تبجلت عتاقهم إلا فظت أخلاقهم ، ولا صلحت أحوالهم إلا فسدت أفعالهم ، ولا حسنت حالهم إلا قبحت خلالهم ، ولا فاض جاهم إلا غاضت مياهم ، ولا لانت برودهم إلا صلبت حدودهم ، ولا علت جدودهم إلا سفل جودهم ، ولا طالت أيديهم إلا قصرت أياديهم . وقصارى أحدهم من المجد أن ينصب تخته تحته ، ويؤطى إسته دسته ، ويقف غلامه أمامه ونائبه من الكرم دار يصهرج أرضها ويزبرج بعضها ويزوق سقوفها ويعلق شفوفها ، وكفاه من الفضل أن تحمل الغاشية قدامه وتعدو الحاشية أمامه وناهيه من الشرف ألفاظ فقاعية وثياب مشقاعية يلبسها ملوماً ويحشوها لوماً ولؤماً . وهذه صفة فاضلهم ومنهم من يحتمل الود أيام خشكاره حتى إذا أيسر جعل ميزانه وكيله وأسنانه أكيله وأليفه رغيفه وأنيسه كيسه وأمينه يمينه ودنانيره سميره ومفاتحه ضجيعه وصناديقه صديقه . ثم جمع الذرة على الذرة ووضع البدرة على البدرة فلم يضع النظر من طرفه ، ولا الصرة من كفه ، ولا يخرج ماله من عهدة خاتمه إلا يوم مأتمه ، فهو يجمع لحادث حياته أو وارث مماته ، يسلك فى الغدر كل طريق

ويبيع بالدرهم ألف صديق . وقد كان الظن بصديقنا أبى سعيد أيده الله أنه إذا أخصب آوانًا كنفًا من ظله ، وحبانا من فضله فمن لنا الآن بعدله ، إنه أطال الله بقاء الشيخ حين طارت على رأسه عقاب المخاطبة بالرئيس وجلس من الديوان فى صدر الإيوان ، افتض عذرة السياسة ببعض المختلفة إلىّ وجعل يعرضه للهلاك ويسبب عليه بمال الأتراك ويشحن داره بالدجاله ويكده بالفرسان والرجاله . وجعلت أكاتبه مرة وأقصده أخرى ، فأذكر له أن الراكب ربما استنزل والوالى ربما عزل ، ثم يجف ريق الخجل على لسان العذر ، وتبقى الحزازة فى الصدر ، فما زاده قولى إلا غلواً فى تهكمه وعلواً فى تحكمه ، وجعل يمسنى الجمر فى ظلمه ويبرأ إلى من علمه ، وأقول إذا رأيت ذلة السؤال وعزة الرد منه :

قل لــــى مــتى فــرزنـت ســـــر عـــة مــــا أرى يـــا بيــــدق

وما أضيع وقتًا بذكره قطعته ، هلم إلى الشوق وشرحه ، فقد نكأ القلب بقرحه ، وكيف أكاد أصف شوقًا لا يفرع الدهر فروة حاله ولا ينقض عروة انحلاله ، فما أولانى أن أذكره مجملاً وأتركه مفصلاً" .

٢٦ – وكتب أيضًا إلى القاسم الكرجى : "يعز على أطال الله بقاء الشيخ الرئيس أن ينوب فى خدمته قلمى عن قدمى ، ويسعد برؤيته رسولى دون وصولى ، ويرد مشرعة الأنس به كتابى قبل ركابى ، ولكن ما الحيلة والعوائق جمة :

وعلــــىَّ أن أســــــعى ولـيــــ ــــس علـــــىَّ إدراك النـجــــــاح

وقد حضرت داره وقبلت جداره ، ومابى حب الحيطان ، ولكن شغفًا بالقطان ولا عشق الجدران ، ولكن شوقًا إلى السكان ، وحين عدت العوادى عنه أمليت ضمير الشوق على لسان القلم معتذراً إلى الشيخ على الحقيقة عن تقصير وقع وفتور فى الخدمة عرض ، ولكنى أقول :

إن يكـــن تركـي لقـصـــدك ذنبًا فكفـــى أن لا أراك عـــقــابـــا"

٢٧ - وكتب إلى أبى عامر الضبى يعزيه :

إذا مـــا الدهر جـــر على أناس حـــوادثـه أنـاخ بـآخـــرينـا
فـقـــل للشـامـتين بنا أفـيــقـوا سـيلقـى الشـامـتـون كـمـا لقـينا

أحسن ما فى الدهر عمومه بالنوائب وخصوصه بالرغائب ، فهو يدعو الجفلى إذا ساء ، ويختص بالنعمة إذا شاء . فلينظر الشامت فإن كان أفلت ، فله أن يشمت ولينظر الإنسان فى الدهر وصروفه والموت وصنوفه من فاتحة أمره إلى خاتمة عمره ، هل يجد لنفسه أثرًا فى نفسه أم لتدبيره عونًا على تصويره أم لعمله تقديمًا لأمله أم لحيله تأخيرًا لأجله ، كلا بل هو العبد لم يكن شيئًا مذكورًا خلق مقهورًا ورزق مقدورًا فهو يحيا جبرًا ويهلك صبرًا ، وليتأمل المرء كيف كان قبلاً فإن كان العدم أصلاً والوجود فضلاً فليعلم الموت عدلاً . والعاقل من رفع من حوائل الدهر ما ساء ليذهب ما ضر بما نفع ، وإن أحب أن لا يحزن فلينظر يمنة هل يرى إلا محنة ، ثم ليعطف يسرة هل يرى إلا حسرة . ومثل الشيخ الرئيس من تفطن لهذه الأسرار وعرف هذه الدار فأعد لنعمتها صدرًا لا يملأه فرحًا ولبؤسها قلبًا لا يطيره جزعًا ، وصحب الدهر برأى من يعلم أن للمتعة حدًا ، وللعارية ردًا . ولقد نعى إلىّ أبو قبيصة قدس الله روحه وبرد ضريحه ، فعرضت على أمالى قعودًا وأمانى سودًا وبكيت والسخى بما يملك وضحكت وشر الشدائد ما يضحك وعضضت الإصبع حتى أفنيته ونممت الموت حتى تمنيته .
والموت خطب قد عظم حتى هان ، وأمر قد خشن حتى لان ، ونكر قد عم حتى صار عرفًا . والدنيا قد تنكرت حتى صار الموت أخف خطوبها ، وجنت حتى صار أصغر ذنوبها ، وأضمرت حتى صار أيسر غيوبها ، وأبهمت حتى صار أظهر عيوبها . ولعل هذا السهم آخر ما فى كنانتها وأزكى ما فى خزانتها . ونحن معاشر التبع نتعلم الأدب من أخلاقه ، والجميل من أفعاله ، فلا نحثه على الجميل وهو الصبر ، ولا نرغبه فى الجزيل وهو الأجر ، فلير فيهما رأيه إن شاء الله" .

٢٨ - وكتب أبو بكر الخوارزمي إلى ابن سهل سعيد : "وصل كتاب سيدى المنتظر المؤتلف والمستبطأ المتشوف بعد أن عاتبت الدهر على تأخره ولمته ، وبعد أن نممت فيه البخت وشتمته ، وبعد أن نظرت إليه وهو غائب مثلاً ، ورأيته فى النوم خيالاً ، وبعد أن عددت له الليالى والأيام عداً ، وحسبت فيه الأوقات والأنفاس ضرباً وعقداً ، وبعد أن ظننت الظنون بسيدي وبوده ، وتوهمت الأيام فى وفائه وعهده وحسبت وأنا أستغفر الله أنه قد أثبت اسمه فى جريدة الغدر وجانس أبناء الدهر ، وبعد أن أنشدت فيه :

لم تزل تجهل الخيانة حتى علمتك الأيام كيف تخون

فويلى إن لم يعف سيدى عنى ، ولم يغفر لى ما بدر منى ، ولم يجعلنى فى حل من سوء ظنى وفهمته . ولم أزل أكرر قراءته حتى حفظته ، ثم تزودت فى ذلك حتى حفظت غاية باآته وصارت روايته تقطع على صلاتى وتستهلك أكثر أوقاتى ، ثم عرضته على أصدقائى وأصدقاء ولائى فما منهم إلا من سألنيه ونافسنى فيه واستعارنيه ونيته أن لا يرد العارية ولا يؤدى الأمانة ثم نسخوه ولو طلبته منهم لما أعادوه . نكر سيدى من شوقي إليه ما لم يتكلم فيه إلا عن لسانى ، ولم يترجم إلا عن شأنى ، ولقد طويت بعده بساط المدام ، ورفعت صحيفة المؤانسة والندام ، وطلقت الراح ثلاثاً ، وفارقت الغناء بتاتاً ، حتى جفت الأقداح واستخصتنى الراح ، ونسى بنانى الأترج والتفاح . ولقد ترك سيدى بخروجه رسوم الطرب من إخوانه دراسة ، وآثار الفرح والأنس طامسة وديار المنادمة والمجالسة مقفرة ، وأطلال المحادثة والمساعدة متنكرة ، قد هبت عليها بغتة ريح الأدبار وطلع عليها نجم البلاء والإقفار ، ونفذ فيها حكم الفناء ولمستها يد العفاء . سألنى سيدى عن نكرى له وكيف لا يذكره من يراه ، وإن كان لا يلقاه بل كيف يذكره من ليس ينساه ، وكيف يسلو عنه من لا يرى عوضاً منه ، وكيف يغب نكره من لا يفتح عينيه على أكرم منه عليه وأحب منه إليه . وقد عرفته أنا هجرنا الشراب وأغلقنا هذا الباب ، ثم إن شربنا فى كل فترة نبوة أو بيعة خلافة ، فلا نقل إلا تذكاره ولا تحية إلا أنكاره ولا حديث إلا أنسنا به . كان ووحشتنا له الآن ولا اقتراح على المغنى الأشعر فى أوله نكر غيبته وفى آخره تمنى أوبته ، رد الله تعالى سيدى

إلى إخوانه الذين أنا أولهم فى المحبة وإن كنت آخرهم في الرتبة على حالة يقع الشكر وراء حقها وتكل مطايا التعديد والبشر في مسافات طرقها ، والناس يقولون ردّك الله سالمًا إلى سالمين ، وأنا أقول ردك تعالى غانماً إلى غانمين فإن من سعد بلقياك فهو غانم ، كما أن من حرم النظر إلى طلعتك فهو غارم . وأرجو أن يتقدم سيدى بوصوله عند الفطر فيجتمع لى عيدان وفطران ، كما اجتمع على بغيبته صومان على أن صوم العين أشد من صوم البطن فإن مسافة صوم العين مجهولة الأمد والعدد مخوفة الزيادة والمدد ومسافة صوم البطن يوم وشيك المهلة قريب العشية من الغدوة ، فحصتى من صوم هذه السنة المباركة حصتان ويومى منه يومان . وتأبى صروف الدهر أن تأتينى إلا مزدوجة فى قران وذلك أنى صمت عن النظر إلى طلعة سيدى شهرى رجب وشعبان وصمت عن الطعام والشراب شهر رمضان ، وقد قال الخليع الشامى :

سكران سكر هوى وسكر مدامة   فمتى يفيق فتى به سكران

وأنا أقول :

صومان صوم نوى وصوم عبادة   فمتى يعيش فتى له صومان"

٢٩ – وكتب إلى تلميذ له : "وصل كتابك يا سيدي فسرنى نظرى إليه ثم غمنى اطلاعى عليه لما تضمنه من ذكر علتك ، جعل الله أولها كفارة وآخرها عافية ، ولا أعدمك على الأولى أجراً وعلى الأخرى شكراً ، وبودى لو قرب على متناول عيادتك فاحتملت عنك بالتعهد والمساعدة بعض أعباء علتك ، فلقد خصنى من هذه العلة قسم كقسمك ومرض قلبى لمرض جسمك . وأظن أنى لو لقيتك عليلاً لانصرفت عنك وأنا أعل منك ، فإنى بحمد الله تعالى جلد على أوجاع أعضائى غير جلد على أوجاع أصدقائى ، ينبوعنى سهم الدهر إذا رمانى وينفذ فىّ إذا رمى إخوانى فأقرب سهامه منى أبعد سهامه عنى ، إن أبعدها عنى أقربها منى . شفاك الله وعافاك وكفانى فيك المحذور وكفاك ، ورفع جنبك وغفر ذنبك ، وآمن سربك وشرح قلبك وأعلى كعبك" .

٣٠ - وكتب إلى صديق : "الأيام أيدك الله بينى وبينك تراجمة لى عن صحة وفائك ، وشهود عندى على صدق إخائك . وأقل حقوقك علىّ يلزمنى أن لا أشغل لسانى بغير شكرك ولا قلبى إلا بذكرك ، ولو تجاوز طبقات أهل مودتك فى ميدان المقة . وتنازعوا خَصْلَ الأنس والثقة ، رجوت أن أكون سابقًا ليس له سابق ، ولا يذكر معه لاحق وإن تجلى الغاية منى عن محبة مرباة بالوفاء وعن شكر مُرْضَع بالدعاء . وقد بلغنى خبر سعيك لفلان فى العمل الذى هو دون قدره ، وإن كان فوق أعمال عصره ، فشكرتك عنه وإن كان بشكرك أوفى وأملى ، وبإيفائك حقك أحق وأولى . وأردت أن أكل شكرك إليه ، ولا أتطفل فيه عليه ، فكرهت أن تطوى صحيفة الشكر ولم يجر لى فيها اسم ، وإن تختم جريدة المشاركة ولم يكن لى فيها قسم ، فذكرته لك وأنت له أذكر وشكرتك عنه وهو لك منى أشكر ، على أنى أرغب بذلك الحر عن التلطخ بأوضار الأعمال فإنها مزالق أقدام الرجال ، ضنًا به عن تخاليط الأيام ، وصيانة لمحله عن مدانسة الأوهام ، ونعمتك عليه مقتسمة بينى وبينه ، بل أكثرها لى دونه . فما ظنك بعارفة واحدة تكسبك شكرين ، وتستعبد لك حرين ، وجدير بمن هطلت عليه سحائب عنايتك ورفرفت حوله أجنحه رعايتك أن ينبو عنه سيف الزمان مثلومًا ، ويرجع عن ساحته عسكر الزمان مهزومًا . والله عز وجل أسأل أن لا يحرمك نعمة يمد بها إليك عنق ودود ، ومنه تفقأ عنك عين حسود . أخبرت أنك أيدك الله تحدث نفسك بزيارتى وأنه ليسرنى أن أخطر ببالك ، ويسوءنى أن أصير زيادة فى أشغالك ، ولا تجشم نفسك فإن خيالك فى كل ليلة نائب عندى عنك ، وإن لم يكن فيه ولا فى الدنيا كلها عوض لى منك" .

٣١ - ومن مقامات الحريرى "المقامة السادسة المراغية" : "روى الحرث بن همام قال حضرت ديوان النظر بالمراغة ، وقد جرى به ذكر البلاغة فأجمع من حضر من فرسان البراعة وأرباب البراعة على أنه لم يبق من ينقح الإنشاء ، ويتصرف فيه كيف شاء ، ولا خلف بعد السلف من يبتدع طريقة غراء أو يفترع رسالة عذراء . وإن المفلق من كتاب هذا الأوان المتمكن من أزمة البيان ، كالعيال على الأوائل ، ولو ملك فصاحة سحبان وائل . وكان بالمجلس كهل جالس فى الحاشية ، عند مواقف الحاشية ، فكان كلما شط القوم فى شوطهم ونثروا العجوة والنجوة من نوطهم ينبئ تخازر طرفه

وتشامخ أنفه أنه مخر نبق لينباع ومجرمز سيمد الباع ، ونابض بيرى النبال ، ورابض يبغى النضال . فلما نثّت الكنائن وفاءت السكائن وركدت الزعازع وكف المنازع وسكنت الزماجر وسكت المزجور والزاجر ، أقبل على الجماعة وقال لقد جئتم شيئًا إدًا ، وجرتم عن القصد جدًا ، وعظمتم العظام الرفات ، افتتم فى الميل إلى من فات ، وغمصتم جيلكم الذين فيهم لكم اللدات ، ومعهم انعقدت المودّات ، أنسيتم يا جهابذة النقد وموابذة الحل والعقد ما أبرزته طوارف القرائح وبرز فيه الجَذَع على القارح من العبارات المهذبة والاستعارات المستعذبة والرسائل الموشحة والأساجيع المستملحة . وهل للقدماء إذا أنعم النظر من حضر غير المعانى المطروقة الموارد المعقولة الشوارد المأثورة عنهم لتقادم المولد ، لا لتقدم الصادر على الوارد . وإنى لأعرف الآن من إذا أنشأ وشى وإذا عبّر حبّر وإن أسهب أذهب وإذا أوجز أعجز ، وإن نده شده ، ومتى اخترع خرع ، فقال له ناظورة الديوان وعين أولئك الأعيان من قارع هذى الصفاة وقريع هذه الصفات ، فقال إنه قرن مجالك وقرين جدالك وإذا شئت ذاك فرض نجيبًا وادع مجيبًا لترى عجيبًا ، فقال له يا هذا إن البغاث بأرضنا لا يستنسر والتمييز عندنا بين الفضة والقضة متيسر ، وقلَّ من استهدف للنضال فخلص من الداء العضال أو استثار نقع الامتحان فلم يقذ بالامتهان ، فلا تعرض عرضك للمفاضح ولا تعرض عن نصاحة الناصح ، فقال كل امرئ أعرف بوسم قدحه ، وسيتفرى الليل عن صبحه فتناجت الجماعة فيما يسبر به قلبيه ويعمد فيه تقليبه ، فقال أحدهم ذروه فى حصتى لأرميه بحجر قصتى فإنها عضلة العقد ومحك المنتقد ، فقلدوه فى هذا الأمر الزعامة تقليد الخوارج أبا نعامة ، فأقبل على الكهل وقال اعلم إنى أوالى هذا الوالي وأرقّح حالى بالبيان الحالى ، وكنت أستعين على تقويم أودى فى بلدى بسعة ذات يدى مع قلة عددى ، فلما ثقل حاذى ونفذ رذاذى أممته من أرجائى برجائى ودعوته لإعادة روائى وإروائى فهش للوفادة وراح وغدا بالإفادة ، وراح فلما استأذنته فى المراح إلى المُراح على كاهل المراح قال قد أزمعت أن لا أزودك بتاتًا ولا أجمع لك شتاتًا أو تنشئ لى أمام ارتحالك رسالة تودعها شرح حالك ، حروف إحدى كلمتيها يعمها النقط وحروف الأخرى لم يعجمن قط . وقد استأنيت بيانى حولاً فما أحار قولاً ونبهت فكرى سنة ، فما ازداد إلا سنة واستعنت بقاطبة الكتّاب فكل منهم قطب وتاب ، فإن كنت صدعت

عن وصفك باليقين فأت بآية إن كنت من الصادقين . فقال له لقد استسعيت يعبوبًا ، واستسقيت أسكوبا وأعطيت القوس باريها وأسكنت الدار بانيها ، ثم فكَّر ريثما استجمع قريحته ، واستدر لقحته وقال ألق دواتك وأقرب وخذ أداتك واكتب :

الكرم ثبت الله جيش سعودك يزين ، واللؤم غض الدهر جفن حسودك يشين ، والأروع يثيب ، والمعور يخيب ، والحلاحل يضيف ، والماحل يخيف ، والسمح يغذى والمحك يقذى والعطاء ينجي والمِطال يشجى والدعاء يقى والمدح ينقي والحر يجزى والألطاط يخزى ، وإطراح ذى الحرمة غى ، ومحرمة بنى الآمال بغى ، وما ضن إلا غبين ولا غبن إلا ضنين ولا خزن إلا شقى ولا قبض راحه تقى ، وما فتئ وعدك يفى ، وآراؤك تشفى وهلالك يضى ، وحلمك يغضى وآلاؤك تغنى وأعداؤك تثنى وحسامك يفنى وسُودَدُك يقنى ومواصلك يجتنى ومادحك يقتنى ، وسماحك يُغيث وسماؤك تَغيث ودَرُّك ، يفيض ورَدُّك ومؤملك شيخ حكاه فئ ، ولم يبقى له شىء ، أمك بظن حرصه يثب ، ومدحك بنخب مهورها تجب ومرامه يخف وأواصره تشف وإطراؤه يجتذب وملامه يجتنب ووراءه ضفف ، مسَّهم شظف وحَصَّهم جَنَف وعمهم قشف ، وهو فى دمع يجيب ووله يذيب وهم تضيف وكمد نيف لمأمول خيب وإهمال شيب وعدو نيب وهدو غيب ، ولم يزغ ودّه فيغضب ولا خبُثَ عوده فيقضب ولا نفث صدره فينفض ولا نشز وصله فيبغض ، وما يقتضى كرمك نبذ حُرَمه ، فبيض أمله بتخفيف أله ينث حمدك بين عالمه بقيت لإماطة شجب وإعطاء نشب ومداواة شجن ومراعاة يفن ، موصولاً بخفض وسرور غض ، ما غشى معهد غنى أو خشى وهم غبى ، والسلام . فلما فرغ من إملاء رسالته وجلى فى هيجاء البلاغة عن بسالته أرضته الجماعة فعلاً وقولاً ، وأوسعته حفاوة وطولاً ، ثم سئل من أى الشعوب نجاره وفى أى الشعاب وجاره ، فقال :

غسان أسرتى الصميمة	وسروج تربتى القديمة
فالبيت مثل الشمس إشـ	ـراقًا ومنزلة جسيمة
والربع كالفردوس مطـ	ـيبة ومنزهة وقيمة
واهًا لعيش كان لى	فيها ولذات عميمة

أيام أسحب مطرفي ... في روضها ماضي العزيمة
أختال في برد الشبا ... ب وأجتلي النعم الوسيمة
لا أتقي نوب الزما ... ن ولا حوادثه الملمة
فلو أن كربًا متلف ... لتفلت من كربي المقيمة
أو يفتدي عيش مضى ... لفدته مهجتي الكريمة
فالموت خير للفتى ... من عيشه عيش البهيمة
تقتاده برة الصغا ... ر إلى العظيمة والهضيمة
ويرى السباع تنوشها ... أيدي الضباع المستضيمة
والذنب للأيام لو ... لا شؤمها لم تنب شيمة
ولو استقامت كانت الـ ... أحوال فيها مستقيمة

ثم إن خبره نما إلى *الوالي* فملأ فاه بالآلي ، وسامه أن ينضوي إلى أحشائه ، ويلي ديوان إنشائه ، فأحسبه الحباء وظلفه عن الولاية الإباء . قال الرواي : وكنت عرفت عود شجرته قبل إيناع ثمرته وكدت أنبه على علو قدره قبل استنارة بدره ، فأوحى إليّ بإيماض جفنه أن لا أجرد عضبه من جفنه ، فلما خرج بطين الخرج وفصل فائزًا بالفلج شيعته قاضيًا حق الرعاية ، ولا حيًا له على رفض الولاية ، فأعرض مبتسمًا ، وأنشد مترنمًا :

لجوب البلاد مع المتربه ... أحب إليّ من المرتبه
لأن الولاة لهم نبوة ... ومعتبة يا لها معتبه
وما فيهم من يرب الصـ ... نيع ولا من يشيد ما رتبه
فلا يخدعنك لموع السراب ... ولا تأت أمرًا إذا ما اشتبه
فكم حالم سره حلمه ... وأدركه الروع لما انتبه"

٣٢ - ومن أطواق الذهب "المقامة الثامنة": "ما أسعدك لو كنت فى سلامة الضمير ، كسلاسة الماء النمير . وفى النقاء عن الريبة ، كمرآة الغريبة . وفى نفاذ الطية كصدر الخطية . وفى أخذ الأهبة كالواقع فى النهبة . لكنك ذو تكدير كرجرجة الغدير ، ومتطلخ بالخبائث كخرقة الطامث ، وذو عجز وتوانى كمكسال الغوانى ، وتارك للاستعداد كالشاك فى المعاد" .

٣٣ - ومن أطباق الذهب "المقالة السابعة والعشرون" : "أشرف الأنفاس أحرها ، وأفضل الأذكار أسرها وراء الجهر بالدعاء لام ، والذى يحسن إفشاؤه سلام . ترك الذكر يشبه الكبرياء ، وإعلانه يوجب الرياء ، وإخفاؤه سنة زكرياء . فإذا دعوت الله فعم ولا تجهر فإنك لا تنادى الصم ، إنه لا يسمع بالغضروف ولا يحتاج منك إلى الأصوات والحروف . هو راحم النمال العمش ورازق النغاب فى العش ، يعلم خطرات الأوهام كما يحصر قطرات الرهام . فيا أيها الملح فى الدعاء ويا جهورى النداء أتسترزق بالإلحاح والإرهاق ، وتقتضى القضيم بالنهاق ، للعجول إذا حرص جؤار ، وللعجول إذا نهم خوار ، وللأتان على الأرى نهيق ، وللضفدع فى الأدى نقيق . والحريص سريع السغب كثير الشغب ، والقانع لا يستنبط الماء بنقرات المعول . والمخلص يدعو بسره لا بحركات المقول . والصبر من الهلع أجمل . والنية أبلغ وأعمل . والصمت من الصراخ أنفع . والفيل من العصفور أشبع ، والحوت الصموت أقنع ، وزعاق الضفادع أشنع . ولسان الحال أفصح . وبساط الرحمة أفسح ، فسبح تسبيح الحيتان فى النهر ، واذكر ربك فى نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر ، وأقل من سؤالك فهو فعال لما يريد ، واخفض من ندائك فهو أقرب إليك من حبل الوريد" .

٣٤ - وكتب محمد بن حبيب الحلبى ، صاحب كتاب نسيم الصبا المتوفى سنة ٩٧٧ ، فى وصف السماء وزينتها : "أيقظتنى ليلة دواعى الهموم ، فنظرت نظرة فى النجوم ، فإذا السماء كأنها روضة مزهرة أو صرح كنس جواريه مسفرة أو غدير تطفو عليه الفواقع أو بنفسج نور أقاحه لامع أو مسح ألقى عليه درر غواص أو ستر به لعين كل نجم وصواص أو جمر فى خلال رماد ، أو كما قال من أجاد :

ونهر المجرة يجرى فى سندسها ، ويسرى ليسقى ذابل نرجسها ، يا له من نهر

بســاط زمــرد نثـــرت علـيـــه   دنـــانيــر تـخــالطهـــا دراهـــم

صفا ماؤه وعقد على الأفق لواؤه ، يتقلب القلب إليه ويقف طرف الطرف عليه ، ويقبل نحوه الدبران ، وينصب على شطه الميزان . ويحوم حوله النسران ، ويعوم فيه الحوت والسرطان :

والثــريــا كـــأكــرة أو كــجـــام   أو بـنـــان أو طـــائر أو وشــــاح

وباقة من نرجس أو كأس يدار فى المجلس أو شمع يتوقد أو شمس من عسجد أو شذر منضود أو كرم أو عنقود أو عقد لؤلؤ حسن الاتساق أو أقرط خود ترتعد فرقًا من الفراق :

وسـهيـل كوجنة الحـب فـى اللــو   ن وقلب المحــب فـى الخـفــقــان

أو كمصباح تلعب به أيدى الرياح أو ظامئ يريد أن يرد أو فارس فى حمى الحمى مجتهد أو مشوق يتبع الآثار أو غريب لا يزور ولا يزار أو غريق يدعى قوة السباحة أو ماجد أنف من الذل فألف السياحة أو مغاضب يدعى فلا يجيب أو محب يغض الطرف ويفتحه خوف الرقيب . والجوزاء النيرة كالشجر المنورة :

كـــأنهـــا منطـقـة مـــن ذهـــب   قـد عــقــدت علـى قـبـــاء أزرق

والفرقدان الهاديان المرشدان :

كـأنهـمـا إلـفـــان قـــال كـلاهمـا   لشـخص أخيـه قل فـــإنى سـامع

والذراع يذرع شقة الأفق ، والجبهة تسجد على مفارق الطرق ، والعيوق يعوق عن السير إذا سار ، والعواء أعينها نشاوى قد تغشاها خمار ، والسماك معتقل رمحه ، والنثرة منتظمة كالسبحة ، والنعائم تحدوها النعامى ، وزهرة الزهرة تضىء بين

الخزامى ، وبهرام يخجل البهرمان ، والإكليل ليس يكل من مسايرة الإظعان ، والمقدم لا يتأخر عن الأعناق والإيجاف والصرفة قد همت مع العسكر بالانصراف :

تمر بواديًا ليـــــلاً وتطوى ... نهـــارا مـــثل مـــا طوى الإزار
فكم بصـــقالها صدى البرايا ... ومـــا يصـــدى لهـــا أبدا غـــرار

فبينما أنا أسرح فى درر الدرارى نظرى ، وأروض فى رياضها جواد فكرى ، وأقدس من هى مسخرات بأمره ، وأنزه من هدى خلقه فى بره وبحره ، إذ هب نسيم السحر ، يروى عن أهل نجد أطيب الخبر فعطر الكون بعرفه وملك الرق برقته ولطفه وأهدى الروح إلى الأرواح وأطرب السمع بأحاديثه الصحاح :

فـــهـــو حـــيـــاة لـــكـــل حـــى ... كـــأن أنفـــاســـه نفـــوس

فاستبشرت بوروده وحصلت على الفائدة من وفوده ، وسر بمناجاته سرى ، وقلت له والدموع تجرى :

أعد ذكر من حل الغضى يا محدثى ... وإن أضرموه بالأضالع والصدر
ولا تنس سكان العقيـــق وإن هـــم ... على وجنتى أجروه فى مدة الهجر

فلما أتممت الإنشاء والإنشاد ، وشرعت فى طلب الإسعاف والإسعاد ، تنسم الفجر ضاحكًا من شرفه ونصب أعلامه على منازل أفقه ، فانطوى نشر الليل ، وكف من غمره الذيل ، وارتفت الحجب ، وتأججت نار الشهب ، واقتنص بازى الضوء غراب الظلام ، وفض كافور النور عن الغسق مسك الختام :

وشرد الصبح عنا الليل فاتضحت ... سطوره البيض فى الواحة السود

وفلت جيوش الدجا ، وحرك النهار منه ما سجا ، وجنح جنحه إلى الرحيل ، وتلا لسان حال التحويل ، يقلب الله الليل والنهار إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار" .

٣٥ - وله أيضاً فى وصف الشمس والقمر : "بكرت يوماً بعد أداء الفرض أتفكر فى خلق السموات والأرض ، فلمحت المشرق بالنظر ، وإذا قرن الغزالة قد ظهر كأنه جذوة نار أو قطعة من دينار أو كأس ستر بعضه بالحباب أو حسناء غطت وجهها بنقاب ، ثم كشفت أستارها ، وألقت على الأفق أنوارها ، وبرزت كأنها كرة فى ميدان أو مجن دولاب ضمخ بالزعفران أو مرآة لم تصقل ولم تطرق أو وجه المليحة فى خمار أزرق أو سبيكة زجاج منتفخة الجوانب أو بودقة يحرك فيها ذهب ذائب :

وكأنها عند انبساط شعاعها   تبر يذوب على فروع المشرق

فقلت أهلاً بالجارية التى فى طلعتها ما يغنى عن الجارية ، والعين التى تغار منها العين ، والجونة التى وضح منها الجبين والسراج الوهاج التى تبرجت بها الأبراج ، أنت المخصوصة بالشرف والرفعة ، أنت واسطة عقد الكواكب السبعة أنت للحكمة برهان وللفلك معيار وميزان ، أنت الناطقة فى صمتها التى قصر البليغ عن وصفها ونعتها ، أنت ملك أنت النير الأعظم ، أنت الروح التى تغدو فى مصالح العالم وتروح ، أنت ذكا التى ذكت نارها ، أنت الضحى التى علا منارها ، أنت الشمس التى بها تعرف الأوقات الخمس بك ينشر الظل ، ويطوى ويشتد النبات بعد ضعفه ويقوى ويستدل على طريق الصواب ، ويعلم عدد السنين والحساب . لما سفرت رافلة فى الحلل المعصفرة محيت آية الليل وجعلت آية النهار مبصرة ، وناهيك بها منزلة ، وحسبك أن صفاتك فى الكتاب منزلة . ثم تمشت على بساطها وخطرت فى وشيها ورياطها ، وسبحت فى فلكها مرشدة إلى الحقائق مظهره أسرار الساعات والدرج والدقائق :

تسمو إلى كبد السماء كأنها   تبغى هناك دفاع أمر معضل

واستمرت سائرة يحدوها على مر النسيم ، ﴿ والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ ، فلم يزل فكرى يصاحبها وطرفى يرعاها ويراقبها :

حتى إذا بلغت إلى حيث انتهت | وقفت كوقفة سائل عن منزل
ثم انثنت تبغى الخدور كأنها | طير هفا لمخافة من أجدل

فلما حجبت عن العيون شخصها ، وخطف المغرب من يد المشرق قرصها ، واكتحلت جفون الأفق بالنار ، وطرد زنجي الليل روميّ النهار ، بزغ الهلال بأمر ذى الجلال كأنه قوس موتور أو زورق منحدر فى بحر الديجور أو شطر سوار أو منجل معد لحصاد الأعمار أو خنجر مرهف النصلين أو نون مرسومة من لجين أو شفة كأس مائلة أو مخلب عقاب صائلة أو قطعة من قيد أو فخ نصب للصيد أو حرف جيم أو عرجون قديم أو حاجب شيخ أدركه الشمط أو نعل من حافر أدهم الدجا سقط أو ذباب سيف خرج من جفنه أو راكع يعبد من لا يحدث أمر إلا بإذنه . وفى معناه من قصيدة :

وترى الهلال يلوح فى أفق السما | يبدو كقوس بالمنى يرمينى
أو شبه فخ أو كدملج غادة | وكجانب المرآة والعرجون
وجبين حب بالعمامة قد زها | وكوجه خود بالنقاب مصون
وكناب فيل أو قلامة أنمل | وكزورق وكحاجب مقرون
أو كالسوار أزيل منه البعض أو | قربوس سرج مذهب أو نون
وكشأفة الكأس المخبأ بعضه | ضمن الشفاه ومنجل مسنون
هو منجل الأعمار للحصد الذى | يفنى أولى التزين والتحسين
وإذا مضى سبع تراه كأنه | نصف لتعويذ بدا لعيون
وإذا تكامل صار جامًا صافيًا | وكأنه من لؤلؤ مكنون
أوغادة قد أسفرت عن وجهها | غنيت عن التحسين والتزين
هذا هو المشهور فى تشبيهه | قدمًا وذلك جمعه يكفينى

فقلت مرحبًا بمن ثياب مناوئه رثاث ، قر عينًا ستعود قمرًا بعد ثلاث ، ثم تصير بدرًا . إن فى ذلك لذكرى :

وإذا رأيــت مــــن الهــــلال نمــوّه   أيقنــت أن ســيكون بدرًا كــامـلاً

أنت الزمـهرير الذى ليس له فى نضارته نظيـر ، أنت الزبرقـان الذى له فى كل شهر مهرجان . أيها القمر كم محب طاب له فيك السمر ، أيها الواضح الباهر ما أنت إلا مثل سائر ، أيها البدر الكامل الذى فضله للبرية شامل ، لا تأس على ما فاتك من الدرج ، ولا يكن فى صدرك من الغزالة حرج :

فقد تخمد الشمس الصباح بضوئها   تفــــــاوتـت الأنوار والـكل رائـق

منازلك معروفة ومحاسنك موصوفة وشرفك باذخ وقدمك راسخ وآياتك ظاهرة وسفارتك سافرة . كم أوضحت من طريق وهديت الرفيق إلى الفريق ، وذكرت محبوبًا لمحبوبه ، وبلغت طالبًا غاية مطلوبه . أحسن بضوء ذبالتك وحسبي مثلاً بهالتك ، جعلك البارى فى السموات نورًا وكان أمر الله قدرًا مقدورًا ، فسبحان من جلا بمحياك حندس الغسق وأقسم بك فى قوله والقمر إذا اتسق ، قدرك أثيث أثيل ومحبك نبيه نبيل ، ووجهك يا بثينة الحسن جميل :

على رســـل فـمـالـك مـن مـجـار   إلى رتـب العــــلاء ولا رســـيل

فتبارك اسم من ألبسكما أحسن الحبر ، وتعالى جد من جعلكما مصباحين لأهل النظر ، ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر . ثم لم يبرح يسرى وأنا لا أبرح وينجلى وأنا أشاهد وجهه الأصبح إلى أن غاب واختفى وحسبنا الله وكفى" .

٣٦ – وله أيضًا فى وصف البحر والنهر : "هزتنى رياح الأمل البسيط إلى امتطاء ثبج البحر المحيط ، فأتيت سفينة يطيب للسفر مثواها ، وركبت فيها بسم الله مجراها ومرساها ، موقنًا بأن المقدور صائر ، معرضًا عن قول الشاعر :

لا أركب البحر أخشى علىّ منه المعاطب
طين أنا وهو ماء والطين فى الماء ذائب

يا لها سفينة على الأموال أمينة ، ذات دسر وألواح تجرى مع الرياح وتطير بغير جناح وتعتاض عن الحادى بالملاح ، تخوض وتلعب وترد ولا تشرب ، لها قلاع كالقلاع وشراع يحجب الشعاع وسكينة وسكان ومكانة وإمكان ، وجؤجؤ وفقار وأضلاع محكمة بالقار ، وجسم عار من الفؤاد وهو فى عين الماء بمنزلة السواد ، بعيدة ما بين السحر والنحر ، من أحسن الجوارى المنشآت فى البحر ، معقوداً بنواصيها الخير كالخيل ، لا تمل من سير النهار ولا من سرى الليل :

ما رأى الناس من قصور على الما ء سواها تسير سير القداح

كأنها وعل ينحط من شاهق أو عرباض سابق يحثه سائق أو عقرب شائلة أو عقاب صائلة أو غراب أعصم أو تمساح أو أرقم أو ظليم نفر فى الظلام أو جواد فر مستنكفاً من صحبة الأنام . حاكمها عادل فى حكمه عارف بنقض أمرها وبرمه يهتدى بالنجوم ، ويبتدى باسم الحى القيوم ، يبرز من نواتيها فى جنود ، يشمل إحسانهم أهلها يقاظاً وهم رقود ، يتأنقون فيما يعمرون ويفعلون ما يؤمرون :

يكثرون الصياح حتى كأن السـ ـفن تجرى من وف ذاك الصياح

فبينما نحن من البحر فى قاموسه كتب الجو حروف الغيم فى طروسه وثارت ريح عاصف يتبعها رعد قاصف ، فمالت بنا الفلك واضطربت ودنت شفتها من رشف الماء ، واقتربت واستمرت ترفع وتخفض وتقرب وترفض وتعلو على الأوتاد وتهيم فى كل واد وتحوم وتحول وتجود وتجول وتضرم فى الكبود نار ناجر ، إلى أن بلغت القلوب الجناجر :

ألا فــارجــه واخــشــه إنــــه هو البــحـر فــيـه الغنــى والغـرق

ثم نظر إلينا من لا تخفى عليه السرائر ، وأمر الجارية بحمل العبيد إلى بعض الجزائر ، فلم ندر إلا ونحن تجاه جزيرة تسر النفوس بمحاسنها الغزيرة ، فانحدرت ماضياً إلى بنيها نائباً عن السفينة وساكنيها ، فوجدتها مخضرة الأفنان مخضلة الكثبان ، بها من الياقوت ما يرجع خاسئًا مناويه ومن الأشجار ما يحمل الفواكه والأفاويه وبين رياضها نهر شديد الخضر ، أرضه ذهب وخصباؤه درر وأمواجه عكن وداراته سرر :

عــذب إذا مــا عــبَّ منــه ناهـل فكـأنــه مــن ريــق خــود ينـهل

لين الأديم مزاجه من تسنيم يصقله الصبا ويفركه النسيم ، فكأنه دروع موضونة أو مبارد مسنونة أو دمع يتسلسل أو أفاع تتململ أو نوب فضة يسيل أو صفحة سيف صقيل أو لوح بلور مرقوم أو رحيق بالمسك مختوم :

وكـــأن الـطيــــور وردتـــــه مـــن صـفـــاء به تــزق فــراخــا

إن مالت إليه الغصون فالشخوص ترقص فى الخيال ، وإن كرعت منه الظباء فالغيد يرشفن من ثغور أترابهن الزلال ، وإن أشرقت عليه النجوم خلت الفلك يدور فى أرجائه ، وإن تجلى له البدر حسبته قلبًا خافقًا بين أحشائه . قال مؤيد الدين الطغرائى :

والشـمس إن وافـتــه راد الضـحى حـــسناء فـى مــــرآتـه ناظـره

أنموذج المـــاء الـــذى جـــاءنــا الـ وعـد بـأن نسـقـــاه فـى الآخـــره

فلبثت فيها مدة مفكراً فيما رأيت من الفرج بعد الشدة ، مؤمنًا بالقدر خيره وشره وحلوه ومره ، واقفًا على شكر من تجرى الفلك فى البحر بأمره :

ربما تجزع النفوس لأمر ولها فرجة كحل العقال

ولم أزل بها فى أحسن حال وأرغد عيش وأنعم بال إلى أن حرك الله منى ما كان ساكنًا وأدخلنى مصر بمشيئته آمنا" .

٣٧ – وكتب المغفور له عبد الله باشا فكرى ، المتوفى سنة ١٣٠٧ ، عن الحضرة الخديوية إلى ملك دارفور : "حمداً لمن ألف بين قلوب المؤمنين وجعلهم بنعمته إخوانًا فى الدين وصلاة وسلامًا على رسول جنابه وسيد أحبابه وعلى آله وأصحابه . من كافل الديار المصرية وما والاها من الأقطار السودانية إلى حضرة صفوة السادة الأماجد ، الجامع ما تفرق من مكارم المحامد ، غرة جبين الشرف الأجلى ، وقرة عين المجد الأعلى ، بحر الفضل الزاخر ، وبدر سماء المحاسن والمفاخر ، وفخر الأوائل والأواخر ، الملك المعظم السلطان المفخم محمد بن الحسين المهدى سلطان مملكة دارفور حفظه الله بدوام السرور والسعد الموفور آمين . بعد سلام ينبئ عن صريح الوداد ويخبر عما فى صميم الفؤاد من صحيح المحبة والاتحاد ، وتحية يحلو على الألسن حسن تكريرها ، ويعبر عن صدق الولاء طيب عبيرها ، وشوق يقل عنه البيان ويكل دونه البنان ، وسؤال عن الخاطر العالى أدام الله معاليه وحف بطوالع السعد أيامه ولياليه . بينما نحن انتظار ما يرد من الرسائل والثناء على حسن تلك الشمائل ، ورد لنا خطابكم الكريم فقابلناه بمزيد التعظيم ، وسررنا بحسن صحتكم ، وما أبديتموه من لطف مودتكم فالله يرعى تلك الصحة ويلحظها ويديم هذه المحبة ويحفظها وقد أوضحتم أن سلفنا السعيد المنتقل إلى رحمة ربه المجيد ضاعف الله حسناته وأحله أعالى جناته كان قد جعل فلانًا وكيلاً فى رؤية أموركم البهية على منهج السداد ونحن أيضًا قررناه فى هذه الوظيفة وأوصيناه بالاهتمام فيما يتعلق بتلك الحضرة الشريفة ، وسيجد منا فى ذلك حسن المساعدة ودوام التسهيل والمعاضدة . ثم ما تكرمتم بارساله مع كريم خطابكم على يد القاصدين الواردين من عالي جنابكم قوبل بقبوله عند وصوله ، والمبعوث مع القاصدين المذكورين لناديكم الكريم ما هو موضح بالبطاقة المطوية مع هذا الرقيم . والمرجو أن تتصل بيننا روابط الود على الدوام كما جمعتنا علاقة الأخوة فى الإسلام ، وصلى الله على سيدنا محمد بدر التمام وعلى آله وأصحابه الأعلام غيوث الأفضال وغايات الكمال" .

٣٨ – ولما سافر رحمه الله إلى مؤتمر المستشرقين بمدينة استكهلم ، عاصمة مملكة السويد ، أرسل كتابا إلى صاحب الدولة رياض باشا صورته :

"نولتلو أفندم حضرتلرى" : "أقدم من تحايا التبجيل والتكريم ما يليق بذلك المقام الكريم ، داعياً بدوام ظلال الإقبال وجمال الأحوال وكمال الآمال أعطر الأرجاء بأريج الثناء ، وأستقبل قبلة الإجابة بخير الدعاء ، وقبل هذا حررت لسيدى الباشا علىّ الهمم مبارك الطلعة المحترم ، وذكرت بعض الجهات التى وردناها فى طريق الوجهة التى قصدناها ، وكتبت أيضًا لبعض الأجلاء من السادة الأخلاء ، ولبثت أنتظر أن يجيبنى أحد بسطر أو بعض سطر ولو بقدر قلامة ظفر فما جاءنى عن الدار ولا غيرها خبر ، حتى حررت بالتلغراف لبعض الأصدقاء فلم يظهر قبل وصولنا إلى السويد أثر ، اللهم إلا أنى كتبت من باريس يوم العيد بالتلغراف للمعية السنية قيامًا بواجب العبودية من التعييد والتبريك لجناب ولى النعم الخديو الأعظم السعيد أبقاه الله ممتعًا بأنجاله وجميع آله بعمر مديد وحظ مزيد ، مهنئًا بالأعياد والمواسم وثغور المسرة له كمحياه السعيد بواسم يشيع الماضى مبروراً ويستقبل الآتى مسروراً ويكسوها من نوره نوراً ، فجاءنى الجواب فى بياض اليوم لم يتأخر مبشراً بالقبول والممنونية ، وذلك لدينا عيد أكبر وحظ أوفر وسجدنا لله داعين ومؤمنين ومسرين ومعلنين . ولم يزل دأبنا فى كل موضع حللناه وموقع نزلناه نؤدى وظيفة الدعاء أحسن الأداء وننشر ألوية مدائحه الجليلة عاطرة النشر ، ونخلد فى المسامع والمجامع طيب الذكر ، ونعدد ما نعلم من المآثر الغراء والمفاخر الحسناء تربو على الاحصاء ، ونستتبعها بذكر محاسن أمراء رجاله الأمناء المؤازرين له فى أعماله الناسجين على منواله فى محاسن خلاله . وأقمنا فى باريس نحو عشرين يومًا نراجع ماكتبناه بمصر من المواضيع التى حررناها للعرض على المؤتمر السويدى ، ونعيد عليها النظر ، وفى خلال ذلك نتردد على معرض باريس العام وغيره من المواضع الشهيرة ، فشاهدنا من الصنائع والبضائع وأنوا ع البدائع والنظام والإتقان والإحكام ما يحتاج فى إيضاحه من البيان ، وتقريبه للأفهام إلى مجلدات ضخام واستخدام أعوام وسنذكر فى الرحلة إن شاء الله مما رأيناه فى هذه العاصمة وغيرها ما يبلغه الجهد ويساعد عليه الحال . وفى أثناء تلك المدة أردنا معاينة المدارس الموجودة هنا فصادفنا الوقت عطلة فكانت كلها مقفلة معطلة فلم

أحصل على الغرض من ذلك إلا أنى لا آل جهداً فى تحصيل قدر كاف من بروجراماتها وقوانينها وترتيباتها عن أنواع متنوعة من ابتدائية وثانوية وخصوصية ، بعضها بالشراء وبعضها بالاستهداء ، وأحضرت جملة جداول وبيانات عن بعض أدوات التعليم وأثمانها ومحلات بيعها ، وشاهدنا جملة من المدارس المذكورة مختلفة الأنواع إلا أنها خالية من الدروس والمدرسين والتلامذة ليس بها إلا البواب وبعض الخدم ، فرأينا محلات التدريس وبعض أدوات التعليم ، وكان من جملة ما رأيناه مدرسة زراعية سافرنا إليها من باريس بسكة الحديد ورجعنا فى يومنا وكانت مغلقة أيضًا ، ولم نجد مدرسة من التى رأيناها جاريًا فيها العمل إلا مدرسة خاصة بالأطفال الصغار من سن سنتين ونصف وثلاث سنين يقيمون بها إلى سن ستة ، ويتولى أمرهم فيها معلمات قد صرن لهن كالأمهات المشفقات يتحببن إليهم ويتحببون إليهن ويراعين تعليمهم بطرق سهلة فى غاية البساطة واللطافة والملاءمة لحال الطفل ، لا يظنها إلا من اللعب والمحادثة ، وقد أحضرنا ترتيبًا عنها مفصلاً وأعجبتنى الطريقة المتبعة بها جداً . ثم سرنا من باريس إلى لوندره وأقمنا بها أيامًا ومنها إلى محل المأمورية معرجين على روتردام ثم ليدن ثم أمستردام ثم كولونيا ثم هامبورج ثم كوبنهاج ثم مالمو وهى أول ثغور مملكة السويد . وفى أثناء مسيرنا منها إلى العاصمة صادفنا من معتبري البلاد من عرف من هيئة ملابسنا المشرقية من الطربوش والعمامة أننا من أعضاء المؤتمر الذين طوحت بهم إلى بلادهم مرامى السفر ، فصاروا يتعرفون إلينا ويتقربون منا ويلاطفوننا غاية الملاطفة ويجملون لنا المقابلة والمعاملة ، إلى أن وصلنا إلى استكهلم ونزلنا الأوتيل ، وهناك اجتمعنا بالكنت لاندبرج فحضر وسلم علينا ومضينا معه إلى مكتب المؤتمر محل إشغاله فأطلعنا على المحل المعد لانعقاد المؤتمر فى جلساته العامة والخاصة ، ومواضعنا فيه ، وهى في جزء مرتفع عن باقيه بدرج وبه كرسي للملك وخلف ظهره العائلة الملوكية ، وعن يساره موقف من يخطب وكراسى لجلوس الوفد المصرى ، وعن يمينه بعض وزرائه وسفير العجم فى الأستانة العلية محسن خان والوفد العثمانى وبقية وفد العجم ، وبين يديه الكتب المهداة إليه ، وفي باقى المحل أسفل من هذه الدرجة مواضع باقى الناس أعضاء المؤتمر . والمحل يسع فوق خمسمائة نفس وفى أعلاه محل مرتفع مشرف عليه لجلوس النساء به يسع

نحو مائة وخمسين ، وأعطى الكونت لكل واحد منا علامة العضوية فى المؤتمر وهى شبه وردة من قماش لماع ملون بالألوان الموجودة فى علمى السويد والنرويج مثبته في شبه زر يجعل فى عروة السترة ، لبس الملك واحدة منها .

وقد حضر فى أثناء وجودنا هناك فرآنا وعرفه بنا الكونت ، فسلم علينا بيده واحداً واحداً وقابلنا بغاية البشاشة ، ولما سلم علىّ أظهر محبته للجناب الخديو المعظم وشكره على إرسال الوفد وسروره بحضورى ، ولما سلم على أمين بك قال له أنت ترجمانى لوالدك . وفى ثانى يوم وهو يوم الأحد طلبنا إلى سرايته بعربات حضرت إلينا لمقابلته المقابلة الرسمية ، ولم تكن المقابلة إلا مسية رسمية ، فتوجهنا بالكساوى التشريفية والنياشين كما أشير علينا ، فلما دخلنا عليه وجدناه بالكسوة التشريقية والنشانات أيضاً فأعلن المسرة والممنونية والثناء على الجناب الخديو الفخيم ، وسلمت إليه المحرر الكريم الخديو وأجبت قائلاً :

"مولاى أقدم لجلال مقامك الرفيع الشأن تحايا التعظيم والإجلال والثناء الفائق من لدن مولاى خديو مصر المعظم ، مؤيداً ذلك بتقديم محرر سموه المنطوى على خالص المودة ، المتضمن تعيينى وتعيين رفاقي الماثلين بين يدى عظمتكم للحضور فى المؤتمر العمومى العلمى ، الذى توجهت خواطركم الملوكية لانعقاده فى هذه المملكة العامرة ، لما يترتب عليه من الفوائد المهمة لنشر العلم وتقدمه واتحاده باشتراك القريب والبعيد والشرقى والغربى فيه . ولم يكن ذلك ليتأتى إلا بتوجه همة الملوك إليه ، فلك يا مولاى الفضل الجزيل على ذلك المسعى الجميل . وأختتم قولي بتقديم واجب تشكراتى لما نلت من لطف الرعاية الملوكية لاسيما فى هذا الموقف النبيل لازال موقع إجلال ومنتهى كمال" . وكان ذلك يوم الأحد أول سبتمبر سنة ١٨٨٩ .

وبعد ذلك انصرفنا . وفى ثانى يوم اجتمع الناس لافتتاح المؤتمر ، وحضر الملك فى الميعاد المقرر ، وحضر الناس وأخذ كل موضعه ، فافتتح الملك المؤتمر بخطبة حسنة ألقاها وأجاد فيها وفى حسن أدائها قال في ضمنها : "إن السلطة قبل كانت للقوة والاستبداد وليست الآن إلا للعلم" ، ومضى فيها حتى أتمها واقفاً والناس بين يديه وقوف ، ثم جلس وخطب بعده المسيو كريمر وافد النمسا ، ثم سفير العجم

فخطب خطبة باللغة الفارسية ، ثم وافد السلطنة العلية العثمانية أحمد مدحت أفندى فتلا مقالة باللغة التركية ، ثم أشير إلىّ فقمت وأنشدت قصيدة كنت أعددتها لذلك بعد ارتحالنا من باريس ، فأتممتها فى الطريق وبيضتها فى استكلهم ، فابتدأت أقول :

اليـــوم أســـفـــر للعـــلوم نهـــار وبـدت لشـــمس ســمـائهـــا أنـــوار

ومضيت فيها إلى آخرها ، وصفق الناس لكل من خطب ، وبالجملة لى لما أتممت الإنشاد وخاطبنى أناس منهم باستحسانها فى اليوم وحضر كاتب المؤتمر على أثر الفراغ منها وسارنى بطلب نسختها فأخذها فى الحفلة . وخطب بعد ذلك أناس منهم الموسيو شفر وافد فرنسا . وكانت هذه الحلفة خاصة بذلك ليس فيها تقديم موضوعات علمية ، ثم قام الملك وودع الحاضرين وصافح البعض وصافحنا وقال حسنًا وانصرف وانصرفنا ، وانفضت الحفلة وأرفضّت الجمعية . وبعد ذلك انقسم المؤتمر إلى فصول متعددة فكنا فى الفصل الأول المعد للغة العربية ، وصارت الفصول تجتمع كل يوم وتقدم فيها الموضوعات المعدة للعرض عليها بعد أن يقدم بيانها لكتاب اللجنة إجمالاً ، ويكون فى كل يوم بعد الظهر فسحة ووليمة ونزهة كل مرة في جهة وبكيفية غير التى قبلها . واستمر الحال على ذلك إلى أن انقضى المؤتمر ، وفى أثناء انعقاد جلسات فصوله المذكورة قدم منى ومن جميع رفاقى ما أردنا تقديمه مما أعددناه ، لذلك وقوبل ما عرض من كل واحد منا بالاستحسان والاعتبار ، وقد أبقى واحد منا عنده نسخة مما عرضه بعد تقديم نسخته ، وأعطى من معه نشان من بلاده نشانًا من طرف الملك ، وأعطيت نشانًا من النوع المسمى "وازا" من الدرجة الأولى ، فشكرت للملك ودعوت لمولاي ولى النعم الخديو الأكرم . وقبل قيامنا من استكلهم أولم الملك وليمة خاصة فى سرايته دعا إليها خواص أعضاء المؤتمر إلى مائدته الخاصة ، وكنت من جملتهم وقبل الدخول إلى المائدة أعلم كل واحد بموضعه منها ، وموضع من بجانبيه ، فكان عن يمين الملك سفير العجم فى دار السعادة وعن يمين السفير المشار إليه البارون دوكريمر الوافد من طرف النمسا ، وكنت عن يمين البارون دوكريمر وعن يمينى الكونت دولاندبرج . وفى أثناء الطعام شرب الملك على اسم الجناب الخديو خاصة بعد الالتفات

إلى ناحيتى فقمت مؤدياً رسوم التعظيم والشكر . وكان كلما صادفنى فى موضع من المواضع يكلفنى بإبلاغ سلامه وشكره للحضرة الفخيمة الخديوية ، وكرر القول بمحبته للجناب الكريم ، وقال إنه أخى . وعزفت الموسيقى بسلام الحضرة الخديوية مراراً كان آخرها فى آخر مدة المؤتمر بناحية خرسيتانيا من مملكة النورويج ، فكنا نقوم في أثناء السلام مؤدين شعائر التعظيم والاحترام . وانتهى المؤتمر والمأمورية بحمد الله على خير ، وكل واحد ممن معنا فى غاية الاستقامة والكمال وانتظام الأحوال والمحافظة على شعائر ديانته وحكومته وهيئاته وملابس بلاده وإقامة صلاته داعين للخديو الأعظم ناشرين لمدائحه . وقد أخذنا في الرجوع إلى الوطن العزيز ووصلنا إلى ناحية "جوتمبرج" ، ومنها نتوجه اليوم إن شاء الله إلى "كوبنهاج" إلى "برلين" إلى "ويانه" إلى "تريستا" إلى "برنديزى" إلى "الإسكندرية" ، ناذرين بعض الصدقة . والصلاة والسلام على النبى عليه السلام إذا خطينا بتقبيل يد جناب خديونا المعظم ولى الأنعام ولقاء سادتنا وإخواننا وأحبابنا الكرام . ١٣ سبتمبر سنة ١٨٨٩" .

٣٩ – وكتب المرحوم الشيخ عبد الهادى نجا الإبيارى فى سنة ١٣٠١ إلى الشيخ أحمد الحلوانى كما جاء فى *الوسائل الأدبية فى الرسائل الأحدبية* : "بسم الله وبحمده تحية تحيا بها معاهد تنصيص المحبة وتحلو بها موارد تخصيص الوفاء الذى يفرح به الحبيب نفسه وعينه وقلبه ، أرق من خصر ممشوق لأهيف معشوق ، ومن صهباً كعين الديك صفى سلافها الراووق ، وأدق من جسم نحله الضنى كجسم محبك ، وأكله العناكمن ، ابتلى ببينك بعدان بلى بقربك ، وثناء يروق سنا وسناء ، ويفوق القمر نوراً والشمس ضياء ، لحضرة نضرة وجه هذه الأيام التى لولاها لما عرف فرقًا بين الليالى والأيام الأنام ، السيد الذى شد الله به أزر السيادة ومد بمدده على وجه البسيطة بحر السعادة ، روض الأمالى والأمانى حضرة الأخ الهمام السيد الحلوانى . لازال يتيه على محبيه تيه الملوك على بعض المساكين ويليه صديق فيه أمين "آمين" . سيدى ما الذى أوجب تناسيك لمحبك الذى لم ينس لعهدك ، والذى يزال على ممر الأيام يرقب إلك ويرعى ودك ، وما الذى توهمته فى صديقك الفقير الصادق حتى قطعت صدقات رسائلك عنه ، وهو بها وامق وبك واثق . سيدى ما هذا التجنى والإغضاء عنى ، سيدى ما لعرائس كتبك عنى اسأخرت ولأوانس فضلك منى استنفرت ، وإنى بها

لرؤف شغوف بحسنها الشغوف ، سيدى مالك نسيت من لهج بذكرك وذكراك ، ولا يتمنى بعد دوام الإيمان إلاّ دوام محياك ورؤية محياك . سيدى مالى لا أرى هدهد كتابك المبين أم كان من الغائبين ، لأعذبن خاطرى به عذابًا شديدًا أو لأذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين ، يأتينى من سبأ ساحتك بنبأ يقين ، يقينى من الجوى فيقينى ، إنه شفاء لقلبى الجريح من النوى أفإن أحاط بما لم يحط به فى البلاغة أحد ، جرد سيف القطعية لرحم أحبته وأحدّ أو إن جدد رسيس البراعة ماجد أو مزح جند خميس الهجران وصعر خده للإخوان ومرح ، كلا إنه لكتاب كريم وإن كان ربما شرد ونفر كريم . سيدى ما لخمائل جمائلك التى كانت تهز أعطافها نسمات الحنين إلى أسيف بينك الذى به له فى كل آن أنين تسنت ولم تتثن كعادتها ، وما لشمائلك التى لعبت بها شمول اللطافة وهى أحلى من الزرافة وألذ من الكنافة تجنت ولم ترمقنى حور غاداتها الرافلات فى حرائر بهجتها . سيدى ما هذا الدلال وما له من دليل ، وما ذلك الملال وليس له وجه جميل من ذلك الجناب الجليل إن كنت مقصراً فأنت بكل كمال محلق أو كنت عن الوفاء اقصرت فيما أسلفت فإنى الآن على بابك ممتلق . سيدى وأبيك ما هذا الظن بمعاليك وأخيك وحميك وفيك ، ما كذا كان أملى فيك . سيدى كيف أمكن علياك أن تخرق بغير الإحسان سماء سجاياك ، ولا سبيل لخرق العوائد ولا مجال . وقد قيل أيضًا إن الخرق والالتئام فى السموات محال . ولا أزال أقول سيدى سيدى ، حتى يشتد بعودك إلى حنانك إلىّ ساعدى ، ثم أرجع فأقول سيدى الحمد لله الذى أنجاك وأنجالك وحباك وأحباك السلامة من ذلك الحادث المهول ، والحمد لله الذى كفى الجميع أمره ولم يجرع أحداً منا مرّه ، فلكم ولنا وللجميع الهناء الأكبر ، وله تعالى الحمد والشكر أكثر ما يحمد وأكبر ما يشكر . والله تعالى يمتع الوجود بدوام طلعتكم التى هى مطالع السعود ما تعطر كل نادى بالثناء على مقامكم الرفيع ، من الفقير عبد الهادى" .

قال الشيخ عبد الهادى بعد هذه الرسالة ما نصه : "وجواب هذه الرسالة لم يرد لنا ، مع أنه كما أشار حضرة الشيخ فى جوابه الآتى يعلم أنه أرسله هو وغيره ، فكأنما ضن بها بريدها أو قطع الطريق مريدها ، ثم مضت شهور ولم يصلنى من

ساحة حضرته جواب ما . وكان متن الورق الذى نظمناه فى أسماء الأضداد ، وتفضل هو بشرحه بطرفه ، فأرسله فوجدت فى خطبته بيتًا كان مخرجًا بالهامش فيه بيان لما درجنا عليه فيه مضروبًا عليه ، فكتبت له هذه الرسالة جاعلاً سجع نثرها كنظمها منسوجًا على روى واحد حتى كملبوس الوقت إذا استحسن أهله أن تكون البدلة من نون واحد أو متقارب مع عدم سآمة السمع لذلك السجع لاختلاف حركاته ، والتئام مناسباته فيما أظن ، فقلت :

قد أومأت لك باللواحظ عزة ... أفيرتجى لك بعد ذلك عزة

كلا فما لمتيم أبدًا بدت ... إلا وقد ضربت عليه الذلة

فى مقلتيها فترة تعذو بها ... أهل الهوى لا تعتريها فترة

مهما تحركتا فما بمتيم ... أبدًا حراك هل تحرك ميت

ولقد يشوبهما دلالاً سكره ... فتنوب أبطال الصبابة كسرة

من ذا يرى الألحاظ سكرى ثم لا ... يغشاه من نظر إليها سكرة

من ذا يراها راقصات ثم لا ... تعروه من دون اختيار هزة

من ذا يري هذا التغنج ثم لم ... يوقعه منه فى خيال غنجة

يغزو مزجج حاجبيها مهجة ... أفتستطيع المرهفات المهجة

من ذا يرى هذا التزجج ثم يزعم ... أن له مما دهاه نجدة

وكأنما الأهداب ترمى فى الحشا ... شررًا له فى كل قلب حرقة

هى ريش سهم منية ترمى به ... عن قوس حاجبها فتصمى الرمية

من رام نظرة ذلك الحور الذى ... حارت لخدعته العقول الفكرة

فليستعد لمحنة تغشاه يا ويلاه إن غشيته تلك المحنة
عقباك غير حميدة يا طرف إن لم تغضضنْ تسفر إليك حميدة
فالعين تشخص والفؤاد على شفا جرف له فى كل أن أنة
وإذا ذوائبها غدت مسترسلاً ت فالقلوب ذوائب تتفتت
وإذا معاطفها انثنت متمايسا ت فالعقول ذوائب تتشتت
حركات لطف لا تكاد ترى كأن جمع التحرك والسكون الميسة
لا تعجبن فإن فيها النشر فيـ ـه الطى وفيها للنواظر جنة
وبوجنتيها للقلوب جهنم أبدًا وفيها للنواظر جنة
كادت تعبد نهية لى وهى تحـ سب أنها كنهى سواءى نهية
لأنها وعيونها المرضى بأعـ ين سيدى ملحوظة مكتنة
السيد الحلوان من بهدى طرا ئقه اقتدت فنجت لعمرى الأمة
وبنوره اهتدت الأفاضل وارتوت من ذلك البحر المحيط أئمة
وبه ترشحت الفهوم وبان من طرق البيان حقائق مكنية
وبنحو تصريفات تحريراته سهلت من الآداب طرق صعبة
وبحسن تحبيرات تحريراته راقت وساغت للمعارف شرعة
من نظمه انتشرت عقود بلاغة وفصاحة هى للمعانى عدة
وبنشره انتظمت سموط براعة وبداعة هى للبدائع بهجة
هو قدوة للعالمين وقرة للناظرين ومنة هى منية

فيشنف الأسماع منه منطق عذب به تحيا النفوس الميتة

ويشوف الأبصار منه طلعة هى للوفود بكل بشر طلقة

وترنح الأبصار منه حكمة شرعية أو نكتة أدبية

وتروح الأرواح منه رؤية تغدو بها الألباب وهى روية

وتفرح الأحباب منه خليقة هى بالثناء وبالسناء خليقة

وتفتح الأبواب أبواب الهدى منه لعمرك سنة سنية

فلكل عين من سناه قرة ولكل قلب من هداه هدية

ولكل نفس من علاه منية ولكل شخص من حلاه حلية

يا سيدى قد كنت أعهد دورقى فى فيه لكن لاحتياج ضبة

فرأيتها لما أتى خفيت وسـ ود وجهها المبيض عندك شطبة

قد أفرغت منه وحقك قطرة رهقته من إن فارقته قترة

هى عند حضرتك الشريفة قلة لكنها وأبيك عندى قلة

بيت تهدم من مدينة نظمه لكنه لبنى الصناعة قلعة

خطبته منى خطبة فأجبتها فتروحت بحلاه منه قينة

فامنن عليها بالرجوع لأصلها فلقد دهتها بالبلاء الفرقة

لازلت تمحو ثم تثبت ما تشا ء وأسفرت لك بالأمانى العزة

سلام تلوح فى مشارق المهارق منه على صدق الإخاء ، كواكب آيات بينات وتفوح فى رقائق شقائق خده من الوفاء بعهده ، نفحات عنبريات يراجع به مهديه معاشرة المعاشرة التى بت السيد طلاقها بتًا ويجدد به عهد الود الوثيق الذى لا ترى فى سبيله

عوجًا ولا أمتًا . وتحيات أرق من نسمات الصبا إذا تنسمت ، وأشرق من بسمات الصبى إذا تبسمت ، وأشوق من رف رقيق ثغر عروس زفت ، ولف رشيق قد خود رفت غلائها وشفت ، آنس من سمر غانية تطوست ، تتغنج فى سمرها تارة وتتغنى تارات ، وأنفس من مائسة تبرجت تتثنى معاطفها الرشيقة الرقيقة الحركات ، إلى حضرة روضة بصرى وبصيرتى ، ونضرة طلعة نعمتى ، ونعمتى السيد الذى بإعرابه بنيت قصور البيان بعد انقضاضها وسورت ، وببدائع بدائهه جمعت أشتات المعانى بعد انفضاضها ، وصورت مشكاة الشريعة والحقيقة ومرقاة الطريقة للخليقة على الحقيقة . سيدى الذى له أشكر أيادى فضل على توالت وعوائد بر عنى قط ما تناءت ولا توانت ، وإليه أشكو شقتى التى بعدت ومشقتى لبينه الذى رأيت روحى به قد بعدت ، وتوانى كتبه التى كانت لروحى فى كل غدوة غدوة ، ومن تحننه التى كانت تنفس عن النفوس فى كل مساء وغدوة ، وأظنه إن شاء الله يقبل شكايتى ويقبل على ممتنًا بما به حتى ورحمتى . فإمّا منا بعد بعده بالمراسلات وإمّا فداء فإنى أبى وأمى بما هو النعمة الكبرى من المشاهدات فإنى والله ، والله أعلم ، أعلم أنى أحن إلى أثره وعينه حنين الخمس إلى الست ، وأحنو على طرائف لطائفه حنو الوالدة على الابن والبنت ، وأتشوق إليه تشوق شيبتى لعود عيد رونق شبيبتى ، فإن بذلك تفوق وتروق صحتى ويغوث ولا يعوق به رونق قريحتى . وماذا عليك أيها السيد إذا جعلت ذلك من جملة مالك من حسنى الحسنات ، ومنحت به محبك الذى لا يتسنه وده بتسنه السنوات . منحك الله كلما تمنيت ونفحك بنفحات قدسه أينما كنت وحيثما انتهيت آمين . فى ١٣ ج سنة ١٣٠١ .

فورد جواب هذه الرسالة فى ٢٢ ج سنة تاريخه بما صورته :

٤١ – السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، سيدى أما توقد أشواقى ، فقد صعد الروح إلى التراقى ، بل أسالها دمعًا من أحداقى فهى منهلة المآقى ما بها ولا لها من راقى ، فآهًا لها من حدق صبحها الدمع ومساها الأرق . وكيف لا يصوب دمعها الغدق فيقضى بالغرق هيامًا بتلك الشمائل التى لو دنت من الصخر لرق وإلا انفلق أو دنت إلى البحر لأصبح عذبًا فراتًا يشفى الحرق وإلا انفرق ، فلو أنه النيل لطاب حتى لا يشتكى منه شرق وإلا احترق أم كيف لا يعروها شوقًا إلى ذلك الخلق الكريم

الذى هو أرق من النسيم أرق على أرق ثم آهًا و آهًا من ذلك الشوق الذى طبخنى حتى العرق مرق ، وحتى غلي العرق أيضًا فقيل انشلوه من المرق وإلا احترق . ومن العجب أنى مع هذا الحال المشروح أغدو وأروح ، ولكن من حلاوة الروح وربما طار طير وهو مذبوح ، فياحبيبى أكذا ، ويقول السيد أنى طلقت عشرته الشريفة بتًا وكيف وهى التى أمت بها إلى الزمان متًا . يا أيها السيد مكره عبدك لابطل ، ولا تؤاخذنى فى تغيير المثل ، فكيف يثبت السيد الطلاق ولا طلاق فى إعلاق باتفاق ، ولا أقول بإطباق ، أيحكم بالتفريق على الطريق وبدير هذه الكأس على الريق ، وذلك خلاف مذهبه . ومما لا يقول أليس قد علم تعطشي به لتوطنى بمصر حتى أجلو بقرب مجلسه الكريم صدأ ما أصابنى لبعده من الأصر ، فأما انقطاع الأخبار وتوانى الأسفار فذلك شكيتى وعين قضيتى ، فقد أرسلت للسيد كتابين ولم أقف من جوابهما على أثر ولا عين ، فهل طارا فى مخالب البين ، إذن فما أصنع فى سوء البخت وتربع كيوان فوق التخت وتصرف الوقت بأنواع المقت ، لولا ما نتعلل به من استعمال الصبر فى انتظار حلاوة الفرج ، وعادة الصبر أن نغتال كل حرج . فبينا أنا في صبيحة قد ابتسمت بالصباحة كوجه المليحة تلألأت منه الملاحة ، إذ طلع كوكب تائية السيد البهية التى أربت بوشيها المحوك ، وتبرها المسبوك على كل تائية . ولعمرى لقد وردت على العبد مهمومًا فسلت همه ، مغمومًا فسلت غمه ، معتلاً فأبرأت عليله مستهامًا فبردت غليله ، غافلاً فنبهته ، جاهلاً ففقهته . فقلت لها أهلاً بك من زائرة على أنك أشرد من غزال سافرة ، على أنك أدق من خيال ساحرة ، على أن سحرك الزلال حلال ، فلوحى للدر شمسة بل للدرارى شمسًا ، وبوحى للتائيات وغيرها نبرز من بدائعك الروائع ، همسة فلا تسمعها بعد ذلك إلا همسًا ، واسطعى على تفننك فى بيان بدائع المعانى بذلك المحيا البشيش ، حتى تقول أجنحة الطواويس لاشك أن حسنى على بديع تلونه فى الريش ، وأطرفى عين نور الشجر بطرف ألفاظك اليانعة النضرة ، واكتمى نفس نسيم السحر بأنفاس معانيك الرائعة العطرة ، وامتزجى بالأرواح التى أصبحت تتقاطر عليك فروحيها بلطف السمر ، فإنك من لطف شمائل منشيك معتصرة ، ثم تفضلى فاهزئى بالمعلقات ، واكتبى بصكهن فإنك قد قضيت بأنهن قد صرن مطلقات ، واضربى سيارة جرير بفخارة الفرزدق ، ولفى نسائج بشار فى أبيه ، وارمى بها فى وجه مهلهلات أبى

الشمقمق ، واضحكى ببواسم جواهرك المنتظمة من تقاطيع ابن بسام ، وقطعى على رأس تقاطيف الجزار مقطعات اللحام ، واسمعى سجع المطوق رنة سهمك المتفوق ، واصفعى قفا ما يساميك من أشعار العرب بوجه أشعار العجم ، وافعلى بجميعها فعل أبى الطائي بالغنم ، ثم هكذا فافعلى وبخدود حسان الأشعار فإنك عزتها وإن كنت فى عشقى جميلاً لا كثيراً ، فتنعلى سودى فديتك بوجودى ، فما يشق لك غبار ، ولا تجارين فى مضمار ثم عندى لك نصيحة فخذيها صريحة . احذرى على مالك من الرمزات أن تسرقها عيون الغوانى غمزات ، وعلى رقة غزلياتك أن تختلسها مغازلة ، وشدة حماسياتك أن تستلها سيوفًا للمقاتلة ، وصونى مواصليك عن مقاطيع الشعراء فإنهم لما أدركهم من حرفة الأدب سراق ، وتبرقعى ببراقع التورية إلا عن الأكفاء من ألباب الألباء ففهيم عن نهزة الأدب مراق ، ثم هاتى خبرينى عن سر أسالك عنه فمثلك من يعربه ، واصدقينى وإن كان الصدق كالصديق قد عز مطلبه ، ولا تقولى أنا شعر والشعر أعذبه أكذبه بالله ماذا أراد السيد من زفافك إلىّ يا أيتها العروس وأنا كما ترين على حافة القدوس لا أحسن أن أعض ولا أن أبوس ولا أحوس ولا أدوس ، فقالت أراد أن تتمتع بالنظر إلى محاسنى الغرا ، فقلت أهان عليه عقلي حتى يبهره بتلك المحاسن بهرا ، قالت ورام أن يحيى لك بين أهل الأدب ذكرا ، فقلت سبحان الله وهل يستحيل السها بدرا ، قالت وأحب أن يذكرك بعهد الوداد نظما كما ذكرك به نثرا ، قلت وهل نسيته لحظة فاحتاج للذكرى ، قالت واشتهى أن يفرغ عليك حلة أساليب البلاغة فلعلك أن تكتب على طرازها ولو سطرا ، فقلت تلك لعمرى رتب تسقط الأمانى دونها حسرى ، على أن النسر قد عز ابن دأية قسا وعشش فى وكريه حتى رأيت النجوم منه ظهرا ، افبعد ما صار شيبي بدرا يبغى عندى من الأدب بدراً أو من الشعر شعرى وهل أبقت رحا الأيام لبًا أو قشراً أو ترك معصار الدهر خلاً أو خمراً اللهم غفرا ، قالت وقصد أن يتعرف لما صنعته بدورقة السرى سرا فإنك نحرت خطبته نحرا وكسرت ضبة فمها كسرا ، قلت وقد فهت أنت أيضًا بذلك جهرا وتركت الناس تروى ذلك عنك كما تروى بك براً وبحرا ، لا وألحاظ إشارتك السكرى حين اكتحلت سحرا فأسرت أبطال الصبابة أسرا ، ثم قالوا تحبها قلت بهرا ، ما جمشت تلك العذراء ولا خمشت لها نحرا ولا أسقطت لفيها درا ولا أرقت لريقها العذب خمرا ،

وإنما تركت حسنها يقطر قطرا ، بالله متى زادت خطبة عن أربعة وأربعين شطرا ، ثم بالله كيف صدقت أنى أنقض منها سطرا بطرا وما عهدت عندى غدرا ، قالت لعمرى لقد أرهقتك عسرا واوسعتك زجرا على أنى لم أستبطن لك شرا ولم أرد بك لعمرى إلا خيرا ، فكيف ترى يمينى هذه قلت برا ، وهل أتوهم فيك شيئًا نكرا ، لا وطلعة السيد التى هى للوفود طلعة غرا ، لا وحسن تخلصه الذى إن اكتحلت به العيون المرضى فإنها من المرض تبرا ، قالت إذن فقدم للسيد على وجهى شكرا ، ومهد له فيما كان عذرا ، قلت قد فعلت فقد زففت إليه عروسًا بكرا ، قالت أهى مثلى تائية كبرى ، قلت بل كافية صغرى ، قالت ولم تركت الشعراء ينظرون إليك إذا خالفت الروى شزرا ، قلت أليست الكاف أخت التاء فى أمور جاءت تترى ، أليست تلاقيها وتقالبها فيما يجل حصرا ، قالت ولكن ما هى هى فلا بد للعدول من نكتة أخرى ، فقلت قد أتممتها فى الكأس المروق فأحببت أن تكون للسيد بشرى ، قالت أما هذا فليكن عذرا فقل أهى مثلى فى محاسنى الغرا وهل تحكينى نثرًا أو شعرًا أو كفلاً أو خصرًا أو صدرًا أو نحرًا أو قدرة أو قدرا ، قلت كلا ولكنها إن لم تؤكلا درمكا فتمرا وإن لم تشرب قهوة فدرا وإن لم تنظر شمسًا فبدرا وإن لم تسمع معبدًا فعمرا وإن لم تشم مسكًا فزهرا ، على أنى ربما فشرت فى ذلك فشرا ، وعلى كل حال فما تجيء للبك قشرا فأنت أسرى وأشد أسرا وأعظم قدرا ، قالت فانو عن غيرى الصوم ثم استيقظ من النوم وحدث عنى القوم إنى سيدة القصائد اليوم . فاستيقظت من المنام وقد بلغت المحاورة بينى وبينها حد التمام فإن لم يؤوله السيد بما يرام فليسمه على الأقل أضغاث أحلام والسلام . ٢٦ ج سنة ١٣٠١ .

القصيدة المشار إليها فى الجواب :

لا يا بثينة والهوى لم أسلك	**ولغير ما ترضينه لم أسلك**
هاتى فديتك خبرينى ما الذى	**قدرت أن أسلوه منك فتشتكى**
أهو ابتسامك أم سلامك أم كلا	**مك أو قوامك وهو أصل تهتكى**
أهو اللمى وإليه قد وقد الظما	**آها على رشفات ذات المضحك**

أهو الرقيق كدين أرباب الهوى من خصرك المتزهد المتنسك
أهو الصحاح من الثنايا تزدهى أهو المراض من الجفون الفتك
يا بثن لا والله ما قلبى سلا يومًا هواك نعم سلوت تنسكى
لا والصباح من الجبين المزدهى لا والدجى من فرعك المحلولك
لا وازدهار الكون مهما أشرقت شمس الضحى من وجهك المستضحك
بالله قولى كيف تمكن سلوتى أو لست أخشى منك سرعة مهلكى
أخشي لحاظك فهو سيف منتضى أوما إلىّ اسكن فلم أتحرك
وبسحره قد راعنى إذ راقنى فكأنه لفظ الذكى ابن الذكى
السيد النحوى عون الملتجى والمرتجى غوث اللهيف المشتكى
البارع الندس الذى سبق الورى مجداً فأصبح فى العلى لم يدرك
غواص علم كل علم زاخر ما للأنام بشطه من مسلك
جواب آفاق الفنون إلى مدى لم يحكه أحد الورى فيما حكى
صواغ ما سبكت قرائحه من النـ كت النضار طبيب ما لم يسبك
أو ما ترى الدنيا غدت محبوكة بحلى له من قبلها لم تحبك
وسل المطالع والمطالع والوسا ئل والرسائل ثم لا نتحكك
وعلى يمينك إن دخلت القصر من باب الفتوح فثم دورقه الزكى
فانهل إذن من كأسه وادخل حديـ ـقة أنسه وإلى الفواكه فاسلك
وإذا شممت أريج ذاك السيد الـ مفضال ثم فقم إذن وتمسك
وله فبايع فهو بالاجماع فى كل الفنون غدا أجل مملك

وله التزم وبه اعتصم أو فانفصم ... وله فمق وبه فثق واستمسك

هو عروة الدين التى لم يعرها ... أدنى انفصام فى مقام أضنك

هو رونق الدنيا وروق نعيمها ... هو صيقل الألباب مما تشتكى

أفديه من يقظ يكاد ذكاؤه ... ينساب بشرًا فى الوجوه الحلك

ثقف إذا أومـا إلى العضل التى ... أعيت رمى أعضاءها بتفكك

روض اذا فكه استطرت فكاهة ... وتراه جد فطار قلب الدوسك

إن راح ينشد قلت عبد صبابة ... أو جاء يرشد قلت رب تنسك

وإذا أفادك ظل مثل المستفيـ ... ـد فصرت فى وصف المفيد المدرك

خلق له سجد النسيم ولو سرى ... حقبًا ليدرك لطفه لم يدرك

وانظر إلى الأدب استرق له فإن ... قلت اغتدى مملوكه لم تأفك

أما رقيق الشعر فهو عتيقه ... والحر يحسن للرقيق الأسلك

والدر راعته درارى نثره ... فله بقاع البحر أى تمسك

والورق ما أدت لطافة سجعه ... نغمًا لتحكى السجع بل لتبرك

ما الورق إن سالت رقائق لفظه الـ ... ـعربى تمحو عجمة المتترك

اللفظ يخطب والبلاغة منبر ... والكون يسمع أو يخط بمالك

فضحت بديهته روية من ترى ... فإذا بدت لم يبق بعض تشكك

يجلو بزوغ الشمس من بدهاته ... ما الناس من ظلماته فى معرك

ولجوده عندى حديث مطرب ... قد غار منه البحر بعد تهتك

كم جعـــفر من فـضله يـحـيى به ... من يرتجــيــه فـــلا يقـول بـبــرمكى

ســقــيـــا لأيام مـضت فـى ظلة ... قشـعت دجى ليل الهمـوم الأحلك

حـيث الطرائف والظرائف والمـعـا ... رف والعـــوارف فى مـزيد تشـــبك

يا عــــادة الأيام هـل لك عـــودة ... عـودى فـعـودينـا فـديت وأوشكى

عـودى فـعودى قـد ذوى ظمـأ إلى ... تلك العلى وخذى حشاى أو اتركى

عـودى لدور الدورق السلسـال فى ... نادى الصـفـا ولكل ملكى فـاملكى

عـودى فـمـولاى اصطفـاه لنفسـه ... ولقـد يـكون على الأقل مــشـركى

يا أيـهـــا الأســتـــاذ هـذا دورقى ... ملكـى وقـد أصـلت فــيـه تملكى

وأبحت لى حـور القـصور بروضـه ... فظـللـت ثم عـلى الأرائـك أتكـى

أأسـومـه خـسـفًـا وفـيـه لى المنى ... لقـد انتـهـجت إذن سـبـيل تضنك

أأحـــوطـه بدمى وأثـلـم ثـغـــره ... أيقـــوم ثلـم دون لثم يـشـــتـكى

وأبيـك مـــا أســقـطت مـنه درة ... فـيـما علمت وقـد عجـبت لما حكى

فـعــقـود خـطبـتــه بخـاتم ربـهـا ... مــتنـاسـقــات لم ترع بتــفكك

وكمـا عهـدت قصورها العـلياء لم ... تـرتع بـنقـض لا ولا بـتـــدكـك

وعلى افتراض النقض فـالأستاذ بيـ ... رم مــا اقــتــضــاه رأيه لـتـورك

وليـنظـر الأسـتـاذ فى البـيت الذى ... أومـا لـه فـقـد اسـتفـز تـشككى

أو فلـيطـوقنـا بنـعـــمـــة ردّه ... إن لم يجــده كـذاك فـلنسـتــدرك

فـــالـبـيت لـيس لدى إثبـــاتًا ولا ... مـــحـواً ولا عـــداً ولا نقـــداً شكى

لازال ينفـحنـــا بـــألطـف نفـحـة ... فنشـم ريا طـيب خــاطره الزكـــى

٤٢ - وكتب الإبيارى إلى الحلوانى أيضاً رداً لكتابين وردا منه يسأل فى ذيلهما عن مسائل فى الورق : "سيدى الذى لا أطلب بعد دوام الإيمان إلا داومه وأن لا تبرح كواكب السعد والسؤدد إلا أنصاره وخدامه . ورد جوابك الأول والثانى فكانا أوقع عندى من ضرب المثالث والمثانى بما أنبآه من خبر سلامة السيد التى هى بهجة مهجتى وروح روحى وسداد سدتى . وإن كبراً على كبر تجنى حبيب رنق النعاس فى لواحظه النرجسية ، وحقق أنه من ماء اللطائف مصور ، فرأى الدلال مقيساً والمطاوعة غير قياسية ولو مجازية . ولعمرى ما يوم العيد عندى إلا يوم يأيتنى من تلك الحضرة كتاب أو يرد من تلقاء مدين فضلها الباهر سؤال ، وإن كنت أبيت منه فى ارتباك وارتياب إذ قد وهن العظم منى واشتعل الرأس شيباً وأصبحت لملازمة الأمراض لا تعدم حسناء حالتى المتوهمة ذاماً ولا تفقد عيباً ، مع ما ينضم لذلك من حرمانى الأمد المديد من رؤية طالع طلعتك وتروح روحى بقطف ثمر سمر حضرتك وكثرة رؤيتى (حاشا من أشرت فى كتابك إليهم) من تقذى العين برؤيتهم وتتجرح القرائح بما يتفق من مجاراة قرائحهم . فلذا نحمد الله فى كل وقت مرتين ونلجأ إليه أن يمنح أولئك نفحة رقة تفقأ من غلظتهم كل عين . ولكن لا يزال لطف الله تلمع لى بروقه وتلمح لقلبى بما أشوقه من كتب السيد ، التى تمنع كل بأس عن كل بأس ، وتمنح كل فرج وفرح لكل آيس ويائس . ومن ظن انفكاك لطفه عن قدره فذلك من قصوره نظره وأبيك إن رسائلك لعينى بصرى وبصيرتى لقره ، ولطلعتى وجهى ووجاهتى لغرَّة ناهيك من غره ، لا أملك وربك العجب لحسن مواقعها ولا الغبطة لكمال جمال منافعها ، فلله تلك الروية وسبحان من سواها ودقة ذلك النظر الذى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها . وإنى وحق الله بما تبديه إلى من هذه التنبهات لكالنديم يقول فى مجلس أنسه النظيم طاب الصبوح لنا فهات وهات ، وهكذا هكذا تكون المحبة الحقيقية والسنة المحمدية الأحمدية ، وإلا فلا وكذا يكون الإيمان اليافع والعلم النافع وإلا فياضيعة الأعمار تمشى سبهللا . ولقد أود أن يكون وجه الدهر لي فى جمال شيمتك وأمانى فى إصابة فهمك وآمالى فى جودة قريحتك ، وليت دعائى مجاباً فأدعو الله بقرب أو اتحاد الدارين وأن يجعلنى ملازماً لك ملازمة العرض للجوهر فى الدارين ، فإن شوقى إلى حضرتك أكثر وأكثر من كل شىء إلا من ذكرك وذكراك ، ولهفى عليك أكبر وأكبر إلا

من صبرك عني وعدم سماحك بأن أراك . ويروقني أن رأى السيد حفظه الله فراش النقد وطيئًا فتربع عليه ، وفراش القلم مني متهافتًا على سراج الجمع بغير تحرير فقص جناحيه لا والله ما أقول ذلك إلا حقًا أرى به لك يدًا لا تزال فى عنقي طوقًا . وهكذا الإخلاص يكون والمؤمن مرآة المؤمن كما تفيدون . وقد أثبت عندى فى "ذاج" ما لفظه :

ذأجت ماء بهمز بعد معجمة ‏ ‏ ‏ ‏ شربت ما قل أو حتى رويت ظمأ

وقلت فى "الفوج" وفسر الفيج شخص واحد وجماعة ومرحانًا إلخ . وقد كان غرنى فيه تشبيه السيد مرتضى وكان عدم تأملى فيه غير مرتضى ، وبيت الشرح قد قلنا فى قافيته (كما فهما) وهو منبئ بأنى لم أر فيه التضاد صريحًا ، بل بحسب ما يفهم من عبارتهم وإلى الآن لم أزل أشم منها تلك الرائحة فإن عدت لحضرتكم فائحة فتجارة رابحة وإلا فلا مانع من هدم بيته كليًا أولى من أكون فيه بلا موافق دعيا . وأما المطاوعة فلم يطعنى اليراع فيها أن يجرى بغير ما سبق فإن كان كافيًا وإلا فما تراه أحق . أسأل الله أن يلقينى بلقياك نضرة وسرورًا ، ويزيدنى بدوام حبك وفضلك فضلا وحبورا ، ويوزعنى من شكر صنيعك ما أملأ به وطاب الأيام وأستروح به إن شاء الله طيب حسن الختام . هذا وحضرات من نوهتم بذكرهم وطيبتم بالكتاب بعبير نشرهم يزفون إلى ساحة فضلكم عرائس تحيات تتهادى فى غلائل أشواق متباهيات غير متناهيات ، والسلام" .

٤٣ – وكتب القاضى الشيخ محمد عبده إلى أحد أصحابه وكان فى السجن بسبب الحوادث العرابية فى ٩ محرم سنة ١٣٠٠ :

"عزيزى :

تقلدتنى الليالى وهى مدبرة ‏ ‏ ‏ ‏ كأننى صارم فى كف منهزم

هذه حالتى اشتد ظلام الفتن حتى تجسم بل تحجر ، فأخذت صخوره من مركز الأرض إلى المحيط الأعلى ، واعترضت ما بين المشرق والمغرب ، وامتدت إلى القطبين فاستحجرت فى طبقاها طباع الناس إذا تغلبت طبيعتها على المواد الحيوانية أو

الإنسانية ، فأصبحت قلوب الثقلين كالحجارة أو أشد قسوة فتبارك الله أقدر الخالقين . انتثرت نجوم الهدى وتدهورت الشموس والأقمار وتغيبت الثوابت النيرة وفر كل مضيء منهزمًا من عالم الظلام ، ودارت الأفلاك دورة العكس ذاهبة بنيرانها إلى عوالم غير عالمنا هذا ، فولى معها آلهة الخير أجمعين . وتمخضت السلطة لآلهة الشر فقلبوا الطباع وبدلوا الخلق وغيروا خلق الله وكانوا على ذلك قادرين . رأيت نفسى اليوم فى مَهْمَهٍ لا يأتى البصر علي أطرافه فى ليلة داجية غطى فيها وجه السماء بغمام سوء فتكاثف ركامًا ركامًا ، لا أرى إنسانًا ولا أسمع ناطقًا ولا أتوهم مجيبًا ، أسمع ذئابًا تعوى وسباعًا تزأر وكلابًا تنبح كلها يطلب فريسة واحدة ، هى ذات الكاتب ، والتف على رجلي تنينان عظيمان ، وقد خويت بطون الكل وتحكم فيها سلطان الجوع . ومن كانت هذه حاله فهو لا ريب من الهالكين ، تقطع الأمل وانفصمت عروة الرجاء ، وانحلت الثقة بالأولياء وضل الاعتقاد بالأصفياء وبطل القول بإجابة الدعاء وانفطر من صدمة الباطل كبد السماء وحقت على أهل الأرض لعنة الله والملائكة والأنبياء وجميع العالمين . سقطت الهمم وخربت الذمم وغاض ماء الوفاء وطمست معالم الحق وحرفت الشرائع وبدلت القوانين ، ولم يبق إلا هوى يتحكم وشهوات تقضي وغيظ يحتدم وخشونة تنفذ . تلك سنة القدر والله لا يهدى كيد الخائنين ، ذهب ذوو السلطة فى بحور الحوادث الماضية يغوصون لطلب أصداف من الشبه ومقذوفات من التهم وسواقط من اللمم ، ليموهوها بمياه السفسطة ويغشوها بأغشية من معادن القوة ، ليبرزوها فى معرض السطوة ويغشوا بها أعين الناظرين ، لا يطلبون ذلك لغامض يبنونه أو لمستور يكشفونه أو لحق خفى فيظهرونه أو خرق بدا فيرقعونه أو نظام فسد فيصلحونه ، كلا بل ليثبتوا أنهم فى حبس من حبسوه . مخطئين ، وقد وجدوا لذلك أعوانا من حلفاء الدناءة وأعداء المروءة وفاسدى الأخلاق وخبثاء الأعراق ، رضوا لأنفسهم قول الزور وافتراء البهتان واختلاق الإفك . وقد تقدموا إلى مجلس التحقيق بتقارير محشوة من الأباطيل ليكونوا بها علينا من الشاهدين . كل ذلك لم تأخذنى فيه دهشة ولم تحل قلبى وحشة ، بل أنا على أتم أوصافى التى تعلمها غير مبال بما يصدر به الحكم أو يبرمه القضاء ، عالمًا بأن كل ما يسوقه القدر وما ساقه من البلاء فهو نتيجة ظلم لا شبهة للحق فيه ، لأن الله يعلم كما أنت تعلم أننى برىء من كل ما

رمونى به ، ولو اطلعت عليه لوليت منه رعبًا أو كنت من الضاحكين . نعم حنقنى الغم وأحمى فؤادى الهم وفارقنى النوم ليلة كاملة عندما رأيت اسمك الكريم واسم بقية الأبناء والإخوان المساكين تنسب إليهم أعمال لم تكن وأقوال لم تصدر عنهم قصد زجهم فى المسجونين ، لكن اطمأن قلبى وسكن جأشى عندما رأيت تواريخ التقارير متقادمة ، ومع ذلك لم يصلكم شرر الشر . فرجوت أن الحكومة لم ترد أن تفتح بابًا لا يذر الأحياء ولا الميتين ، قدم فلان وفلان تقريرين جعلا فيهما تبعات الحوادث الماضية على عنقى ، ولم يتركا شيئًا من التخريف إلا قالاه وذكرا أسماءكم فى أمور أنتم جميعًا أبعد الناس عنها ، لكن لا حرج عليهما فإنى أراهما من المجانين ، ولم أتعجب من هذين الشخصين إذ يعملان مثل هذا الذنب القبيح ويرتكبان هذا الجرم الشنيع ، ولكن أخذنى العجب كل العجب غاية العجب بالغ ما شئت فى عجبى غدا خبرنى المدافع عنى بتقرير قدمه فلان الذى أرسلت إليه السلام وأبلغته سرورى عندما سمعت باستخدامه وأنا فى هذا الحبس رهين ، إلى هذا الوقت لم يصلنى التقرير ولكن سيصل إلىّ ، إنما فيما بلغنى أنه شهادة بأقبح شىء لا يشهد به إلا عدو مبين . هذا اللئيم الذى كنت أظن أنه يألم لألمى ويأخذه الأسف لحالى ويبذل وسعه إن أمكنه فى المدافعة عنى ، فكم قدمت له نفعًا ورفعت له ذكرًا وجعلت له منزلة فى قلوب الحاكمين ، كم سمعنى أقاوم هجاء الجرائد وأوسع محرريها لومًا وتقريعًا وأهزأ بتلك الحركات الجنونية ، وكان هو على فى بعض أفكارى هذه من اللائمين ، كان ينسب فلانًا لسوء القصد اتباعًا لرأى فلان ، وأعارضه أشد المعارضة ثم لم أنقض له عهدًا ، ولم أبخس له وُدًا وحقيقة كنت مسرور لوجوده موظفًا فما باله أصبح من الناكثين . آه ما أطيب هذا القلب الذى يملى هذه الأحرف ما أشد حفظه للولاء ما أغيره على حقوق الأولياء ما أثبته على الوفاء ما أرقه على الضعفاء ما أشد اهتمامه بشئون الأصدقاء ما أعظم أسفه لمصائب من بينهم وبينه أدنى مودة وإن كانوا فيها غير صادقين ، ما أبعد هذا القلب عن الإيذاء ولو للأعداء ما أشده رعايه للود ما أشده محافظة على العهد ما أعظم حذره من كل ما توبخ عليه الذمم الطاهرة ما أقواه إقدامًا على العمل الحق والقول الحق لا يطلب عليه جزاء ، وكم اهتم بمصالح قوم وكانوا عنها غافلين . هذا القلب الذى يؤلمونه بأكاذيبهم هو الذى سر قلوبهم بالترقية وملأها فرحًا بالتقدم ولطف

خواطرهم بحسن المعاملة وشرح صدورهم بلطيف المجاملة ودافع عنهم أزمانًا خصوصًا هذا اللئيم ، أفنشرح الصدور وهم يحرجون ونشفى القلوب وهم يؤلمون ونفرحها وهم يحزنون ، تالله قد أضلوا وما كانوا مهتدين . هذا القلب ذاب معظمه من الأسف على ما يلم بالهيئة العمومية من مصائب هذه التقلبات وما ينشأ عنها من فساد الطباع ، الذى يجعل العموم فى قلق مستديم ، وما بقى من هذا القلب فهو فى خوف على من يعرفهم على عهد مودته ، فإن تسللوا جميعًا بمثل هذه الأعمال وأصبحوا من مودته خالين واتحنوه وقاية لهم من المضرة وجعلوه ترسًا يعرضونه لتلقى سهام النوائب التى يتوهمون تفويقها إليهم كما اتخنوه قبل ذلك سهمًا يصيبون به أعراضهم فينالون منها حظوظهم ، فقد أراحوا تلك البقية من الفكر فيهم ، والله يتولى حسابهم وهو أسرع الحاسبين . آه ما أظن أن تلك البقية تستريح من شاغل الفكر فى شئون الأحبة وإن جاروا فى تصرفهم . إن طبيعة هذا القلب لطبيعة ناعم الخز إذا اتصل بذى الود وإن كان خشنًا فصعب أن ينفصل ولو مزقته خشونته ، وإن هذا القلب فى علاقة مع الأوداء كالضياء مع الحرارة أيما حادث يحدث وأيما كيماوى يدقق لا يجد للتحليل بينهما سبيلا . وأظنك فى العلم بثبوت تلك الطبيعة فيه كنت من المتحققين .

أى عزيزى : الآن وصلنى تقرير اللئيم فقرأته بأول نظرة ، ووجدته كما بلغنى وسأرد عليه فى بضع دقائق بما يسود وجهه ويخجله إن كان إنسانًا ، ولكن تصادف فراغ الحبر من الدواة ، فسأنتظر بالرد عليه وتتميم رقيمى إليك بعض ساعات فكن معى من المنتظرين .

رددت على التقرير وكان كل ما فيه الغش والتغرير ، وذكر فيه فلانًا بأشنع ما يؤاخذ به إنسان فى هذه المسألة (*) كما ذكره الخبيثان قبله ولكن دفعت ما قاله فى جانبه أيضًا وأخذت على نفسى كل مسئولية تنسب إليه أو إليكم فما عليكم إن سئلتم إلا أن تكونوا منكرين ربما يسألكم (القموسيون) عن معلوماتكم فى شئونى أيام الحوادث فلا يدخل عليكم غش السؤال والإرهاب ، ولكن عبروا عما كنتم تشهدون

(*) وردت فى الأصل « ا المسألة » والصواب « المسألة » (المحرر) .

وتعلمـون من أفكارى وأقـوالى التى كـانت تهـزأ بالحكومـة الفـلانيـة ومن كـانوا لهـا من الطالبين .

إلى هذا الحد قفوا فإن سئلتم فقولوا ما نحن بتـأويل الأحـلام بعـالمين . فى هذا الوقت وصلنـى الرقيم مبشـراً ببقـائكم في مركزكم فقمت ورفعت يـدى ورجلى ونـاديت الحمد لله رب العالمين ، وأخذنى الأسف على حبس فلان ، لكن دل إطلاقه على حسن حالة البـاقين . يا عزيزى : أعود إلى ذكر ما لأولئك القوم كأنما قذف بهم من مشاهق جبل فسقطوا على رؤسهم فغشيهم من شدة الصدمة مـا غشيهم ، فقـاموا ينطقون بما لا يعون ويتكلمون ولا يفـهمون . مـا بالهم يقذفون من أفواهـهم أخلاطًا أقذر من البلغم وأمر من الصـفراء ، وكـأنما جرعوا جرعة من السم ، فقبلت أمعـاءهـم فـاستفرغت من حلاقيمهم أخبث ما يحملون . ما بال دنان قلوبهم تفيض من اللؤم أشد من فيضـان بئر برهوت تقذف بسائلات بشعة الطعم خبيثة النظر كريهة الرائحة تضطر معـانيها للفرار منها . لكن أعضـاء التحقيق من زكـام الحوادث الأخيرة لا يشـمون ولا ينوقـون ، ومن ظلمـاتها لا يبصرون ، هل بطل يـا عزيزى مـا جـاء على لسـان النبوات "الإنسـان أسير الإحسـان" ، هـل نقض مـا جـاء من ذلك "المعـروف بذر المحبـة يـغرسـهـا فى أعـمـاق القلوب" ، هل هـجمت قاعدة "أن الحيوان يقاد بالزمـام والإنسان يقـاد بالصنيعة" ، هل كـان خـرافًا مـا قرره الحكمـاء من الفصـول الطويلة تقسيمًا للمحبة وبيـانًا لفضـائلها ومنافـعـها فى الاجتمـا ع الإنسـانى الخبيث ، هل كـان خرافًـا مـا حوته الكتب متـعلقًا بموجبـات روابط النوع البـشرى أم صح كله لكن النـاس به جـاهلون . هـل أتـأسف إن كنت سبـاقًا إلى الخيرات ، هل أتـأسف إن كنت مقدامًا فى المكرمـات ، هل أتـأسف إن كنت شـجـاعًـا فى الدفـا ع عن نوى مـودتى ، هل أتأسف إن كنت أبيًـا أغـار أن ينسب مكروه أو ذل لأولى صلتى ، هـل أستحق العقـاب على حبى لبلادى والناس لها كـارهون . كلا والله لن يكون ذلك ولـم أزدد فى سبيل الفضيلة إلا بصيرة ، ولم أزدد فـى المحافظة عليـهـا إلا ثبـاتًا . ولئن عشت لأصنعن المعـروف ولأغيـثن الملهـوف ولأنقذن الهـاوى فى حـفـرة الـغـدر ولآخـذن بيـد المتـضـرع من ضـغط الظلم ولأتجـاوزن عن السـيئـات ولأتناسـين جـمـيع المضـرات ولأبينن لقـومى أنـهم كـانوا فى ظلمـات يعـمـهـون ولأظهـرن الصديق فى أجمل صـورة ولأجلونه للناس فى أبهج حلله ولأثبتن لهم ببرهـان العمل أنه

فكرك الثانى فى روحك الواحدة وأنه جسمك الآخر فى حياتك المتحدة وأنه صاحبك إذا طال ليل الكدر ومصباحك إذا أغسق دجى الهموم تستضئ به فى حل ما انعقد وتستعين بقوته فى تيسير ما عثر وتذهب به إلى أوج المعالى والناس من معجزات الصديق يتعجبون . إننى اليوم أعجز من المقعد عن طلوع النخل ، ومن المفلس عن حرية التصرف ، وقد صار سقوط الجاه كمرض يصيب الجميل الفاتن فينحف الجسم ويغير اللون ويقلص الشفاة ويضعف القوى ويقعد عن الحركة ويبعد عن نيل المطلوب ويثقل على الأهل والعشائر فى التمريض ويسئمهم إن طال من معاناة العلاج ، فيصبح المريض منهم فى أدنى المنازل ، وقد كان رباً وهم له ساجدون ، يذهب عنه البهاء وينكسف من وجهه الضياء وتتنكره عن الرؤية أعين العشاق وتمجه طباع ذوى الأنواق وتمحى من جبينه تلك الأسطر الجلية العبارة الصادقة النسبة الناطقة بالحق القائلة ههنا كنز الرغبات ههنا منال الحاجات ههنا ما يروح الروح ههنا ما يقضى وطراً فى الأنفس ههنا ما يخشى منه على الأرواح والأفئدة فينحرف عنه السالكون إليه ، وقد كانوا قبل على آثار غباره يتدافعون . وقيسوا على مرض الجميل مرض صاحب جاه ولا أظنكم بالقياس تجهلون ، لكن أقول لكم إن الحوادث المريعة سوف تنسى وإن هذا الشرف سوف يرد . ولئن أبت طبيعة هذه الأرض بخستها أن يكون لها من عودة نصيب فليعودن فى بلاد خير منها ولأجذبن الي المجد أحبتى ومن إلى المجد ينجذبون . كل ذلك إن عشت وساعدتنى صحة الجسم ولا أطلب شيئًا فوق هذين سوى معونة الله الذى تعرفه بعض الناس وبعضهم له منكرون . أطلت عليك الكلام فلا تسأم وأظنه آخر كتاب منى إليك فى السجن ، إلا أن يحدث حادث يسمح بالكتابة مرة أخرى ، فإن تلاقينا بعد اليوم كانت المشافهة أزكى وإلا كانت المراسلة أجل وأعلى ، ولا تجزع فليس فى الأمر ما يفزع وهو أهون مما يتوهمون . وأسال الله أن يغض عنكم أبصار الظالمين ، ويحفظكم من نكاية الخائنين ويسر قلبى بالطمأنينة عليكم وعلى سائر الإخوان والأبناء أجمعين" .

٤٤ – وجاء فى الجريدة الرسمية الصادرة فى ٢٦ يناير سنة ١٨٨٧ من إنشاء حضرة الفاضل الشيخ عبد الكريم سليمان فصل يصف فيه ليلة راقصة فى قصر عابدين الخديوى :

باللو سراى عابدين
ليلة الثلاثاء ٢٥ يناير سنة ١٨٨٧

هى حلية الدهر وطراز الفخر ، وهى جامعة المسرة والبشر من مبدئها حتى مطلع الفجر ، وهى مرايا التحف ومرائى الطرف ومظاهر العوائد المستعذبات ومجالى اللطائف المستبدعات . طاولت وإن لم تطل بياض النهار افتخاراً وعلت حجة نورها على شموسه انتصاراً ، فبها أفاض الخديو المعظم سجال نعمه ، وأورد من اختارهم موارد بره وكرمه ، فظهر للكل فى صفات الوالد الحنون وأولاهم غيث فضله الهتون .

ولقد ظهرت آثار تلك النعم العميمة على ظواهر السراى العامرة ، فتلألأت رحبتها بشعل الأساطين على شكل معين ، وانتظمت فيها الفوارس والمشاة يحفظون النظام ويتبدرون السلام . وتحلت وجهتها ومداخلها بالأضواء الكهربائية أشكالاً وصفوفًا وأنوار الشموع ضروبًا وصنوفًا . أما مدخل السراى فكان طريقه مرصع اليمنة واليسرة بأكر النور الأرضية ذوات الألوان الشفافة الدرية ، وما يليه مزدانًا بالنجف والصحب على أشكال الباقات الريحانية ، ومن وراء ذلك إلى سلم الصعود إلى مواطن الرياضة والجلوس . فكلها مما يكل لسان القلم إذا أراد التوصيف ويشق لسانه إن رام التعريف فيما أبهج هذه المرائي الغريبة ، ويا ما أعذب ما بينها من تلك المناسبات القريبة ، شموع تتلاعب فى مرايا تتقابل فتعدد الوحدة وتتوحد الكثرة وتجتمع الشتيتات ، وباقات الريحان فى الطرقات تباهى منثور الزهور فى المجتمعات ، فما أميلح ما تفاخر به الأخوات . ولئن كان هذا فوق ما قلناه فما هو بأعرب مما بتلك الحديقة السطحية ، وما أدراك ما تلك الحديقة غرست أشجارها ونجومها فوق سطح الدور الأول بين المرمر والرخام ، وفصلت طرقاتها على أشكال هندسية تأخذ بمجامع القلوب استغرابًا ، ونبتت أعوادها المخضرة تحت السقوف . ولقد كانت الأنوار تغازل هاتيك النباتات وترنوا إليها بعين الإعجاب ، فتختلس هى منها بعض الضوء وتعرضها عليها بلونها الزاهى ، فيتحلل بينهما الضوء إلى أصوله الأصلية وتتعدد الفروع فينبهم على الطبيعى تحليل الأضواء فلا يسعه إلا التسليم بأن فوق ذى علم عليم .

وفى أوائل الساعة الخامسة العربية بدأ المدعون يغدون زمراً وفرادى ، تتلاعب في صدورهم وسامات الشرف وعلامات الامتياز ، ولم تكمل الساعه الخامسة حتى كمل عدد من قربهم الخديوى المعظم ودعاهم ورضى عنهم ورعاهم ، وهم نحو الألف والمائتين من سراة آله ورجال دولته وأمراء بلاده الملكية والعسكرية وعلماء دياره ووجوه رعيته وكبراء نزلاء القطر وأجلاء القنصلاتات وضباط الجيش المصرى وجيش الاحتلال من الإنجليز ومشاهير الرؤساء الروحية والأعيان من الأووبايين على اختلافهم فى التبعية والانتماء ما بين ذكران وإناث ، على أجمل ما يكون من الزى والهيئات . كل أولئك حلوا تلك الساحة الخديوية الفيحاء آمنين ، فلاقوا من الكرم العميم والإجلال والتكريم ما لا عين رأت ولا خطر على فكر قبل تلك الليلة الغراء . وقد تشرف بالمثول لدى الحضرة الفخيمة الخديوية على وجه مخصوص كثير من الأمراء والفضلاء والوجوه والنبلاء والأكارم بين وطنيين وأجنبيين ملكيين وعسكريين من رجال وسيدات ، فلاقوا من جنابه الكريم ما لا يكاد يبينه الوصف من الإكرام والتحية والتبجيل . فألان الجانب وسهل الخطاب وأدخل المسرة على كل ذات تشرفت بالمثول شأن جنابه العالى الذى جبل عليه وطبعه الكريم الذى فطر به ومال إليه فى كل حال .

وفى منتصف الساعة السادسة العربية فتحت قاعة الرقص فتسابقت إليها غادات الغانيات ، يسحبن مطارف الخيلاء ويتبخترن فى حلل الزهور والإعجاب . وتلت عليهن الموسيقى سور الإلحان فطربت بها هاتيك الغزلان ، وظهرت آثاره على الجوارح فماست تلك القدود السمهريات فى وسط الميدان ، حتى أرقصت القلوب ورسمت فى ميسانها دوائر ذوات الذنب من الكواكب العلويات ، وخطوط النيازك من شهب السموات ، فانتصرت الهيئة الإفرنجية الحديثة على تعاليم أرسطو وبطليموس فى هذه الفنون ، ولم تبق باصرة إلا شخصت إلى هذا الصنع الدقيق بعين الإعجاب والاستحسان . وبعد منتصف الليل ببضع دقائق فتحت قاعة موائد الكرم (بوفيه) وإذا هى بغية الطالب وطلبة الراغب فيها من صنوف المأكل ما تتوق إليه النفوس وتشتهيه الأرواح فتوارد عليها كل من جمعهم النادى وأكلوا هنيئًا وشربوا ما حلى وطاب مريئًا ، وتنقلوا بين أكل وشرب وتفكه وتحليه ، يترددون كلما تاقت النفوس ، ويطلبون ما يشتهون فيجدونه حاضراً بين أيديهم بأسرع من لمح الطرف وأمضى من

حركة الأفكار فى المعقولات . وكل من فرغت حاجته منهم خرج إلى الرياضة فى الحديقة وفى الطرقات بين القاعات وفى مواطن الاستراحات وكلها كانت بهجة الناظر وقرة الخاطر ، مصطفة فى جوانبها الزهور والأنوار على أحسن ما يمكن من بديع الإتقان . ولن يزال الناس كذلك فى مرح وفرح ومسرة وابتهاج يتباهون بعميم كرم الجناب الرفيع ويتفاخرون فى كيفية الثناء على جنابه الكريم ويرفعون لمقامه المنيف جلائل الشكر والامتنان حتى مضى بعد نصف الليل ساعتان فأخذوا فى الإنصراف .

٤٥ – وجاء فى جريدة الأهرام الصادرة فى ٢٥ أكتوبر سنة ١٨٩٧ هذا الفصل :

قعود البنات

هذا بحث جديد لم يخض الشرق فى عبابه بعد نزفه إلى أبناء الشرق عامة لما نجد فيه من الفائدة . ونحن نتوقع له الرضا العام لاعتقادنا بأنه من أهم الأبحاث وأخلقها بالتدوين ولثقتنا بأن الرأى الشرقي سيأنس به ولو بعد حين ، فتتجلى الغياهب عن الحقيقة ، ويعم الجدال فيه فنتوصل إلى استئصال شأفة داء قد تمكن منا إذ الحقيقة بنت البخث فنقول :

ليس ما يستحق أن يشغل الخواطر ويحمل على الإشفاق ويدعو إلى اشتغال الكتاب أكثر من شأن تلك البنت التى يمر بها سن الزواج ، فتجلس فى منزلها تنظر إلى ماضى أيامها ، ولا شاغل لها غير حديث النفس ومعاتبة القضاء . ومن العجيب أننا لا نجد من يهتم بشأنها ولا ترى شاعراً يذكرها ولا قصاصًا يحتفل بها ، ولا مرسحًا يمثل عنها ، بل إن أكثر ذكرهم إنما يكون للمتزوجات أو للآنسات القادمات على الزواج . ولعل ذلك لأنه لا يعترض حياتها الساكنة على مقتضى الظاهر ما يدعو إلى مثل هذا الاهتمام ، حتى إنه إذا استأثرت بها رحمة الله فلا نجد بين خلقه من يذرف عليها دمعة حزن أو يودع تلك الزهرة الذابلة بنظرة إشفاق .

أما تلك التى قدر الله عليها أن لا تجرى على سنن الله ، وقضى عليها أن لا تشترك فى الزوجية كسائر أخواتها فى الجنسية ، فهى لا تزال بعد أن يمضى عليها عصر الشبيبة منغصة العيش ، لا يروق لها النظر إلى هناء الناس ، ولا يطيب لديها

إلا الرجوع إلى سابق أيامها والأسف على شبابها الزائل . ولسنا نرى فى المجتمع الإنسانى أشد منها نكدًا ولا أتعس حالاً ، فإن تجملها بالفضيلة وتحليها بشعائر الرفق والحنان وممارستها للأيام كل ذلك لا يشفع عند الأكثرين بذهاب نضارة وجهها وانقضاء دولة محاسنها . هذا إذا وُقيت العثار فى زمن شبابها وإلا فإن وصمة ذلك العثار لا تزال ملازمة لها طول العمر حتى تدرج معها فى القبر . وإننا نراها ناحلة الجسم ساهية الطرف شاحبة اللون ، إذا مدت يدها للسلام نجدها باردة كأنما لا يحول فيها دم الحياة ، وربما اضطربت واختجلت فلا تجد مخرجًا مما هى فيه ، وذلك لما يخلق فيها القنوط من الضعة ، فلا تحسب نفسها من أعضاء ذلك المجتمع وتظن أن لا حق لها بالدخول فيه . وإن بعض أولئك البنات ينظرن إلى ظل الشباب وقد تقلص ، وزهره الرجاء وقد ذبلت ، وأن لابد لهن من بعض الهناء فى هذا الوجود ، ولا هناء لهن بعد اضمحلال الشباب وفوت الأمل . فيعملن على السعى وراء هناء الناس ، فإذا لم يتيسر لهن السعادة فهن يهنأن بسعادة الآخرين ، غير أن ذلك لا يعبأ به لنوره بينهن ولسعيهن وراء ذلك الهناء من طريق الاضطرار ، فهن ينظرن إليه بالعين ولا يشعر به فى القلب .

وقد يتولد فيهن بعد ذلك اليأس مبدأ التسليم للقضاء فى كل أمر ، فإذا رأين مثلاً حاجة قد وضعت فى غير موضعها أو وقفن على عثرة لأحد فلا يخطئن واضع تلك الحاجة ، ولا يندفعن باللوم على ذلك العاثر ، بل ينسبن هذا الخلل وتلك العثرة إلى إرادة القضاء ، ذلك لأنهن يقسن كل أمر عليهن . وإذ كن يعتقدن أن لا ذنب لهن فى قعودهن فهن لا يخطئن أحدًا فى ذنب أتاه ، ويكتفين بالقول أن ذلك العاثر ما خلق ليكون سعيدًا . ثم إنه يعتريهن ذهول لطيف ينتج عما سبق لهن من الأحلام الكاذبة والآمال الخائبة . فهن قد خطون فى هذا الوجود خطوات ملؤها الرغبة والنشاط والأمل والمطامع ، فخابت كل مساعيهن ، ولذلك فإنهن يبدأن بذكر تلك الأيام الزائلة ، فلا ينقطعن عن تكراره فى كل يوم إلى أن يخيم على تلك الذكرى ضباب الملل . ويرين أن صدى ذلك الصوت الحنون وهو صوت الأمل قد انقطع فينهين إلى اليأس فالخمول ، ولا يطيب لهن غير الوحدة والانقطاع عن الناس . وما أشد ما يكون شقاؤهن عندما تبتدئ آثار التجعيد تظهر فى تلك الوجنات ، التى كانت تجرحها

خطرات النسيم ، ويرون حياة الشباب وقد ماتت فى تلك العيون التى كانت تحيى وتميت ، فيطرقن الرؤوس قانطات وهنّ ينظرن إلى المستقبل فلا يجدن غير الفراغ والخلاء . ثم تأتى عليهن تلك الساعة الهائلة وهى بلوغهن إلى الخامسة والثلاثين من العمر ، فترتجف أيديهن كأنها تبحث عن طفل تضمه ولا تجده ، وينصرف حنان قلوبهن عن الإنسان إلى حيوان يلاعبنه وطير يأنسن به ، وتشتد فيهن الكآبة فربما أفضت بهن إلى الجنون أو إلى الموت أو أنهن يصبحن كالأطفال فيعجبن لكل أمر ، ويندهلن لكل ما يبدو لهن ، وإن لم يكن على شىء مما يوجب الغرابة فلا يتميزن فى شئ عن الأحداث .

وإننا لا نجد ما يحمل على الشفقة مثل تلك الفتاة ، التى قد ظلمتها الهيئة الاجتماعية فوق ما ظلمها القضاء ، فإن الرجل العزب قد يبلغ سن الهرم ، ولا يزال محترماً وأما الفتاة العزبة فلا تلبث أن تخطو سن الزواج حتى يعرض عنها كل إنسان وتسمج فى كل عين . ولا عجب بعد ذلك إذا رأينا النساء ولا سيما الآنسات يحرصن على تنقيص الأعمار . وحبذا لو وقف ظلمهن عند هذا الحد فإن الفتاة إذا اضطرت إلى الارتزاق من عمل يديها فهى لا تكافأ عن عملها بنصف ما يكافأ به الرجل ولو تساويا فى العمل . فإذا أضفت إلى ذلك ما تقيدها به الهيئة من العوائد والمصطلحات التى تغل يد حريتها وجدت أنها من أتعس البشر حالاً . هذا ما نقلناه ملخصًا عن إحدى الجرائد الشهيرة . نقول إن من أهم واجبات الأباء أن يجدوا أكفاء لبناتهن وإذا لم يجدن لهن أكفاء فإن قرين السوء خير لهن من القعود .

٤٦ – وجاء فى جريدة المقطم الصادرة فى ٢٣ أغسطس سنة ١٨٩٧ من إنشاء الفاضل نجيب أفندى الجاويش هذا الفصل : **القلم فى الشرق**

حضرات الأفاضل أصحاب المقطم :

غير خاف على كل ذى عقل صريح أن العلم والكتابة من لوازم التمدن ، وأن نوع الإنسان لما كان مدنياً بالطبع وكان محتاجًا إلى إعلام ما فى ضميره إلى غيره ، اتخذ له طرائق شتى لايصال مسائل العلوم ومبادئ المعارف ، وما انتحله من المذاهب تارة

علمًا وتعليمًا وتارة محاكاة وتلقينًا إلى تكميل نفسه البشرية . والتكميل لا يتم إلا بالعلم بحقائق الأشياء ، ولم نجد لهذا العهد الذى أدركناه واسطة أو ذريعة لنقل كافة العلوم وسائر الفنون بأسرع ما يمكن من الوقت للاطلاع عليها ، وتهذيب الأخلاق بها وتشويق النفوس إلى الكمالات الإنسانية ، وتحريكها إلى حسن الاقتداء والاقتفاء بإمرار النظر إلى آثار الأقدمين والمحدثين إلا الجرائد . والناظر فى موضوعى لأول عارض يظن أنى أريد الإفاضة فى هذا المجال ، وإنما همى المقصود من هذا المقال البحث فى أمر المعارف والتحقيق فى شأن الكتابة والتصنيف وما آل إليه القلم بين ظهرانينا نحن معاشر الشرقيين الأمر الذى ساعف عليه بخل الأغنياء وتقتير الموسرين وتقاعدهم عن شد أزر حملة العلم والمؤلفين وتراجعهم عن تنشيط أولئك الذين قد خملوا واستراحوا من حيث تعب هؤلاء الكرام فى جمع الدنيا وحشد الأموال . ولما رأيت هذا العرق من البخل والحرص نابضًا على أولئك قلت مع القائلين اليوم أن القلم لا يزال فى الشرق ميتًا ، والعلم لا يتعدى نفرًا قليلاً ولا يكاد يدرك له إلا أثر ضئيل أو رسم محيل تلقاه نووه كدًا واجتهادًا وتعلموه تأدبًا لا تكسبًا ، وعليه يحق لرجال العلم وحملة الأقلام فى الشرق أن يقيموا مأتم العلم ويعقدوا مناحة الفضل ، كما فعل علماء ما وراء النهر لما بلغهم أن العلم والحكمة قد توافى إليها الأخساء وأرباب الكسل ،

وقالوا كان يشتغل بها أرباب الهمم العلية والأنفس الزكية الذين يقصدون العلم لشرفه والكمال به ، فيأتون علماء وينتفع بهم وبعلمهم ، ومن ههنا هجرت الفنون وعلوم الحكمة وإن كانت شريفة لذاتها . ونحن اليوم قد غدونا نندب الحالة التى أمسى فيها العلم ساقط المنزلة منحط الرتبة لقلة اعتناء القائمين بأمره وأصبح القلم حملاً على صاحبه وعبئًا على ناقله ، ولكساد سوقه وموت المطالعين وإقبالهم على جمع الحطام وكسب الدينار وتفرغهم لبهارج هذا التمدن الجديد ، واشتغال السواد الكبير من أهل البلاد بلغات الغرباء . ولهذا السبب الظاهر ضن الأغنياء بفضلات ما لهم على فقراء الشعب وتعساء القلم ، وقد دخل هؤلاء تحت قول المعرى :

أولو الفضل فى أوطانهم غرباء	تشذ وتنأى عنهم القرباء
فما سبئوا الراح الكميت اللذة	ولا كان منهم للخراد سباء

غير أن الأنظار لا تقف عند حد ، ومطامع النفوس لا تنتهى إلى غاية ، فقد تزيا به اليوم رهط من المقلدين واتجر به قوم من المقصرين ، فابتذلوا محاسنة وصوحوا زهرته . وقد عرفت جملة من أكابر الكتاب وفحولة المحصلين القائلين قد جاء اليوم الذى يحق لنا فيه أن نقبع فى زوايا الخمول ونتستر بمسوح الأسى والانقباض ونهجر المحابر والأقلام ، لأنه قد تطاول إليها واستلم أعنتها قوم هم أحوج من صبيان المكاتب إلى التعليم ، فقاتل الله القلم الذى يمشى فى أيدى الجهال الأغمار ، ولا يعلم أنه يمشى تحت الضعفة الأغرار .

وغير منكر أن الأمة الخارجة من الظلمة إلى النور تكون أشبه بجواد مرتبط فى مكان داج ، إذا حللت لجامه وواجهته بالنور بغتة عشا بصره وانبهرت عينه وأصبح جريه ضرباً من العقال . وإذا سئلنا لماذا نحن فى تأخر وانحطاط وبلادنا أشبه شىء بنا ، أجبنا مع العارفين أن الشرقيين لا يزالون بالنسبة إلى غيرهم من الأمم والقبائل أطفالاً رضعاً يقتضى لهم التدرب والتعلم المقرون بالتربية الصحيحة والتهذيب الخالص ليدرجوا ويشبوا على الشغف بالعلوم والكلف بالصنائع والفنون التى تعود على الأمة بالإصلاح والعمارية . وقد سطا على المشارقة داء عقام أشبه شىء بالبرسام أو إذا شئت قل السرسام ، ونعنى به داء المحاسدة والمباغضة ، فإن المرء إذا رأى أخاه بالغاً حداً قصر هو عنه أعمل الفكر وسهر الليل ليوقعه فى إشراك الويل والخسران ، وصار الكاتب إذا أطلق العنان لقلمه موضوعاً للتهكم والسخرية لأن الناس أصبحوا اليوم كلهم ساسة . ولهذا ترى العلماء والخطباء قد هجروا طريقة الفرنجة فى الكتابة والتعليم وضنوا بأفكارهم ونفثات أقلامهم ، لئلا يصبحوا مضغة فى أفواه المتشدقين ولماظة بين شفاه المدعين ، وخرجوا من قول القائل :

وأسوأ أيام الفتى يوم لا يرى ... له أحداً يزرى عليه وينكرُ

وقد رأيت طائفة من أولئك الذين يعتقدون فى أنفسهم التمييز عن الأتراب ، والنظر بمزيد الفطنة والذكاء ، قد شرعوا يكتبون من غير نظر وتحصيل بل بتقليد صادر عن التعثر بأذيال التشبه الصارفة عن صوب الصواب ، والانخداعات المزخرفة

المتلألئة كالسراب . وكل مصدر هذا الاغترار ، حب الظهور بمظهر التحذلق والتردى ببعض القشور التى التقطوها والزخارف التى لبسوها ليظهروا التكايس ببضاعة مزجاة حتى إذا وضعت تحت مهجر النظر والفحص وجدت مغشوشة مزجاة . قلت وما حملنى على الانصباب فى هذا المضمار وركوب مثل هذا المركب الخشن وخصوصاً فى جريدة سيارة كالمقطم إلا هوى النود عن عصابة أعنيها بهذه الصبابة كاشفاً القناع عن وجه الحقيقة ، التى أصبحت اليوم فى الشرق كأنها فى دار غربة لا يصاحبها إلا أهلها ، وما ذلك إلا لاختلاط الأحوال وتبدل الأشكال وانبراء الكافة لإنشاء صحف السياسة ونبذهم مبادئ العلوم والفنون الأيلة إلى رفع منار الأوطان ، الواقعة تحت مخالب الإفرنج والطارئين من كل حدب . نعم لقد كثر المتشبهون واختلفت أحوالهم وتستر بزيهم المتسترون وفسدت الأعمال وكسدت سوق كل حال ، ولم يعد يعرف الفاضل من المفضول . ومن أعجب الأشياء أنى لا أرى إلا طامعاً فى هذا الفن مدعياً له على خلوه عن تحصيل آلاته وأسبابه ، وقد قيل أن الجهل بالجهل داء لا ينتهى إليه سقم السقيم .

وقد يندرج فى مطاوى هذا الموضوع الجليل مواد جوهرية وأنظار دقيقة منها أسباب ذيوع مثل هذه الجرائد المعروفة عند قراء المقطم بقلة جدواها وخفة بضاعة أهلها ، لأنها لم تنشر إلا لغرض الكسب وحشو المعد والطعن على العلماء وأرباب الفضل . وبالله ماذا يرجى من جرائد ليس فى أدمغة أصحابها شعاعة من النور والعلم . أسفى على كل من يستهلك زمانه فى سفاسف لاطائل تحتها . هكذا يكون شأن البلاد التى لم يثبت قدم أهلها فى المعارف الصحيحة والمبادئ الحقة ، لأن الجرائد ولا مراء من الصناعات الشريفة المقصودة لتهذيب الأفكار وتدريب الأخلاق قبل المنفعة الخاصة ، والتى هى على هذا المبدأ القديم أشهر من أن تعرف . حقاً إن هذه العناية الشريفة قد رذلت اليوم حتى صار أكثر الذين يتعاطونها جهلاء يروجون بها أكاذيبهم .

والسبب الثانى الذى هو أس تأخر أهل الشرق فقدان المبدأ الصحيح من الصدور ، وهو دعامة النجاح فى المغرب . أما الذين ضحوا الحياة لأجل مبدئهم من الشرقيين فقليل ما هم ، ولم تلق منهم أحداً يوماً إلا توجع لك مما أصاب الأوطان من

الذل والصغار لعدم وجود العدد الكافى من الرجال للقيام بالدفاع عن الشرق وآله ويقينى أنه لا يمضي ردح من الحين إلا وتهب الليوث من غاباتها لأن الشرق كما أسلفنا فى حاجة إلى أهل القلم ولا حياة لأمة إلا بأعلامها وهداتها ، فهم مصابيح العلم وأقمار العرفان . وعندى كلام كثير عما أصاب المشرق من تمدن أوربا وما آلت إليه هذه الحركة الفكرية ووجوب إقامة المجامع العلمية ودرس الفنون والصنائع والرحلة فى طلبها من البلاد البعيدة وحالة التأليف ومصيره والحض على عدم الاعتماد على أهل الغنى واليسار فى بلاد الشرق ، لأن هؤلاء لا مأثرة منهم تؤمل ولا خير يرجى :

وظالم عنده كنوز ... من أم دفر ومن لهاها
وعذرت حاجة بعسر ... على عليل قد اشتهاها

وربما بسطت ذلك فى فرصة أخرى لتنشيط بنى قومى ، وتشجيع رهطى على الإقدام والاندفاع فى سبيل إحياء مجد القلم وإعاده رونقه الماضى وتجديد ذكر السلف ، حتى لا يقال يومًا إن العلوم قد دثرت عند الشرقيين ومات القلم بموتهم الأدبى والسياسى . ورحم الله عبداً علم فعمل .

٤٧ – وجاء فى جريدة المؤيد الصادرة فى ٢٨ جمادى الأولى سنة ١٣١٧ للهجرة يصف ليلة ماطرة ما نصه : السيل الجارف

حدثنا أهالى القاهرة صباح اليوم ببعض ما نحدثهم عن ضواحيها من عصف الرياح وقصف الرعود وانهمال الأمطار التى لا نعدها إلا سيلاً جارفًا . قطنّا منذ بضعة أيام عزبة الزيتون تبعًا لإشارة الأطباء فيما هو أجود للأطفال من الهواء ، فلم تكد الساعة العاشرة تحين مساء حتى اختفى أديم السماء واسود وجه الأفق وأنذرت بروقه بالرعود ورعوده بالهجوم . فلم تك إلا هنيهة حتى هراق السحاب ما فى سقائه من فوق لا لسراب كاذب رآه ، ولكن لأن السيل سيأتى بعد قليل من أعالى الجبال جارفًا بتياره الشديد كل ما يجده أمامه . ولا حاجة لأن نطيل على القارئ الشرح ، ولكن فى قصة ماشاهدنا من المزعجات ، وما كابدنا من شدائد النازلة مثال صغير

يشرح الحادث الكبير . فليمثل القارئ بيتًا صغراً فى زاوية حديقة كبيرة مساحتها ثلاثة أفدنة مسورة من جميع جوانبها بإحكام ، ذلك هو المنزل الذى كنا نقطنه فى تلك الحديقة الرحبة ، قد اعتنى بها صاحبها من ذوات العاصمة اعتناء مثله بمثلها . فلما جادت السحب بوبلها الغزير استيقظنا من النوم على دوى الرعد القاصف وبريق البرق الخاطف وخرير الماء ينزل على السقف نحو ساعة من الزمان حتى تأثر السقف ونزلت منه قطرات زادتنا قلقًا وخصوصاً على الأطفال .

ولو اقتصر على هذا الحد لقال قراء العاصمة نحن كابدنا أشد من هذا العناء ، هولاً ولكن الذى فوجئنا به بعد ذلك فأرانا الموت ألوانًا هو أن السيل انقض كأنما هو النيل يفيض من أحد الشلالات الكبرى ، وصار صدى هديره يرسل لنا النذير ودوى سقوط المنازل واحداً بعد آخر يكاد يصعق منا القلوب ، فلم نجد بداً من أن نهجر مأوانا ونلجأ إلى الحديقة لنعتصم بسياج من أشجارها ، ثم تحققنا عندئذ أن اندلاق السيل قد وصل إلى جنوب الحديقة فجرف السور دفعة واحدة من الشرق إلى الغرب ، وهو لا يقل عن مائة متر ، وتدفق تيار السيل فى عرض الحديقة كلها حتى قطعها إلى الشمال فى علو نحو متر ماء ، فما استتم خروجنا من محيط المنزل حتى امتلأ ماء وأتلف كل شئ فيه ، ثم لم يلبث أن سقط السور الشمالى على مثال سقوط الجنوبي وبقيت الدار بعد ذلك نحو ثلاث ساعات ثم تقوضت جدرانها الأربع . أما نحن فلم يعصمنا شجر ولم تحمنا ربوة فى الحديقة التى كانت كأنها فى هذه الحالة واد سحيق ، ولكن ألهمنا الله أن نلجأ إلى عجلة الساقية فنعلو سطحها لأنه آمن كل مكان فى الحديقة التى صارت لجة تضرب أمواجها بين جنباتها . وهكذا قضينا المسافة بين الساعة الحادية عشرة والساعة السابعة صباحًا أشد ما كان يؤلمنا ويؤذينا نزول الأمطار علينا فى خلالها مدراراً ، وليس بين أيدينا غطاء ولا وطاء إلا وقد أخذ أضعاف حظه من الماء . ثم لم ينجنا من هول ما كنا فيه وسوء عقباه إلا العربات التى جاءتنا باكراً لإنقاذنا من هذه الكربة .

وقد كنت أحسب أن ما نابنا من هول هذه الليلة الدهياء أكثر مما ناب سوانا ، ولكنى تحققت فى الصباح أن أكثر سكان الجهة الشمالية من عزبة الزيتون قد كانت مصائبهم أدهى وأمر إذ ليس لدى كل واحد منهم ساقية تمكن من الالتجاء إليها

فخففت بعض ويلاته . وعلى هذا النمط ينبغى لأهالى القاهرة أن يرثوا لحالة سكان نحو ٣٠٠ منزل جرفها السيل بما فيها بين عزبة الزيتون والمطرية ، مما لم يبق معه لحديث القاهرة فى هذه الحادثة شأن . لطف الله بعباده وجعل من ماء هذا الحادث الفجائى ريًا لبعض شراقى هذا العام آمين .

٤٨ – وكتب صديقنا الفاضل حفنى بك ناصف إلى الفاضل السيد توفيق البكرى شيخ مشايخ الطرق ، وكان قد زاره يوم احتفال فى بيته فلم يقم بحفاوته :

"كتابى إلى السيد السند ولا أجشمه الجواب عنه ، فذلك ما لا أنتظره منه ، وإنما أسأله أن ينشط إلى قراءته ويتنزل إلى مطالعته وله الرأى بعد ذلك أن يحاسب نفسه أو يزكيها ويحكم عليها أو لها :

فقد تنفع الذكرى إذا كان هجرهم دلالاً فإما إن ملالاً فلا نفعا

زرت السيد ويعلم الله أن شوقى إلى لقائه كحرصى على بقائه ، وكلفى بشهوده كشغفى بوجوده . فقد بعد والله عهد هذا التلاق ، وطال أمد الفراق وتصرم الزمان ، وأنا من رؤيته فى حرمان . فقيل لى إنه خرج لتشييع زائر وهو عما قليل حاضر ، فانتظرت رجوعه وترقبت طلوعه ولم أزل أعد اللحظات وأستطيل الأوقات حتى بزغت الأنوار وارتج صحن الدار وظهر الاستبشار على وجوه الزوار ، وجاء السيد فى مركبه وجلالة محتده ومنصبه ، فقمنا لاستقباله وهينمنا بكماله ، فمر يتعرف وجوه القوم حتى حاذانى ، وكبر على عينه أن ترانى فغادرنى ومن على يسارى ، وأخذ فى السلام على جارى وجر السلام الكلام ، وتكرر القعود والقيام ، وأنا فى هذه الحال أوهم جارى أنى فى دارى ، وأظهر للناس أن شدة الألفة تسقط الكلفة . ومر السيد بعد ذلك من أمامى ثلاث مرات ومن الغريب أنه لم يستدرك ما فات ، وأغرب منه أنه استخلص لنفسه من المجلس أربعة ودعاهم إلى الحجرة قد خلوا معه ، فلم يبق إلا القيام والإمساك عن الكلام :

تمرون الديار ولم تعوجوا كلامكمو على إذن حرام

وكنت أظن أن مكانتى عند السيد لا تنكر ، وأن عهدى لديه لا يخفر فإذا أنا لست فى العير ولا فى النفير وغيرى عند السيد كثير وذهاب صاحب أو أكثر عليه يسير :

ومن مــدت العليا إليــه يمينـهـا   فـأكـبـر إنســان لديـــه صـغـيـر

ولا أدعى أنى أوازى السيد صانه الله فى علو حسبه ، أو أدانيه فى علمه وأدبه أو أقاربه فى مناصبه ورتبه أو أكاثره فى فضته وذهبه ، وإنما أقول ينبغى للسيد أن يميز بين من يزوره لسماع الأغانى والأذكار وشهود الأوانى على مائدة الإفطار وبين من يتردد عليه استخلاصًا للخلاص ، ومن يتردد إجابة لدعوة الإخلاص ، وأن لا يشتبه عليه طلاب الفوائد بطلاب العوائد ، وقناص الشوارد بنقباء الموالد ، ورواد الطرف بأرباب الحرف :

فما كل من لاقيت صاحب حاجــة   ولا كل من قابلت ســائلك العـرفا

فإن حسن عند السيد أن يغضى عن بعض الأجناس ، فلا يحسن أن يغضى عن جميع الناس ، وإلا فلما ذا يطوف على بعض الضيوف ويحيهم بصنوف من المعروف ، ويتخطى الرقاب لصروف ويخترق لأجله الصفوف ، فإن زعم السيد أنه أعلم بتصريف الأقلام ، فليس بأقدم هجرة فى الإسلام ، وإن رأى أنه أقدر منى على إطرائه فليس بممكن أن يتخذه من أوليائه :

ولا أروم بحـــمـــد الـله منزلـــة   غـيـرى أحق بهـــا منـى إذا رامــا

وإنما أصون نفسى عن المهانة والضعة ، ولا أعرضها للضيق وفى الدنيا سعة :

وأكــرم نفـســى إننى إن أهنتــهـا   وحقــك لم تكرم على أحد بعـدى

فلا يصعر السيد من خده ، فقد رضيت بما ألزمنى من بعده ، ولا يغض من عينه ، فهذا فراق بينى وبينه ، وليتخذنى صاحبًا من بعيد ولا يكلمنى إلى يوم الوعيد :

كـــلانا غنى عـن أخيــه حــيــاته   ونحن إذا مـــتنا أشـــد تغــانيــا

ومنى على السيد السلام على الدوام ، ومبارك إذا لبس جديداً ، وكل عام وهو بخير إذا استقبل عيداً ، ومرحى إذا أصاب ، وشيعته السلامة إذا غاب ، وقدوماً مباركاً إذا آب ، وبالرفاء والبنين إذا أعرس ، وبالطالع المسعود إذا أنجب ، ورحمه الله إذا عطس ، ونوم العافية إذا نعس وصح نومه إذا استيقظ ، وهنيئاً إذا شرب ، وما شاء الله كان إذا ركب ، ونعم صباحه إذا انفجر الفجر ، وسعد مساؤه إذا أذن العصر ، وبخ بخ إذا نثر ، ولا فض فوه إذا شعر ، وأجاد وأفاد إذا خطب ، وأطرب وأغرب إذا كتب ، وإذا حج البيت فحجاً مبروراً وإذا شيع جنازتى فسعياً مشكوراً" .

٤٩ – وكتب الفاضل الشيخ إبراهيم اليازجى :

وافانى كتابك العزيز ، والنفس نازعة إلى ما يزيل نفارها ، والقريحة تائقة إلى ما يشحذ غرارها . فكان روضة باسمة الكمائم فائحة النسائم ، قد ردت على النفس انبساطها وأحيت البادرة فاستأنفت نشاطها . فأنا منه ما بين وشي يخجل طراز العبقرية ، وزخرف دونه ضرة السابرية تناجينى منه رشاقة ألفاظ تفضح قدود الحسان ، وغضاضة أنفاس يغار منها ورد الجنان ، ورقة خطاب يشف عن ود صفى ولطف حفى وكرم وفى ، وعتب أعذب من الماء القراح ، وأرق من نسمات الصباح ، حتى لقد حببت إلى تقصيرى وشفع عند نفسى فى قبول معاذيرى ، على أن ما عندى من الولاء لا يعتريه معاذ الله وهن ، ولا يخلقه تمادى زمن أو ترامى وطن . ولكن صروف الأحداث قد قصرت الجهد وصرفت جواد العزيمة عن القصد . والله يعلم أنى لو نزلت على حكم نوازل الدهر ولم أدافع طلائعها بما بقي من ساقة الصبر ، لما كان فى همتى إلا كسر اليراع وهجر المحابر والرقاع . وحسبي من العذر ما أعرفه من حلمك المألوف وما ألفته من كرمك المعروف . والله أسأل أن يبقيك لى من الدهر نصيباً ويمتعنى بلقائك قريباً بمنه وكرمه .

٥٠ - وكتب الفاضل مصطفى بك نجيب : **حاكى الصَّدَى**

مثال القوة الناطقة من غير إرادة سابقة ، يقتطف الألفاظ اقتطافًا ، ويختطف الصوت اختطافًا ، مطبعة الأصوات ومرآة الكلمات ، ينقل الكلام من ناحية إلى ناحية ، نقل كلام عمر رضى الله عنه إلى سارية ، أشد من الصدى فى فعله فى إعادة الصوت على أصله كأنه الحرف عن يد الطابع ، والوتر عن يد الضارب والقصب عن فم القاصب . يحفظ الكلام ولا يبيده ومتى استعدته منه يعيده من غير أن يبقي لفظًا فى صدره أو يكتم شيئًا من أمره ، كأنما حفظ الوديعة فى نفسه ، فلو تقدم له الوجود فى مرتبة الزمن لما احتجنا فى الأخبار إلى عنعنة ، ولا فى الدعاوى إلى بينة ، بل كان يسمعنا كلام السيد المسيح فى المهد ، وصوت عازر من اللحد . وكانت استودعته الفلاسفة حكمتهم وأنشدوه كلمتهم ، فرأيناه به غرائب اليونان ، وبدائع الرومان وربما سمعنا خطب سحبان وشعر سيدنا حسان بذلك اللسان . وأصبح وجود الإنسان غير محدود بزمن من الأزمان . لله دره من تلميذ يستوعب ما عند المعلم ويستخلصه فى لحظة معيداً لقوله ناقلاً صوته ولفظه :

لقد وجدت مكان القول ذا سعة   فإن وجدت لسانا قائلا فقل

نديم ليس فيه هفوة النديم وسمير لا ينسب إليه تقصير . تسكته وتستعيده وتذمه وتستجيده وتنقصه وتستزيده . وهو فى كل هذه الأحوال راض بما يقال . لا يكل من تحديث . ولا يمل من حديث . نمام كما ينم لك ينم عليك وينقل لغيرك كما ينقل إليك . فهو المصور لكل فن . المتكلم بكل لغة . المحدث عن كل إنسان . المؤرخ لكل زمان . الشاعر الناثر المغنى العازف لا تعجزه العبارة . ولا يجهده الأداء . ولا يضره اختلاف شكل . ولا تباين أصل . بل تعدت شدة حفظه البشرية من اللغات إلى حفظ أصوات العجماوات . إلى حركة اصطكاك الجمادات .

فيا لله من أيهما نعجب . ولأيهما نطرب . أمن حاكي الصدى وقد نقل صوتنا كما نطقنا . أم شقيقه المصور الشمسى إذ ينقل صورتنا كما خلقنا ، فترى من فى أقصى أقطار الأرض ويرانا ، وكلانا عن مكانه لم يتحول . ويسمعنا حديثه المعنعن ونُسمعه حديثنا المسلسل .

٥١ – وكتب صديقنا الفاضل حسن أفندى توفيق لبعض أصحابه وقد لامه على عدم مكاتبته :

عذلت أيها الصديق ولات حين عذل . حيث أملت أن أكون لك كما أنت لى . وأنا ذلك الخدن الذى مثلت جوانحه شوقا . وحشيت أحشاؤه صدقا . أغرك إرجاء المكاتبة . أم أغراك صمت الأقلام والقلوب كالسبيكة إذا أصدأها السكون فهى خالصة الباطن . أو كمجرة الزند تتأجج وهى مغبرة الظاهر . بل تحكم لديك الشك فحكمت . وكان عهدى بك اليقين ، ومع هذا فإنى لأشكرك على عذلك . وأحمدك على فضلك . فلا لوم إلا بين أصدقاء . ولا عتاب إلا بين أوداء . وما اختيارى بهذا أن أقرع عصاك . بل أن أجعل شكك يقيناً فى صديق رؤيتك أشهي آماله . ولقاؤك أعظم أمنياته ، والسلام .

٥٢ – وكتب الفاضل مصطفى أفندى الدمياطى : **الأناة**

ليس فى الأناة مظنة العجز ، ولو أدنت من الفوت ، وإنما العجز فى العجلة التى تعقبها الندامة ، فما أضيع الفرصة إذا انتهزها المرء بلا روية . ولم لا يكون الإنسان طويل الأناة بعيداً عن التسرع . الغاية فرس جموح لا تراض بغير الحزم والتأنى ، وما مثل الإنسان عجولاً إلا كمن امتطى جواداً لا يقوى على رياضته ، لأن يده غير قادرة على ضبطه ، فتراه عاجزاً عن إيقافه عند الحاجة . كذلك المتعجل تراه مدفوعاً برغبات لم يرضها ، فهى تعدو به ولكن إلى هوة عمق قرارها إذا سقط فيها ، فلن ينهض منها . فعلام يتعجل المريد بل لماذا يغفل الروية فى الأمر :

نار الروية نار جد منضجة ... وللبديهة نار ذات تلويح

وقد يفضلها قوم لعاجلها ... لكنه عاجل يمضى مع الريح

أيريد أن يقطع ولا سكين أو أن يحصد فى إبان البذر أو أن يأكل من الفواكه وهى فجة أو يدخل الدار قبل أن يؤذن له أو يكسر الباب قبل أن يفتح عليه أو أن يعمل بغير الحكمة :

إذا عــــزمت عـلى أمــــر تحـــاوله	فـاسلك من الحزم فى تطلابه طرقـا
إن الأناة لـطرْفٌ إن ونـيــت ونـــى	عن اللحــاق وإن أجـهـدته سـبقـا

٥٢ - وكتب الفاضل أحمد بك زكى رسالته الثالثة من كتابه السفر إلى المؤتمر فى وصف رومية المدائن ، فقال :

يا للعجب يا للعجب ، كأنى نسيت الكتابة بلغة العرب ، أو كأن مقامى بهذا البلد أضاع اللب وأذهب الرشد . فكيف العمل فكيف العمل ، وأنا كلما حاولت التحرير أو أخذت فى التحبير استعصى القلم ، وحزن جود التفكير وانهالت على المطالب انهيالاً ، لا يجعلنى أعرف بم يجب الاستهلال ومتى يكون الختام . وكيف أتخلص إلى تلخيص شىء من المذكرات الجمة والمفكرات اللطيفة التى اقتطفتها أو جمعتها على هذه المدينة المختالة فى حلل البهاء والجمال المجللة بما أودع فيها من آثار العظمة ومشاهد الجلال . ففيها العمائر الفاخرة الفائقة والقصور الواسعة الشاهقة والمزارات المتعددة المتنوعة والبقايا الكثيرة مما خلفه فيها القياصرة والأمبراطرة والقناصل والأمراء والأشراف والكبراء والسادات والبابوات . فإنها من يوم نشأتها إلى الآن ما زالت عاصمة السياسة والحل والعقد وكعبة الديانة الوثنية ثم النصرانية . وكل من يتولى الأمر فيها سعي بما فى وسعه لتوسيع نطاقها وبذل جهده فى زخرفها بما يوجب له الفخار ويستبقى ذكره على ممر الأيام . فلذلك ترى شوارعها فسيحة وميادينها أنيقة وفى كل ساحة فسقية يتدفق الماء منها وفيها بأشكال معجبة وأصوات مطربة . وقد نصبوا فيها كثيراً من المسلات التى استجلبوها من بلادنا مع أن عاصمتنا القاهرة خلو منها بالمرة (والذى بقى عندنا من المسلات ما زال فى موضعه يندب التمدن الذى كان حوله ويتحسر على عدم العناية به مثل أمثاله فى أوربا وأمريكا) . وللمبانى فى رومية منظر رائق بهيج بألوان زاهية براقة تعجب النظار . وعلى جميع جدرانها وأبوابها ونوافذها ومطلاتها وشرفاتها وأفاريزها ترى التماثيل من النقوش البارزة والتصاوير المختلفة والرسوم المتعددة . كأن كل واحد من أهاليها أراد أن يستوقف السائحين والجائلين والرائحين والجائين بل هذا غرام قام بهم وشغف لازمهم فلا مندوحة لهم عنه ، لأنك ترى حتى الجزار يزوق حانوته بأغصان الأشجار ، ويعرض اللحم على الأنظار مقطعاً

قطعًا ملتفًا أعلاها بقراطيس من الورق الأبيض ، تنضم ثنياته إلى بعضها فتجمعها زهرة من الزهر المختلف الألوان ، ومثله بائع الخضر فى حسن الترتيب وجمال العرض ولا ينقص عنها غيرهما . فكل واحد يتفنن فيما يلزم الخلائق بالإقبال عليه .

وقد اغتنمنا فرصة مقامنا بهذا البلد لزيارة ما به من الكنائس التى يضرب بها المثل فى الضخامة والفخامة والمتانة والتناهى فى الإبداع واللاتناهى فى الإغراب والتشييد الهائل والزخرفة التى تلهى ، ولا شك ، المتعبدين والمتعبدات ، وتشغل المتنسكين والمتنسكات بالنظر إليها . وإن العقل ليحار فى كيفية تشييدها ويذعن باقتدار ذلك الذى صورها بالقلم على القرطاس ، ثم أبرزها مجسمة على سطح البسيطة حاوية كمال التناسق وتمام التناسب وإحكام الصنع وإتقان الوضع فى كل نوع من جدرانها وعمدانها وسواريها إلى عقودها إلى سقوفها إلى قبابها ، حتى إنه لم يترك مقالاً لقائل ، ولم يدع مجالاً لاستعمال ليت ولو . وفوق ذلك فإن للقوم بحفظها عناية لا بعدها ولا قبلها ، ففى كل كنيسة منها سلالم للتعمير والترميم والتجبير والتتميم . ومع كثرة الكنائس والبيع بها (فإنه تكاد تناهز نصف الألف) رأينا القوم مشتغلين بتشييد غيرها . وأنت تعلم ما حاق فى هذا الزمان بالحكومة البابوية والسلطة الدينية من الضعف والاضمحلال فى بلاد أوروبا على العموم وإيطاليا على الخصوص .

هذا وقد زرنا معرض الصور والرسوم ومصنع الفصوص والفسيفساء فى قصر "الفاتيكان" ، ورأينا بهما من العجائب والغرائب التى يقصر عن تفصيلها هذا الإجمال . ثم شاهدنا ما بالمدينة من آثار القدماء والمتاحف والمعارض والقصر الملوكى والأطلال القديمة والسراديب المنقورة فى قلب الجبل . حيث كان النصارى فى مبدأ أمرهم يلجئون إليها أيام الاضطهاد ويتقون بالاختفاء فيها شر عباد الأوثان . وقد رأينا فى كل ساحاتها وباحاتها وميادينها وبساتينها وفى كل الأرجاء من منازهها وشوارعها تماثيل كبارهم وعظمائهم ، الذين قاموا بخدمة الوطن وترقية شأن البلاد وتعزيز مقام الأمة ، بحيث إن ذكرهم لا يمكن أن • حوه الزمان وبذلك عرف الأهلون عالمهم وجاهلهم كبيرهم وحقيرهم ، مقدار الأجر العظيم الذى يصيبه من ينفع الوطن من أى وجه كان وبأى عمل كان . ووقف السكان عمومًا على تواريخ أولئك الذين استفادت

منهم البلاد فائدة ، حسية أو معنوية ، قليلة أو جليلة ، واتخذوهم نموذجًا لتهذيب الأبناء الناشئين وتربيتهم على السير فى جادتهم ومحاكاتهم فى خدمة الأوطان .

وهنا ينبغى لى أن أقف قليلاً كاسف البال متحسراً على إهمال أهل بلادنا هذا الأمر الذى هو أفضل الأعمال وأجل ما تشد لأجله الرحال ، فإن الذى يعلم أنه إذا خدم وطنه عرف قومه قدره وأجلوا ذكره وشادوا له الآثار والمبانى التى تضمن له عمراً غير العمر الفانى ، وتستديم حياته إلى كل جيل لاشك أنه يضحى النفس والنفيس ويواظب على السعى والعمل لنيل هذا الشرف الذى ليس بعده شرف . ألا ترى أن الكثير من علمائنا وفضلائنا قد انقرض ذكرهم بمجرد دخولهم فى رمسهم اللهم إلا أن يكون لهم كتاب متداول مشهور (وهم الأقلون) ، وهل يصح لى أن أعرف بنى وطنى الكرام بأن السعى فى تخليد ذكر الأماجد الأماثل الذين يخدمون الوطن هو أكبر باعث ينهض بالنفوس ويحرك العزائم ويحد القرائح ويوجب الإقدام على العظائم ، فتغتنم الأمة والوطن أجل المغانكم ويربحان باجتهاد أفرادهما وسعى أبنائهما من غير أن يكونا على الدوام فى حاجة إلى الأجنبى والدخيل لا نسير إلا بمشكاة نورهما ولا نهتدى إلا بهدايتهما وإرشادهما . أما آن لنا أن نفطن إلى هذه الحقائق وندرك ما وراءها من النافع ، فنطرح الحسد من نفوسنا ونسعى جميعًا فى وجهة واحدة لصالح الوطن العزيز كل بقدر ما عنده ، ونعضد بعضنا لنكون كالبنيان المرصوص ، فلعل أهل بلادنا تهزم الأريحية المصرية وتثور فيهم النخوة الوطنية والحمية الأهلية فيتشبهون بأمم أوروبا لنوال الفلاح والنجاح .

أواه : تحدثنى نفسى عند كتابة هذه السطور بأن الكثير من القراء لا بد أن يستخف بهذا المقال ، ولكنى أنادى من له حياة أو كان له قلب أو ألقي السمع وهو شهيد . فتلك لعمرك عواطف وطنية وإحساسات قومية وددت لو يشعر بها أهلى كما تملكتنى حينما رأيت الخاصة والعامة فى هذه المدينة واقفين تمام الوقوف على جميع ماجريات أولئك العظماء الذين أقيمت لهم التماثيل والأنصاب وتزينت بصورهم قصور الملوك وقاعات الدواوين ، حتى كان ذلك باعثًا للأمة الطليانية على مباراة الأمم العظيمة ، ففتحت المعامل الكبيرة وألفت الشركات الجليلة وأقدمت على مهام الأعمال ، فحفظت ثروة البلاد فى البلاد وروجت الصنائع الوطنية فاكتسبت أيما اكتساب . نعم لا ننكر

أن الدولة الطليانية واقعة الآن فى أزمة مالية ، وقد برك فيها جمل الفقر ، ولكن لها عذر واضح من حيث إنها فى وقت قصير أنشأت موانى حربية بحرية ، وأنجزت كثيراً من الأعمال العظيمة ذات المنفعة العمومية ، كى تضاهى الدول الكبيرة والأمم المثرية ، فكانت كالزارع ينفق كل ما عنده ثم ينتظر الغلة والريع . وقد بدأت تجنى ثمار ما غرست وأخذ الخير يدر عليها ، وأظن أنه لا يمضى عليها نحو النصف مائة حتى تنفض ما عليها من غبار الفاقة ، وتفيق مما حاق بها من الارتباك والإعسار .

وكأنى بك أيها القارئ قد مللت من هذا الاستطراد ، وتود منى بدل ذلك أن أكاشفك بما رأيته فى هذه البلاد من الأمور العرضية الثانوية ، التى قد يكون وراءها فائدة معجلة جزئية ، يمكن إدخالها فى بلادنا مثل العربات والسكة الحديدية والبريد والتلغراف والبواخر والشرطة (البوليس) وما أشبه ذلك من التنظيمات من أنهم يضعون أسماء الشوارع على رقع مربعة من الرخام كى لا يتطرق إليها البلاء بسرعة كما حصل عندنا فى الأخشاب التى وضعتها نظارة الأشغال فى القاهرة بمصاريف باهظة . ولكنى أقول لك إن الحر شديد جداً وإنى أقاسى منه أكثر منك من عهد مبارحتى للإسكندرية إلى هذا اليوم ، حتى كأنى ذهبت إلى أسوان أو السودان فأعفنى من ذلك الآن عافاك الله . وأعتقد أن الحر فى هذا العام بأوروبا أشد منه فى كل عام ، بل لم يعهد القوم له مثيلاً قبل الآن ، ولقد كنت أستغرب ذلك فى أرض أوروبا حتى قرأت فى جريدة التريبونا الصادرة فى يوم الاثنين ٢٢ أغسطس تلغرافاً من باريس ينبئها بأن اشتداد الحر فوق العادة قد أتلف صحة الجنود وهم يتمرنون فى جملة جهات ، وآخر من ويانة يقول إن القيظ مستمر فيها وإنه وردت عليها الأخبار من جملة مدائن أن الحر سبب وفيات كثيرة ، وإن سبعة من العساكر زهقت أرواحهم من اشتداد الحر بينما كانوا فى مرانتهم ، وإن الفلاحين قد اضطروا لترك أعمالهم وإن الفاكهة قد أصابتها أضرار بليغة . فكيف لا تشفق على مع ذلك كله وقد كنت أيضاً بالأمس (يوم الأحد) أتريض فى رومة ورأيت فى منازهها من رأيت وما رأيت وحسبك منى هذه الإشارة .

٥٤ - وعرب هذا الفاضل فصلاً حكيماً نشرته إحدى المجلات الفرنسوية ، وكان له وقع عظيم فى نفوس قرائها فأبدع فى إنشاء ما عرب حتى فاق المعرب أصله

أسلوبًا وأخذًا بالقلوب . ويا ليت المعربين ينحون هذا المنحى فى معرباتهم ، وها هو الفصل بنصه الفائق :

بين المجانين

أسرتى أثيلة فى المجد ، كثيره فى العد ، مشهورة بالنعمة والثراء ، ولها من الجاه مكانة علياء . ولى أخوة تحسدهم البدور والأغصان ، لما امتازوا به من الرشاقة والجمال . أما أخواتى فقد خلقهن الله فتنه لذوى الألباب ، يسحرن العقول ، ويفتكن بالأرواح ولا جناح . فلما ذا يا ربى ، أفردتنى بالدمامة والبشاعة ، والسماجة والشناعة بين أفراد هذه الأسرة ، الباهية الباهرة ، الزاهية الزاهرة ، كأننى عنوان الاختلال والاعتدال فى نظام الأكوان ، أو مجمع أسباب النفور والاشمئزاز ، بل لعنة الرحمن مجسمة فى جسد إنسان . لا أرى أمامى وجهة واحدة أجعلها كعبة آمالى . ويعلم الله أن فؤادى ينطوى على عواطف الحب الشديد ، والولاء الصادق لكننى لا أجد فرداً فى الوجود يرضى بأن تحوم حوله أميالى . فلله در الحب والهيام ! وأفٍ أفٍ لهذا العالم الذى أنا فيه ينبوع الجزع والقزع ! كل من أسعى فى التودد إليه والتقرب منه يفر من وجهى مرعوبًا مذعوراً ! بل إن الذين تدفعهم عواطفهم الكريمة ، وإحساساتهم الشريفة إلى الشفقة علىَّ والرثاء لحالى لا يلبثون أن يغضوا أبصارهم عنى ! ويولونى ظهورهم ، هلعًا وفرقًا ! وحيثما وليت وجهى ، وأينما ساقتنى أقدامى رأيت الجو المحيط بي مشحونًا بجراثيم القلَى والبغضاء ! فقد حكمت علىَّ معاندة القدر ، ونحس الطالع ، وقبح الطلعة بأن أهيم وحدى على وجهى فى بيداء بهماء ، لا أجد فيها وسيلة للنجاة ! فالأمانى والمسرات وحب الشهرة وغير ذلك من الرغائب التى فطر بقية الناس عليها ، هى كلها أمامى دوائر مسحورة ، ومناطق مطلسمة ، لا أكاد أقترب منها حتى يقذفنى الرصد الموكل عليها ، بأنواع العذاب والهوان والنكال .

معارفى واسعة متنوعة ، ومعلوماتى غزيرة متعددة ، بحيث يقف دونها أكابر العلماء المشهورين ، موقف الجهالة والاستفادة . عندى من قوة العزيمة والثبات على النشاط ما يجعل الراحة فى نظرى عذابًا لا يطاق . فؤادى كله رأفة وحنان على كافة المخلوقات على الإطلاق ، حتى أننى لأشفق على الحشرة الضعيفة ، والدودة الضئيلة ،

أن أطأهما بقدمى على غير علم منى . سبحانك ربى ! أنت أرحم الراحمين . ماذا أصنع بهذه المواهب التى أفضتها علىّ من خزائن علمك ، ونفحات فضلك ؟ أفلا ينبغى لى الاختلاط بالناس ، كي تظهر آثارها ومزاياها ؟ فلماذا ، متى اقتربت منهم ، يصيبنى من العذاب أشكال وألوان ، وأينما نزلت أحاط بى الهزء والسخرية والازدراء ، وكنت سببًا فى انخلاع القلوب واضطراب العقول . ولقد أصبحت وكل خطوة من خطواتى تقودنى إلى هاوية عميقة ، وغيابة سحيقة ، فعيشى زقوم ، وحياتى كلها غموم وهموم . لما أتيت إلى عالم الوجود واستقبلتنى القابلة ، ألقتنى بعنف على الأرض ، وفرت صارخة مذعورة . ولما رأتنى المرضعة ، ارتجفت وهرولت إلى خارج الدار وهى تقسم بأغلظ الأيمان ، أنها لن تحملنى على صدرها ، ولا تغذونى بدرها . فنظرت إلى والدتى فغشيها من الهم ما غشيها ووقعت عن كرسيها ، مغمى عليها . فأدركها والدى ، وإذ أبصرنى ، اصطكت أسنانه وارتعدت فرائصه ، وصاح : "ما هذا بشراً إن هذا إلا مسخ دميم ، ولا يستحق أن يعيش" . فتسامع بى الأطباء ، وقالوا : "بل نحفظه مثالاً غريباً على غرائب المسوخ ، وعنوانًا على فلتات الطبيعة فى التشويه" .

ألا لعنة الله على الأطباء ، فهم سبب حياتى ، بل أصل ما أقاسيه من بلائى وشقائى ! وجاءت عجوز شمطاء ، منقطعة عن الأهل والأولياء ، فأخذها الحنان على وأخذتنى ، وآوتنى وقامت بتربيتى حتى ترعرعت . فإذا فى فؤادى شغف شديد بالمحبة والوداد فملت بكليتى إلى كل ما وقع عليه بصري ، من أرض وعشب وحيوان فى الفلاة . وهمت ولوعًا بكل شىء من البهيمة التى ترعى تحت أقدامى ، حتى الإنسان الذى خلقه الله ليتأمل فى بدائع الملكوت ، ولو أنه يفزع لرؤيتى ، ويفر من أمامى . شغفت بحب الكائنات ، من أشرفها وأسماها إلى أحقرها وأدناها . ركعت أمام أمى وتضرعت إليها أن ترمقنى بعين المحبة فنالها رعب شديد وخارت قواها وضاع هداها . ذهبت إلى أبى فنهرنى وطردنى بنفور واشمئزاز ، بل نفرعنى حتى أحقر العبيد ، مفتخراً بشكله الإنسى ، وظاهره الأدمى ، ورفض أن يكون له أدنى علاقة بشخص عليه علائم الغضب السماوى والسخط الربانى . بل إن الكلب .. الكلب الذى اخترته من أقبح الأنواع وأبشعها ، وأشوهها وأشنعها ، خاف من وجهى ، وأطلق سيقانه للهرب من منظرى .

فلما رأيت نفسي طريداً مهجوراً ممقوتاً ملعوناً ، أجمعت رأيي على الوحدة والاعتزال ، والمعيشة في بطون الغابات وفوق نواصي الجبال ، منفرداً حقيراً ، كالدودة في الحجر الأصم . وبقيت في عزلتي ، أعاني الآلام ، تزيدها الأفكار والأشجان ، وأقاسي الهموم والأحزان ، بسبب النفي من هذا العالم ، الذي لا ينبغي أن يكون لي فيه نصيب من الحب والوداد . ولما أصبحت مطروداً من معاشرة الناس ، رأيت أن أتفرغ للنظر في عجائب الكون وجمال الطبيعة . وصار همي طول يومي ، وسمري في سهري ، التلقي والتحصيل ، عن مشاهير الأموات ، الذين تركوا لنا زبدة أفكارهم وثمرة أتعابهم ، وخلاصة أعمالهم . وأرشدتني الأرض إلى كنوزها وعجائبها وسلمتني كتب الحكماء مفاتيح علومهم ومعارفهم . فقرأت ، ونظرت ، وفكرت ، حتى انكشفت لي الحقائق من خدرها المكنون ، وسرها المكتوم ، وانطبعت على صدري بطابعها الرباني . وظهرت لي خفايا الماضي في أتم الظهور ، وانكشفت أمامي أسرار الوجود ، من غير ما قناع يحجب محياها الوسيم . بل توصلت بطول المراقبة ، ودوام الرياضة ، وكثرة الاختبار ، إلى معرفة المستقبل من الأمور والشؤون . ونظمت من القريض الدرر والدراري ، ضمنتها خلاصة آرائي وأفكاري لكن وأسفاه ! كلما ارتقى عقلي ، واتسع نطاق فكري ، وصفت قريحتي ازدادت آلامي شدة وحدة ، حينما أراني في هذا العالم - عالم السعادة والحب والهناء - محكوماً على دون سواي ، بأن أعيش في نكد وكراهة وشقاء ، وأن لا أكون محبوباً على الإطلاق إلى ما شاء الله .

لذلك عزمت على السياحة ، لعلي أجد في بعض الأجزاء الأخرى من هذه المسكونة الملعونة أناساً مخلوقين على غير هذه الصورة الربانية ، التي جعلت في قومي إعجاباً بأنفسهم فاق حدود الأنفة والكبرياء . (قلت : قومي ! فواعسرتي ! أمثلي له قوم ينتسب إليهم) . إن الخلائق البشرية على أنواع تفوق الحصر . فلماذا لا أجد أثناء تسياري في أطراف المعمور أناساً يشبهونني ، ويحبونني ؟ ولماذا لا يصيبني أنا أيضاً نصيبي من السعادة والهناء ؟ فاستودعت الله ذلك الشخص الوحيد الذي عني بي ، وأعني به تلك العجوز الشمطاء . وكانت قد أصبحت عمياء بلهاء . فلم تشمئز من وضع يدها المرتعشة على رأسي المشوه الدميم . ثم ودعتني ودعت لي ، ولكنها لم

تتمالك من اختتام دعائها بهذه الكلمات : "ليتك يابنى لم تخرج من حيز العدم" ، فأفلت من فمى ، رغماً عنى ، تبسم ، يصحبه تهكم ، وهرولت مسرعاً إلى خارج دارها .

اتفق لى فى بعض الأيام أننى أمضيت النهار كله فى حل وترحال ، حتى إذا حان الأصيل ، وجدت نفسى فى منتهى إحدى الغابات ، وأبصرت بالقرب منها داراً خلاوية جميلة التفت حولها الأشجار ، تفوح منها أعطار الأزهار ، وتتناغى فوقها الأطيار . وقد تسلقت أغصان الورد والياسمين على أسوارها ، وتشابكت فوقها فروع الدوالى واللبلاب ، ونزل على الأزهار ندى المساء ، فضاع شذاها ، وتأرجت به سائر الأرجاء . فأخذت أستنشق هذا النسيم وهذه الأعطار ، بشغف وهيام . نعم بشغف وهيام ، لأن هذا النعيم على الأقل لم يكن محظوراً على ، ممنوعاً عنى . وبينما أنا أمتع أنفى بشميم الأريج ، وعينى بالمنظر البهيج ، إذا بسمعى قد اشترك أيضاً فى هذا النعيم ، فقد استرعاه صوت رخيم فى البستان ، وأرشدتنى رقة النغمة إلى أنه صادر من سرب نساء . فكتمت وأصغيت ، لا بآذانى وحدها بل بكل حواسى . وإذا بهن يتجاذبن أطراف الكلام عن الحب والغرام ، عن الصفات والخواص التى تولده فى الفؤاد . وسمعت إحداهن تقول كلمات ، كان لها فى فؤادى الكليم سحر عجيب . قالت : "كلا ، ليس الجمال فى الرجال هو الذى يجذب فؤادى ، ويمتلك قيادى ، بل الرجل الذى تتوق إليه روحى ، وتميل إليه عواطفى ، هو الذى يمتاز بسمو المدارك ، حتى يتسلط على عقول الآخرين ، ويكون له فؤاد كله شغف وهيام ، يجعله يستخدم قريحته فى خدمة أقل أغراضى ، وأدنى مشتهياتى . وخلاصة القول إن الذى أتطلبه هو نابغة الرجال فى عصره ، بحيث يكون كله وجد وغرام ، وما عدا ذلك فهو عندى والعدم سيان" . فسألتها إحدى صويحباتها : "أتقدرين أن تحبى رجلاً مشوهاً ممسوخاً ، ولو كان آية الآيات فى العواطف والإحساسات ، أو أعجوبة العصر فى الذكاء والفضل" ، فأجابتها الأولى بصوتها الشجى ولفظها الشهى : "نعم ، أشعر من نفسى بهذه القدرة . وإذا كان فؤادى ، كما أعهده ، ولا يخيب ظنى ، فإنه يخيل لى

أنى أهيم وجداً بالرجل الممتاز بنبيل الخصال ، وجليل الصفات ، مهما كانت خلقته مشوهة دميمة " .

وكان فى سياج البستان ثغرة بين الأغصان ، فاسترقت النظر من خلالها ، كما استرقت المسمع من ورائها ، لعلى أحظى بنظرة إلى تلك التى نفثت بمقالها روح الرجا فى فؤادى اليائس(*) الحيران . فرأيت فى ملامحها ما يدل على شدة التفكير والاستغراق ، كانت نوائبها الذهبية مرسلة على جبينها الوضاح . ولها ظل ممدود على لواحظها الساجية الساحرة . وفى كل حركة من حركاتها ، دليل على علو النفس ورقة العواطف ، بل إن لونها الصافى كان يشف عن صفاء ضميرها وارتياح روحها . وربما كانت صاحبتى فى نظر غيرى لا تعد بين ربات الجمال ، ولكن عيونى وفؤادى صوراها أمامى ملكًا فى صورة إنسان . قل لى بعيشك ، أين هو الطيف اللطيف ، يهديك محاسن ولذائذ مثل تلك التى أرسلت إلى قلبى الكئيب شعاعًا من الأمل الربانى بعد أن تولاه اليأس والقنوط ؟

لعمرى ! كانت هذه اللحظة سببًا فى حياتى . فإننى أسرعت بالعودة إلى الغابة المحدقة بمنزل تلك الغادة ، وقاسمت الوحوش كهوفها . وهنالك صرفت الأيام ، وكلها أحلام فى الغرام والهيام . وكنت متى أرخى الظلام سدوله ، وستر ذاتى عن أعين الرقباء ، سعيت إلى دارها ، وأقمت فؤادى حارسًا على كل خطوة من خطواتها فى غدوها ورواحها . وكنت أتسلل بين الأغصان لإمتاع الأسماع بنغمات صوتها الرنان . أما الليالى فكنت أقضيها كلها تحت نوافذ غرفتها . ولم يكن لى حينئذ من هم سوى ترديد التغريد ، وكثرة الشكوى من لوعة الجوى ، فكان صوتى الشجى يوقظها من نومها فى أغلب الأوقات . وكانت أينما وضعت أقدامها أثناء تنزهها ، ترى قصائدى الغزلية ، تبث إليها شكوى الضنى وقسوة الهوى ودوام الإعجاب بها والتشبيب بحبها . حتى لقد انتهت بها الحال ، أن تحركت فى نفسها دواعى حب الاستطلاع ، للوقوف على حقيقه الأمر ، وكشف غوامض هذا السر . فوقع خيالها

(*) وردت فى الأصل « اليائس » والصواب « اليانس » (المحرر) .

البكر فى أحبولة العشق .. ولا فخر . آه ! لماذا لم تيبس يدى ، ولم يشل ساعدى ؟ ولماذا لم ينقبض صوتى فى صدرى ، قبل أن تمكنت من جعلها تشاطرنى هذه العواطف الغرامية الملعونة ؟

أرسلت لها نظمى ونثرى يبثانها وجدى وحزنى ، وقلت لها إنى سمعت تحاورها مع أترابها ، ولكننى أكثر دمامة وأشد تشويهًا ، حتى من الأبالسة والعفاريت والشياطين ، وإننى أقبح بآلاف من المرات ، من كل ما صوره أو يصوره الوهم والخيال . وإنما أخبرتها بأننى أتعشقها إلى درجة تقرب من العبادة ، وأنها هى الوجود أمامى وما عداها فهو العدم . غير أن ألحانى كانت مطربة ، ونغماتى شجية ، بحيث لا يكاد يصدق معها اعترافى بتشويه خلقتى . فأجابتنى ، وأوجد جوابها عالمًا جديداً من حولى ، عالمًا كله لذات ومسرات . وأكدت لى أنها لا تنظر إلى الجمال على الإطلاق ، ولكن الروح وحدها ، هى الجديرة بحبها ، وإن من كان مثلى فى رقة التعبير ولطف الشعور لا يمكن أن تراه بعين المقت والنفور ، بل وعدتنى بأنها تحبنى ولو كنت فى الدمامة والبشاعة أكثر مما وصفت لها نفسى .

تعالوا ! فانظروا أين تنتهى الحماقة ويسوق الغرور ! فإننى صدقت قولها وتدثرت برداء ستر جسمى كله واعتمدت على الأيمان التى حلفتها لى ، بأنها لا تسعى فى رؤيتى قبل اليوم الذى أعينه لهذه المكاشفة ، بل لهذه المباغتة فكنت أتجرأ فى كل ليلة على التقرب منها ، والجلوس بجانبها ، فى أيكة كثيفة الأشجار ، ملتفة الأغصان ، بحيث لا يتوصل أحد إلى الوصول إلينا ، إلا بعض الأشعة من ضياء القمر . وكنت أطيل السمر معها فأشرح لها أسرار الطبيعة وأفتح خزائن العلوم ، وأكشف كنوز المعارف . ولكننى ما كنت لأهمل وصف الوجد والغرام ، وشكوى الهوى والهيام . بحيث كنت تارة أتجلى أمامها فى مظهر الحكيم العاقل ، والفيلسوف الفاضل ، ثم لا ألبث أن ألبس ثياب المغرم المتيم ، والعاشق الولهان .

واحسرتاه ! لماذا قضيت يا ربى بانصرام هذا الوصال ، وسرعة انقضاء هذا الزمن السعيد ، فإننى ما كدت أتمتع بلذة الحياة ، حتى قالت لي صاحبتى ذات ليلة : "سافر بعيداً عنى اذهب إلى حيث تجعل الناس مثلى فى الإعجاب بك والاشتياق إليك .

واجعل لنفسك شهرة فائقة تزكى اختبارى ، وتؤيد انتقائى . ثم ارجع إلى وطالبنى بإنجاز الوعد ، والوفاء بالعهد : إن العهد كان مسئولا » . فتلهفت فرقا من الفراق ، وطلبت منها توثيق عرى الميعاد ، وتوكيد المقال . فأغلظت الأيمان والأقسام . وفى تلك الدقيقة كان الهواء يلاعب الأوراق ، ويداعب الأغصان ، ففتح فيما بينها نافذة أطل القمر منها علينا ، وأرسل شعاع ضيائه إلينا . فتوسمت فى عينيها بريقًا من شدة الوجد والهيام ، بريقا يدل على أنها لم تحاول المكيدة والخداع . فقد كان نظرها هادئًا ومستقراً ، ويلوح على ملامحها أنها استسلمت لأمر عظيم ، قضت به على نفسها . فخفق فؤادى طرباً ، وانحبس لسانى اضطراباً ، وأخذت يدها فوضعتها على قلبى هنيهة ، وأنا ساكت ساكن . ثم قبلتها مثنى وثلاث ، وانصرفت من حضرتها ، فلم تعد تسمع بى مدة أيام طوال .

اخترت لنفسى خلوة سبرت فيها غور العلوم ، وبصرت بالمنطوق منها والمفهوم . وهمت فى أودية الشعر . وأرسلت اليراع يحلى الطروس ، بأبكار أفكارى العالية ، وبدائع تصوراتى السامية . وقد كانت كلها متجمعة فى خزانه صدرى . ثم نشرتها على الملاء من الناس ، فقابلوها بإعجاب أيما إعجاب . حنا الفلاسفة رؤوسهم أمام فروضى ونظرياتى ، وأقروا بالعجز عن مجاراتى . وأما العلماء فسيقتفون أثرى إلى ما شاء الله من الزمان ، فى الطرق الجديدة التى هديتهم إليها ، والطرائق المبتكرة التى أهديتهم إياها . ولم أقنع بالبحث فى العلوم العالية ، والمطالب الغامضة ، والمسائل العويصة . بل هلهلت الشعر ، ونظمت قلائد القصائد ، فى النسيب والتشبيب . فكانت العذراء تترنم بها وتترنح لها ، حتى تلتهب بنار الجوى ، فيخرج من احتراق الفؤاد ، بخار ندى يتلألأ على جبينها الوضاح ، ويحمد منه محياها الوضاء . وأجمع الناس ، من ذكور وإناث ، مع اختلافهم فى الأعمار والأجناس ، والأديان والأوطان ، على الإعجاب بهذا النابغة المجهول الذى جعله الله آية الآيات ، وأعجوبة الأعاجيب : إذا أتاح له الجمع بين سامى العلم والعرفان وصافى الفكر والخيال .

حينئذ رجعت إلى صاحبتى ، وزرتها بالتكتم المعهود ، وأتيتها بالبرهان الصادق ، والدليل الصادع ، على أننى ذلك الذى طبقت شهرته السبع الطباق ، وتحدث بذكره

(١) مع أنه كان يجب فى هذه اللحظة حدوث زلزال هائل .

الركبان فى الآفاق . وقد كان فؤادها حدثها بذلك . ثم طالبتها بالوعد الجميل ، وحسن الجزاء . واتخذنا الظلام ستاراً لاتحادنا . وكانت السماء خالية من النجوم ، والأرض ساكنة مطمئنة ، لاحراك بها[1] ولا عليها . وأوراق الأشجار ثابتة على الأغصان . فاستندت على صدرى ، ولم تصدر منها حركة تشعر بالنفور والاستنكاف . وقد توالت اجتماعاتنا ، وتعددت مقابلاتنا . وكنت سعيداً ! سعيداً ! أغبط نفسى ! ولا أكاد أصدق حواسى ! ولكن ثمرة حبنا المشؤوم ، أوشكت أن تكشف أمرنا ، وتفضح سرنا . بحيث أصبح من اللازم أن أهرب بها ، أو أن نوثق ارتباطنا بالاحتفالات الرسمية المقررة بين الناس ، كما أكدناه بطبيعة الحال . واستحال علينا التأجيل ، فخدعتنى بمواعيدها ، وأذهبت رشادى بدموعها ، وانضم إلى ذلك فؤادى : فأغرانى وأغوانى وأعمانى . حينئذ عقدت النية ، واتفقنا على أنها تنظر النظرة الأولى ، إلى وجه خليلها بل حليلها ، ونحن أمام الذى يتولى صيغة العقد الشرعى بيننا .

فلما حل اليوم الموعود ، برزت من خدرها فى دارها ، وليس معها سوى شاهدين وأبيها المحزون ، لأنه اضطر إلى الرضى باقتراننا ، دفعاً للفضيحة والعار . وقد كانت صاحبتى هيأتهم لمرأى شخص دميم الخلقة ، مشوه الوجه للغاية والنهاية . ولكنها لم يكن فى وسعها أن تهيئهم لرؤيتى . فدخلت الدار وكانت الأنظار كلها ، إلا عيناها ، موجهة نحوى ، شاخصة إلىّ . فصاح الحاضرون صيحة فزع واضطراب ، اهتزت لها جدران الدار . أما العاقد فقد وقع الكتاب من يده ، وطفق يهمهم ويتمتم ، من غير معرفة ولا تمييز ، ويقرأ الأوراد والأدعية المخصصة لطرد الجن والعفاريت . ووقع أبوها وقعة لن يقوم منها إلا يوم القيامة . وأما الشاهدان ، فأسرعا بالهرب إلى خارج الدار ، وهما لا يصدقان بالنجاة .

وكنا قد اخترنا الليل لهذه الحفلة . فكانت الأنوار تضىء الدار ، بنور ضئيل ، تعبث به الريح . فاقتربت من عروسى ، وهى ترتعش وتبكى ولم تكن تجسر على رفع بصرها نحوى . وقلت لها : "انظرى ها هو زوجك ياسيدتى" . وكشفت نقابها ، فانتفض جسمها ، وأغمى عليها . فلم تعلم مقدار المصيبة التى حلت بها . أما أنا فلم أرفعها عن الأرض ، بل وقفت فى مكانى ثابتاً صامتاً . إذ قد زال سعدى . وحقت علىّ

لعنة ربى وتولانى خيال ضاع معه الرشد والصواب . فحملوا العروس إلى مخدعها . وبعد هنيهة امتلأ المكان بالناس قليلاً قليلاً . وكان القوم ينظرون إلى الوحش بعين الارتعاب والارتعاد . فتنبهت لنفسى ، وصرخت فيهم صرخة شديدة فولوا الأدبار فرميت بنفسى إلى خارج الدار . واختفيت فى الغابة بين الأشجار .

حتى إذا تكاثف الظلام وحان ميعاد اجتماعنا المعتاد ذهبت خفية إلى الدار . فرأيت شباك صاحبتى مفتوحًا فتسلقت إلى غرفتها فلم أجد أحداً فيها ، وكانت مع ذلك تسطع بالأنوار . ورأيت مصباحين بالقرب من سرير العروس ، فرفعت الكلة (الناموسية) وإذا هى فى عداد الأموات . فلم أنتحب ولم أتوجع ، كلا بل شعرت بفرح صادر عن قلب كله قسوة وجمود ، حينما أبصرت الشخص الوحيد الذى أحبنى فى هذا العالم مطروحًا أمامى ، بارد الجسم ، فاقد الحراك ، عادم الإحساس . هذا الشخص المحبوب الذى سيكون عما قريب وليمة للدود . ثم قلبت نظرى فى الغرفة فاذا بمائدة مجللة بغطاء أسود ، رأيت تحته جثة مولود قد فارقته الحياة . رأيت له أشداقًا هائلة مخوفة ، وملامحه دميمة قبيحة ، وأعضاؤه نحيلة نحيفة ، والشعر والوبر نابتان على كل جسده بهيئة فظيعة ، والخلاصة أنه تشويه فى تشويه ، لا يشبه سوى أبيه . فتحققت حيئنذ أنه "ابن حلال" ومن يشابه أباه فما ظلم .

حملت زوجتى وولدى ، وذهبت بهما إلى الغابة ، واختفيت معهما فى مغارة مظلمة عميقة . ونمت بجانبهما ألاعب الديدان التى كانت تسرح وتمرح فى جسديهما . نعم كنت أشعر بالسعادة أثناء وجودى فى المغارة ، حتى إذا لم يبق من الجسدين سوي العظم الرميم ، دفنت الرمتين الباليتين ، وعدت إلى مسقط رأسى . وجدت أبى قد قضى نحبه ، وبقية إخوتى يعللون النفس بأننى قد سبقته .. فطردتهم أجمعين .. ووضعت يدي على كافة الأملاك والأموال ، وتاقت نفسى لرؤية المرأة التى ربتنى ، فأرانى الناس قبرها ، فرويته بدموع مرة نابعة من كبد حرى . ولعمرى ! لا أدرى كيف أمكننى البكاء عليها ، مع أنى لم أجد دمعة واحدة عند فقد امرأتى وولدى !

وعشت فى سعادة وراحة بال ، مدة من الزمان . ولكن الناس توصلوا للعلم بأننى ذلك الفيلسوف المجهول ، وذلك الشاعر المفلق الذى ذاع صيته واشتهر فضله . فلم أنل

بعد ذلك شيئًا من الراحة والسلام : إذ أصبحت الخلائق تتوافد على من كل مكان ، وأحاطوا بدارى ! والسعيد السعيد الذى يحظى بمقابلتى !!! وكانت الأبصار كلها شاخصة إلىّ ، والضحك والقهقهة محيطين بى . بل أصبحت أتخيل الهواء مشحونًا شياطين يتهكمون ويضحكون . ومن ذلك اليوم لم يتركنى الناس وحدى ، ولم أتمكن من الخلوة بنفسى ، ولا ساعة من الزمان ..

هذه حال الدنيا :

وكل الناس مـــجنون ولكـن على قـدر الهـوى اخـتلف الجنون

٥٥ - وكتب الفاضل السيد محمد على الببلاوى (من خطبه المنبرية) :

"الحمد لله الذى يعلم خائنة الأعين وما تكن الصدور ، الحكم العدل جامع الناس ليوم النشور ، المنتقم الجبار يوم لا ينفع مال ولا بنون . أحمده هدى من شاء إلى صراطه المستقيم وأشكره مستمداً فيض فضله العميم ، وأتوب إليه وأنزهه عما يقول المبطلون . وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة تشفى القلوب من السقم ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، أرسله رحمة للأمم ، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه عدد ما كان وما يكون ، أما بعد : فياعباد الله تعهدوا الصدق فمن تعهده سلم ، والزموا الحق فيافوز من له لزم ، واحذروا الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون . وإياكم والغش ، فالغش مرتعه وخيم ، ودعوا الفجور فإن الفجار لهم عذاب أليم . وتقربوا إلى الله ألا إن حزب الله هم المفلحون . وقد أمركم الله بالتحابّ فما امتثلتم أمره ، وزجركم عن التباغض فما رعيتم زجره ، ونهاكم عن المعاصى وأنتم عنها غافلون . وكونوا عباد الله إخوانا وليمدد أحدكم يد الإعانة لأخيه وليساعده بقدر الإمكان فالساعى فى الخير شريك فيه ، واعتبروا بأحوال قوم معكم إلى التعاون سابقون ، فرحم الله امرأ أخلص لأخيه النصيحة وعامل الناس بخلق حسن ونية صحيحة ، وطهر ظاهره وباطنه مما اتصف به المنافقون . فتوبوا إلى الله وأنتم فى سعة من الأيام وعجلوا بالتوبة قبل أن يهجم جيش الحمام وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون" .

الحـديث : اتق المحـارم تكن أعـبـد الناس . وارض بما قـسـم الله لك تكن أغنى النـاس . وأحسن إلى جارك تكن مؤمنًا . وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلمًا . ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب .

٥٦ - وكتب حضرة الفاضل على أفندى حامد يشكو ويستعطف :

أشكو إليك ما كلت قوتى عن مزاولته ، وضعفت عزيمتى عن مقاومته ، من ركوب متن الاعتساف والخروج فى الأعمال عن جادة الإنصاف ، وتشعب دواعي الشقاء والعناء حتى بلغ السيل الزبى . فصور الهفوات تقابل بأقصى العقوبات ، والحسنة بالسيئة والإكرام بالإيلام وحسن المجاملة بسوء المعاملة . وليس فى مقدورى الاستغناء عن هذه المرتبات القليلة التى أبذل فى سبيل الحصول عليها نفيس الحياة للقيام بتلك الأعمال الجليلة ، فوجود الحياة عدم ، وأحرار الدهر خدم ، والأيام لم ترع حقوقًا ولم تبق شروقًا . ولم يسلم أحد من تجنيها ، ولم تصف لمصافيها ومواليها . وقد أنهيت أملى إلى رحابك ، ووجهت رجائي للوقوف على بابك عله أن يسعده نظر سيدى العالى ، ويحقق آمالى . فأكون ممن استفتح باب العطايا ، فبذل الشكر والله يحب المحسن ويضاعف له الأجر .

٥٧ - وكتبت المقامة الجلالية التى سبقت الإشارة إليها وهى :

"حكى الجلالى بن الخيالى قال : أجلتنى الأقدار عن مكة أجل الديار فجللت عنها قاصداً جلولاء . والأرض قد جللتها السماء لا أملك دقًا ولا جلاً ولا أكثر ولا قلاً ذاكرًا :

كل شىء ما خلا الله جلل   والفتى يسعى ويلهيه الأمل

ومعى هاجن جلت عن الولد ، وهم جليل طال عليه الأمد ، وغلام جلجل ، وفرس ذو جُلّجُل وحمار جُلال يجل عن الكلال . فتجللنا الدواب بعد أن جللها بالجل الغلام ، وسرنا نحمد ذا الجلال والإكرام . فلما قطعنا جل الطريق ، سمعنا جلجلة هزبر طليق ، وما رأيناه حتى تجلجل منا الفؤاد وجلجلنا الزناد . وصاح الشيخ أمر جلل ينهب الأجل وتلته الفتاة صارخة يا قوم هيا إلى الجلى والعين منها :

لجوج اذا سحت ســحوح إذا بكت   بكت فـأدقت فى البكا وأجـــلت

فأجابها الفتى :

إذا دعـــوت إلى جلـى ومكرمـــة   يومـا سـراة كـرام النـاس فـادعـينا

ثم عقد فى عنقه خيط الجلجل وهجم على الأسد المجلجل . ورماه فأصاب جلجلان قلبه ، فتجلجل فى الأرض بذنبه ، فشكرنا المولى الجليل ، وسرنا حتى أمسينا بوادى الجليل فأنشدت :

ألا ليت شـــعــرى هـل أبيتن ليـلة   بفـج وحـــولى إذخـــرٌ وجلـيل

وهـل أرِدَنْ يـومـًا مـيـــاه مـجنة   وهل يبـدون لى شـــامـة وطفـيـل

ثم أصبحنا جالين عن الوادى ، فسمعنا جل بن عدى وهو ينادى :

أيا ظبـيـة الوعـسـاء بـين جُـلاجل   وبين الـنقـى أ أنت أم أمُ ســـالـم

ثم مررنا على دارة جلجل وحى جلان ، فرأينا فى عرصاته رعاة يرعون الدقائق والجلائل والثنيان ينشدون :

لنـــا غـــنم نســـوقـــهـــا غـزار   كـــأن قـــرون جلتـــهـــا العـــصى

ومعهم إماء سود يجتللن جلة الوقود . فتقدمت إلى كبير القوم وبثثت إليه جلاجل نفسى ، فمـا أجلنى ولا أدقنى بل أجابنى برفع الرأس ، وقـابلنا فى البـادية جـالة من اليهود أجلوا عن الحرم المحمود . وعند دخولنا قصبة الجلوليين فاح علينا من رياضـها شـذا الجل والياسـمين ، ونزلنا فى مسـجدهـا القاصى . وشـــرع شـيخنـا فى تدريس مجلة لقمان فأحاط به قوم أجلاء الشأن :

أمـــاجـــد صـــيـــد ذوو تجـلة   تـرى عليـــــهـم للـندى بـرهانـا

وبعـد الفـراغ من الدرس أخـذوا يجلونه بالتـحـيـة وانحناء الرأس ، وأجلونا من فضلهم دار الكرامة وخصوه بالدراسة والإمامة" .

٥٨ - وكتبت إلى خليل شط مزاره :

"كـتـابى إليك وقـد طال بى الانتظار . وشـوقـى يجل عن الكيف والانحـصـار . فشخصك دائم المثول أمام إنسانى وعن سواك من الأخلاء ألهانى وأنسانى . فلله أيام قضيناها وليال من الدهر اختلسناها كان السرور فيها ضارباً خيامه ، والأنس ناشراً أعـلامـه ، طوى بسـاطهـا ، وكـأن الأمـر مـا كـان . غيـر أنهـا زرعت بفـؤادى شـجـرة الأشـجـان ، لكن عـودها حليف أوبتك ، وتجـددها رهـين إشـارتك . فـمـتى يقـرب المزار وتتجلى سحب الأكدار . فاضرب لعودك أجـلاً فالعـود لا شك أحـمـد . واكتب بقربك وصلاً فالوصل أضمن للعهد ، وعهدى من خلقك الوفاء وحسن الولاء . فلا تجعل صفقة شوقى إليك خسراً ، بل هبنى بعد العسر يسراً والسلام" .

٥٩ - وكتبت إلى صديق سافر إلى الأندلس وكنت ودعته على ميناء الاسكندرية وقت السفر وأهدانى مطبوع صورته (فتوغرافيته) .

أخـى الشقيق : بينـا أنا أفـكر فيما أتـيح لك من المـقدور مذ فـارقتـنا يـوم المرفأ ، وامتطيت صـهوة البـحـر الجمـوح تـؤم الأندلس ، إذ جـاءنى البشير بالرسـالة والهدية منك فـاطمـأن قلبـى وسكـن روعى ونعـم بالى وهدأ بلبـالى ، ووئدت بنات صـدرى بسهام سرورى . إذ الأولى أنبأتنى بركوبك متن السلامـة ونزولك بحبوحة الكرامـة ، والثانيـة لما سفرت عنها اللثام وألقيتها مثال صورتك سجدت لله شكراً على ما أهديت وأسديت . وكأنك أوحى إليك أن ناظرى حسد خاطرى على خيالك . فأرسلت له من مثالك لتفصم عنه آخيـة الحسـد خشـيـة أن يشـيب من الكمـد . وقد أحطت الصـورة بالسـور الكلى وموضوعها شخصى . وقد أرسلت لك مع هذا مثالى هدية وتذكاراً لى ، والسلام .

٦٠ – وعربت من الفرنسوية إلى العربية ما يأتى :

وصف مساء صيف

ذات يوم حره شواظ من نار ، خرجنا وقت الأصيل نلتمس شواطئ الأنهار ، لنستنشق نسمات العصور ونشتفى من نفثات الحرور ، فجلسنا بقرب الماء فى حديقة غناء ، فكان يروقنا رقص الغصون إذا هب عليها النسيم ، ويطربنا هزج السواقى وخرير العيون عن رنات المثانى وغناء النديم . والشمس قد كست النهر حلة من ذهب ، فأخذ يموج ويعجب كل العجب إلى أن مالت عنه ، وتوجت رؤس الجبال والأشجار بتيجان من جلنار . وكلما أخذت الغزالة فى الرقاد ضربت ألوان الخليقة إلى السواد ، وأخذ كل راع يؤب بماشيته من مرعاها ويقودها إلى مأواها . ثم عدنا وقد أخذت تهدأ الأصوات وتسكن المتحركات ، والعلى الأعلى يلحظ الكل بعين رعايته وهم سكون ويكلأ أرواحهم وما يكنّون .

وفى سنة ١٣٠٨ للهجرة رغب أصحاب جريدة الأزهر إلى أهل الأدب أن يكتبوا إليهم فى موضوعات اقترحوها عليهم كالشوق والتعارف قبل اللقاء ، والتهادى والتقاضى ولطف السؤال والتهانى ، فكتب كثير من أبناء العصر فى هذه الموضوعات المقترحة :

٦١ – فمن ذلك ما كتبه الفاضل الشيخ حمزة فتح الله رسالة فى الشوق وهى :

"مولاى ، أما الشوق إلى رؤياك فشديد ، وسل فؤادك عن صديق حميم وود صميم ، وخلة لا يزيدها تعاقب الملوين وتألق النيرين إلا وثوقًا فى العرى وإحكامًا فى البنا ، ونماء فى الغراس وتشييداً فى الدعائم . ولا يظنن سيدى أن عدم ازديارى ساحته الشريفة ، واجتلائي طلعته المنيفة ، لتقاعس أو تقصير فإن لى فى ذلك معذرة اقتضت التأخير . والسيد أطال الله بقاءه أجدر من قبل معذرة صديقه وأغضى عن ريث استدعته الضرورة . وبعد فرجائي من مقامكم السامى أن لا تكون معذرتى هذه عائقًا لكم عن زيارتى ، فلكم منة طوقتمونيها ولكم فيه فضل البداءة ، وعلىَّ دوام الشكران ، والسلام" .

٦٢ – ومن ذلك ما كتبه الفاضل الشيخ عبد الكريم سلمان فى التهادى :

الإنسان الكامل ، المولى الفاضل ، دام كماله وزاد إقباله : كتابى إلى الأستاذ والهدايا تزيد فى التواد ، وتوسع فى قوة الارتباط إن كانت لغير من حظرها عليه الشرع القويم . والشيخ منى بمنزلة الأخ من أخيه أو أنا منه بمثابة الولد من أبيه . ولا داعية لى إليه سوى الصلة به . ولا أريد منه غير الوداد "قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى" .

وقد اخترت لك من كتب الأدب العربى القديم كتاباً حديث العهد بالوجود ، بعثته إلى حضرتك معترفاً بأنه نموذج فضلك ، ومعنى أدبك ، يعترف لك مهديه بأنه لاحظ المناسبات ، ونظر إلى الرغبات ، وقبل أن تشتغل بالبحث فيه عن اسمه والأوصاف أعلمك بأنه كتاب المنسوب والمضاف ، فهنيئًا له بالشيخ يقدره حق قدره ، وهنيئًا للشيخ به يزيده فى أمره . وإن قبول الأستاذ لهديتى مكفول بحسن أخلاقه وطهارة أعراقه ويعلمه بأن النفع بها وهى عنده أعم وأوفى فله الحمد على ما قبل والشكر على ما أولى .

٦٣ – ومن ذلك ما كتبه الفاضل حفنى بك ناصف فى التهادى :

الهدية فى نظر الأصفياء جليلة ، وإن كانت فى نفسها قليلة ، ومكانتها خطيرة وإن كانت يسيرة ، وسنة حسنة اجتمعت على فضلها الألسنة :

مضت الدهور وأمرها مستحسن ... وتعاقبت بمديحها الأيام

اللهم إلا أن لبست جلباب الرياء ، وولجت أبواب الارتشاء ، ولا مراء أن الأوداء من ذلك براء :

لا يبتغون سوى الوفاء وما لهم ... غير البقاء على الصفاء مرام

وما زالت الهدية شعار الأصدقاء وعنوان تذكار الولاء ، وكم جددت بين الأصحاب عهود التحاب :

وتعهدت وداً فعاد شتيته ... ولشمله بعد البداد نظام

قد وصلتني يد العصا فحبذا الإهداء . وأهلا بتلك اليد البيضاء ، وليست هذه أول أياديك عليّ ، ولا أكبر عارفة جاءت من ناديك إليّ وقد أمنت بها النوب ، واعتضدت بها على تفريق شمل الكرب :

فإذا طغى بَحر الهموم ضربته   بعصاى فاجتازت به الأقدام

تتفلق بها من الأيام صخور ، فتتبجس منها عيون السرور ، وتلقف ما يصنع الأعداء ، فتذهب بسحر البغضاء . وإذا اشتد هجير الوحشة نشرت ظلال أنسها أو عصى فرعون الدهر راعته ببأسها :

فكأنما أوصى الكليم لنابها   حتى يرى آياته الأقوام

وقد فكرت ماذا أقابل به طرفتك ، وأتلقى به تحفتك إلى أن هدانى الله أن يد المنعم إنما تقابل بالأفواه . ليعزز القبول بالقبل ، ويؤدى الرسم باللثم فأرسلت إليك فم سجارة ، وجعلته لهذا المعنى إشارة وقلت :

مولاى كم فاضت يمينك بالندى   حتى غدوت غريق بحر الأنعم
والشكر أوجب أن أقبل راحها   فكنيت عن هذا بإهداء الفم

وقد علمت أن المنظر البهيج يتم بالتدبيج ، فاخترت أن يكون مبدأة كالليل إذا عسعس ومنتهاه كالصبح إذا تنفس . إيذاناً بزوال الشرور بالشرور ، ورمزاً إلى الخروج من الظلمات إلى النور .

٦٤ - وكتب الفاضل محمود بك أبو النصر فى التهادى :

ياأيها المولى الذى   عمت أياديه الجميلة
أقبل هدية من يرى   فى حقك الدنيا قليلة

غرة وجه السعود وقرة عين الوجود الأمير الجليل : يا جليل الفضائل إليك توجه الآمال ، ويا جميل الشمائل بساحتك تحط الرحال . تلك هي الساحة الفيحاء والشيمة الحسناء والهمة العلياء واليد البيضاء والأعمال التى بها تضرب الأمثال . كم من نعم أسديتها ومكارم أوليتها وعلوم أحييتها ، فأنت المصدر والمورد والمقصد والموعد . إليك أقدم تلك الهدية المرضية ، وأرفع ذلك الكتاب المستطاب مشفعًا فى قبوله كرم سجاياك وعظم مزاياك . وإنى وإن كنت أعلم أن مقامك العلى يجل عن أن يرفع إليه مثله فقد عرفناك متواضعًا فى علاك قريبًا مع اعتلاك :

دنوت تواضعا وعلوت مجدا ... فشأنك انخفاض وارتفاع

كذاك الشمس يبعد أن تسامى ... ويدنو الضوء منها والشعاع

وحاشى أن أهدى للقمر نورًا وللشمس ضياء أو أبعث ببنية القطر إلى ذلك البحر ولكنى أحببت أن يحظى بلثم بنانك ، وينال من كرمك وإحسانك .وقد عهدناك تهتز للمكارم اهتزاز الصارم وترتاح لإسداء الجميل كما يرتاح للكرم النزيل وللشفاء العليل .وما هو إلا من نور فكرك مقتبس فعساه يحظى بالقبول فأبلغ غاية المأمول ، والسلام .

٦٥ - ومن ذلك ما كتبه الفاضل سلطان أفندى محمد فى التعارف :

"كتابى إلى مولاى وقد نمى إلىّ حديث فضائله ، ونقلت لى الصبا عبير شمائله . كتاب امرئ دله التواتر على البحر الزاخر ، وأرشده أرج النسيم إلى الروض المقيم . فوله بورود شرعته والاستظلال بدوحته . وائتلاف النفوس إذا كان فطريًا كان ميلها بمجرد الرؤية أو السماع طبيعيًا . ومن ثم قدمت التعرف إليه بهذا الخطاب ، حتى أرد عليه وقد نظمنى فى سلك الأصحاب ، وسيلقى من قاصده ما يجعله مفزع رأيه وحقيبة سره ، ويحقق به ثقته ، فيرفع منزلته ويصبح فى مقدمة بطانته ويشمله بعنايته . والسلام" .

٦٦ - ومن ذلك ما كتبه الفاضل أحمد أفندى سمير فى التعارف :

يعلم سيدى أن المودة لا تباع ولا تشرى ، وإنما هى نتيجة الاجتماع والتعارف وقد خلق الإنسان مضطراً إليهما لأن انتظام العمران عليهما موقوف . ولهذا شهد العيان بأن المنفرد بأعماله المستبد بآرائه عرضة للخطأ مظنة لعدم الثقة . بخلاف ما إذا كان الاشتراك فى الفكر قاعدة للعمل ، فلا بد أن الصواب يتمخض (*) منه لضعف التفرد وقوة الاجتماع ، إذ لا جرم أن المرء كما قيل قليل بنفسه كثير بإخوانه . وقد سمعت عن السيد وقرأت من آثاره المأثورة ما حببه إلى وشاقنى للتعرف به ، لنشترك فى منفعة تبادل الأفكار . فإنى لا أكتفى بمجرد السماع ولا أقول أن الأذن تعشق قبل العين . فإنما هى جارحة صغيرة ، ولكن كلى ميال إليه محب لاستجلاء مرآة عالم أنى إذا دخلت إلى موادته من باب التلاقى لا أجد دهرى :

يقرب منى كل شخص كرهته ويبعد عنى من إليه أميل

فان لم يتيسر أن يرانى أو أراه، فليسعدنى ببضعة أسطر تضمن لى رضاه عن هذه المعرفة الترسلية لنتراءى بأعين الطروس قبل أعين الرؤس ، ونتجاذب أحاديث المراسلة إن عزت المقابلة . وقد وقفت عليه خالص ودى ، واخترته من بين رجال العصر سعياً لكسب المعالى بمعرفته ، فكل امرئ بما كسب رهين وليس للإنسان إلا ما سعى :

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدى

٦٧ – ومن ذلك ما كتبه الفاضل الشيخ أحمد مفتاح فى التهادى ·

الهدية غمرك الله بالمعروف تبسط يد المودة ، وتدر بها أخلاف القرب ، وتغرس بين المتحابين من الائتلاف بقدر ما تقطع بينهما من شجر الخلاف . وما أنا فيما أهديه إليك إلا كمستبضع تمراً إلى أرض خيبرا أو كالواهب الماء للبحر والضوء للبدر والملك

(*) وردت فى الأصل « يتمحض » ، والصواب « يتمخض » (المحرر) .

لسليمان والمال لقارون والحلم لأحنف والذكاء لإياس والتفسير لابن عباس . وما ذاك إلا كتاب كما تراه ضرب فى الإحكام بسهم ، ووعى من الأحكام ما خلت منه

مفعمات الأسفار وموجزات الرسائل . فهو كما قيل كل الصيد فى جوف الفرا :

تزين معانيه ألفاظه   وألفاظه زائنات المعانى

على أنى وإن تطفلت عليك وسقت لك هذا الكتاب مزدلفًا إلى جنابك الرحب ومقامك الأسنى ، فقد أصبت كبد الصواب ووضعته حيث يعرفه أهلوه ، ويتقبله من باذله عالموه علمًا بأنك عماد العلوم وأساس الفضائل لا تغادر شاردة إلا وعيتها ولا نادرة إلا رويتها وإلا :

لو كان يهدى على قدرى وقدركمو   لكنت أهدى لك الدنيا وما فيها

٦٨ – ومن ذلك ما كتبه الفاضل الشيخ طه محمود فى التهانى :

المجد عوفى إذ عوفيت والكرم   وزال عنك إلى أعدائك الألم

لقد تقلبت فى حلل السراء حتى ما اشتهى حله ، وتضلعت من كؤس النعماء حتى لا أسأل ساقيًا علة . فلم أجد فى الحلل الضافية ، ولا فى المشارب الصافية ألذ ولا أجمل من العافية . وما آب إلىّ بعد الظعن أعز علىّ من صحة البدن . ولا رحل عنى بعد الإلمام ضيف أبغض إلىّ من الآلام ، ولو لم يكن إلا بعد الحبيب أو قرب الطبيب وإلا قطعية الوالد أو صلة العائد ، لقلت البعد والقطيعة أشهى إلى النفس من القرب والصلة . فماذا يثير من شجنك إذا أصبحت معافى فى بدنك ، وأى شىء مع الصحة ردئ أو بدون الصحة جيد . ومن أجل هذا كانت العافية أولى ما أهنئ به السيد ، فالحمد لله أن عافاك "أيها السيد" وشفاك ووافاك بأمره من الصحة ما كان أجفاك . (وبعد) فلا أطيل بشرح حالي التى رجعت بها من عند السيد يوم عدته فوجدته بحيث

يرجو العدو ويخاف الحبيب ، وما هو إلا أن نصبت قدمى مدة من الزمان أستشرف إلى ما يرد على من نحو سيدى . وقد حالفت السهاد وخالفت الرقاد مذ رأيت أن دوحة المجد قد اعتراها ذبول ، وأن سيف الشهامة قد أصابه فلول . إلى أن وردت على البشرى تترى بأن الله قد أذن لظاعن العافية أن يؤب إلى وطنه ، ولنازح القوة أن يثوب إلى بدنه فلا تسل عما ثاب إلى قلبى من الأفراح ، ونزح عن صدرى من الهموم والأتراح ، وما ابتسم من ثغور المكارم وما تهلل من جباه الفضائل . فأنت تعلم موقع تجلي الكروب من القلوب ، وكيف مورد السرور من الوجوه والصدور ، وما مقدار الاعتدال ، بعد الاعتلال فليهنئك "سيدى" ما كساك الله من ثياب الصحة بعد شكوى ألمت بساحتك ، فلم تحجبنا عن سماحتك ، وإن حجبت عن صباحتك ولم تصب من حلمك وعلمك . وإن أصابت من جسمك ورسمك وما كنت فى شكواك هذه إلا الذهب ولا عجب امتحنه صائغه بشىء من الحرارة ليبين معياره ويظهر مقداره ، فإذا هو إكسير ولا ينبئك مثل خبير أو الشمس توارت فى الحجاب أو حال بيننا وبينها قزعة سحاب ، لنعرف نعمة الله علينا فيها. ولم تلبث السحابة أن تقشعت فاعتدل الجو وتمحض الصفو فليطب السيد نفساً وليقر عيناً بعظيم فضل الله عليه وعميم إحسانه إليه فيما أعاد إليه من الصحة ومنحه به أعظم منحة :

ولا زال يرفل فى حلة سداها ولحمتها العافية

٦٩ - ومن ذلك ما كتبه الفاضل السيد محمد على الببلاوى فى التعارف :

"سيدى إن مكارم الأخلاق ومعالى الهمم مما تسترق القلوب وتسترق العقول وتمتلك الأرواح وإن لم تتلاق الأشباح فإنى مذ سرى إلى النسيم بأخلاقكم الغراء ، وابتسم لى ثغر هذا العصر عن آثاركم الزهراء ، وتواترت الأخبار بحبكم للفضل وأهله وارتياحكم للعلم وذويه ، وأنا مشغوف الفؤاد بالتعرف بسيادتكم مشغول البال بالتوصل إلى رياض مودتكم . ولعلمى أن للصداقة حقوقًا وللمصاحبة شروطًا ربما صعبت على من حاولها ، وعزت على من أراد الوفاء بها . كنت أرى الوحدة بى أولى والانفراد بى أسلم ، ولكن ما زالت تنمى إلى أحاسن شمائلكم المشرفة ، وتتوارد على

مسامعي محاسن سيركم المطهرة ، فينمو الوجد ويزداد الشوق (والأذن تعشق قبل العين أحيانا) . وما كنت أجد سبيلاً للتعرف ولا سبباً للتودد ، ولا تجسر نفسي على المراسلة ابتداء . إلى أن رأيت سيدى قد اهتم للأدب فأعلى مناره . ونظر للإنشاء فرفع مقداره ونصر دولته وأحيا صولته وأعاد شبابه . وفتح لأدباء هذا العصر بابه . فعلمت أن الدهر قد ساعدنى والفرصة قد أمكنتنى من مصاحفة ما أملت ومصافاة ما أردت من اجتناء ثمار مودة سيدى ، والتعرف به والتمسك بأهداب فضائله والتزود من آدابه فإن الأدب أحسن ما يستصبح بأنواره وأشرف ما يتسابق لاقتطاف أنواره . ويحمد التطفل على موائده ويمدح التنافس فى التقاط فرائد فوائده . فجعلت طلب الانتظام فى سلك أرباب الأقلام وسيلة لورود عذب وداده ، ونمير التعرف به فإن رأى سيدى أن يعدّ نفس حر فى عداد معارفه ، ويقابل رسالته بما اشتهر من لطائفه حتى تتمتع المسامع بطيب الأخبار ، كنت مديم الشكر لأفضاله مستمر الثناء على كماله" .

٧٠ – ومن ذلك ما كتبه الفاضل عبد الله أفندى الأنصارى فى التهادى :

"المولى أدام الله وجوده ممتعًا بهدايا الأيام وتحف الأعوام ، طالما أوفد من الرفد إلى ووجه من الخيرات ما أفعم يدى حتى أصبحت وله الفضل والمنة أجر ذيول النعماء على غبراء البأساء . واجتلى معارف السراء بعوارفه البيضاء ، التى لا يوازيها ثناء وحمد ، ولا يوازنها عطاء ووفد ، ولا يطاولها سماء وبحر ، ولا يغالبها بؤس وفقر . وإن لى من آلاء السيد حفظه الله وأدام علاه ما أينع وأزهر وأورق وأثمر حدائق قامت لشكره عيدانها ، وسجدت لفضله أغصانها وترنمت طرباً وتمايلت عجباً بنفحات هى عرفه وبركات هى عرفه . ولى أمل فى جنابه وأنا سليل نعمته وعهدى بأخلاقه وأنا ابن مودته أن يمن بقبول ما أهديته ، وهو من مال نفسه وثمرة غرسه باكورة تفاح يرفعها إجلال وإعظام وتصحبها تحيه وسلام" .

٧١ – ومن ذلك ما كتبه الفاضل محمد افندى على المنياوى فى التهانى :

لك الهناء بما قد نلت من شرف وافت بشائره بالقلب فابتهجا

ليرق سعدك ويحظ جدك وينعم بالك ويجزل نوالك . فإن إسداء الفضل عليك بعض ما يرتاح الفؤاد بانتمائه إليك . وقد هبت أرواح البشائر بأريجها العاطر تروى لنا مرفوع ما ساد بمعناك من الرتب الفاخرة . واتصل بمغناك من المنح الباهرة ، التى أخصب غيث سرورها جدب النفوس وأحيا روض أنسها ، بعد أن شابه البؤس فازدهت أفنانه وماست عجبًا وهشت ورقه وغردت طربًا . وأصبح يانع الزهر باسم الثغر يفتر عن شكر المنعم وإنعامه . والدهر وتبلج أيامه بما أولى من الفضل من هو له أهل :

فياحبذا دهر على ما به ولى　　　ويا حبذا من منه قد فاز بالجدوى

فلتهنأ ذاتكم الشريفة بهذه الرتبة المنيفة . لا زال كوكب سعدكم بسماء المجد يسمو ، وساطع حبوره بسرادق القلب يزهو وينمو والسلام" .

٧٢ - ومن ذلك ما كتبه الفاضل وفا أفندى فى الشوق :

أما بعد سلامى عليك ، فهذا كتابى إليك ينبئك عنى وعن شوقي وعن ودى ، ولا أزيدك علمًا أنى ما كتبته من دواة ولا أجريت عليه قلمًا ولكنها دموع وشوق سالت على القرطاس وجرت على حركات الخواطر والأنفاس . وهبت عليها حرارة كبدى بالأشواق ووجدى بالفراق . فبينما هى عقيقة حمراء إذ صارت فحمة سوداء . ألا وإن كتابى هو قلبي ولسانى ، أما تراه على رقته ولطف عبارته وصدق طويته بين يديك مقبلاً عليك ينشره الشوق ويطويه . لا يخفى أمرًا ولا يكتم عنك سرًا ، وتلك صفات لسانى وقلبى معك . فما الذى ابتغيه بعد وقد بعثت إليك بالأصغرين وما أنا إلا بهذين . نعم أرجو بقاك ممتعًا بنعمك لأكون على الدوام محل نظرك والسلام .

٧٣ - ومن ذلك ما كتبه الفاضل مصطفى أفندى نصر فى التهانى :

أيها العزيز : أكتب إليك والعين قريرة ، والنفس مسرورة ، والقريحة قد أوسعها الفرح جودة ، والفكر قد جلا الصفاء عنه كسادًا ، واللسان قد أورثه الانشراح طلاقة ، والكلم قد يسر الحبور جموحها ووطأ من أكنافها والتحرير قد أسلس الجذل قياده وأدنى ملتمسه . فاللسان يتلو فى أساطير القلب سور السرور ، وينطلق بما يمليه عليه

من آى التهنئة وصيغ التبريك . وهو لا يتكلف لعبارة صوغًا ولا للفظ بحثًا إذ قد كفاه طيب الخاطر وابتهاج النفس مؤنة ذلك ، وأراحاه من عنائه . فالألفاظ تتسابق إليه والعبارات تتوارد عليه والمترادفات تتجمع بناديه فيختار منها ما طابق واقع الحال واقتضاه مقتضى المقام . إلا أن الحق أقول إن العبارات ولو تهيأت أسبابها وتوفرت موادها ضيقة النطاق عن حصر الغرض غير محيطة بمكنون الضمير فى الإعراب ، كيف لا وحديث التهنئة أسوقه إلى زهرة الإخوان وكوكب الأقران وحلية الأكفاء ، قريع دهره فى الأدب ، منقطع القرين فى العلم ، إمام أهل الفضل قدوة أرباب الكمال ، من استمسك من الجد بالعروة الوثقى ، فشغل من القلوب أمنع مكان ، وحل بأسمى منزل فمحضت له الإخلاص ، وتمنت له أجزل الصلات وتحرت له أكمل الرضا . وهكذا فليجز الذين أتوا العلم والفضل ، ويا حبذا لو اتبع أولو الفضل سننه ، وكان لهم به أسوة حسنة ، فالسؤدد غاية الطريق التى اتخذها والنجح لؤلؤ اليم الذى خاض لجته . فلعمر الصدق إن فى الاجتهاد ارتياحه وفى العمل طيب خاطره ، وفى المثابرة سروره ، والإقدام دأبه ، ومضاء العزيمة ديدنه ، والمعارف سبيله ، والعلم دليله ، والعقل هاديه والسريرة رقيبه ، والنفع مرمى غرضه والكمال غايته .

٧٤ – ومن ذلك ما كتبه الفاضل عبد الخالق بك ثروت فى التقاضى :

"إليك يا من قد استأثر النفوس بكرمه واسترق الأحرار بجميل صنعه . وأولى النعم والخيرات ، وأسدى المعروف والمبرات . أرفع كتابًا تبعثه إلى ناديك العالي عوامل الحاجة وتزجيه إلى ساحتك دواعى الشدة . آمل أن يكون تذكرة بأمرى ، والذكرى تنفع المؤمنين ، وتفكرة بحالى والله لا يضيع أجر المحسنين ، فقد كان سيدى رفع الله قدره وأعلى مرتبته وعدنى ، ومثله من يتمسك من الوفاء بالعروة الوثقى ، ويقطع حبل الإخلاف بسيف الوفاء ، ويطرز خلعة الوعد بوشى العطاء ، أن يرسل لى من خيراته ويولينى من آلائه وحسناته ، ويضاعف لى من منته ، ويزيدنى من عطائه ما أشد به أزرى على الزمان وأطاول به نوائب الحدثان . فقد بارزنى الدهر بسيوفه ورمانى بسهامه وأناخ علىّ بكلا كله . وقد طال الأمد على حاجتى عند سيدى أطال الله بقاءه ، حتى طار غراب شبابها وصاح بجانب ليلها . فخفت أن تكون هبت عليها ريح النسيان

وعصفت بها عاصفات الحدثان . فكتبت إلى سيدى ومولاى تلك الرقعة أستعجل بها بره وأستدر بها ضرع عطائه . علمًا بأن التعجيل يكبر العطية ، وإن كانت صغيرة ويكثرها وإن كانت يسيرة . فعسى أن يكون قد لاح نجم النجاح وهب نسيم الفلاح . فيرسل سيدى إلى سحاب كرمه ويمطرنى من غياث فضله ، فترف غصون آمالى بعد ذبولها وتضحك وجوه مطالبى بعد عبوسها . وأملى فى ذلك فسيح فإن سيدى من أكرم الناس نسبًا وأشرفهم حسبًا ومثله جدير بحفظ العهد وإنجاز الوعد . فإن رأى سيدى أن يخفف ثقل الحاجة عنى ويرد ما سلبه الدهر منى بقطرة من بحر عطائه ومنة من بعض آلائه ويجبر ما كسره الفقر من جناحى ، ويرد عنى النوائب التى لا تفتأ تتوالى . عقدت لسانى على مدحه ، ووقفت نفسى على شكره ، فيحرز من الله أجرًا جزيلاً ومنى شكرًا جميلاً إن شاء الله" .

٧٥ – ومن ذلك ما كتبه الفاضل أحمد افندى رأفت فى التقاضى :

"السيد الكامل أدام الله علاءه ، وأطال بقاءه ، وجعله موئل الكرم ومسدى النعم . قد غمرنى بنعمائه وطوقنى بآلائه حتى قصرت حمدى عليه ، وأمسكت لسانى عن الشكر إلا إليه . وكان من مننه علىّ وأياديه البيضاء لدىّ أن وعدنى أنه يقلدنى فى أول العام وظيفة عالية ومرتبة سامية . فاخضل روض الأمل بعد ذبوله ، وبزغ كوكبه بعد أفوله ، واتسع نطاقه واستبشر القلب بنيل أمنيته والحصول على طلبته . واشتد أزرى على مقارعة كتائب الزمان ، وقوى جنانى على صد جيوش الحدثان . وما زالت بى الأيام حتى حان أول العام وما تحقق الوعد أو أوفى العهد . ومثل السيد من إذا وعد وفى أو تعهد أوفى . ومولاى يعلم أن صاحب الحاجة سيئ الظن بالأيام مريض الثقة بالأنام ، فداخلتنى لذلك الظنون وأسلمت خاطرى الهواجس . وعاد الدهر مغضبًا يقارعنى بسيفين ويطاعننى برمحين كأنما يقتص منى جزاء ما جنته يداى من إثم إلا استظهر عليه . وأسلمتنى زرق الخطوب وتغشتنى سود النوب وأحدقت بى حمر الكرب . وصبت علىّ صروف الدهر فصرت إلى حال لا يحلو ، وأنزلت إلى عذاب لا يعذب ، وألجأنى صفر اليدين إلى ركوب متن الدين . فصار العناء سميرى والشقاء نجيى والغموم لزامى والهموم ندامى وقرارة الأكدار مقامى . حتى تخيلت أن المنون إلىّ بالمرصاد ، فخفت المصار إلى دار القرار قبل بلوغ الأوطار :

أفي دين ذى المعروف يجمل أننى تنوء بى البؤسى وينقلنى العسر
وأنت الذى أعطى المكارم حقها ولم يحك جدواك السحاب ولا البحر
فعجل فخير البر يحمد عاجلا وأوف فوعد الحر دين به الحرّ

هذا ولكنى رجعت وحكمت العقل فعذرت السيد . وحملت ذلك على أنه إنما لم يعجل بإنجاز وعده وإيفاء عهده إلا لتقليد عبده وظيفة أسمى ومرتبة أعلى . وأرشدنى مرشد الحجا أن أمثل تلك الرسالة بين يدى حضرته وأوفدها على محلته علّ مولاى يستدرك ما فات ويحسن إلى عبده فيما هو آت . فإن شاء أن لا يرد طرف هذا الأمل كليلاً وصحيحه عليلاً . عجل لعبده من البر ما يسترق به فؤاده ، ويمتلك به قلبه فملأت بشكره ما بين الخافقين ، وأسمعت حمده المشرقين وأذعته فى البر والبحر وتابعته فى السر والجهر . وإن يجد لى سبيلاً فى التوصل إلى إحدى الطلبتين وتحقيق إحدى الأمنيتين ، رجوته التعجيل بإخبارى فاليأس إحدى الراحتين ، ورغبت منه التصريح فذلك مما يريح" .

٧٦ - ومن ذلك ما كتبه الفاضل عبد العزيز أفندى محمد فى التقاضى :

عهدى بالسيد الجليل أدامه الله مدراً للمكارم تشتق منه صفاتها ومظهراً للفضائل تتجلى فيه آياتها ، سباقًا إلى غايات المجد دراكًا لمطالب الحمد ، أريحيا لا يصبو إلا إلى إسداء المنن ، جواداً لا يطمع طرفه فى بث عوارفه إلى ثمن . ما أمه أسير فاقة إلا وألفى لديه كهفًا منيعًا وجاهًا رفيعًا وجنابًا مريعًا ، وما قصده ذو حاجة إلا وصدر عن مورد فضله شادياً بثنائه ، معلنًا بولائه . فلا هم له إلا ارتياد مواقع النعم ، وافتقاد متعلقات الهمم . وإن لى إلى السيد حاجة إن لم يسعف بقضائها فياحسرة نفسى وطول شقائها . وليست هذه بأول كرة استمحت فيها عالى مروءته واستمطرت صيب همته ، فإنه طالما طوقنى قلائد نعمه ، وأرسل علىّ مدرار كرمه . فليجر فى هذه أيضًا على عادته ويقابلنى بما عودنى من كرامته . ومعاذ الله أن أسأله ما ليس فى وسعه أو أن أستقضيه شيئًا يحرص على منعه ولكننى :

أريد بسطة كف أستعين بها على قضاء حقوق للعلا قبلى

والذى يكفل لى تلك البسطة ، أن يقلدنى سيدى وظيفة مناسبة لحالتى ، حتى تكون لى درعًا أتقى به مهانة الفقر وسيفًا أكف به عوادى الدهر . وما لى والأقسام فى إنالتى هذه البغية بنفيس وقت قضيته فى خدمة العلم واقتناء أبكاره وطويل عناء تحملته فى مزاولة الأدب واكتشاف أسراره . ونفس ارتاضت بالفضل وآثرت غصة الفقر على منة البذل . وله من سنيات الفضائل وعليات الفواضل وجليات المآثر وجليلات المفاخر ما لو أقسم به عليه فى إنالة أعز المطالب لألزمه كرم سجاياه بر ذلك القسم ، وإجابة دواعى الهمم . فها أنا ذا أقسم على سيدى بهذه الشيم الباهرات ، وتلك الأخلاق الطاهرات أن يغرس عندى هذه الصنيعة فقد وجد لها مكانًا ، وأن يسدينى تلك المنة حتى لا آلوها شكرانًا وإلا فرأيه فى ذلك مسدد إن شاء الله .

٧٧ – ومن ذلك ما كتبه الفاضل حسين أفندى توفيق فى التقاضى :

كتابى إلى رب النعماء ، واليد البيضاء . وقد أصبحت كما قال الحريرى "خاوى الوفاض بادى الأنفاض لا أملك بلغة ولا أجد فى جرابى مضغة" . قد التوى علىَّ أمرى وثقل من حاجتى ظهرى . مد الاحتياج علىَّ أطنابه وسربلنى الافتقار إهابه . والدنيا مكدرة بأحداثها وقصورها منغصة بأجداثها ، نعيمها يضفو ولكن لا يصفو . وأنت كما أعلم مفرج كربتى ، ومنقذى من شدتى بطرفة عن طرف رفدك ، ولمحة من لمحات برك . فإن استدررت حلوبة مالك ، فقد لاذ غيرى بجاهك . ما يممت غيرك ، وكيف يقصد النهر من جاوز البحر ، ويحتاج إلى النجم من يسرى فى ضوء البدر . فأستهز عطف جودك وأستمطر سحاب كرمك . كيف وأنت قبلة المعروف وملاذ الملهوف . إليك تشد الرحال وبك تناط الآمال . أولياؤك منك فى ظل ممدود وهناء وسعود . أفأنت الشمس عمت بالإشراق أو الغيث والى الاندفاق لكن :

من قاس جدواك يومًا بالسحب أخطأ مدحك
فالسحب تعطى وتبكى وأنت تعطى وتضحك

نسب الكرم بك عريق . وروض المجد أنيق . أصل راسخ وفرع شامخ . تهتز المكارم اعتزاز الحسام ، وتثبت أمام الشدائد بثغر بسام :

تراه إذا ما جئته متهللا كأنك تعطيه الذى أنت سائله

حكمت الآمال فى أموالك . واستعبدت الأحرار بفعالك ، ينابيع الجود من أناملك تنفجر ، وربيع السماح بك ضاحك لا يضجر . فلازلت مولاى ممتعاً بشرف سجاياك وشيمك مستمداً الشكر من غراس نعمك ، ولازالت الأنام تنتفع بتلك الشيم وتجنى ثمار ذلك الكرم . ودمت للمكارم بدر تم لا يناله خسوف ، وشمس فضل لا يلحقها كسوف . أطال الله لك البقاء كتطول يديك بالعطاء . آمين .

الأمثال السائرة

مما يعنى به الأديب من كلام العرب الأمثال السائرة المأثورة عنهم ، فإنها كما قال الزمخشرى : "قصارى فصاحة العرب العرباء ، وجوامع كلمها ، ونوادر حكمها ، وبيضة نطقها وزبدة بلاغتها ، التى أعربت عن القرائح السليمة ، والركن البديع إلى ذرابة اللسان ، وغرابة اللسن . حيث أوجزت اللفظ فأشبعت المعنى وقصرت العبارة فأطالت المغزى ، ولوحت فأغرقت فى التصريح ، وكنت فأغنت عن الإفصاح بله الاستظهار بمكانها ، والتمنع بجانبها عند الانتظام فى سلك التذاكر ، وإفاضة أزلام التناظر . وتذاوق بعض أهل الأدب بعضها ، وإنها للمحافل إذا حوضر بها بهاء وللأفاضل متى أوردوها أبهة . وللنثر أنىٍّ سلكت أثناءه طلاوة ، وللشعر كيف انساقت فى تضاعيفه متانة" .

منها : ألبس لكل حالة لبوسها ، إما نعيمها وإما بؤسها . إن البغاث بأرضنا يستنسر . إن كنت ريحا فقد لاقيت إعصارا . إياك أعنى واسمعى يا جارة . بلغ السيل الزبى . بكل واد أثر من ثعلبه . تجوع الحرة ولا تأكل بثديها . تقطع أعناق الرجال المطامع . ثار حابلهم على نابلهم . أحشفاً وسوء كيلة . الخلة تدعو إلى السلة .

يخبط خبط عشواء . دون ذلك خرط القتاد . رجع بخفى حنين . الصيف ضيعت اللبن . تسمع بالمعيدى خير من أن تراه . أنجز حر ما وعد . رمتنى بدائها وانسلت . حسبك من شر سماعه . حسبك من القلادة ما أحاط بالعنق . لا أطلب أثرًا بعد عين . لا يحزنك دم هراقه أهله . اليوم خمر وغدًا أمر . على أهلها تجنى براقش . شنشنة أعرفها من أخزم . ضغث على إبالة . ألق دلوك فى الدلاء . كل فتاة بأبيها معجبة . أنف فى السماء واست فى الماء . كالقابض على الماء . عند جهينة الخبر اليقين . لا تعدم الحسناء ذمًا . ألزم للمرء من ظله . يا عاقدًا اذكر حلاً . قطعت جهيزة قول كل خطيب .

وقد جرت أى من القرآن الكريم مجرى الأمثال ، منها : قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى . لن تنالوا البرحتى تنفقوا مما تحبون . ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله . لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم . وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئًا وهو شر لكم . كل نفس بما كسبت رهينة . ما على المحسنين من سبيل . كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة . ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار . تحسبهم جميعًا وقلوبهم شتى . ولا ينبئك مثل خبير . كل حزب بما لديهم فرحون . لا يستوى الخبيث والطيب . ولا تزر وازرة وزر أخرى . من يعمل سوأ يجز به . ولا تبخسوا الناس أشياءهم .

وكذا أحاديث نبوية . منها : إذا لم تستح فاصنع ما شئت . لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين . دع ما يريبك إلى ما لا يريبك . إياك وكل أمر يعتذر منه . الحكمة ضالة المؤمن . إن من البيان لسحرًا . إن المنبت لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى .

ومن كلام أبى بكر : إن البلاء موكل بالمنطق . ومن كلام على : المنية ولا الدنية . المرء مخبوء تحت لسانه . قيمة كل امرئ ما يحسن .

وكذا جرت أبيات وشطور من الشعر مجرى الأمثال . فمن ذلك قول طرفة بن العبد فى معلقته :

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة ... على المرء من وقع الحسام المهند

إذا أنت لم تنفع بودك أهله ... ولم تُنْكِ بالبؤسى عدوك فابعد

لعمرك ما الأيام إلا معارة ... فما اسطعت من أيامها فتزوّد

ولا خير فى خير ترى الشر دونه ... ولا نائل يأتيك بعد التلدد

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلاً ... ويأتيك بالأخبار من لم تزود

ويأتيك بالأخبار من لم تبع له ... بتاتًا ولم تضرب له وقت موعد

وقول زهير بن أبى سلمى فى معلقته :

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب ... تمته ومن تخطئ يعمر فيهرم

ومن لم يصانع فى أمور كثيرة ... يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله ... على قومه يستغن عنه ويذمم

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ... وإن يرق أسباب السماء بسلم

ومن يجعل المعروف فى غير أهله ... يكن حمده ذمًا عليه ويندم

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه ... يهدم ومن لا يَظْلِم الناس يُظْلَم

ومن يغترب يحسب عدواً صديقه ... ومن لا يكرم نفسه لا يكرم

مهما يكن عند امرئ من خليقة ... وإن خالها تخفى على الناس تعلم

وإن سفاه الشيخ لا حلم عنده ... وإن الفتى بعد السفاهة يحلم

وقول الشنفرى فى لامتيه :

لعمرك ما فى الأرض ضيق على امرئ ... سرى راغبا أو راهبا أو هو يعقل

وإن مدت الأيدى إلى الزاد لم أكن ... بأعجلهم إذ أجشع القوم أعجل

وقول ابن دريد فى مقصورته :

من ظلم الناس تحاموا ظلمه ... وعز عنهم جانباه واحتمى
وهم لمن لان لهم جانبه ... أظلم من حيات أنباث السفا
عبيد ذى المال وإن لم يطمعوا ... من غمرة فى جرعة تشفى الصدى
وهم لمن أملق أعداء وإن ... شاركهم فيما أفاد وحوى
من لم يعظه الدهر لم ينفعه ما ... راح به الواعظ يومًا أو غدا
من لم تفده عبرًا أيامه ... كان العمى أولى به من الهدى
من قاس من لم يره بما يرى ... أراه ما يدنو إليه ما نأى
من عطف النفس على مكروهها ... كان الغنى قرينه حيث انتوي
وإنما المرء حديث بعده ... فكن حديثًا حسنًا لمن وعى
وآفة العقل الهوى فمن علا ... على هواه عقله فقد نجا

وقول المتنبى :

وإذا كانت النفوس كبارًا ... تعبت فى مرادها الأجسام
يراد من القلب نسيانكم ... وتأبى الطباع على الناقل
ومن صحب الدنيا طويلاً تقلبت ... على عينه حتى يرى صدقها كذبا
خذ ما تراه ودع شيئًا سمعت به ... فى طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل
لعل عتبك محمود عواقبه ... فربما صحت الأجسام بالعلل
لأن حلمك حلم لا تكلفه ... ليس التكحل فى العينين كالكحل

وما الحسن فى وجه الفتى شرف له | إذا لم يكن فى فعله والخلائق
يهون علينا أن تصاب جسومنا | وتسلم أعراض لنا وعقول
ومن ينفق الساعات فى جمع ماله | مخافة فقر فالذى فعل الفقر
إذا الجود لم يرزق خلاصًا من الأذى | فلا الحمد مكسوبًا ولا المال باقيا
لمن تطلب الدنيا إذا لم ترد بها | سرور محب أو إساءة مجرم
وأظلم أهل الظلم من بات حاسدًا | لمن بات فى نعمائه يتقلب
لا تلق دهرك إلا غير مكترث | ما دام يصحب فيه روحك البدن
فما يديم سرورًا ما سررت به | ولا يرد عليك الفائت الحزن
وإذا لم يكن من الموت بد | فمن العجز أن تكون جبانا
إنا لفى زمن ترك القبيح به | من أكثر الناس إحسان وإجمال
لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى | حتى يراق على جوانبه الدم
ومن العداوة ما ينالك نفعه | ومن المودة ما يضر ويؤلم
والظلم من شيم النفوس فإن تجد | ذا عفة فلعله لا يظلم
من يهن يسهل الهوان عليه | ما لجرح بميت إيلام
أفاضل الناس أغراض لذا الزمن | يخلو من الهم أخلاهم من الفطن
وليس يصح فى الأذهان شىء | إذا احتاج النهار إلى دليل
وفى الناس من يرضى بميسور عيشه | ومركوبه رجلاه والثوب جلده
ومن جهلت نفسه قدره | رأى غيره منه ما لا يرى

وقد عنى كثير من الأدباء بجمع أمثال العرب وتدوينها . وأشهرهم أبو الفضل أحمد الميدانى النيسابورى المتوفى سنة ٥١٨ للهجرة . فإنه جمع فى كتاب سماه "مجمع الأمثال" ما ينيف عن ستة آلاف مثل ، بعضها جاهلى وبعضها إسلامى والبعض مولد . ورتبها على حروف المعجم وذكر قصص وأسباب هذه الأمثال . وهو كتاب جيد فى بابه ، وقد طبع سنة ١٢٨٤ بدار الطباعة ببولاق . وألف أبو القاسم محمود الزمخشري المتوفى سنة ٥٢٨ كتاب "المستقصى فى أمثال العرب" . ويروى أنه ندم على تأليفه لما وقع له كتاب مجمع الأمثال للميدانى ، ورآه يفوق كتابه فى حسن التأليف والوضع وبسط العبارة وكثرة الفوائد . وفى المكتبة الخديوية نسخة من المستقصى مكتوبة بالقلم سنة ١١١٢ .

الفصل الرابع

فيما اشتهر من كتب الإنشاء

من أقدم ما كتب فى صناعة الإنشاء كتاب "الصناعتين" ، أى صناعتى النثر والنظم لأبى هلال العسكري المتوفى سنة ٣٩٥ . وقد رتبه على عشرة أبواب ، الأول فى البلاغة ، والثانى فى تمييز جيد الكلام من رديئه ، والثالث فى معرفة صنعة الكلام ، والرابع فى البيان مع حسن السبك وجوده الرصف ، والخامس فى الإيجاز والإطناب ، والسادس فى حسن الأخذ وقبحه وجودته ورداءته ، والسابع فى التشبيه ، والثامن فى السجع والازدواج ، والتاسع فى البديع ، والعاشر فى مقاطع الكلام ومباديه .

وألف ضياء الدين أبو الفتح نصر الله الموصلى المتوفى سنة ٧٣٧ كتاب "المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر" . قال فى خطبته : إن علم البيان لتأليف النظم والنثر بمنزلة أصول الفقه للأحكام . وقد ألف الناس فيه كتبًا وجلبوا ذهبًا وحطبًا ، وما من تأليف إلا وقد تصفحت شينه وسينه ، وعلمت غثه وسمينه . فلم أجد ما ينتفع به فى ذلك إلا كتاب الموازنة لأبى القاسم الحسن بن بشر الآمدى ، وكتاب سر الفصاحة لأبى محمد عبد الله بن سنان الخفاجى . إلا أن كلا الكتابين قد أهملا من هذا العلم أبوابًا ، ولربما ذكرا فى بعض المواضع قشوراً وتركا لبابًا .. وهدانى الله لابتداع أشياء لم تكن من قبلى مبتدعة . وقد بنيته على مقدمة ومقالتين ، فالمقدمة تشتمل على أصول علم البيان ، والمقالتان تشتملان على فروعه . فالأولى فى الصناعة اللفظية ، والثانية فى الصناعة المعنوية" . وقد طبع سنة ١٢٨٢ بمطبعة بولاق . وقد اختصره فى كتاب أضاف إليه الرسائل والتقليدات والمكاتبات والمقاطيع المستحسنة . ويوجد هذا

المختصر فى المكتبة الخديوية . وشرح المثل أبو منصور الجواليقى وابن أبى الحديد ، وسمى شرحه الفلك الدائر على المثل السائر . ورد عليه أبو القاسم محمود السنجارى المتوفى سنة ٦٤٠ فى كتاب سماه نشر المثل السائر وطى الفلك الدائر . وصنف خليل بن أيبك الصفدى كتاباً سماه نصر الثائر على المثل السائر . قال فى خطبته : "إن ابن أبى الحديد أورد مؤخذات على صاحب المثل ، ووجدته قد أغفل كثيراً ، وأخذ قليلاً . فأحببت أن اتتبع مواضع المؤخذات التى تركها"(*) .

وألف محمود بن سليمان الحلبى المتوفى سنة ٥٢٧ كتاب "حسن التوسل إلى صناعة الترسل" . قال

فى خطبته : "لما جعل الله لى فى كتابة الإنشاء رزقًا باشرت بسببه من وظائفها ما باشرت ، وعاشرت من أجله من أكابر أهلها وأئمتها من عاشرت ، ورأيت من مذاهبهم فى أساليبها من رأيت ، ورويت عنهم من قواعدها بالمجاورة والمحاورة ما رويت ، واطلعت بكثرة المباشرة على طرائق ، وألجئت فيها باختلاف الوقائع إلى مضائق أى مضائق . ونشأ لى من الولد وولد الولد من عاناها . وترشح لها من بنى من لم أرض له بالتلبس بصورتها دون التحلى بمعناها . فأحببت أن أضع لهم ولمن يرغب فى ذلك فى هذه الأوراق من فصولها قواعد ، وأقيم لهم فيها على ما لم يسع الجهل به من أصولها وفروعها شواهد ، ليأتوا هذه الصناعة من أبوابها ، ويعلموا من طرقها ما هو الأخص بأوضاعها والأولى بها" .

وألف أبو العباس أحمد القلقشندى نزيل القاهرة المتوفى ٨٢١ كتاب "صبح الأعشى فى كتابة الإنشا" . وهو كتاب جليل فى بابه إلا أنه لم يطبع ، والنسخة التى بالمكتبة الخديوية ناقصة بعض أجزاء . وفى الجزء الرابع منه مكاتبات عن ملوك مصر . وفى الخامس مقاصد المكاتبات الإخوانيات ، وما يكتب به الرئيس إلى المرؤس ، والمرؤس إلى الرئيس ، والنظير إلى النظير . وفى السادس ما يكتب من الولايات عن الملوك . وقد اختصره فى كتاب سماه ضوء الصبح المسفر وجنى الدوح المثمر . وقد

---

(١) لم يرد التنصيص فى الأصل (المحرر) .

ألف الفاضل سعيد أفندى الحورى الشرتونى كتاباً مفيداً سماه الشهاب الثاقب فى صناعة الكاتب طبع فى بيروت ١٨٨٤ .

وقد ألفت سنة ١٣٠٦ كتاباً فى الإنشاء النظرى تكلمت فيه على التفكر فى الموضوع والكتابة فيه ، وأدرجت فى هذه ستة فصول ، الأول فى صحة الألفاظ ، والثانى فى تخير الألفاظ ، والثالث فى موافقة اللفظ موضعه ، والرابع فى بلاغة الكلام ، والخامس فى متانة السياق ، والسادس فى عيوب الكلام ، وبعد هذه الفصول ذكرت طرق تعليم الإنشاء فى المدارس الابتدائية والتجهيزية والعالية ، وقد طبع هذا الكتاب سنة ١٣٠٦ بمطبعة بولاق الأميرية ، وقرظه عدة من الأفاضل منها ما كتبه صديقنا الفاضل حفنى بك ناصف فقال :

أى عذر بعد هذا الكتاب	لعرى عن حلية الكتاب
بان وجه الإنشاء فيه ولم يبـ	ـق عسيراً سلوك نهج الصواب
حل بيت الأسماع من غير إذن	وأتى للقلوب من كل باب
ليت شعرى هل يبتغى بعد هذا	بينات على انتصار دياب

إلى هنا انتهى ما أردنا إيراده فى هذا الكتاب ، والحمد لله على التمام ، وكان ذلك فى ١٩ شوال سنة ١٣١٤ للهجرة .

محمد دياب

المفتش بنظارة المعارف العمومية

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٤٥٣٤ / ٢٠٠٣

لوحة الغلاف للفنان عوض الشيمى

إن فكرة الإحياء الأدبى والنقدى ليست مقطوعة الصلة بسؤال النهضة ، فهى جزء أساسى من هذا السؤال ، وهى فكرة - من غير شك - تتعانق وتتجاوب مع أفكار أخرى مثل فكرة الإصلاح الدينى والسياسى ، أو فكرة تحرير المرأة ، أو فكرة إصلاح التعليم والقضاء على الأمية ، أو فكرة القضاء على الفقر ومحاربة الاستعمار والبحث عن الاستقلال . إن ما يجمع هذه الأفكار هو البحث عن عملية النهوض بالأمة على كافة المستويات فى تلك الفترة . وهذا الكتاب لمحمد بك دياب من المحاولات العلمية الرائدة لكتابة تاريخ آداب العربية ، واستعادة مجد اللغة بما أوتى المؤلف من آليات تتماشى وتوجهات العصر الأدبية والفكرية والمنهجية .



